

جمهورية السودان
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أم درمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

الحياة العلمية في دولة الممالك البحرية

٦٤٨ - ٧٨٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م

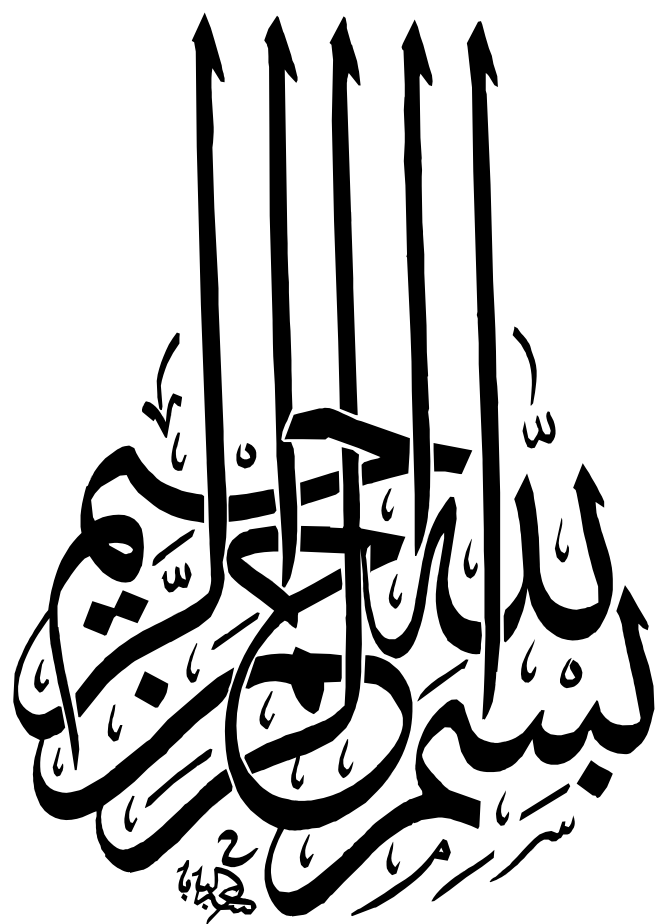
بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ الإسلامي

إشراف

إعداد الطالب

مجاهد محمد سعيد أ.د/عبد القادر عثمان محمد

العام ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م



الإهداء

إلى أسرتي الصغيرة والكبيرة.

إلى وطني الذي بين الجوانح والضلوع.

إلى كل أساتذتي الذين تتلمذت عليهم.

إلى الذين لم أتتلمذ عليهم ولكنهم علموني.

إلى كل أصدقائي الأوفياء وزملائي الأعزاء.

إلى جامعة الأصالة والمعاصرة والتميز.

إلى أمي الحبيبة.



قال تعالى:-

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ
الزَّاهِدِينَ* وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِّصْرَ لِمَرْأَتِهِ
أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يوسف: الآيات ٢٠- ٢١

شكر وتقدير

كنت كلما خبت جذوة نشاطي وازدادت عوارض الشاغلـات عندي بالانصراف، جاءني أخوة مشفقون أفاضل مخلصون، أشعلوا في نفسي شعلة النشاط، وأودعوني من الهمم ماحرك ساكني، وأقلق منامي، وبما أني أعرف بنفسـي ممن سواي بما أنا عليه من القصور والتقصير، كنت أحمل قلماً وأضع آخر وأغلق كتاباً لأفتح آخر، إلا أنهم ما فتئوا يحثونني على البحث، ويستنهضون همتي إليه، فاستجيب تارة وأنشغل أخرى؛ بيد أنني لم يكن لي مندوحة عن امتثال ما ينتدبني إليه أساتذتي، وما يعثورني من ألم الشعور بالتقصير، والإفراط في التسويف والتبرير، فنبتـهتُ حامل همتي، وحركت خـامد عـزيمتي، وشرعت في إنجاز هذا البحث فاعتمدت على الله ويممت صوب القاهرة.

وإنني أتقدم بالشكر أجـزله لكل من وقف بجانبـي مؤازراً ومشجعاً ومعيناً، وأخص بالشكر والدي الذي أحسبه الآن فخوراً بهذا الانجاز الذي ظل يحثني عليه كل يوم، وزوجتي العزيزة التي وفرت لي كل سبل الراحة لانجز هذا العمل، والشكر يمتد للبروفسير حسن عباس حسن مدير الجامعة وللإخوة الأعزاء في مكتب مدير الجامعة وعلى رأسهم الدكتور موسى أحمد آدم الذين وقفوا بجانبـي، كما لا يفوتني أن أشكر الأستاذ هاشم الإمام الذي راجع ترجمة المـلـستـخـص وصوبها، وأخيراً أشكر من تتقاصر الكلمات عن تقديره وتصمت المعاني الجليـله في حضرته - فقد صبر ووجه وقرأ وأعاد القراءة ولم يتوان في مساندتي وتوجيهي ونصحي- أسـتـاذي الفاضـل الأسـتـاذ الدكتور عبد القادر عثمان جاد الرب- المشرف على هذا البحث جزاه الله عني خير الجزاء وأشكر في شخصه كلية الآداب فهو عميدها وربان سفينتها، والشكر يمتد للأخوة في جامعة أم درمان الإسلامية وجامعة القاهرة والدار القومية للوثائق والمخطوطات بالقاهرة الذين لم ييـخلوا عليّ بالمادة العلمية، وبالرأي. والشكر والتقدير موصولاً لعضوي لجنة المناقشه.

المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿لِنَمَايَحُشَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ﴾^(١) والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم القائل: (العلماء ورثة الأنبياء)^(٢).

لقد بذل علماء هذه الأمة في عصر المماليك وسعهم، ونشروا علمهم، فلم يكتموا وتركوا لنا إرثاً ذاخراً وصنعوا تاريخاً ناصعاً استوجب منا مزيداً من البحث والدراسة والتقويم؛ لنقل نماذج حية للأجيال القادمة؛ لاقتفاء أثرهم والاقتداء بسيرتهم، والرد على المغرضين من أعداء الأمة ممن وصف تاريخ تلك الحقبة بأنه لم يتجاوز كونه مجرد سير وتراجم، وحكام وأمرأ، محاولاً تجريده من سماته الحقيقية.

كما يعتبر عصر سلاطين المماليك من أغنى عصور مصر من ناحية المصادر والمراجع، فقد حفل بكثير من فروع المعرفة في شتى الميادين، نظراً لأن مصر في عصر المماليك كانت مركزاً للعالم الإسلامي، ولا سيما بعد أن انتقلت إليها الخلافة العباسية من بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، على يد الظاهر بيبرس^(٣)، وكان المستنصر أبو القاسم بن الخليفة الظاهر أول خليفة عباسي بمصر؛ وبانتقاله حلت القاهرة محل بغداد، وصارت معقلاً للحياة الثقافية والسياسية والدينية، وذخرت بعدد كبير من العلماء على اختلاف تخصصهم. وكثير من مصادر ومراجع العصر المملوكي لا يزال مخطوطاً وفي حاجة إلى نشر علمي صحيح. وهو من أزهى العصور في التاريخ القومي المصري بصرف النظر عن جنسية أو طبقة

(١) فاطر: الآية، ٢٨.

(٢) من حديث عاصم عن ابن كثير بن قيس قال: كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل فقال يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جئت لحاجة؛ قال فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم....)). رواه أبو داود، رقم ٣٥٤١ والترمذي في صحيحه، رقم ٢٦٨٢.

(٣) الفلقسندي، أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ / ١٤٢١م: صبح الأعشي في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن المطبعة الأميرية، بلا تاريخ، ج ١٤، ص ٤٤٢.

الحكام الذين صنعوه. وقد كانت الدولة المملوكية التي يؤرخ لقيامها من نهاية الأسرة الأيوبية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، إلى استيلاء السلطان سليم الأول العثماني على مصر ٩٢٣هـ/١٥١٧م، من أقوى الدول في ذلك الوقت؛ عسكرياً واقتصادياً وعلمياً، لقوة حكامها وسلاطينها، مثل قطز وبيبرس وقلاوون والناصر محمد بن قلاوون وقايتباي^(١) وقد عمل أمثال هؤلاء السلاطين الأقوياء على تقوية السلطنة ومدوا نفوذها. وما سيتطرق إليه هذا البحث يمتد من الفترة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م إلى ٧٨٣هـ/١٣٨٢م فترة عصر المماليك البحرية. وقد كان لدولتهم أهمية كبرى في تاريخ العالم الإسلامي لأنها استطاعت أن تتصدى للخطر المغولي الذي حطم بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ووصلت موجة المد المغولي إلى فلسطين في محاولة للاستيلاء عليها، والزحف منها إلى مصر إلا أن سلاطين المماليك تصدوا لهم وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة في عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م^(٢)، ووقتها لم تنزل دولة المماليك في طور النمو. وكان لهذا النصر أهميته الكبرى؛ لأنه أنقذ المدن الإسلامية والشرق الإسلامي من الدمار على يد المغول. كذلك استطاع المماليك ومن قبلهم الأيوبيون وهم أساتذة المماليك وأسيادهم استطاعوا أن يكافحوا خطر الصليبيين والاستعمار الغربي الذي تستر تحت اسم الدين، بل أن الفضل يرجع إلى سلاطين المماليك في القضاء النهائي على الصليبيين بالشرق الإسلامي. وحفظت القاهرة ما تبقى من العلوم الإسلامية والمدنية الإسلامية بعد كارثة المغول، وأضافت إليها بفضل ما صار إليه مركزها من تطور وازدهار بعد قيام الخلافة العباسية فيها، وتشجيع سلاطين المماليك للعلماء والأدباء حتى صار بلاط المماليك مركزاً للعلماء وأصحاب الفنون من شتى بلاد أرض الإسلام. وبرز عدد كبير من العلماء في عصر المماليك، ومن هؤلاء العلماء: العمري والسبكي وابن خلدون وابن دقماق والقلقشندي والمقريزي والسيوطي وابن قياسي وابن تغري بردي والنويري وغيرهم، وستأتي تفاصيل حياتهم واسهاماتهم العلمية خلال فصول هذا البحث.

إن ما كتبه هؤلاء العلماء في أحوال مصر والشرق الأوسط في عصر المماليك يعتبر المصدر الأصلي لدراسة أحوال الفترة، كذلك ساهم أولئك العلماء في ميادين العلم الأخرى من فقه وتفسير ولغة وأدب فضلاً عما دونوه من نظم وأخبار عامة عن الحياة الاقتصادية

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ج ١٤، ص ٤٤٥.

(٢) حبيبة، علي حسن (دكتور): الحروب الصليبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٩م، ص ١٣٨-١٣٩.

والسياسية والاجتماعية مما لا يوجد له مثيل في المصادر الأخرى، وعن هؤلاء العلماء أخذ جميع من اهتموا بالكتابة في عصر المماليك.

أ- **أسباب اختيار الموضوع:** وقع اختاري لهذا الموضوع لعدة أسباب أذكر منها:

أولاً: تقديم صورة واضحة عن الحياة العلمية بمختلف جوانبها وأهمية مخرجاتها في دولة المماليك البحرية.

ثانياً: دور العلم في الإصلاح والتغيير وبيان مكانة العلماء وأثرهم في الحياة.

ثالثاً: ربط الحاضر والمستقبل بالتراث والحضارة الإسلامية في محاولة لوضع لبنة في بناء صرح (إحياء التراث الإسلامي) بإلقاء الضوء على فترة تاريخية شابتها كثير من الضبابية والتحريف.

رابعاً: نعت الانتباه إلى مرحلة أحاطت قوى الاستكبار من صليبيين ومغول بالأمة الإسلامية حتى سقطت عاصمة الخلافة في بغداد كما سقطت الآن، فضلاً عن حالة التآكل والتمزق والتنازع التي تفتك بنسيج الأمة الاجتماعي وما يخلفه من ضعف وهوان وركون للواقع.

خامساً: قلة الدراسات عن الجوانب العلمية لدولة المماليك، ويرجع ذلك إلى أن الباحثين في أغلبهم تطرقوا للجوانب السياسية، ومن خلالها جاءت بعض إشارات عن الجوانب العلمية، ولكن لم تفرد دراسة متكاملة عن الحياة العلمية، ولعل أهم تلك الدراسات ماكتبه عبد اللطيف حمزه عن الحركة الفكرية في مصر العصريين الأيوبي والمملوكي الأول، وهناك بعض الكتابات التي ألقت الضوء على علماء المرحلة، وإن جاءت في سياق التعريف بهم والترجمة لهم، ولكنها لا ترقى بأن تكون دراسة علمية متعمقة تعكس كل أوجه النشاط العلمي لحقبة زمنية غنية بعلمائها ونتائجهم الفكري.

سادساً: التحول الكبير الذي شهده مطلع عصر المماليك

شهد مطلع عصر المماليك حدثاً مهماً وهو انتقال عاصمة الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة وصاحب هذا الانتقال رحيل عدد من العلماء والمفكرين، إلى مصر، مما جعلها معقلاً للحراك الثقافي والعلمي والديني، الأمر الذي استوجب مزيداً من البحث والدراسة.

سابعاً: ازدهار خزانات الكتب

تميزت هذه الفترة بوجود عدد كبير من خزانات الكتب والمصادر التي تضمنت عشرات المجلدات والموسوعات العلمية، لتحل محل ما دمره التتار من الإرث العلمي الكبير في بغداد وغيرها.

ثامناً: تميز العلماء، ازدانت هذه الفترة بعلماء أثروا عصرهم علماً وفناً وبرز عدد كبير منهم في المجالات المختلفة كالطب وعلومه والتأريخ والجغرافيا والفلك والعلوم الدينية والأدبية وغيرها.

تاسعاً: آراء بعض المؤرخين والمستشرقين، الرد على افتراءات بعض المؤرخين والباحثين وخاصة المستشرقين منهم الذين وصفوا عصر المماليك بالإنحطاط الفكري والجمود الأدبي، وتبيان خطأ زعمهم وزيف اعتقادهم.

ب- المشكلة المحورية للموضوع:

تتلخص الإشكالية المحورية لهذا الموضوع في الإجابة عن الأسئلة الآتية: - ماهي الأسباب الكامنة وراء اهتمام المماليك بالعلوم على الرغم من أنهم أعاجم؟، وما هي أهم العلوم التي ازدهرت في عصرهم؟ وهل كان لها دور في تطوير مؤسسات الدولة والحياة الاجتماعية بصفة عامة؟. ما هي الأسباب التي أدت إلى ذبوع النشاط العلمي بدولة المماليك البحرية؟ وماهي الدوافع التي جعلت القاهرة تحل محل بغداد وتصبح وجهة العلماء وطلاب العلم؟. ولماذا كانت فترة المماليك البحرية من أغنى فترات التاريخ وأكثرها ازدهاراً بالعلم والمعرفة؟.

ج- الصعوبات التي واجهت الباحث

لقد واجهت الباحث كثير من الصعوبات والمشاق في سبيل الحصول علي الماده المطلوبه وتصنيفها، نسبة لعدم تعرض المؤرخين بصورة مباشرة للحياة العلمية، اذ اقتصر تناولهم على الجوانب السياسية والعسكرية والإقتصادية وكانت الجوانب العلمية متفرقة في متون كتبهم، تأتي في سياق الحديث عن الأمور السياسية، في شكل إشارات لما يقوم به السلاطين؛ في هذه الجوانب، كما أن الحصول على ترجمة أسماء كثير من الأعلام الوارد ذكرهم في متن الرسالة، مثل صعوبة بالغة، حيث اضطر الباحث لاستشارة عدد كبير من كتب التراجم،

ومكث لفترات طويلة منقباً في متونها للعثور على الترجمة المطلوبة، ولقد كان للدراسة الميدانية التي قام بها الباحث في جامعة القاهرة ومعهد البحوث والدراسات العربية وجامعة الأزهر الشريف وغيرها من الجامعات والمكتبات العامة والخاصة، بجمهورية مصر العربية، بتوفيق من الله سبحانه وتعالى أولاً، ودعم من إدارة التدريب بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، دور كبير في تذليل هذه المصاعب، إذ تمكنت من الحصول على عدد كبير من المصادر والمراجع والمعلومات والدراسات والوثائق والمخطوطات التي لها صلة بموضوع البحث، كما قابلت عدداً من الباحثين والأساتذة المختصين في المجال. ولا يظن ظان أنني بذكر هذه الصعوبات استعطف الناقد أو أعطي فكرة مبالغ فيها عن الجهد الذي بذلته، ولكني ألتمس سعة صدره فيما عسى أن يظنه موضعاً للنقد.

د- نطاق البحث وزمانه:

يتناول البحث الحياة العلمية في عصر المماليك البحرية في مصر والشام وفيه اشارات عابرة عن الحرمين الشريفين باعتبارهما تابعين لحكم المماليك. ولكن تركيز البحث انصب في جله على القاهرة باعتبارها عاصمة السلطنة، وفيها تركز نشاط العلماء. أما زمان البحث، فانحصر في الفترة الممتدة من ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م / ٧٨٤هـ - ١٣٨٤م، مع تجاوز قليل لهذا التاريخ أملاه امتداد حياة بعض العلماء وتداخل حكم المماليك البحرية مع الشراكسة لأنهم امتداداً لهم.

هـ/منهج الأطروحة:

المنهج هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة الأفكار سواء من أجل الكشف عن الحقيقة حين لا تكون معلومة لدينا أو من أجل البرهنة عليها للآخرين وإثباتها بجوانبها المختلفة وبالطريقة العلمية لهم حين نكون على معرفة وإمام كامل بها^(١).

قد اتبعت في هذه الرسالة المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي الموضوعي لاستقراء حقائق دولة المماليك الأولى - حيث مرت الدراسة المنهجية بثلاث مراحل - مرحلة جمع المادة، ومرحلة النقد والتدقيق، ومرحلة الملاحظة وتجميع البيانات والأدلة في المواقف السلوكية والمثالية وغيرها. وجاءت الأطروحة مقسمة إلى الآتي:-

هـ-١/ تبويب البحث: قسّم البحث إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة تشتمل على أهم النتائج والتوصيات وثبت للمصادر والمراجع بالإضافة إلى مجموعة من الملاحق المتنوعة؛ وهذا بيان لها:

هـ-١-أ/ المقدمة: وتحتوي على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومشكلة البحث ومجالاته، ومنهج البحث وأدواته.

هـ-١-ج الفصل الأول: التعريف بدولة المماليك سياسياً:

يشمل تسليط الضوء على مصر قبيل قيام دولة المماليك البحرية لمعرفة إرهابات أسباب نشوء الدولة، فأشرت فيه إلى سقوط الدولة الفاطمية وانتقال السلطة للأيوبيين ومن ثم المماليك. والتعريف بمصطلح المماليك، وأوطانهم الأصلية، ونشأة دولتهم، وعلاقة المماليك بالمغول (النتار)، وتعريف النتار من هم ومن أين أتوا- والوقوف على معركة عين جالوت كمرحلة فاصلة في التاريخ المملوكي؛ والعلاقة بين المماليك والصليبيين، وفزلة مختصرة عن الحروب الصليبية، وانتصار المماليك فيها، ودور العلماء في تولية وعزل السلاطين والولاة.

هـ-١-د الفصل الثاني: البناء الاجتماعي للعلماء الديوانيين

تناولت في مقدمته اسباب النمو السكاني في بداية عصر المماليك، والتمايز الطبقي بين المماليك والسكان الأصليين، وتقسيم المجتمع حسب منظور علماء الاجتماع المعاصرين، ومن ثم ملامح من الحياة الاجتماعية للعلماء والديوانيين، وقد قصرت الحديث عليهم لتميزهم عن العامة ولخصوصيتهم وتأثيرهم، ولأنهم مدار البحث، فتناول هذا الفصل زي أهل العلم ومظهرهم، وألقابهم ومستوى معيشتهم، ومساكنهم- وعائلاتهم، وتعدد الزوجات عندهم، وما أخذ على العلماء من نقش للفساد المتمثل في استغلال بعضهم نفوذه لصالح أبنائه ومحسوبيه، وانتشار الرشوة وبيع الوظائف بسبب تدهور الوضع الإقتصادي أواخر عصر المماليك.

هـ-١-ح/ الفصل الثالث: أسباب ازدهار الحياة العلمية:-

سلطت في هذا الفصل الضوء على أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار الحياة العلمية وكان من بين هذه العوامل اهتمام السلاطين والأمراء بدور العلم، وانتقال العلماء من بغداد إلى القاهرة، ورصد الأوقاف على مؤسسات التعليم مما مكن عدد كبير من المدارس القيام بدورها على أكمل وجه، والتي خرجت أجيالاً من العلماء والمفكرين، ثم تناولت نشاط حركة التأليف والترجمة التي انتظمت الفترة، ومؤلفات العلماء وخزائن كتبهم، وكان لحيوية اللغة العربية ومرونة أسلوبها أثر عظيم في التأليف والتعليم والخطابة والكتابة، وكان لديوان الإنشاء دور بارز في النهضة الأدبية والعلمية بما أتاحه من فرص لعدد كبير من الكتاب لإظهار قدراتهم ومواهبهم في فنون الكتابة الإنشائية والشعرية.

هـ-١- و/الفصل الرابع: العلوم النقلية، وأهميتها في تشكيل المجتمع:-

أبرز هذا الفصل ثراء العلوم العقائدية والإسلامية، وموقفهم من التشيع - ودور الخلافة العباسية باعتبارها رمزاً للشرعية الدينية وإمارة المؤمنين- ثم جاء تناول الجوامع والمساجد لأهميتها كمراكز إشعاع تعليمي وديني، مستعرضاً أهم الجوامع وأنشطتها، ثم انتقل البحث إلى التصوف وأثره وانتشاره ووجود الزوايا، والربط، والخانقاوات. وقد مثل المعممون- العلماء ورجال الدين الذين اشتهروا بهذا اللقب لارتدائهم العمام- أحد أهم مظاهر الدين والدولة، كما تناولت في هذا الفصل أيضاً طبيعة العلاقات بين الممالك والطوائف الدينية، مثل أهل الذمة، والتأثيرات اليهودية والنصرانية في عادات المصريين- وأثر الأعياد علي المجتمع بطوائفه المتعددة.

هـ-١- ط/ الفصل الخامس: العلوم العقلية:-

تتمثل في الإنتاج العلمي من كتابة علمية بأسلوبها المعروف، والبيمارستان (المستشفيات)- والطب وعلومه وأهم أطباء عصر المماليك، وفن العمارة والزخارف الإسلامية واستعراض لأهم النماذج المعمارية كالقصور والمساجد الأثرية.

هـ-١- هـ الفصل السادس: اثر الحياة العلمية في النظام الاداري والاقتصادي:

جاء هذا الفصل مخصصاً لدراسة الجوانب الإقتصادية والإدارية، لكونها تمثل النظام العام للدولة، وتشكل أوضاع أرباب الأقلام والسيوف. حيث تناولت بالحديث الوزارة ودورها ومن تولاها من العلماء، والنظار والديوانيين ونظار وأمراء الجيش ودور العلماء في ذلك، أما النظام القضائي بوظائفه المتعددة، فقد ظل أحد ركائز الحياة العلمية لتمثيل القضاة للمذاهب الأربعة في مختلف الجوانب، وخاصة في مجالي الإفتاء والحسبة. وقد لعبت الأوقاف دوراً بارزاً في جميع مناحي الحياة. والتطور الإداري في مجال مسح الأرض وزراعتها ووارداتها وانفاقها، ووسائل النقل والمواصلات وأثرها، والتجارة الداخلية والخارجية. وخلصت الدراسة إلى مشاركة العلماء بشكل مباشر في إدارة دواوين الدولة ومؤسساتها، ووجودهم في الأسواق كعلماء وقضاة ومحتسبين وتجار ومستهلكين، وما له من أثر بالغ في تشكيل بنية المجتمع الداخلية.

هـ- ١- ي/الخاتمة: تضمنت الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة والتوصيات وخلاصة البحث باللغتين العربية والإنجليزية والملاحق وذيل البحث بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها الباحث.

و- عرض وتحليل لأهم مصادر البحث ومراجعته:

لقد تطلبت مني هذه الدراسة أن أقف على مجموعة كبيرة من مصادر تراثنا العربي والإسلامي، ورجعت إلى عدد كبير من المراجع، والتي كونت مكتبة متنوعة الفنون، جمعت بين التاريخ، والفقه والتفسير، والتراجم والطبقات، وكتب الجغرافيا والرحلات، والمعاجم اللغوية والجغرافية، وكان من أبرزها.

و- ١/ كتب التاريخ العام

لقد أخذت من الكتب التاريخية التي رفدت الموضوع بمعلومات وروايات تاريخية مهمة ومصادر أصلية ومراجع متخصصة ثبتت في هوامش الأطروحة، من أبرزها:-

١- كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابي البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المتوفي سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٣م، فقد قدم للباحث مادة ثرة ووافية لشموله، واعتمد ابن إياس

على مصادر صحيحة أصلية عن الأحداث التي سبقت عصره، لأنه عاش في أواخر عصر المماليك وقد تميز أسلوبه بالصراحة والنقد المباشر لكثير من المعلومات التي أوردها، ولم يفارق هذا السفر الباحث في كافة فصول البحث خاصة في "أثر النظام الإداري في تطور الحياة العلمية".

٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي المتوفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، وقد أفاد البحث من هذه الموسوعة العلمية التي حفلت بمعلومات وافية قيمة عن حياة العلماء ووظائفهم، وقدم صورة حية لكيفية الإدارة في دولة المماليك عامة، موضحاً الألقاب والخلع والزي والرواتب الخاصة بالعلماء، لا سيما وأن القلقشندي هو شاهد عصره فكتاباته تمثل إنعكاساً لمشاهداته، فضلاً عن أنه شغل وظيفة رئيس ديوان الإنشاء لفترة طويلة مكنته من الاطلاع على كثير من أسرار الدولة.

٣- كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لمؤلفه أبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي المتوفي سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م ويعد هذا المصدر من أهم مصادر الدراسة لكون مؤلفه ينتمي إلى أولاد الأمراء من المماليك فقد تولى والده مناصب مهمة في الدولة المملوكية مما مكّنه من الاطلاع على كثير من الأمور التي لا تتيسر لغيره من المؤرخين، وقد أرّخ فيه لملوك مصر منذ الفتح الإسلامي حتى عصره، وخص عصر المماليك بالدراسة الوافية، وقد أفدت منه في الدراسة الوافية عن تراجم العلماء والقضاة وغيرهم، كما قدم لي كتابيه حوادث الدهور والمنهل الصافي فائدة عظيمة في تراجم العديد من الأعيان، وقد ظل أبو المحاسن مرافقاً لكل فصول البحث.

٤- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لمؤلفه أحمد بن علي المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م. والذي تميزت كتاباته بالصفة الموسوعية والدقة والانتقاد اللاذع، ويعد هذا السفر موسوعة تاريخية لمصر في عصر الأيوبيين والمماليك، ومن أهم مصادر العصر المملوكي فقد عرض فيه جوانب من حياة العلماء والديوانيين، ويكاد لم يترك أحداً من أرباب

الوظائف الدينية أو الديوانية إلا وأشار إليه، كما أفاد البحث في حياة العلماء والديوانيين الاجتماعية لدقة ملاحظاته، خاصة وأن المقریزی تقلد عدداً من الوظائف في دولة المماليك مثل وظيفة محتسب القاهرة وغيرها، كما قدم لنا كتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار؛ المعروف ب(الخطط المقريزية) والذي بين فيه أقاليم مصر وأحوال سكانها وأودعه الكثير من الأخبار والحوادث التاريخية، وتعرض فيه إلى حياة العلماء والمعممين الخاصة بتفصيل دقيق، وهو في مجلدين كبيرين، وللمقریزی كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، الذي ربط فيه بين الأوضاع السياسية والاجتماعية والإقتصادية، فقسم المجتمع لطبقات وجعل العلماء طبقة لها وضعها وكيانها الخاص بها.

٥- كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لمؤلفه بدر الدين محمد بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين العيني المتوفي سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م. وقد اعتمد الباحث على الأجزاء التي حققها محمد محمد أمين، والتي تناولت تاريخ دولة المماليك البحرية، وأوضاع العلماء فيها، متبعاً نظام الحوليات مثله وكثير من مؤرخي ذلك العصر، فقد أورد المؤلف معلومات قيمة عن الأحداث التي شارك فيها العلماء، لاسيما وأن العيني كان من المقربين من أمراء الدولة وقد تولى منصب قاضى القضاة والمحتسب .

٦- كتاب الدول والملوك أو (تاريخ ابن الفرات) لمؤلفه ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي المتوفي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م. وقد قدم هذا المؤرخ معلومات قيمة عن السلاطين والملوك وتميزت كتاباته بالوضوح والصدق.

٧- كتاب المختصر في أخبار البشر، للملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي ابن شاهنشاه الأيوبي المتوفي سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م. وهو كتاب في أربعة أجزاء، فقد قدم معلومات مهمة باعتباره شاهداً على العصر معاصراً لحوادثه، وقدم دراسة وافية عن العلماء ومشاركتهم الفاعلة في قضايا الجهاد وغيره.

٨- كتاب البداية والنهاية للحافظ إسماعيل بن عمر القرشي المعروف بابن كثير المتوفي سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م. وقد أوضح المؤلف في كتابه دور العلماء في دولة المماليك بشكل

مفصل كما حوى المؤلف تراجم لكثير من العلماء المماليك الذين شاركوا فى الحياة السياسية والاجتماعية.

٩- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ست مجلدات لابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد المغربي، المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٥٠م، وتأتى أهمية هذا المصدر لكونه دراسة تاريخية فى الجغرافيا وعلم الاجتماع، وقد قدم للباحث معلومات قيمة فى عن نطاق البحث ومجتمعاته.

و-٢/ السير والتراجم والطبقات :

احتاجت الدراسة إلى مؤلفات لترجمة الأعلام وسيرهم، فوقفت على مجموعة من هذه المؤلفات من بينها:

١- كتاب المقفى الكبير للمقريزي، الذي اشتمل على العديد من تراجم العلماء وأدوارهم وحياتهم العامة، وترجم لمختلف الشخصيات الإسلامية، منذ بداية تاريخ الإسلام حتى وفاة المؤلف، وقد رتبته على حروف المعجم، وبه معلومات وافية عن عدد كبير من أمراء الحج المصري، وبعض الشخصيات المهمة.

٢- الوافى بالوفيات وهو معجم للتراجم فى خمسين جزءاً، لصلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي المتوفى ٦٧٣هـ/١٣٦٧م، صاحب أعيان العصر وأعوان النصر.

٣- سير أعلام النبلاء للذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م. والذي ترجم لعدد كبير من قادة المجتمع فى عصره.

٤- طبقات الشافعية، للسبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م، وهو من كتب الطبقات التي أهتمت بالترجمة لأعلام الرجال. وغيرها من كتب الطبقات، كطبقات الشافعية للأسنوي المتوفى ٧٧٢هـ/١٣٧١م، والطالع السعيد للأدقوي المتوفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، وقد اهتمت كتب الطبقات هذه بإبراز النشاط العلمي للعلماء والديوانيين ودورهم فى مباشرة الوظائف وإشارات متفرقة لحياة العلماء الخاصة.

٥- الأعلام، وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، يقع فى ثمان مجلدات، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس

الزركليّ الدمشقيّ وهو مؤرخ وشاعر وكاتب كان والده تاجراً بدمشق، ولد في ١٣٠١هـ/١٨٩٣م في بيروت.

و-٣/كتب الرحلات :

هي مؤلفات ذات قيمة علمية لأن أصحابها كانوا شهود عيان لما رأوه من خلال ترحالهم وتجوّالهم في الأماكن التي زاروها، فأخذنا عنهم بعض الأخبار عن تلك الأماكن التي كتبوا عنها، ومن هذه الكتب تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، للرحالة ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله، المتوفي عام ٧٧٩هـ/١٣٧٨م. وقد أفدت منه في الفصلين الأول والثاني في تسجيل مشاهداته عن الأماكن التي زارها وملاحظاته عن الأشخاص الذين التقاهم.

و-٤/الكتب الجغرافية :

خلال الإطروحة كنت أحتاج إلى تعيين موقع أو التعرف على موضع أو مكان سواء داخل مصر أو خارجها، فاستعنت بمجموعة من الكتب الجغرافية المختصة بتراجم المدن والمواقع، وكان من بينها: معجم البلدان، لياقوت محمد عبد الله الحموي الرومي، ت، ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الشام ومصر والحجاز واليمن، ويتضمن أبحاثاً في التاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي، لابن فضل الله العمرى شهاب الدين المتوفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م.

و-٥/الكتب اللغوية :

هي مجموعة من المعاجم اللغوية التي أفادتني في إعطاء معنى لغوي للفظة كنت أحتاج أن أقف على معناها، ومن هذه المعاجم التي استشرتها، كتاب لسان العرب، لابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري المتوفي سنة ٧١١هـ/١٣١٢م، وفي العلوم المتفرقة، كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، في أكثر من ثلاثين جزءاً، ويبحث في الفلك وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعي واللغة والأدب، للنويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري المتوفي سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م.

وهناك مصادر ذات طبيعة دينية ولكنها كانت كبيرة الفائدة للبحث، مثل: كتاب "معيد النعم ومبيد النقم" للسبكي، وقد انتقد فيه المؤلف أوضاع المجتمع المصري وبين ماينبغي أن يكون عليه الموظفون، وبين كثير من الوظائف الدينية مثل القاضي والمفتي والخطيب والمقرئ والشيخ وغيرهم. ومنها كتاب "المدخل على الشرع الشريف" لابن الحاج المتوفي سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م، والذي انتقد فيه بعض العلماء وطريقة ملبسهم، والنفقة الباهظة التي يتكفلها العالم في سبيل مظهره، كما انتقد سلوك نساء العلماء والديوانيين وخاصة في طريقة ملبسهم عند الخروج إلى الطريق العام.

و-٦/المراجع الحديثة والمعاصرة:

لقد كان لمراجع الباحثين ممن درسوا تاريخ دولة المماليك ووقفوا على معالمها ونقبوا في تراثها، وهم كثر؛ دور كبير في بناء هذه الأطروحة وإثرائها بالمعلومات، وتذليل كثير من العقبات التي وقفت في طريقها، ومن أهم المراجع الحديثة والدراسات التي ساهمت في تشكيل هذه الدراسة وبنائها: موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي للدكتور محمود رزق سليم وكتاب الأدب في العصر المملوكي للدكتور محمد زغلول سلام، ودراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، وعصر سلاطين المماليك للدكتور قاسم عبده قاسم، وكتاب المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، والذي ألقى الضوء فيه على طبقة العلماء والمعممين، وله كتاب مصر والشام في عصر الإيوبيين والمماليك. فهذه المراجع كان لها دور عظيم في توجيه البحث وبلوغ غاياته.

وفي ختام هذه المقدمة، لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل شكري لأساتذتي الأفاضل الذين سوف يناقشون هذه الأطروحة، ولما أتوقعه منهم من إرشادات سوف تغني علماً من خلال تصويباتهم وتقويمهم لما جاء في محتوياتها. وحقائق غابت عني أثناء انشغالي بجمع المعلومات وتصنيفها وصياغتها، مما سيكون له أثر كبير في تقويم هذا العمل وتطويره وإخراجه بالصورة التي ترضي طموحات الباحث وترفع من شأن البحث وتجعل منه مرجعاً

للباحثين، فقد أفرغت ما بوسعي من جهد، فإن أصبت فلي أجر ما قدمت من الله، وإن أخطأت فحسبي أنني اجتهدت فأرجو من الله الأجر والثواب، والصفح عن الخطأ والنسيان.

وما توفيقي إلا بالله

فله الحمد من قبل ومن بعد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه

Abstract

this Abstract is meant to be as indications of clarifying to the readers the framework of the thesis and reflect the scientific aspects of life of the Bahri Mamaleek State.

The scientific life of the Mamaleek era has been distinguished by two important aspects as follows: -

(a)The Preservation of Islamic heritage from the Mongol

attacks in addition to the enhancement of science and knowledge and the renewal of all scientific aspects.

(b) The promotion of science and knowledge and taste in the renewal of all aspects of scientific activity.

This discussion contains six chapters

The first chapter, includes the situation before the Mamaleek state, the definition of the term (Mamaleek), and their political and military situations.

The second Chapter includes the social construction of the Mamaleek scientists and the reasons for population which increase at the beginning of their era in addition to the social differentiation between the Mamaleek and the indigenous natives, and the salient features of social life of scientists and state officers.

The third chapter: the research highlighted the most important factors that are attributed to the development of scientific life. Some of those factors were due to the interest of sultans and princes, especially in educational institutions and the movement of scientists from Baghdad to Cairo, besides allotment of Endowment funds to educational institutions.

The fourth chapter: deals with the richness transmission of science, and the role of Abbasid Caliphate as a symbol of religious legitimacy and Principality of Muslim believers, the research has also stressed the role of Arabic language and its flexibility.

The fifth chapter discussed the mental Sciences, and what they embodied of scientific production in all aspects of application, such as medicine and medical sciences, in addition to art of architecture and Islamic decoration, The Mamaleek cared at the civilization aspects such as school buildings, mosques and residential buildings, so the art of architecture had become purely Islamized building, its foundation on Islamic Science and Sahara origins, the system of building residential houses, as an example, at their time were based on the Islamic principle of keeping chasteness of the female privacy.

The sixth chapter: has been devoted for the study of the impact of scientific life on the economic and administrative domains which they represent the State general system, and shape the situation of the intellectuals and military men.

The research has assumed the government and those who help high government posts and, the administrative development in land surveying cultivation, income and expenditure and the impact of transport and communications.

The final outcome of the research study is that: scholars had played an important role in shaping the political, social, economic and administrative affairs of the time in addition to their prominent contribution to knowledge.

مصر قبيل قيام دولة المماليك

انتقل الفاطميون من بلاد المغرب إلى مصر، فحكموها لفترة تزيد على قرنين من الزمان، من (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)^(١) وأصبح الخلفاء الفاطميون المتأخرون لعبة في يد وزرائهم، ولم يبق من الخلافة - في عهد المستنصر بالله - إلا اسمها، وتنازع الوزراء السلطة فيما بينهم لما وقر في نفوسهم من الطمع في الملك، إلى أن بلغت بهم الجرأة بأن فتكوا بالسلطان الحاكم بالله تخلصاً منه، وأخذت مملكة بيت المقدس الصليبية تطمع في مصر نفسها في عصر العاضد، عندما طلب الوزير ضرغام من الصليبيين التدخل في شؤون الدولة الفاطمية، فسقط بيت المقدس في يد الصليبيين سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م، وراحت الدولة الفاطمية ضحية تنازع الوزراء؛ في الوقت الذي كان فيه الأتابك^(٢) نور الدين زنكي صاحب حلب ودمشق يعمل على منع الصليبيين من مد نفوذهم إلى مصر التي كان صلاح بن سيف الدين الأيوبي^(٣) قائداً لجيوشه، ونائباً عنه في حكمها، ووزيراً لصاحب مصر الشيعي الخليفة العاضد سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، إلى العام ٥٦٧هـ/١١٧١م وهو العام

(١) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/٤٢١٨م، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن المطبعة الأميرية، بلا تاريخ، ج ٤، ص ٣١٥، وسالم، سحر السيد عبد العزيز: دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٩م، ص ١١.

(٢) أتابك: كلمة تركية تتكون من مقطعين، أتا بمعنى المربي، أو الأب، وبك بمعنى الأمير، و أول من تلقب به هو الوزير نظام الملك، وذلك منذ أن فوض إليه السلطان ملك شاه تدبير المملكة في سنة ٤٦٥هـ/١٠٦٦م؛ (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨، ودائرة المعارف الإسلامية؛ المجلد الأول، مادة أتا، طبعة مصر، ١٩٣٣م، ص ٤٢٣، و سالم، سحر: مرجع سابق، ص ٥١).

(٣) صلاح الدين الأيوبي، يوسف بن نجم الدين أيوب ٥٣٢هـ-٥٨٩هـ/١١٣٨-١١٩٣م، ولد في تكريت بالعراق وتوفي بدمشق؛ مؤسس الدولة الأيوبية، هزم الصليبيين وانتصر على الزنكيين قرب حمص واحتل سورية والموصل واستولى على طبرية وهزم الإفرنج في حطين ١٣٧٣هـ/١١٨٧م، وأسر ملك القدس غي دي لوزينيان، وفتح بيت المقدس. (معلوف، لويس: المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثولوكية، ط ٢، ١٩٢٧م، ص ٤٢٥)، انظر الملاحق خريطة رقم (٣٦)، ص ٣٠٦.

الذي توفي فيه العاضد. وقد عمل صلاح الدين على تقوية نفوذه على حساب الخليفة الفاطمي المعتضد خلال هذه الفترة، والعمل على نقل الدعوة للخليفة العباسي عوضاً عنه، فتحقق له ما أراد في عام ٥٦٧هـ/١١٧١م، حتى تمكن من قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وجهر بالدعاء للخليفة العباسي المستضيء بالله وذلك في العام نفسه، فمات العاضد غماً^(١) فما كان من الخليفة العباسي المستضيء إلا أن أرسل كتاباً يقلد بموجبه صلاح الدين على سلطنة مصر والشام واليمن، وخاطبه بلقب الملك الناصر، وهو ومن خلفه أول من تلقبوا بالسلطين، أيام الاضطرابات والفتن الداخلية والحروب التي شنها الصليبيون ابتغاء انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين، وبذلك بدأت الدولة الأيوبية حكمها الرسمي^(٢)، فاستعان صلاح الدين ومن بعده خلفاؤه بجند أغراب، جمعهم من أطراف الأرض خاصة من الجركس والأترار، الذين كانوا سبباً في القضاء على دولته، ورغم قوة صلاح الدين وشدة هيئته إلا أن ذلك لم يمنع مماليكه من معارضته ومخالفته الرأي في بعض الأحيان؛ ومثال ذلك إنكارهم عزمه على التحصن ببيت المقدس، انتظاراً لمجئ ريتشارد قلب الأسد لحصارها سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، حيث كان رأيهم الخروج لملاقاته خارج بيت المقدس، فنزل صلاح الدين على إرادة المماليك لأهمية القدس عنده واضطر أن يقيم من أهله معهم الأمير الأمجد صاحب بعلبك، فتمكن بذلك من الاحتفاظ

(١) ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم، الكامل في التاريخ (٩ أجزاء)، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٦م، ج ١١، ص ١١٠-١١، وابن واصل، أبو عبد الله بن محمد بن سالم بن نصر الله المازني التميمي الشافعي الحموي، ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق، الشيال، جمال الدين وربيعة، حسن محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٥٣/١٩٧٧م، ج ١، ص ١١-٢٧؛ وأبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي ٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الناشر، دار الأندلس الخضراء، جدة. ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ط ٢، ص ٦٠-٧٧.

(٢) انظر الملاحق خريطة رقم (١٦)، ص ٤٤٢.

بالقدس في أيدي المسلمين^(١). مما يدل على أن المماليك بلغوا من القوة والكثرة فيما يبدو ما جعل صلاح الدين الأيوبي يعمل بشورتهم وينزل على إرادتهم. وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، انقسمت الجبهة الداخلية وتوزعت أقاليم الدولة بين أبنائه وإخوته وأبناء إخوته، واستشرى الخلاف في الأمراء، فيما بينهم من جهة، ومع المماليك من جهة أخرى، فآل حكم مصر إلى ابنه العزيز عثمان، وقد استغل العادل أبو بكر أخو صلاح الدين الصراع بين الأسدية نسبة لأسد الدين شيركوه والصلاحية نسبة لصلاح الدين الأيوبي فاستمالهم إليه ماعدا الأمير بهاء الدين قرقوش^(٢). الذي بقي نائباً مخلصاً للملك العزيز في القاهرة^(٣)، واستطاع العادل السيطرة على الأمور في مصر بعد سنة وثمانية أشهر للأمير المنصور بن العزيز عثمان في الحكم^(٤). ثم استغل الملك الكامل محمد بملك مصر بعد موت أبيه العادل في سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، وهاجم في عهده الصليبيون مصر، واستولوا على بيت المقدس سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، وتوفي الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، وخلفه على ملك مصر ابنه العادل الثاني، والذي انهزم أمام جيوش أخيه الأكبر

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٣١.

(٢) قراقوش: اسم تركي معناه العقاب الطائر؛ كان مملوكاً لأسد الدين شيركوه ثم انتقل إلى خدمة صلاح الدين وصار نائباً عنه في القاهرة أثناء غيابه. ونسبت إليه أحكام عجيبة أثناء ولايته. والظاهر أنها موضوعة إذ تثبت النصوص عدله وكفايته، وهو الذي بنى السور الذي أحاط بالقاهرة ومصر وما بينهما، كما بنى قلعة الجبل (المقطم)، توفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م. (ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٢م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه عباس، إحسان، بيروت ١٩٦٩م، ج ١، ص ١٨٣، والمقريزي: أحمد بن علي، ت، سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، الاعتبار في ذكر الخطط والأثار - مطبعة بولاق - القاهرة ١٢٧٠هـ - ١٨٥٣م، ج ٢، ص ٩٣).

(٣) أبوشامة: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٢٩.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١-٢، تحقيق زيادة، مصطفى، القاهرة ١٩٣٦/١٩٥٨م، ج ٣، ٤، تحقيق عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٧٠/١٩٧٣م، ج ١، ص ١٥٣.

الصالح نجم أيوب ٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م^(١). ولم يول الصالح نجم الدين ولاية العهد لإبنه توران شاه لما كان يعرفه عنه من هوج وطيش وأوصى بأن تكون البلاد بعد وفاته للخليفة العباسي المستعصم بالله ليرى فيها رأيه^(٢)، ويرجع الفضل الى الملك الصالح نجم الدين^(٣) فى استعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٥م.

كان الصالح نجم الدين أيوب قد أكثر من شراء الممالك الأتراك لدرجة لم يبلغها غيره من أهل بيته، حتى صار معظم جيشه منهم^(٤). واختصهم بمساحة واسعة من الحرية دون غيرهم من الطوائف الأخرى، فأساءوا استغلالها حتى ضج المواطنون من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال^(٥). فاضطر إلى إبعادهم عن العاصمة

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٢٩٦.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٠.

(٣) هو أيوب بن محمد بن أبي بكر أيوب شادي، ولد بالقاهرة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، وحكم مصر نائباً عن والده الملك الكامل، سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م، بنى قلعة الروضة لمماليكه الصالحيه وسماهم البحرية، وصف بأنه عزيز النفس عفيف، طاهر اللسان، وقور كثير الصمت، وكانت له سطوة في دولته؛ توفي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، (الذهبي: شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان، توفي، ٧٤٨هـ/١٣٤٨م، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق التدمري، عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٨م، ج ٣، ص ١٨٧، و ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق أمين، محمد محمد، و عبد العزيز، نبيل، القاهرة ١٩٨٤-١٩٩٤م، ج ٧، ص ١٠٧، ج ٣، ص ٢٢٧، وابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٢٦٩، وقاسم، عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، مطبعة دار الشروق، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٧-٨).

(٤) أبو الفداء: اسماعيل بن علي بن عماد الدين سنة ٧٣٢هـ/١٢٣٢م، المختصر في أخبار البشر، القسطنطينية ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، ج ٣، ص ١٨٨، وابن اياس، محمد أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور (ت ٩٢٣هـ/١٥١٧م) عاصر سقوط دولة المماليك، تحقيق إبراهيم، خليل، دار الفكر، سنة ١٩٩٢م، ج ١، ص ٧٠، والمقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٣٣٩-٣٤٠.

(٥) ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء ١-١٢ تعليقات رمزي بك، محمد، دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٩-١٩٢٦م، والأجزاء ١٣-١٦ تحقيق شلتوت، فهيم محمد وآخرين- الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٠م، ج ٦، ص ٣١٩.



وبنى لهم عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م قلعة خاصة بجزيرة الروضة قرب المقياس وأسكنهم بها، كما اتخذها مقراً لملكه، وزودها بكثير من الأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والمؤن؛ وعرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك البحرية الصالحة^(١).

والمماليك البحرية^(٢) مثل غيرهم من المماليك السابقين واللاحقين، أبعد ما يكونون عن الخجل من أصلهم وفصلهم أو نشأتهم، لأن علاقة المملوك بسيده في الشرق عامة علاقة عائلية أكثر منها عبودية، ولم يحل ذلك الأصل دون تربيتهم تربية طيبة، وإعدادهم أحسن إعداد لوظائف الدولة والإدارة والجيش، وقد كان كبار النواب يفحصون المملوك فحصاً شافياً ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد مؤدبيه - الذي يعلمه القرآن أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه - على أنه اقترف ذنباً، أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بالعقوبة بقدر جرمه؛ فلذلك كانوا سادة يديرون المماليك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل، ويردعون من جار واعتدى^(٣). وكانت مصر تعيش على وقع خلافات الأمراء الأيوبيين فيما بينهم، فتمكن المغول من الإستيلاء على الأراضي الإسلامية التابعة لملك خوارزم شاه^(٤)، ثم واصلوا زحفهم حتى اسقطوا الخلافة العباسية في بغداد، ثم اتجهوا نحو بلاد الشام التي كانت مقسمة إلى إمارات يحكمها أمراء أيوبيون، وتمكن التتار من الاستيلاء على حلب سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٧٧م. وراحت مصر تتطلع إلى سلطان قوي يحمي حماها، ويصون أرضها. وكانت مصر في هذه الأثناء يحكمها علي بن أيك

(١) المقرئ: مصدر سابق، ج ٢، ص ١١٦-٢١٧.

(٢) انظر الملاحق جدول رقم (١)، ص ٣٤٧.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٣-٢١٤.

(٤) انظر الملاحق خريطة إمبراطورية تيمور لك. خرائط رقم ٤-٥-٩، ص ٣٤٤-٣٤٥-٣٤٦.

الذي كان في الخامسة عشرة والذي تولى مصر بعد وفاة أبيه المعز أيبك، وكان الصبي ضعيفاً لا حول له ولا قوة؛ وفي هذه اللحظات التاريخية ظهر "سيف الدين قطز"^(١) وتولى حكم مصر، وقال قولته المشهورة: (لا بد من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم)^(٢). فمن هم المماليك؟ وما هو دورهم السياسي والحربي في الدفاع عن مصر، والمقدسات الإسلامية من الخطر الصليبي والمغولي؟.

أولاً: التعريف بالمماليك.

المعنى اللغوي والإصطلاحي لكلمة ممالك

جمع مفرد لها مملوك وهو في اللغة العبد، وهم الذين سبوا ولم يسب أبائهم^(٣) وهو اسم مفعول من ملك، يقال ملك الشيء، حازه وانفرد بالتصرف فيه، فهو مالك ثم اتخذ اللفظ معنىً اصطلاحياً في التاريخ الإسلامي، وأصبح يطلق على الرقيق الأبيض، الذين يشتريهم الحكام من أسواق النخاسة البيضاء، لاستخدامهم في جيوشهم، وتشكيل فرق خاصة بهم، لتكون عوناً لهم، ودعمًا لنفوذهم^(٤).

(١) هو: أحد ممالك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً هزم التتار في عين جالوت، ولم يخلف ولداً، أصله من خوارزم، أسر، وبيع، وأصبح مملوكاً لتاجر في مصر، (ابن شاعر، فخر الدين محمد بن أحمد الكتني، توفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م: فوات الوفيات والزيل عليها، جزءان - بولاق ١٨٩١م، والذيل عليها تحقيق احسان عباس، بيروت ١٩٧٣/١٩٧٤م، ج ٣، ص ٢٠١-٢٠٣، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٩٣-٢٩٤)

(٢) ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج ٦، ص ٣٣٥.

(٣) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفيقي المصري: لسان العرب، دار بيروت للطباعة ١٩٥٥م، ١٠ مجلدات، مج ١٠، ص ٤٩٣.

(٤) ماجد، عبد المنعم: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م، ص ١١-١٩، والعبادي، أحمد مختار: في تاريخ الأيوبيين والمماليك وقيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت ١٩٨٦م، ص ١١، وعاشور، سعيد عبد الفتاح: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك. دار النهضة، بيروت، بلا تاريخ، ص ١.

تختلف كلمة ممالك عن كلمة (موالي)^(١). التي مفردها (مولى) وهي تعني عند المؤرخين المسلمين؛ كل من أسلم من غير العرب؛ فالموالي قد تكون أصول بعضهم من أسرى الحروب الذين استرقوا ثم أعتقوا، أو من أهل البلاد المفتوحة الذين انضموا إلى العرب فصاروا موالي بالحلف والموالاة^(٢).

الممالك مصطلح فرض نفسه على تاريخ مصر والمنطقة العربية طوال فترة تزيد على ثلاثة قرون من الزمان، لاسيما بعد أن نجح أولئك المجلوبون عبيداً في طفولتهم في بناء دولة إقليمية عظمى حكمت مصر والشام والحجاز بشكل مباشر، كما فرضت نفوذها السياسي وقيادتها على المنطقة العربية وامتدت سطوتها إلى كافة مستويات العلاقات السياسية والدبلوماسية في عالم البحر المتوسط والبحر الأحمر وأفريقيا على السواء.

يدل مصطلح الممالك (والمفرد مملوك) على العبودية والرق لأنه يعني أن (المملوك) ملكية خاصة لشخص آخر، وقد كان (الممالك) من الرقيق فعلاً؛ بيد أنهم كانوا من نوع خاص من الرقيق، إذ كانوا يجلبون أطفالاً من أسواق النخاسة، ثم يتم تدريبهم عسكرياً ليكونوا عدة حكام المنطقة العربية من الأيوبيين المتنافسين على السلطة في غمرة الفوضى السياسية التي أعقبت وفاة السلطان الصالح صلاح الدين الأيوبي، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. فمن أين أتوا؟.

(١) والمولى والولي: بمعنى واحد في كلام العرب، فهو يدل على عدة مسميات فهو الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمعنى والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم والحليف، والعقيد والصهر والعبد، والمعنى. (ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٤٠٩، والفيروز ابادي: القاموس المحيط، ج ٤، ص ٢٩٤).

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الغربي: العبر وديوان المبتدأ والخبر، المطبعة الأميرية بولاق ١٣٢١هـ/ ١٩٠٤م، ص ٩٦.

ثانياً: أوطان المماليك الأصلية؟

يعتبر السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م، هو المسؤول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذي أدى إلى سيطرتهم على مقاليد الحكم عقب وفاته؛ ويقول المؤرخ تقي الدين المقريزي في هذا الصدد: "والملك الصالح هو الذي أنشأ المماليك البحرية في ديار مصر؛ وذلك أنه لما مر به ما تقدم، في الليلة التي زال عنه ملكه، بتفرق الأمراء وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يبق معه سوى مماليكه، فراعى لهم ذلك. فلما استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك، وجعل معظمهم عساكره؛ وقبض على الأمراء الذين كانوا عند أبيه وأخيه، واعتقلهم وقطع أرزاقهم، وأعطى مماليكه الأميريات، فصاروا بطانته والمحيطين بدهاليزه، وسماهم البحرية لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل في القلعة التي بناها الصالح بين شعبتي النيل إزاء المقياس"^(١).

كان أولئك المماليك عناصر مختلفة مكونة من الترك والمغول والتتار والصقالية والإسبان والألمان والشراكسة .. وغيرهم من العبيد البيض، بيد أن غالبيتهم في عصر دولة المماليك الأولى "البحرية" كانوا من بلاد (القفجاق)^(٢) والقوقاز، على حين كان معظمهم في دولة المماليك الثانية من الشراكسة "الجراكسة"^(٣).

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٣٩، وابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٨٠٦.

(٢) القفجاق: تشمل حوض الفلجا والأراضي الواقعة حول بحر قزوين، حسن، علي إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٤م، ص ٢٤.

(٣) الشراكسة: أو الجراكسة فرقة مملوكية أنشأها قلاوون من الجراكسة الذين كانوا يستوطنون في المناطق الواقعة إلى شمال من بحر قزوين وشرق البحر الأسود، وقد أسكنهم المصور قلاوون برج القلعة فأطلق عليهم "المماليك البرجية"، (المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٥٥-٧٥٦).

على الرغم من أن دولة سلاطين المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م، ورثت ممتلكات دولة الأيوبيين ومسؤولياتها السياسية والعسكرية، فإن المتأمل في تاريخ الدولتين يشعر بحق أنهما جاءتا كاستجابة سياسية وعسكرية لظروف العالم الإسلامي عامة، والمنطقة العربية منها خاصة، وفي فترة حرجية من التاريخ الطويل للحضارة العربية الإسلامية. ومن المثير حقاً أن دولة الأيوبيين قد أقل نجمها - وحلت محلها دولة المماليك - للسبب نفسه الذي أدى إلى قيامها على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي؛ أي مسؤولية التصدي لأعداء الأمة الذين احتلوا القدس وأجزاء من فلسطين وبلاد الشام، وابتدأوا يهددون بقية المناطق العربية، كما كان للتشرذم السياسي والتناحر العسكري فيما بين ملوك الأيوبيين الصغار الذين تراجع دورهم التاريخي أمام دور المماليك الذين رباهم الأيوبيون ليكونوا عدتهم العسكرية ضد بعضهم البعض^(١). ومن خلال هذه الظروف خرجت دولة المماليك لتواجه المسؤولية، بالإضافة إلى مواجهة الفرنج والغرب الأوروبي.

كان على الصالح نجم الدين أيوب أن يواجه أولاً أقاربه بالسلاح عندما سعوا إلى التحالف ضده، وكفلت له موارد مصر الهائلة أن يجند جيشاً يفوق في إمكانياته وقدرته الإمكانيات العسكرية الهزيلة لتحالفهم الضعيف. وجند عدداً من الجنود الخوارزمية^(٢) الذين كانوا قد وفدوا إلى المنطقة العربية بعد أن دمر المغول دولتهم،

(١) قاسم، عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الاجتماعية ١٩٩٤م، ص ١١.

(٢) الدولة الخوارزمية ٤٧٠-٦٢٨هـ/١٠٧٧-١٢٣٠م ويعتبر أنوشتكين هو أول هذه الأسره وكان ساقياً عند ملك شاه، ثم عين السلطان بركيه روق السلجوقي قطب الدين محمد ابن أنوشتكين حاكماً على بلاد خوارزم. ولقبه خوارزم شاه أي ملك خوارزم، وقد عرف بحبه للعلم والأدب؛ وكان آخر سلاطين هذه الدولة جلال الدين منكبرتي الذي زالت دولته على يد المغول سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م؛ (حسن، إبراهيم حسن) (دكتور: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٩م، ط ٩، ج ٤، ص ٩٤ وما بعدها).

يبيعون خدماتهم العسكرية لمن يدفع أكثر. ونجح جيش الصالح نجم الدين أيوب والخوارزمية في السيطرة على مقاليد الحكم، والاستيلاء على دمشق وبيت المقدس ونابلس وضمها إلى أملاك الملك الصالح. وتم تدمير جيوش التحالف سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، في المعركة التي اشتهرت باسم معركة (غزه)^(١) وتبع ذلك تمكن السلطان الصالح نجم الدين أيوب من إعادة وحدة مصر والشام، كما كانت في عهد السلطان صلاح الدين^(٢). وشعرت أوروبا بالخطر العظيم بفقدان بيت المقدس، ووحدة المسلمين من جديد لأن في ذلك تهديداً لوجود المعازل الصليبية في بلاد الشام مما يعني نهاية لزعامة أوروبا، فسارعت بإرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق، وهي التي عرفت بالحملة السابعة، والتي كان على رأسها الملك الفرنسي لويس التاسع^(٣) لاجتياح مصر والعبور إلى بيت المقدس، وقد احتلت هذه الحملة دمياط سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، فاستعد السلطان الصالح نجم الدين للتصدي لها إلا

(١) استمرت هذه المعركة عدة ساعات فقط وخسر التحالف الصليبي الأيوبي آلاف القتلى والأسرى، (المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٣١٧-٣٢٢، وأبو شامة: الذيل على الروضين، ص ١٧٨، وأبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ١٧٢ - ١٧٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٢ - ٣٢٤).

(٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة، بيروت، لبنان، بلا تاريخ، ص ١٠٦.

(٣) لويس السابع ٦٢٤-٦٦٩هـ/١٢٢٧-١٢٧٠م، تولى حكم فرنسا وهو في الثانية عشرة من عمره تحت وصاية والدته بلانش القشتالية، اشتهر بلقب القديس لويس لما اتصف به من تقوى وصلاح، اقترن اسمه بالحملة الصليبية السابعة على الأراضي المصرية و التي باءت بالفشل، امتازت دولته بالتنظيم الجيد والعدالة والمساواة في جمع الضرائب، اتخذ موقفاً معادياً لليهود وتطرف في اضطهادهم قاد حملة أخرى على تونس ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، (عاشور، سعيد عبد الفتاح: أوروبا في العصور الوسطى، مطبعة الأنجلو المصرية الطبعة العاشرة، القاهرة ١٩٨٦م. ج ١، ص ٢٧٢-٢٧٧، انظر الملاحق خريطة رقم (١٧)، ص ٣٣٩،

أنه توفي أثناء ذلك بعد اشتداد مرضه في ١٤ شعبان ٦٤٧هـ/ ٢٢ أكتوبر ١٢٤٩م^(١).

وفي خضم الصراع الدائر بين الأيوبيين والصليبيين، وأثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس السابع توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب^(٢) وقامت زوجته شجر الدر^(٣) بإدارة شؤون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك. قد ظهرت شخصية وعبقرية شجر الدر عندما أدركت مدى الخطر المحدق بالمسلمين إذا علم الجيش والعامّة بخبر موت السلطان، مما قد يوقع الوهن في العزائم، ويثير الأحقاد والمطامع الكامنة في النفوس ويطمع الصليبيين فيهم،

(١) ابوالفداء: المختصر، ج٣، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) كان الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو ببحر أشموم طناج قد عرض له مرض ، وبعد ذلك حصلت له قرحة تيقنت الأطباء أنه لا خلاص له منها، لكنه لم يشعر بذلك .. (ابن واصل، أبو عبد الله ابن محمد بن سالم بن نصر الله المازني التميمي الشافعي الحموي، ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ص ١٩٥ - ١٩٦م، تحقيق، الشيال، جمال الدين وربيع، حسن محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة، ١٣٧٣هـ - ١٣٩٧هـ/ ١٩٥٣م - ١٩٧٧م، ج٢، ص ٣٥٣، والمقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والأثار - طبعة بولاق - القاهرة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م، ج١، ص ٢١٩). وأشموم طناج: هو المعروف اليوم باسم البحر الصغير أحد فروع الري الشهيرة، وهي بلدة قرب دمياط "الدقهلية"، وكان يسمى بحر أشموم نسبة لمدينة أشموم طناح الواقعة عليه، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٣١ - ٢٣٢، حاشية ٥، وياقوت، محمد عبد الله الحموي الرومي: معجم البلدان، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م، ج١، ص ٣٠٠).

(٣) شجر الدر أو شجرة الدر: المصادر المعاصرة وشبه المعاصرة تذكر الاسم كما جاء (شجر الدر) بينما المراجع المتأخرة فتذكره بصيغة (شجرة الدر) والواضح أن تسمية المعاصرين هي الأصح، كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية وما ذكره لين بول، وهي شجر الدر بنت عبد الله، أول سلطنة مصر من غير الأيوبيين، كانت أرمنية الأصل، وقيل تركية، ذكية، جميلة، أهداها الخليفة المستعصم إلى نجم الدين أيوب، فأنجبت له ابنه خليل الذي مات صغيراً، فرافقته في رحلته إلى المشرق عندما حبسه الملك ناصر داؤد في الكرك سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م، (ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج٦، ص ٩١).

فقامت بإخفاء خبر موته، وأرسلت سراً تستدعي توران شاه^(١) من حصن كيفا^(٢) بأطراف العراق ليتولى عرش والده، وفي هذا الوقت تبدت بطولة الأمراء المماليك، فتصدى بيبرس البندقداري ومعه فرقة من المماليك البحريين الصالحيين للصليبيين فطردوهم من بعض نواحي المنصورة حتى هربوا إلى دمياط^(٣).

كما أن أول عمل قامت به شجر الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج، وإنهاء المفاوضات التي بدأت معهم في عهد توران شاه، لترحيلهم عن البلاد المصرية. وبالفعل فإن المفاوضات المصري وهو الأمير حسام الدين أبو علي الهذاني^(٤) قد اتفق مع الملك لويس التاسع على تسليم دمياط، مقابل دفع فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى^(٥).

(١) المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين بن الكامل بن العادل ولد بمصر، وكان نائباً عن والده بحصن كيفا ووصف بسوء التدبير في مملكة والده، مع ذكاء وحب للعلم، تولى حكم مصر بعد وفاة والده الملك الصالح نجم الدين أيوب، في أول محرم ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وتوفي في ٢ محرم ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، (الحنبلي: أحمد بن إبراهيم، ت ٨٧٦هـ/ ١٤١٧م، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق الشرفاوي، مديحة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٦م، ص ٣٦-٣٧).

(٢) حصن كيفا: أو قلعة الصخرة تقع بأرض الجزيرة على الضفة اليمنى لنهر دجلة، (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩٧).

(٣) هو: بيبرس بن عبد الله، السلطان الظاهر ركن الدين أبو الفتح الصالح، وكان قبجاقي في الأصل، ولد سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م، فاشتراه الأمير علاء الدين أيديكين البندقدار، واشتغل في المنازعات السياسية أيام الأيوبيين. فلما تحولت السلطنة إلى المماليك انضم إلى السلطان المظفر سيف الدين قطز؛ وحارب معه ضد التتار في عين جالوت، فلما تم النصر للمماليك تأمر الظاهر بيبرس ضد المظفر قطز فقتله وتسلطن. حارب التتار والصليبيين وتوفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، ومن فتوحاته قيسارية، وأسوف، ويافا، وانطاكية، وحصن الأكراد، وغيرها، (ابن شاكر: فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٣٥ - ٣٤٧).

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٣٦٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧٤.

(٥) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص ٣٨٤.

لقد كان أصدقاء توران شاه وندماؤه لا ينفكون عن تذكيره بأنه ليس ملكاً إلا بالاسم وأن السلطة الفعلية بيد زوجة أبيه شجر الدر والمماليك^(١) مما دفعه للإساءة إلى المماليك الذين عليهم جل اعتماده كبيبرس وأقطاي وغيرهم، فأبغضوه وصاروا يخشون غدره ويتحينون الفرص للقضاء عليه^(٢).

لم يحفظ توران شاه لشجر الدر جميل صنعها، بل اتهمها بإخفاء أموال كانت لأبيه، حتى اضطرت لمعاداته، وغادرت إلى القدس هرباً من مضايقاته^(٣) ثم لم تلبث أن عادت وجعلت تتصل بأنصارها من المماليك البرجيه المعادين لتوران شاه، فقاموا بمهاجمته وهو في معسكره في فارسكور، وذلك في ٢٩ محرم ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م^(٤) مما اضطره لإلقاء نفسه في البحر من فوق برج خشبي كان قد التجأ إليه، بعد أن حرق البرج عليه عندما قذفوه بالسهم، فمات جريحاً غريقاً حريقاً، دون أن تنفعه استعطافاته وصيحاته "ما أريد ملكاً، دعوني أرجع، خذوا ملككم ودعوني أعود إلى حصن كيفا"^(٥). ولكنهم لم يلقوا لأقواله بالاً وقالوا: "بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها"^(٦) وهكذا اصطدم توران شاه بطموح شجر الدر وقوة المماليك ونفوذهم المتصاعد وانتهى الصدام بمصرعه المأسوي.

لم يفكر المماليك في من سيولونه السلطة بعد مصرع توران شاه لذلك وجدوا أنفسهم في حيرة من أمرهم، حيث إن المتطلعين لهذا المنصب من قادة المماليك كثيرون، ولكن أهل مصر والملوك الأيوبيين في الشام لم يكن من السهل عليهم أن

(١) أبو الفداء: المختصر، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٣٥٨-٣٥٩، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٦، ص ٣٧.

(٣) أبو الفداء: مصدر سابق، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٧١، و ج ٣، ص ١٩٠.

(٥) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٦، ص ٣٧١، وابن واصل: مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٧١.

(٦) المقرئزي: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٥٩ - ٢٦٠، وأبو شامة: كتاب الروضتين، ص ١٨٠.

يقبلوا جلوس مملوك على عرش مصر لهذا قرروا أن يولوا شجر الدر^(١)، فنصبوها سلطنة على مصر في الثالث من صفر سنة ٦٤٨هـ/السابع من مايو ١٢٥٠م، ولقبوها باسم "الملكة عصمة الدين شجر الدر والستر العالي والدّة الملك خليل"^(٢) ودعوا لها على المنابر. وعينوا عز الدين آيبك الجاشنكير الصالحي المعروف بالتركماني أحد أمراء البحرية من الصالحية^(٣) آتابكاً في ربيع آخر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م^(٤)، ويبدو أن هذا التعيين لم يكن لأن آيبك كان أقوى الأمراء^(٥) وإنما لتجنب وصول فارس الدين أقطاي^(٦) إلى هذا المنصب، لأنهم كانوا يخشون من قوته وتسلطه^(٧).

إلا أن الأمور في مصر والقاهرة قد اضطربت وذلك احتجاجاً وأنفة من حكم امرأة، وعمت الفوضى القاهرة مما اضطر شجر الدر إلى الأمر بإغلاق أبوابها منعاً لانتشار خبر هذه الاضطرابات^(٨). وزاد من خطورة هذا الوضع انضمام علماء المسلمين إلى العامة في هذه المعارضة وعلى رأسهم الشيخ عز الدين بن

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ص ٩٦.

(٢) المقرئزي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٦٢.

(٣) انظر الملاحق خريطة رقم (١٨)، ص ٣٤٣.

(٤) أبو الفداء: المختصر، ج ٦، ص ٨٦.

(٥) المصدر نفسه: ج ٦، ص ٨٦.

(٦) فارس الدين أقطاي الجمдар: زعيم المماليك البحرية بمصر، توفي بقلعة الجبل بالقاهرة في سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، وهو ليس معاصره فارس الدين أقطاي المستعرب أتابك العسكر في عهد السلطان قطز. (المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٤٣٧ وابن شاکر: فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٣٥ - ٣٤٧)

(٧) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٧.

(٨) ابن الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيك، صاحب صرخد، ت ٧٣٦هـ/١٢٣٩م: كنز الدرر وجامع الغرر - تحقيق برنرد راتكة وآخرين - المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٦٠م/١٩٩٤م، ص ٢.

عبد السلام^(١) كما لم يوافق الخليفة العباسي على توليها السلطة. قال الشيخ شمس الدين الجزري: لما بلغ الخليفة المعتصم بالله، وهو ببغداد أن أهل مصر قد سلطنوا عليهم امرأة أرسل يقول لهم: "أعلمونا إن كان ما بقي عندكم من الرجال في مصر من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها" وأنه قال: "لا يصلح قوم ولوا أمرهم امرأة، وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الإنكار"^(٢). عند ذلك رأى المماليك البحرية الصالحية المؤيدين لشجر الدر أنه لابد لهم من مخرج وقالوا: "لا يمكن حفظ البلاد، والملك لإمرأة، ولابد من إقامة رجل للمملكة لتجتمع الكلمة عليه"^(٣)، فسارعوا إلى تزويج الأتابك عز الدين التركماني أتابك العسكر بشجر الدر وتنازلت له عن السلطة بعد ثمانين يوماً من حكمها، فأصبح معز الدين آييك سلطاناً^(٤).

إلا أن آييك بادر إلى اغتيال أكبر منافسيه وهو خشداشه أقطاي الجمدار ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، وساعده في ذلك كل من قطز وبهادر^(٥)، وسنجر^(٦)، وأضطر

(١) العز بن عبد السلام، ولد سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م ودرس في دمشق على يد ابن عساكر، وتولى إمامة وخطابة المسجد الأموي، ورحل عن دمشق احتجاجاً على استعانة الملك الصالح إسماعيل بالفرنجة سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، فولاه الملك الصالح نجم الدين خطابة جامع عمر بن العاص، ثم عهد إليه بتدريس المذهب الشافعي في مدرسته بين القصريين بالقاهرة وتوفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م. (وَأَبُو الْفَدَاءِ: المختصر، ج ٣، ص ٢٢٤، والسيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الدولة، تحقيق محيي الدين، محمد، دار الفكر، القاهرة، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م، ص ٣٤).

(٢) السيوطي: المصدر السابق، ص ٣٤.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٧٦.

(٤) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٣٦٧ - ٣٦٩.

(٥) بهادر: لم أقف له على ترجمة.

(٦) هو: سنجر، بن عبد الله الأمير الكبير الجولي. لقب بالأمير سنجر علم الدين وكنى بابن أبي سعيد. ولد سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م، بآمد ثم صار لأمير من الظاهرية يدعى جاولي، توفي سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، وانتقل بعد موته إلى بيت المنصور، وتقلبت به الأحوال إلى أن صار مقدماً=

أقطاي إلى الفرار ومعه بيبرس البندقاري^(١) وقلالون الألفي^(٢)، حيث لم يستطعوا مغادرة القاهرة التي كانت موصدة الأبواب، إلا بحرق أحد الأبواب والذي ظل يعرف بالبواب المحروق، وتابعوا هروبهم نحو الشام وتفرقوا ما بين دمشق وحلب والكرك ودولة السلاجقة^(٣). فقام آيبك بمصادرة أموالهم وتجريد من بقي منهم من سلطاته. ولإبطال حجة الملوك الأيوبيين بالشام، ومطالبتهم بعرش مصر، قام آيبك بتولية الطفل الأشرف، موسى الأيوبي^(٤) السلطنة وهو في السادسة من عمره

=بالشام، ثم استقر أميراً مقدماً بمصر، (المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٨٥٠، وابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٦، ص ٧٨-٧٩).

(١) بيبرس: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلاني البندقاري الصالحي النجمي لقب بأبو الفتوح المظفر سلطان مصر ١٣٠٨/١٣٠٩م. ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي، بدأ مملوكاً يباع في أسواق بغداد والشام، وانتهى به الأمر كأحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط. لقبه الملك الصالح أيوب في دمشق بـ"ركن الدين"، وبعد وصوله للحكم لقب نفسه بالملك الظاهر. ولد بيبرس نحو عام ٦٢٠ هـ/١٢٢١م. (معلوف، لويس: مصدر سابق، ص ٥٥٥-١٥٦).

(٢) الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون، ولد بالقاهرة في ٦٨٤ هـ/١٢٨٥م، وتوفي بالقاهرة في ٧٤١ هـ/١٣٤١م. تاسع سلاطين الدولة المملوكية البحرية. كني بأبو المعالي وأبو الفتح، ولقب بالألفي لأنه اشتري بألف دينار. جلس على تخت السلطنة ثلاث مرات، من ٦٩٣ هـ/١٢٩٣م، إلى ٦٩٤ هـ/١٢٩٤م، ومن ٦٩٨ هـ/١٢٩٩م إلى ٧٠٨ هـ/١٣٠٩م، ومن ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م، وحتى وفاته في عام ٧٤١ هـ/١٣٤١م، (ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٤٧، والصفدي، صلاح الدين خليل ابن آيبك ٦٧٣ هـ/١٣٦٧م : الوافي بالوفيات، تحقيق، هلموت، ريتز وآخرون، فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٣٨١ هـ-١٤١٦ هـ/١٩٦١-١٩٩٦م، ج ٢٤، ص ١٩٩-٢٠٣، ومعلوف: مصدر سابق، ص ٥٥٥).

(٣) سلاجقة الروم، كان ظهور هذه الدولة في بلاد الأناضول على يد مؤسسها سليمان الأول بن قطمش ٤٧٠ هـ/١٠٧٧م، وتمكنت من ضم آسيا الصغرى في أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وقد تمكن المغول من إسقاط هذه الدولة سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠٠م، (المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٦٦ - ٣٦٨، وابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر = القرشي(ت، ٧٧٠ هـ/٦٩٦م): البداية والنهاية، بيروت ١٩٨٣م، ج ١٣، ص ١٨٥، وحسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ٨٩-٢٤٣).

(٤) المقريزي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٦٩، وابن إياس: مصدر سابق، ج ١، ص ٩٠.

وجعله شريكاً له في الحكم، فخطب باسميهما على المنابر وسكت العملة باسميهما^(١).

إلا أن آيبك اضطر في نهاية الأمر إلى الاستعانة بالخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد ونصب نفسه نائباً له على مصر^(٢). ثم دب الخلاف بين آيبك وزوجته شجر الدر، بسبب تسلطها وشدة غيرتها عليه، فحاول أن يتزوج من ابنة بدر الدين لؤلؤ الأتابكي^(٣) صاحب الموصل، نكاية بها، خصوصاً وقد شعر بتآمرها مع أنصارها من المماليك البحرية عليه وعلى مماليكه المعزية^(٤) فقررت شجر الدر قتله، واتصلت سراً بالملك الناصر في دمشق تعرض عليه التعاون معها ضد آيبك، وأن يتزوجها ويشركها معه في السلطة مقابل تسليمه مصر، ولكن الناصر لم يتحمس لهذا العرض ظناً منه بأن هذه الخطوة خدعة منها للغدر به^(٥).

لقد علم بدر الدين لؤلؤ بمؤامرة شجر الدر فأخبر آيبك فاحتاط لنفسه من غدرها، وقرر قتلها، ولم تلبث شجر الدر أن تحاليت عليه فاستدعته إلى القلعة، بعد أن كان

(١) أبو الفداء: مصدر سابق، ج ٣، ص ١٩٢.

(٢) جوزيف، نسيم: مصدر سابق، ص ٢٧٤.

(٣) لؤلؤ بن عبد الله النوري الملك الرحيم بدر الدين أبو الفضائل الأرمني كان في الأصل مملوكاً لنور الدين أرسلان شاه زنكي، وترقى عنده حتى صار استاداره والحاكم في دولته، وبعد موت نور الدين ٦٠٧هـ/١٢١١م، استقر في الملك بعده ولده القاهر مسعود، وقام بدر الدين بتدبير ملكه، وبعد موت القاهر ثم ولديه الصغيرين استغل بدر الدين بالملك عام ٦٣١هـ/١٢٣٤م، وسمى نفسه بالملك الرحيم، وأخذ يتقرب للخليفة الناصر لدين الله حتى بعث له الخلع والتقليد بالسلطنة، وقد رآه ابن واصل نفسه فوصفه قائلاً: (ورأيت من تجمله وعنايته بالرسل والواردين عليه مالم أراه عند ملك من الملوك) ولم يزل بدر الدين مالكا للموصل وبلادها، إلى أن ملك التتر بغداد واستولوا على العراق والجزيرة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، فتوجه بدر الدين إلى هولاكو ملك التتر فأقره على ولايته ثم رجع إلى الموصل فمات سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م (ابن واصل: مصدر سابق، ج ١، ص ١٦٦-١٦٨- وج ٢، ص ٢٨٩-٣٨٧).

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٣٩٥. والمعزية: نسبة للمعز آيبك.

(٥) المقرئزي: مصدر سابق، ج ١، ص ٤٠٢.

هجرها إلى مناظر اللوق، ودست عليه خمسة من غلمانها فقتلوه في الحمام في ٢٣ ربيع الأول ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م^(١).

لما علم المماليك المعزية بوفاة سيدهم في القلعة حامت شكوكهم حول شجر الدر، وعندما انجلت لهم حقيقة الأمر عزموا على قتلها لولا تدخل بعض المماليك الصالحية الذين نقلوها على عجل إلى البرج الأحمر في القلعة حماية لها^(٢) فقام المماليك المعزية بتعيين الطفل نور الدين علي بن معز الدين آيبك مكان أبيه باسم المنصور علي سلطاناً على مصر^(٣)، وكان عمره خمس عشرة سنة^(٤). وعينوا قطزاً نائباً له رغم معارضة المماليك الصالحية. ورغم تعيين الأمير علم الدين سنجر الحلبي نفسه نائباً للسلطنة، فقد رفض المعزية تأييد سنجر وقاموا باعتقاله وولوا قطزاً مكانه^(٥).

كان أول عمل قام به السلطان المنصور علي وآتابكه قطز هو الأمر بقتل شجر الدر بعد أن ضعف شأن المماليك الصالحية، فحملت إلى قصر أم السلطان بالقلعة، وهناك أمرت بقتلها "فضر بها الجواري بالقباقب إلى أن ماتت وألقيت من على سور القلعة إلى الخندق، فبقيت في الخندق أياماً، حتى نتنت، ثم حملت في قفة إلى تربتها

(١) ابن تغري بردي: المصدر سابق ج٦، ص ٣٧٥ - ٣٧٦، وأبو الفداء: مصدر سابق، ج٦، ص ٩٥-٩٦، والمقريزي: مصدر سابق، ج١، ص ٤٠٣.

(٢) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج٦، ص ٣٧٧.

(٣) المنصور علي: هو علي بن آيبك التركماني، تسلطن بعد مقتل والده سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، وخلعه المظفر قطز سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م، وتوفي في القسطنطينية بعد أن نفاه الظاهر بيبرس إليها هو وأخوه ووالدته، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٥٢).

(٤) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج٦، ص ٣٧٦.

(٥) النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري، (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م): نهاية الأرب في صناعة الأدب، ج٧، ص ٩٥، والمقريزي: مصدر سابق، ج١، ص ٣٦١.

قريب المشهد النفيس فدفنت بها^(١). ثم قضى قطز علي محاولة المثبت صاحب الكرك للاستيلاء على مصر سنة ٦٥٥هـ - ٦٥٦هـ / ١٢٥٧ - ١٢٥٨م، بمعاونة المماليك البحرية الفارين من مصر، ثم قام بعزل السلطان علي بن معز الدين آيبك (٦٥٧هـ / ١٢٥٨م) واعتقله مع أمه وإخوانه في أحد أبراج قلعة الجبل^(٢) وبدأ في الاستعداد للتصدي للخطر المغولي.

ثالثاً: علاقة المماليك بالمغول (التتار):-

سمي المغول بالتتار خطأً لأن لفظ "التتر" جمع مفردة (تاتا) اسم لطائفة مغولية صارت أمةً على يد جنكيزخان^(٣) وانتشرت في الغرب لأنها كانت تؤلف طلائع الجند المغولي فترتب على ذلك انتقالها بالتدريج إلى غربي بلاد المغول واسم هذه الجهة عندهم "تركي" وهي مقر الأتراك فكان ينبغي أن يسمى هذا الفرع من الجنس المغولي "المغولي التركي"^(٤).

(١) المقريزي: مصدر سابق، ج ١، ص ٤٠٤.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي (ت: ٧٧٠هـ / ٦٩٧م): البداية والنهاية، بيروت ١٩٨٣م، ج ١٣، ص ٢١٦. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٥، والمقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤١٧.

(٣) جنكيز خان: كلمة تعني قاهر الظلام، وملك ملوك العالم والقوي حسب ترجمات مختلفة للغة المغولية وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه، واسمه الأصلي (تيموجين) ومعناه في اللغة الصينية الصلب الخالص، وكان رجلاً سفاكاً للدماء، وقد تمكن تيموجين بعد منازعات وحروب مع أبناء جلدته من الوصول إلى بغيته، وهي زعامة المغول سنة ٦٠١هـ / ١٢١٠م، وأن يجعل منهم قوة ظننها المعاصرون لها أنها لا تهزم، وبهذه القوة استطاع هذا الإسكندر الآسيوي أن يجتاح العالم شرقاً وغرباً، حتى ترك لأبنائه إمبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الأسود، واتسعت دولته حتى بلغت حدودها كوريا شرقاً، إلى حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غرباً، وسهول سيبيريا شمالاً، إلى بحر الصين جنوباً. (القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. توفي سنة ٥٢٨هـ / ١٤١٨م، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، المطبعة الأميرية، بلا تاريخ، ج ١٤، ص ٣١٠-٣١٢، وسير أرنولد، توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن، إبراهيم، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٤) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٦، ص ٣٧٩.

كانت علاقة المماليك بهم نابعة من ما تركه المغول من رهبة في أذهان جميع الأمم في ذلك العصر، فعقد جنكيز خان محالفتين هجوميتين دفاعيتين إحداهما بينه وبين "برخ" صاحب "قبحاق" عدو "أبغا"^(١) رئيس المغول إذ ذاك والأخرى مع قيصر الدولة الرومانية عدو الحروب الصليبية^(٢) التي أضرت ببلاده ضرراً بليغاً، وقد توطدت عرى المودة بين الظاهر وقيصر حتى أن بيبرس قبل بطريقاً ملكانياً موفداً لمصر لمن يدين بهذا المذهب فيها، وبنى القيصر في عاصمة ملكه جامعاً للمسلمين، وأرسل بيبرس وفوده ورسله إلى كل مكان يجد فيه مساعدة ضد أعدائه، ولم يكن للمغول القوة الكافية لغزو مصر في حينها لانشغالهم بخلافاتهم الداخلية، واستمرت العلاقة في توتر واحتياط حتى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م عندما هاجمهم بيبرس وطردهم وتعقب جيوشهم في آسيا الصغرى. فبدأت بينهم المراسلات والهدنة^(٣).

موقعة عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)^(٤)

أعلن هولاكو عن رغبته في غزو مصر واحتلالها إذ أرسل إلى سلطانها قطز رسالة صيغت بكل ما تحمل الألفاظ من معاني الغطرسة والوعيد، بحجة أن ذلك تنفيذ للإرادة الإلهية^(٥). وهذه مقتطفات منها: (بسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملكنا أرضه، وسلطننا علي خلقه، فاليعلم ملك مصر إنا جند الله في أرضه، خلقنا

(١) هو: أبغا بن هولاكو بن جنكيز خان، تولى الحكم بعد وفاة أبيه، اتصف بالشجاعة والخبرة في الحروب كانت له موقعة عظيمة مع الظاهر بيبرس في الأبلستين سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، انتصر فيها الظاهر؛ ومات أبغا بهمدان، سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وعمره خمسين سنة، (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ١، ص ١٩٨-٢٠٠، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، م ٧، ص ٣٤٢).

(٢) انظر الملاحق خريطة رقم (٤٠)، الحملات الصليبية، ص ٣٠٦.

(٣) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٦، ص ٤٠٦.

(٤) انظر الملاحق خريطة رقم، ص ٣٣٧، والمصدر السابق، ج ٦، ص ٤٠٦.

(٥) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٤٢٠.

من سخطه، وسلطنا على من حلّ عليه غيظه، فلکم بجميع الأمصار معتبر، وعن
عزنا مزدجر، فاتعظوا بغيرکم، وسلموا إلينا أمرکم، قبل أن ينكشف الغطاء،
ويعود علیکم الخطأ، فنحن لا نرحم من بکی، فعلیکم بالهرب، وعلینا بالطلب، فأی
أرض تأویکم، وأی بلاد تحمیکم، ولنا المال والثرى، فما لکم من سیوفنا خلاص،
ولا من أیدینا مناص، فخیولنا سوابق، وسیوفنا صواعق، ورماحنا لواحق، وسهامنا
لواحق، (١٠٠)^(١)، واستند هولاکو فی رسالته إلى الآتی:

١- وجود قواعد قوية وغنية تحمي ظهر القوات المغولية المتقدمة غرباً تتمثل في
بعض مدن العراق والجزيرة المحتلة، التي تربطها بمدن الشام، وخاصة فلسطين،
طرق مواصلات جيدة.

٢- وجود بعض القيادات المحلية التي تورطت نتيجة لعوامل مختلفة في الإذعان
لإرادة المحتلين، ومن الممكن الاستفادة من أهمية هذه القيادات سياسياً وما يمكن أن
تقدمه من مساندة عسكرية، ووجود أقليات متعاونة مع المغول، أو لها رصید سابق
في معاداة العرب المسلمين، كالنصيرية في نواحي اللازقية، والأرمن، والكرخ في
أعلى الشام، يمكن الاستفادة من قواها العسكرية^(٢).

٣- أمر السلطان قطز بإعدام الرسل الذين حملوا رسالة هولاکو إليه واستترقاق
أحدهم^(٣). واستندت القيادة المصرية في موقفها إلى الآتی:

أ- وجود قوة عسكرية كبيرة في مصر.

(١) المقریزی: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٥-٤٢٨، والقلقشندی: صبح الأعشى، ج ٨، ص ٦٣-٦٤.
(٢) ومنهم الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان حاكم البيرة وبانياس والقلعة الحبيبة، وقد أعدمه
السلطان قطز في عين جالوت، (ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٠٩).
(٣) تشير الرواية المغولية: إلى أن عدد الرسل هو أربعين بينما تشير الرواية المصرية إلى أن عددهم
خمسة، أعدم أربعة أما الخامس فقد أبقي عليه، وضم إلى حملة ممالیک السلطان، (المقریزی: مصدر
سابق، ج ١، ص ٢٤٩).

ب- معرفة القيادة المصرية التامة بالطرق الداخلية لبلاد الشام، وهي التي يمكن أن يسلكها جيش المغول، في أي تقدم مقبل، وفهمها العميق لطبوغرافية هذا الإقليم وخصائصه المختلفة، ويمكن أن نذكر هنا أن كثيراً من القادة والجنود المصريين سبق لهم أن خاضوا معارك مهمة في فلسطين أواخر حكم الأيوبيين.

ج- وجود استخباري مصري قوي في فلسطين.

د- انحياز السكان من أبناء القرى إلى الجانب المصري.

هـ- عدم وجود خيار أمام المماليك سوى القتال^(١).

كانت جيوش المغول قد دخلت بلاد الشام سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م، واستولوا على عدة مدن، وكانوا يقتلون ويأسرون، ولم يبق أمامهم إلا مصر وقد أشرنا الي أن هولاكو أرسل خطاباً إلى سلطان مصر قطز مهدداً وطالباً منه التسليم^(٢)، إلا أن قطز رفض هذه الرسالة، وعقد مجلساً مع كبار أمراءه فاستقر رأيهم على المقاومة وعدم الاستسلام، وفي الوقت نفسه كان هولاكو قد عاد إلى المغول في الشرق عندما علم بوفاة أخيه وترك القائد كتبغا نائباً عنه في الشام، وحينما علم كتبغا بوصول قطز بجيشه إلى الشام قرر المبادرة إلى لقائه فاتجه إلى عين جالوت^(٣). فدارت هنالك معركة حامية الوطيس بين الجانبين.

(١) المقرئزي: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

(٣) عين جالوت: مدينة في فلسطين تقع بين بيسان ونابلس، (ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٦٤).

وفي هذه الواقعة استطاع قطز وقائده بيبرس البندقداري^(١) هزيمة المغول هزيمة ساحقة وتحقيق نصر عظيم عليهم في سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، فهذا النصر أوقف المغول عند حدود مصر الشرقية وجعلهم يشعرون بالخطر على وجودهم في بلاد الشام بعد أن فقدوا قواتهم، ورفع هذا النصر روح المسلمين المعنوية في بلاد الشام وغيرها وجعلهم ينادون بوحدة مصر والشام تحت حكم المماليك الأقوياء^(٢).

قام قطز بتدبير أمور الشام بعد هذا النصر الكبير، وخرج من دمشق عائداً إلى القاهرة، وكان قد قرر التوجه إلى حلب ولكن بعض الوشاة أبلغوه أن الأمير بيبرس البندقداري وجماعة من الأمراء البحرية قد تتكروا له وأنهم يضمرون له شراً^(٣) وعندما وصل قرب الصالحية ابتعد عن معسكره للصيد، فقتله بيبرس ومجموعة من الأمراء، وقد تعددت روايات المؤرخين المعاصرين حول دوافع بيبرس؛ نأخذ منها ما ذكره المقرئزي بقوله: "أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر قطز أن يولية نايبه حلب، إلا أنه أخلف الوعد وأعطاهما للأمير علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ فأضمرها بيبرس في نفسه"^(٤). وهكذا قتل قطز ولم يمهل القدر أن يعود للقاهرة لتكتمل فرحته بنصره الكبير^(٥). وبمقتل السلطان قطز خرج المماليك الذين تأمروا عليه ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م فأخذوا الملك للسلطان بيبرس؛ وبعد

(١) كان قفجاقياً في الأصل بيع في مدينة سيواس، ثم أحضر إلى حماة وعرض على صاحبها الملك المنصور فلم يعجبه، فاشتراه الأمير علاء الدين البندقدار مملوك الصالح نجم الدين أيوب، وعندما انتقل الأمير علاء الدين لخدمة الملك الصالح أخذ معه بيبرس والذي أخذ الملك الصالح ونسبه إليه دون أستاذه. (المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٠٠).

(٢) حبيبة، علي حسن (دكتور): الحروب الصليبية، طبعة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٩م، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٤٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٢.

(٤) أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٠٧، والمقرئزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣٤.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٠٥ - ٣٠٧.

أن حلف القادة بمن فيهم فارس الدين أقطاي، والجند يمين الولاء لببيرس دخل القاهرة ظافراً^(١).

يعتبر ببيرس من أعظم سلاطين المماليك لما قام به من أعمال جليلة في العمران وإحياء الخلافة، والتصدي للنتار، وهو أول من استن نظام ولاية العهد عند المماليك، بتعيين ابنه السعيد بركة خان، والعاقل بدر الدين سلامش، الذي اغتصب قلاوون الحكم منه فيما بعد سنة ٦٧٩هـ/١٣٧٨م^(٢).

رابعاً: علاقة المماليك بالصلبيين:-

الحروب الصليبية عدة حروب شنتها الدول الأوروبية على الدول الإسلامية التي حكمت بعض بلاد الشام لاستخلاص بيت المقدس منها، ودعيت بالصليبية لأن الجنود الأوروبية كانت تتخذ الصليب شعاراً لها، وكانت الأعلام الأوروبية تتميز بوجوده على رقعته. لقد نشأت أول فكرة لحرب صليبية من الرغبة في تأمين الحج للذاهبين لزيارة بيت المقدس، وقد زاد هؤلاء الزوار في القرنين العاشر والحادي عشر زيادة دعت للتفكير في حمايتهم، وكانت هذه الزيادة نتيجة لسببين مهمين:

الأول: كانت هنالك شائعة في ذلك العهد تنبئ عن ظهور المسيح في بيت المقدس، عند مطلع القرن العاشر أو على رأس الألف من التاريخ الميلادي، ولذلك تسارع المؤمنون أفراداً وجماعات لزيارة بيت المقدس، وانتظار المسيح لنيل البركة والغفران^(٣).

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٩٨.

(٢) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٧، ص ٢٦٧.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

الثاني: اعتناق الطوائف الهنغارية والبلغارية والمجرية للديانة المسيحية مما سهل الطريق أمام الزائرين إذ أنه لم يكن هنالك إلاّ طريق واحد هو طريق البر إلى الأستانة ومن ثم إلى آسيا ففلسطين^(١).

أما السبب المباشر للحروب الصليبية فهو استتجاد إمبراطور القسطنطينية "الكسيوس كومنين ٤٧٣-٥٧٣/١٠٨١-١١٨١م، بدول الغرب بعد انتصار السلاجقة عليه وضعف مركزه، فوصل استتجاده إلى البابا غريغوري السابع ٤٧٢هـ/١٠٨٠م فصادف هوى في نفسه إلا أنه انشغل بنزاعه مع الإمبراطورية عنه. ثم استتجد الإمبراطور مرة ثانية بالبابا أربان الثاني ١٠٨٨/١٠٩٩م" وهو فرنسي الأصل^(٢) فعقد مجلساً عاماً في مدينة كليرمنت سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، جنوب فرنسا داعياً لإنقاذ بيت المقدس من المسلمين، وأصدر صكوك غفران للمحاربين ووضع الصليبان على أذرعهم، فسميت بالحروب الصليبية، التي بلغت سبع حملات بدأت من القرن الحادي عشر واستمرت إلى الثالث عشر الميلادي. ولا يهمننا منها إلا الحملة السابعة بقيادة لويس التاسع^(٣).

قام قائد القوات المصرية والأيوبية الأمير بيبرس البندقداري، في ٧ذي القعدة ٦٤٧هـ/١١فبراير ١٢٥٠م، بمظاهر عسكرية في مدينة المنصورة وطاف بشوارعها وأزقتها وتكناتها، في موكب عسكري يتصدره جاويش من جواويشه

(١) هناك أسباب ثانوية: أولها رغبة البابا والكنيسة الغربية في السيطرة على جميع العالم المسيحي تحت إمرة حكومة دينية رئيسها البابا .

(٢) البابا أربان الثاني: اسمه أوتو اللاجيري، وهو معروف بإطلاقه الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥/١٠٩٩م). وهو صاحب الحملة الصليبية الأولى في التاريخ وقد تولى الكرسي البابوي إحدى عشرة سنة، وذلك من سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٨م، إلى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. (زقلمة، انور، المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، ط١، نسخة مصورة جامعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٣٣).

(٣) زقلمة: المرجع السابق، ص ٣٥.

يحمل ملابس صليبية ملكية عسكرية على رأس عود نشاب طويل، لاعتقاده أن هذه الملابس تتعلق بالملك الفرنسي لويس التاسع، وهي منزوعة من جثمانه بعد موته قتيلاً في معركة المنصورة. والحقيقة أن هذه الملابس كانت لأخيه روبرت كونت ارتوا، الذي قتل في تلك المعركة، لتشابه طرز ملابس أعضاء البيت الملكي الفرنسي بوجود طراز زهرة الزنبق عليها؛ ونادى الجاويش خطأً بمقتل الملك^(١). فسمع بذلك الملك لويس التاسع فأحاط معسكره (بجديلة) بسور من الأعواد الخشبية، ثم عمل على تقوية بحر آشمووم طناح الرابط بين جديلة والمعسكر الصليبي الشمالي، ثم رتب جيشه من الخيالة والمشاة وراء السور الخشبي الجديد لمقاومة الهجوم المنتظر^(٢).

بدأت قوات السلطان توران شاه بقيادة بيبرس هجوماً مكثفاً يقوده أربعة آلاف مقاتل بحيث وصلت أطرافه إلى أقصى أطراف الميمنة والميسرة الصليبية، وطوقت المعسكر الصليبي كله تطويقاً تاماً من ناحيته^(٣). ثم بدأت المعارك واستمرت في كل الجبهات، فطلب لويس التاسع الهدنة والتفاوض مع السلطان توران شاه، إلا أن هذه المفاوضات باءت بالفشل، فقرر لويس التاسع الانسحاب إلى دمياط، فانقضت الجيوش المصرية الأيوبية على ذيول الصليبيين المنسحبين وهزمتهم. وفي يوم ٦ محرم ٤٨٦هـ/ ١٠ أبريل ١٢٥٠م وقع الملك لويس التاسع ومعظم البارونات المحليين في الأسر^(٤). وبعد مفاوضات مضنية أطلق السلطان توران شاه سراح البارونات المحليين مقابل فدية مالية ونزولهم عن إماراتهم ومدنهم وقلاعهم في

(١) زيادة، محمد مصطفى: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ط١، ص ١٦٨.

(٢) زيادة: المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٧١.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ص ٣٧٠.

فلسطين^(١)، ووافق على إطلاق سراح الملك لويس التاسع مقابل دفعه مبلغ عظيم من ماله الخاص^(٢). وبعد إطلاق سراح لويس التاسع ملك فرنسا، غادر دمياط إلى قبرص ومنها إلى عكا، التي كان حاكمها يوحنا، شقيق ماري امبراطورة القسطنطينية، وزوجة الإمبراطور يلدوين الثاني، ومن عكا أخذ يعمل على تحقيق حلمه في استرداد بيت المقدس رغم ما أصابه من نكبات بل عاش معه هذا الحلم يراوده حتى مات في تونس وهو يقود الحملة الصليبية الثامنة سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م.

ولقد استغل لويس الصراع الناشب بين المماليك البحرية وبقايا الأيوبيين في الشام، فأخذ الملك لويس يساوم كلا الجانبين ويعدهما بالمساعدة وقد وقع معاهدة هدنة مع المماليك. عمل لويس خلالها على تحصين المدن التي كانت تحت يديه وأحاطها بالأسوار والأبراج والخنادق. كما حاول جمع كلمة الصليبيين الذين فرقهم الخلافات والحروب المحلية^(٣).

إن أول ما اعتزمه بيبرس بعد أن آلت إليه مقاليد الحكم هو اجتثاث الخطر الصليبي نهائياً من بلاد الشام^(٤)، ولتحقيق هذا الهدف تحالف بيبرس مع الإمبراطور البيزنطي باليولوجس عدو الصليبيين، حيث عقد معه معاهدة دفاع مشترك سنة

(١) زيادة: المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(٢) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٦، ص ٣٦٦.

(٣) أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، صاحب حماه، المتوفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م: تقويم البلدان المصرية، تحقيق مستشرقين فرنسيين، باريس ١٨٥٠م، ص ٢٣٩، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٠٠.

(٤) ابن أبي الفضائل، مفضل: النهج السديد والدر الفريد في مابعد تاريخ ابن العميد، نشرة بلوشيه، باريس ١٩١٩م، ص ١٩٢، والمقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٨٤ - ٦٠٠.

٦٦٠هـ/١٢٦٢م^(١)، كما حالف مغول القفجاق المسلمين "القنبلة الذهبية" وهادن أعداء المسلمين مغول فارس الوطنيين^(٢)، ثم توجه بعد ذلك نحو الشام لإعداد القوة والتجهيزات فأحس الصليبيون بالخطر فأرسلوا إليه وفودهم تعرض عليه المسالمة والمهادنة وتعبر عن حسن نيتها نحوه، ولكنه كان يردّها قائلاً: "ردوا ما أخذتموه من البلاد، وفكوا أسرى المسلمين جميعهم، فإني لا أقبل غير ذلك" ثم يطردهم من حضرته^(٣).

كان من قوة بيبرس وجهاده ضد الصليبيين أنه لم يخل عام من الأعوام العشرة ما بين ٦٥٩-٦٦٩هـ/١٢٦١-١٢٧١م، إلا وكان يشن فيه حرباً ويسترد أرضاً من أرض إحدى الإمارات الباقية بأيدي الصليبيين وهي: أنطاكية، وطرابلس وبعض مملكة القدس. ثم هاجم بيبرس إمارة أنطاكية أقوى الإمارات الصليبية وأحصنها وقد تحالف مع التتار فاستولى على القلاع المحيطة بها والتي تقع إلى الشمال منها^(٤)، واستمر هجومه على المدينة ودام الحصار أمداً، ثم جرت مفاوضات لتسليمها صلحاً ولكنه رفض، واستطاع أن يفتحها عنوة، في رمضان سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م فأحرقها^(٥)، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً^(٦)، وأسر أعداداً هائلة منهم، وغنم ما لا

(١) بيبرس، الدوادر المنصوري: ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م، زبدة الفكره في تاريخ الهجره، تحقيق عطا، زبيده محمد، عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، بدون تاريخ، ج٩، ص ٢٦٢.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج١، ص ٤٦٥.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٤) William Barron Stevenson c.1165 - 1221: The Crusade East: a brief history of the wars of Islam, p.p,45.

(٥) المقرئزي: مصدر سابق، ج١، ص ٥٤٤ - ٥٤٧، وابن كثير: مصدر سابق، ج١٣، ص ٢٥٩، ج٣، ص ٢٥١. قيل إنه قتل من أهلها مئة ألف.

(٦) Stanley Lane-Poole :History of Egypt in the middle ages p.p 1976,p334.

يحصى من الأموال. فكان سقوطها مؤشراً بارزاً على نهاية الصليبيين في الشام؛ لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سنداً لهم منذ بداية الحروب الصليبية، وسبب سقوطها ذعراً شديداً في صفوف الصليبيين، حتى أرسل ملك أرمينية الصغرى يعرض على بيبرس أن يسلمه بلاده مقابل الاستمرار في المهادنة^(١).

ثم التفت بيبرس نحو جزيرة قبرص ليؤدب ملكها هيو الثالث، الذي كان دائم التهديد للسفن الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط، ودائم المساعدة للصليبيين، فوجه نحوه حملة بحرية سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م^(٢) ولكنها فشلت بسبب العواصف التي حطمت معظم سفنها فنجى بذلك ملكها من العقاب^(٣).

ثم استجاب السلطان بيبرس لطلب الأمير بوهمند أمير طرابلس لعقد هدنة بينهما فعقد معه صلحاً مدته عشر سنوات^(٤)، كما طلبت مملكة بيت المقدس صلحاً مماثلاً، مما مكن بيبرس من التفرغ لقتال المغول والإسماعيلية "الحشاشين" الذين كانوا يعادون المسلمين ويتآمرون مع الصليبيين ضدهم، ويغتالون كبار المجاهدين من قادتهم، وقد تعاون الحشاشين مع المغول، ودفعوا لهم الأتاوات. فعزل بيبرس

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٤٧.

(٤) عاشور، سعيد عبد الفتاح: قبرص والحروب الصليبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) العيني، بدر الدين أبو التثاء وأبو محمد محمود بن القاضي شهاب الدين أحمد بن القاضي شرف الدين موسى بن أحمد بن محمود العينتايي الشهير بالعيني ولد سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م، و ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م، العيني، بدر الدين محمود العيني ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م: عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، تحقيق، عبد الرازق القرموط، حوادث سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م مطبعة الزهراء للإعلام العربي، ط١، القاهرة ١٩٨٩م، ص ٢٣٤.

(٤) المقرئزي: مصدر سابق، ج١، ص ٥٩٤.

مقدمتهم نجم الدين الشعراني، وهدم حصونهم وقضى عليهم بعد أن سلموها له؛ وأشهرها الكهف والقدموس والمنطقة، وعرضهم عنها بإقطاعات^(١).

لم يبق من الأراضي الإسلامية تحت حكم الصليبيين سوى شريط ساحلي ضيق يمتد على محاذاة البحر الأبيض المتوسط ناحية الشرق، يضيق ويتسع باختلاف الأزمنة، والظروف، لأن الصليبيين حتى في عنفوان قوتهم لم يتمكنوا من التوغل في داخل بلاد الشام، فبقيت حلب وحماه وحمص ودمشق بعيدة عن متناول أيديهم^(٢) وبفقدهم المبكر لأمانة الرها الإستراتيجية، ظلوا محاطين بالمسلمين من الشمال والشرق والجنوب، لا يربطهم بأوروبا مصدر قوتهم وإمدادهم سوى البحر، وتقلص نفوذهم في بلاد الشام ونتيجة لقوة الجيوش الإسلامية، وذكاء الظاهر بيبرس، فاقترنت أملاكهم في مطلع عهد الدولة المملوكية على إمارتي طرابلس^(٣)، وأنطاكية^(٤)، ومدينة عكا التي أصبحت مقراً لمملكة بيت المقدس بعد أن استرد المسلمون القدس^(٥).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٦٤.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٣، ص ٢٥٩.

(٣) طرابلس: مدينة ساحلية حصينة، يحدها من القبلة جبل لبنان، وتطل على بحر الروم "البحر الأبيض المتوسط" من ثلاث جهات، وتقع شمالها قلاع الدعوة الإسماعيلية وشرقها قلعة منيعة من الحجر، استولى عليها الصليبيون سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م، (المقريزي: مصدر سابق، ج ١، ص ٧٤٧-٧٤٨، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٤٤).

(٤) أنطاكية: تقع إلى الغرب من حلب على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط)، لها سور عظيم من الصخر، يمر بظاهرها نهر العاص والنهر الأسود، تمتاز بالهواء الجيد وعذوبة الماء، (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص ٢٠٧-٢٢٦، وأبو الفداء: المصدر السابق، ص ٢٥٧، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٢٩).

(٥) عكا: تقع على الساحل الشرقي لبحر الروم، جنوب صور، وشمال غرب طبرية، استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م، واستردها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٥٧م، واستولى عليها الصليبيون مرة أخرى ٥٨٧هـ/١١٦١م، ثم استردها الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، والأشرف =

خامساً: دور العلماء في الحياة السياسية

نجد أن ظاهرة توريث الحكم عند المماليك قد طغت في تلك الفترة فاعتلى عرش الدولة سلاطين صغار السن، فأصبحوا أداة طيعة في أيدي بعض الأمراء الكبار أو المنتفذين الذين مارسوا الوصاية عليهم، الأمر الذي أفضى إلى تدهور واضح في الأوضاع السياسية والاقتصادية والإدارية، وإلى حدوث ثورات وحركات عصيان داخلية، بسبب تنافس الأمراء، أدت إلى عزل السلطان الصغير وتعيين آخر مكانه يكون قادراً على تحمل أعباء الحكم. ومن ذلك ما حدث عام ٦٥٧هـ/١٢٥٨م عندما كان المغول على مشارف بلاد الشام، فجمع قطز العلماء والأعيان وتمت تولية قطز^(١).

الواقع أن دولة المماليك قد عانت كثيراً من مشكلات توريث العرش، وكان للعلماء دور بارز في معالجة هذه المشكلات، من ذلك عندما أقدم سيف الدين قلاوون على خلع الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس من الحكم وذلك لصغر سنه، وافقه على ذلك عدد من العلماء والقضاة والأمراء والأعيان الذين نادوا بقلاوون سلطاناً بدلاً عنه، ولقبوه بالملك المنصور قلاوون، والذي استطاع بما يتمتع به من صفات إدارية وحربية من مواجهة الأخطار التي كانت تهدد الدولة في الشام من قبل المغول والصليبيين على حد سواء^(٢). ومع ذلك نجد أن بعض العلماء ساهموا في استمرار بعض الأمراء والسلاطين غير المؤهلين

=خليل هو خليل بن قلاوون تولى السطنة بعد والده، لكنه قتل بعد ثلاث سنوات غدرًا سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، وكان له الفضل في تصفية الوجود الصليبي من سواحل بلاد الشام، (ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٦، ص ٣٦٥، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٥٢، والصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١٣، ص ٢٤٩-٢٥٦، وابن حبيب: تذكرة النبیه، ج ٢، ص ١٦٧).

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٢.

(٢) ابن حبيب: مصدر سابق، ج ١، ص ٤٨، والمقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٦٤-٦٦٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٤٤، وقاسم، عبده: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٤٣.

لولاية أمر المسلمين، من ذلك عندما أقدم بيبرس على أخذ موافقة كبار رجال الدولة من العلماء على إسناد ولاية العرش إلى ابنه السعيد بركة سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، حيث جمع عدداً من القضاة والشهود والأعيان وأخذ موافقتهم لتحليف الأمراء والأجناد لابنه السعيد بركه الذي لم يكن مؤهلاً لأن يلي منصب السلطنة في القاهرة^(١). لكونه لم يكن يمتلك من القدرات الإدارية والسياسية والعسكرية ما يؤهله لخلافة والده في الحكم. ومثل ذلك ما حدث مع الملك الناصر محمد بن قلاوون فبعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، لم تكن هنالك ولاية للعهد، لذلك اضطر الأمراء في مصر لإخفاء خبر وفاة الملك الأشرف عن نوابه في بلاد الشام، وذلك حتى يأخذوا البيعة للناصر محمد. فقد قام الأمير عز الدين إيبك الحموي^(٢) نائب دمشق بجمع "الأمراء والمقدمين والقضاة والأعيان" وقام بتحليفهم للملك الناصر محمد^(٣)، وذلك حتى يضمن ولاء نواب الشام للناصر محمد والذي شهدت ولايته الأولى كثيراً من الاضطرابات وذلك لصغر سنه. وما قيل عن الأشرف خليل ينطبق على الأشرف برسباي^(٤). وعليه نجد أن العلماء تارة يمارسون دوراً إيجابياً تجاه السياسة في دولة المماليك ، وذلك بالمشاركة في عزل السلاطين متى ما ثبت فسادهم وتقصيرهم في رعاية مصالح الناس بينما مارس فريق آخر منهم - وهم قلة- دوراً سلبياً بمساندة المفسدين من السلاطين سعياً منهم

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٣٨، والمقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٧٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٠٣.

(٢) هو: أيبك بن عبد الله التركي الحموي، تولى نيابة دمشق ثم صفد ثم حمص، ومات بها سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ١، ص ١٦٢).

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٩٤-٧٩٥، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٨٤-٣٨٥، وابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٨٧، وزبرشتين: تاريخ سلاطين المماليك، من ٦٩٠هـ - ٧٤١هـ/١٢٨٩-١٣٤١م، لم يعلم مؤلفة وربما كان معاصراً للناصر محمد بن قلاوون، ليدن/١٩١٩م ص ٥٣-٥٤.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ١، ص ١٨٦.

وراء مصالحهم وتحقيقاً لأهدافهم الشخصية. إلا أن كثيراً من العلماء قد ترك المناصب والسلطة احتجاجاً على الحكام المفسدين، وتعبيراً عن مبدأ أخلاقي نبيل، بالوقوف ضد الظلم والفساد، فقد اعتزل القاضي ابن دقيق العيد القضاء سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م، فحاول الأمراء استرضاءه ليعود لمنصبه لكنه واجه محاولات إثنائه عن قراره ذلك بالرفض التام^(١)، لعدم رضائه على التدهور الذي اعترى الدولة المملوكية آنذاك والذي شمل الجوانب السياسية والإدارية والاجتماعية. كما حاول كبار الأمراء إبان حكم الناصر محمد بن قلاوون، إجباره، على إصدار فتوى تجيز لهم أخذ أموال الرعية إذا طرق العدو بلاد المسلمين، لتوظيفه في مواجهة الخطر المغولي المهدد بالدولة، و لكن الشيخ رفض ذلك نسبة لإسراف الأمراء وتنافسهم في الملبس والمأكل وغيرها من أساليب الترف والبذخ^(٢). كما أنكر العلماء التصرفات الخاطئة أو الجائرة التي تصدر عن بعض السلاطين أو النواب أو الأمراء نتيجة جهلهم بأمور الدين أو انصياعهم لمشورة البطانة الفاسدة، ومن ذلك ما حدث سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م، عندما عزم السلطان الظاهر بيبرس الخروج من مصر، لاستعادة الأراضي التي كان المغول قد استولوا عليها في بلاد الشام، بهدف تقسيمها على جنوده ، حيث تصدى له العلماء وأنكروا عليه فعله ذلك، وكان في مقدمة هؤلاء العلماء الإمام النووي^(٣)، الذي حادث الظاهر بيبرس وكتب له رسالة مطولة للعدول عن الأمر لعدم جواز أخذ الأراضي

(١) النووي: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٢، والذهبي، شمس الدين: تذكرة الحفاظ، دراسة وتحقيق، زكريا عميرات، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج ٤، ص ٤٨١-٤٨٣.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٨٩٧-٨٩٨، والعيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٧٢-٧٥، والذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ٤٨١-٤٨٣، والنويري: مصدر سابق، ج ٢٣، ص ١٢.

(٣) هو: الشيخ النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن محمد بن عماد الدين أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي المقدسي الحنبلي ولد سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م، و توفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، (المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٥٩٠).

والأملاك من أصحابها، وذكره أن من جملة أصحاب هذه الأراضي أيتام وأرامل وضعفاء ومساكين^(١)، ولم يقتصر الأمر على موقف الإمام النووي بل استفتى الملك الظاهر بيبرس القاضي أبو الحسن الشهرزوري^(٢) في أخذ أراضي أملاك الناس في بلاد الشام من أصحابها، فرد عليه بكلام حاسم جاء فيه: " الماء والكلاء والمرعى لله تعالى لا تملك، وكل من بيده ملك فهو له" ثم قام من المجلس الذي انتهى بكلامه^(٣). ومن المظالم التي استطاع القاضي تاج الدين بن بنت الأعز إلغاءها وإزاحتها عن كاهل الرعية، الضريبة التي كانت تفرض على الناس، فقد جرت العادة أنه كلما أشيع عن نية المغول غزو بلاد المسلمين يأخذ السلطان أجرة شهرين من أملاك الناس كل سنة، إلا أن القاضي ابن بنت الأعز أنكر ذلك ونجح في إقناع السلطان بإسقاط هذه الضريبة وتخليص الناس منها^(٤).

(١) ابن الفرات: محمد بن عبد الرحيم بن علي، ت/٨٠٧هـ/١٤٠٥م، تاريخ ابن الفرات المجلد ٧، ٨، ٩، تحقيق قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٨م/١٩٤٢م، ج٧، ص ١٠٨-١٠٩.
(٢) هو: علي بن محمود بن علي أبو الحسن الشهرزوري، درس بدمشق في المدرسة القمرية، توفي سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، (السبكي: الطبقات، ج٨، ص ٣٠٠-٣٠١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٢٢).

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ١٣٥.

(٤) ابن حجر: رفع الأصراعن قضاة مصر، حققه عبد الحميد، حامد وآخرون، دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٧م، ج٢، ص ٢٨٠-٢٨١.

مقدمة

إن التاريخ الاجتماعي يأخذ في الاعتبار المجموعة الكلية للتكوين الاجتماعي، ومن الصعب تحديد أطره ومعناه التام إلا بالدراسة والاطلاع على جميع الأطر المعنوية المتعلقة بمختلف المجموعات إضافة إلى دراسة علاقة الفرد بالجماعة. وبما أنه يتعذر علينا دراسة علاقة الفرد بالجماعة، بسبب قلة الوثائق، ولعدم الحاجة إليه في هذا البحث، سنحاول الإلمام بأطراف حركة الفئات الاجتماعية المتعددة لدولة المماليك وبنياتها وعلاقاتها ببعضها البعض وأنماط السلوك الغالبة عليها حسب ما يتوفر لدينا من معلومات.

إن المبادئ الأساسية في التاريخ الاجتماعي تحدد المبدأ المنظم للمجتمع، وبالتالي تحدد الفئات في التفرع الطبقي الذي منه تنتج البنى، وكذلك العلائق بين الفئات الاجتماعية التي ستكون جد مختلفة.

كان النظام الاجتماعي في مصر عصر المماليك يقوم على الطبقة الواضحة حيث عاش المماليك كطبقة منفصلة عن بقية أفراد المجتمع، وقد حاول المقرئزي تقسيم المجتمع المصري في عصرة إلى سبعة أقسام، على النحو التالي: أهل الدولة من المماليك، وأهل اليسار من التجار، ومتوسطو الحال من الباعة والسوقة وأهل الفلح والفقهاء، ويشملون طلاب العلم وأرباب الصنائع والمهنة وذوي الحاجة والمسكنة^(١) إلا أنه أغفل أرباب الوظائف الديوانية من المسلمين والذميين، ولعله وضعهم ضمن قسم أهل الدولة بمختلف طبقاتهم التي ينتمون إليها من الفئات السابقة.

(١) المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغم - تحقيق زيادة، محمد مصطفى - لجنة التأليف وترجمة والنشر - القاهرة ١٣٥٣-١٣٧٨هـ/١٩٣٤-١٩٥٨م، وحقق المجلدين الثالث والرابع عاشور، سعيد، مركز تحقيق التراث القاهرة ١٣٩٠-١٣٩٣هـ/١٩٧٠-١٩٧٣م، ص ٨٢.

أما بليونى الكرىنى^(١) الذى عاش بمصر أواخر القرن الرابع عشر المىلادى - بمعنى أنه كان معاصراً للمقرىزى - فقد قسم المجتمع المصرى إلى ثلاث طوائف كبرى: هى الشعب المصرى بمختلف فئاته الخاضعة لحكومة السلطان سياسياً ونفوذ الخليفة دينياً، وطائفة الممالىك وهى عسكرية شعارها الأطماع والدسائس والانقلابات، ثم طائفة البدو أو الأعراب الذين لا يتركون فرصة تمر دون أن يخلقوا للحكومة وللأهالى متاعب متنوعة^(٢). ولابن خلدون تقسيم معروف، نصه أن ملك مصر فى عصر الممالىك "إنما هو سلطان ورعية" أى أن هناك طبقة حاكمة مسيطرة تمثل الممالىك، وطبقة من المحكومين المغلوبين على أمرهم يمثلون فئات أهل مصر جميعاً^(٣). واتفق مع ابن خلدون من المؤرخين المحدثين فى رأيه هذا لين بول، الذى قسم سكان مصر فى عصر الممالىك إلى طبقتين كبيرتين تفصل بينهما حواجز وسدود معينة، الأولى طبقة الممالىك، وعرفها بأنها أقلية عسكرية ممتازة، والثانية بقية فئات الشعب الخاصة، وعليها فلاحه الأرض ودفع الضرائب، وقال إن الطبقة الثانية، عاشت محرومة من كل نفوذ فى شؤون الحكم، سوى بعض الوظائف ذات الصبغة الدينية^(٤).

فاقت القاهرة فى عصر الممالىك مدن أوروبا والعالم الإسلامى من حيث السعة وكثرة السكان^(٥)، ورغم اتساع القاهرة فى بداية عصر دولة الممالىك فقد تقلصت مساحتها فى عصر دولة الممالىك الثانية مما كانت عليه فى أوائل عصر الممالىك

(١) الكرىنى لم أقف له على ترجمة.

(٢) عاشور، سعيد: المجتمع المصرى، ص ١٨.

(٣) ابن خلدون: مصدر سابق، ص ١٨٣.

(٥) Lane، Pool: A history of Egypt in The Middle ages، pp.252-253

(٦) عاشور: مرجع سابق، ص ٨٢.

نسبة للركود الاقتصادي ولما اعتري القاهرة من أوبئة وأمراض نتيجة لفيضان النيل المتكرر^(١).

وقدّر أحد المؤرخين عدد سكان القاهرة في منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بحوالي ثلاثة ملايين نسمة، والبعض الآخر تحدث عن تطور سكان القاهرة في أيام السلطان بيبرس، وقدّر عدد سكانها في الفترة نفسها بحوالي ستمائة ألف نسمة، وأدت كثرة السكان وازدحام الشوارع إلى أن أمر المحتسب أصحاب الدواب بأن يضعوا أجراساً في أعناق دوابهم لتنبه المارة، وكان المكارية وحاملو الحطب من الطبقات الشعبية يفعلون ذلك أيضاً^(٢).

إن المتأمل في تاريخ دولة سلاطين المماليك أيام عنفوانها وقوتها، يجدها تتمتع باقتصاد قوي ومتين، فكانت القاهرة من أغنى مدن العالم، وكانت الأموال تتدفق عليها نتيجة لانتعاش التجارة الخارجية وازدهار بقية النشاط الاقتصادي، كالزراعة والصناعة، بالإضافة إلى نظام قويم يعترف فيه المملوك بفضل أستاذه^(٣). وسنتطرق له في الجانب الاقتصادي.

تميز عصر المماليك بخصوصية كبيرة عن غيره، للظروف المختلفة التي أحاطت به، ويأتي تأثير الحروب الصليبية والتي حمل فيها السلاطين الأوائل راية الجهاد، على رأسها؛ والتي أثرت في اكتساب هذه الحضارة طابعاً خاصاً كما أن الخلافة العباسية التي انهارت بسقوط بغداد ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م تحت أقدام الغزو

Ashtor (E): A social and Economic History of the Near East in the middle Age (1) PP.34.s

(٢) ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد القرشي ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م: معالم القرية في أحكام الحسبة، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٣) عاشور: المجتمع المصري، ص ٦٥.

المغولي ثم انتقلت إلى القاهرة، أعطى سلطنة المماليك الصبغة الشرعية. كما تركت هجرة الجماعات الذمية من المدن الأجنبية والعربية إلى مصر، أثراً كبيراً في تنوع الثقافات ومؤثرات الحضارة^(١).

كما أن وجود المماليك في السلطة يمثل نمطاً حضارياً مختلفاً بتدريبهم العسكري المميز، وتعليمهم الديني الجيد الذي أدى لظهور طبقة من الفرسان المتعلمين. ولا شك أن العلاقات الدبلوماسية بين سلطنة المماليك وممالك أوروبا الكاثوليكية، قد أسهمت إلى حد ما في بلورة حضارة جديدة في جذورها الشرقية، وفروعها الغربية، مع وجود طائفة أهل الذمة، وجاليات من التجار الأرغون، والبنادقة والجنوية، والروم، وغيرهم، مع حرص السلاطين المماليك على خلق تجانس اجتماعي كان له بالغ الاثر في التقارب الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية، ظهر ذلك جلياً في المناسبات الاجتماعية لجميع طوائف المجتمع وفئاته^(٢).

وكان المماليك في حاجة إلى اكتساب شرعية شعبية، مما دفعهم إلى إنشاء وتأسيس العديد من المؤسسات الدينية ودور الرعاية الاجتماعية، قولاً وعملاً، فلذلك سعوا لإعمال الشريعة في الحياة. وشهد هذا العصر إنتاجاً علمياً غزيراً، فقد ألفت الموسوعات العلمية والأدبية مثل: (لسان العرب) لابن منظور الإفريقي الذي تعجز المجامع اللغوية المعاصرة أن تتجز مثله، و(مسالك الأبصار) لابن فضل الله العمري، و(نهاية الأرب) للنويري وغيرها.

(١) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكفائي ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م: إنباء الغمر بأنباء أبناء العمر، تحقيق حبشي، حسن، ط١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٢، ص٢٥٠.

(٢) قاسم، عبده: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، ط٢، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٢٢١.

لقد امتدت التأثيرات التاريخية والحضارية لسلطنة المماليك لتشمل البلاد المجاورة والامبراطوريات البعيدة كما تركت بصمات واضحة في تلك المجتمعات المختلفة عنها ديناً ولغةً وتاريخاً^(١).

أولاً: الحياة الاجتماعية للعلماء والديوانيين:

لم تقدم لنا المصادر التاريخية جوانب تفصيلية ولم تفرد دراسة خاصة بالحياة الاجتماعية للعلماء، في عصر المماليك مما جعل من الصعب علينا تقديم صورة متكاملة لهم. ومن البديهي أن تكون حياة العلماء جزءاً من حياة المجتمع بصورة عامة، و إن تميز العلماء بخصوصية كبيرة؛ وللكتابة عن حياة العلماء بذل الباحث جهداً مضمياً في تجميع الإشارات المتناثرة من بطون المصادر والمراجع، وحاول استنباطها وخلق روابط بينها وقراءتها وفقاً لمحيطها السياسي والاجتماعي. فنجد أن العلماء كانوا يمثلون طبقة متميزة في المجتمع؛ يعكس مظهرهم الخارجي الرقي الذي وصلوا إليه، فقد كانوا أكثر الناس اهتماماً بشكل اللحية، ذلك أنهم عنوا بت تهذيب لحاهم وتمشيطها وربما صبغها بالحناء، وقيل أن أحدهم أطلق لحيته حتى وصلت إلى قدميه وكان لا ينام إلا وهي في كيس، وإذا ركب تتفرق فرقتين^(٢).

ثانياً: زي أهل العلم والقابهم:

١- زي أهل العلم

تميز العلماء بمظهرهم وملبسهم وارتداء العمامة التي تميزهم حتى نسبوا إليها، وبالألقاب التي اختصوا بها، وكانت عمائمهم كبيرة الحجم، وقد يشاركونهم بعض أفراد المجتمع زيهم هذا، إلا أن عمائم العلماء كانت أكبر حجماً وأثقل وزناً بحيث

(١) عاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢) البطاوي، حسن أحمد عبد الجليل (دكتور): أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ص ١٣٣.

تسترعي النظر لتمييزها عن عمائم الآخرين^(١). ووصف ابن بطوطة عمامة أحد العلماء في ذلك العصر فقال: (إنها خرقت المعتاد ولا يوجد مثلها في مشارق الأرض ومغاربها من حيث الضخامة، وعندما جلس هذا العالم في صدر المحراب كادت عمامته أن تملأ المحراب)^(٢). وقد كانت عمامة شمس الدين الرومي^(٣) أزيد من ثوب بعلبكي، حفظاً لدماغه وعينيه، وكان يضع تحت العمامة طاقيّة صغيرة يطلق عليها قبة، ويبدو أنها كانت تصنع من الجوخ لثقل وزنها^(٤). وذهب ماير إلى أن العمامة لم تكن جزءاً مكماً لزي القضاة وكبار الموظفين الدينيين حتى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وأن القلنسوة كانت تستخدم حتى ذلك العهد^(٥). إلا أن المنصور قلاوون حين عين أحد العلماء لتدريس التفسير بالقبة المنصورية ذكره - على لسان النائب - أن يحضر ويكبّر عمامته^(٦). مما يدل على أن العمامة كانت إحدى لوازم الوظيفة الدينية الكبرى، ومن علامات سمو المقام وعلو المنزلة منذ بداية عصر المماليك^(٧).

(١) ماير، ل. أ، الملابس المملوكية، ترجمة الشيتي، صالح، مراجعة وتقديم محمد، عبد الرحمن فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٨٩.

(٢) ابن بطوطة: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله، توفي عام ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق الدكتور/ الكناني، علي المنتصر، دار الشرق العربي، ط ٢، بيروت ١٩٧٥م، ج ١، ص ٣٨.

(٣) لم أقف له على ترجمة.

(٤) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر شمس الدين أبو الخير، ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٥هـ / ١٩٥٦م ص ٣٧٤.

(٥) ماير: مصدر سابق، ص ٨٩.

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٢، ص ١٢.

(٧) البطاوي: مرجع سابق، ص ١٣٤.

كان من العلماء من أرسل على كتفيه زؤابةً تصل إلى قربوس سرجه^(١) إذا ركب، وأما أصحاب الوظائف الدنيا فتكون عمامتهم أصغر حجماً، وكانت العمام تصنع من الشاشات الكبار، وهنالك نوع من العمام أطلق عليه اسم البقيار كان يرتديه القضاة وصنع من قماش إسكندراني فاخر^(٢).

كان قضاة القضاة الشافعية^(٣) يلبسون طرحة تستر العمامة وتلتف حول الرقبة، ثم تسدل على الظهر - وقد طلب قضاة القضاة الحنفية من السلاطين منحهم حق لبس الطرحة في المواقب والمناسبات أسوةً بقضاة القضاة الشافعية، ولكن لم يتحقق لهم ذلك إلا في وقت لاحق على عصر القلقشندي في بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي^(٤).

كان يوضع فوق العمامة رداءً عرف بالطيلسان، استعمله بعض العلماء بديلاً عن الزؤابة، والطيلسان يغطي العمامة وينسدل على الخدين حتى يصل إلى الكتفين،

(١) القربوس: خشبة صغيرة في مقدمة السرج وخلفه، ماجد، عبد المنعم، نظر دولة سلاطين المماليك، ج١، ص١٧٦، السروج جمعها سرج، وهو المقعد فوق ظهر الفرس للراكب، ويكون من أنواع وقيمة مختلفة، فمنها المرصع بالعقيق والبُلُور، ومنها المطعم بالذهب، وهو ما يستعمله المماليك، ومنها المطعم بالفضة البيضاء، وكان منها المنقوش وغير المنقوش والنقش ما بين أصفر وأزرق، (البطاوي: مرجع سابق، ص١٣٤).

(٢) القلقشندي: مصدر سابق، ج٤، ص٤٢.

(٣) انظر الملاحق جدول رقم (٣)، ص٣٥١

(٤) القلقشندي: المصدر السابق، ج٤، ص١٤٥. وقد اعتقد ماير خطأً: (أن قضاة القضاة من المذاهب الأربعة كانوا يرتدون الطرحة منذ أن أوجد بيبيرس قضاة أربعة عام ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م، ويفترض ماير أنه جرى منع قضاة الحنفية والمالكية والحنابلة من لبس الطرحة، وأن مؤرخي الحوليات لم يلاحظوا ذلك، ثم أذن للحنفي ثانياً بارتدائها عام ٧٧٣هـ / ١٣٧١م. (ماير: الملابس المملوكية، ص٩٣). والصحيح أن القاضي الشافعي كانت له امتيازات دون غيره من القضاة الثلاثة الآخرين، ومنها لبس الطرحة؛ وحاول قضاة الحنفية أن يتساواوا بالشافعية، وأخذوا موافقة أولي الأمر من المماليك بلبس الطرحة عامي ٧٧٣هـ / ١٣٧١م، و ٧٨١هـ / ١٣٧٩م، وعارضهم الشافعية في ذلك، فباعت المحاولتان بالفشل؛ (البطاوي: مرجع سابق، هامش، ص١٦١).

فوجد بعض العلماء قد خنق نفسه بالطيلسان، ويتفقدّه حيناً بعد حين حتى لا يميل أحد الجانبيين، لذلك استعملوا الإبر في ربط الطيلسان إلى العمامة حتى لا ينسدل على الصدر^(١). وهناك نوعان مختلفان من الطيلسان، طيلسان به قطعة مقبوبة من الوسط ويسمى الطيلسان المقور^(٢). والثاني من قماش مقوى^(٣).

كان العلماء والقضاة يلبسون على أجسادهم ثوباً يسمى الدلق متسع الأكمام وطويل، ويكون مفتوح الكتفين بغير تفريج، ومسترسل حتى القدمين^(٤). وبالغ كثير من العلماء في كبر واتساع هذه الثياب حتى أن كُم أحدهم قد يفصل منه ثوب لغيره، ويتركه مدلى لتقل حمله عليه^(٥). وكان بعضهم من ممن هم أقل شأنًا، يرتدي الفرجية الطويلة الكُم، وهي أشبه بجبة مفرجة من الأمام من أعلاها إلى أسفلها ومزررة، وكان مشايخ الصوفية يضاهون القضاة في لبس الدلق، على ألا يكون مرسلاً أو طويل الكُم، كذلك كانوا يرخون زوابة قصيرة إلى الأذن اليسرى^(٦). ولكن الغالب على رداء الصوفية كانت الملابس الخشنة من الصوف أو الخيش، وغيرها من الملابس التي ترمز إلى الزهد. وتتميز خطباء المساجد والجوامع

(١) ابن الحاج: أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، ت ٣٨٧هـ/ ١٩٩٧م، المدخل، مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة - أربعة أجزاء - دار التراث، القاهرة ١٩٢٩م، ج ١، ص ١٢٨.

(٢) ابن حجر: رفع الأصر، ج ١، ص ٣١.

(٣) ماير: مصدر سابق، ص ٩٤.

(٤) ابن فضل الله، أحمد بن يحيى العمري، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار مخطوط أحمد الثالث، طوبقا بوسراي، رقم (٢/٢٧٩٧) و(٣/٢٧٩٧)، ص ١٥، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٤٢.

(٥) ابن الحاج: مصدر سابق، ج ١، ص ١٣٠.

(٦) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٤٣.

بإرتداء الشعار العباسي، وهو دَلَقٌ مدور أسود وشاش أسود وطرحة سوداء، وتكون ثياب المُبلِّغ مثل ذلك، ماعدا الطرحة^(١).

أما رداء أرباب الوظائف الديوانية من المعممين كالوزراء وكُتَّاب السر ونُظار الدواوين الأخرى ومن ضاهاهم، فكانوا يلبسون الفرجية المشابهة لفرجية العلماء، وربما لبسوا المفرجة من الخلف، وكانوا يجعلون أكمامهم بادهنجات مفتوحة^(٢). وإن اقتصر هذا على ما يلبسونه في التشاريف، في حين كان الديوانيون الأقل رتبة يلبسون الفرجية المفتوحة من الخلف^(٣).

أما الجوخ فكان لباس من يرد من بلاد المغرب والفرنج وأهل الإسكندرية وبعض عوام مصر، فإذا لبسه أحد العلماء فإن ذلك يعاب عليه^(٤). وقد ذكر المقريزي أن أحد أقاربه كان نائباً في حسبة القاهرة، فدخل يوماً على المحتسب وهو لابس جوخة لها وجه صوف مربع، فقال له المحتسب: كيف ترضى أن تلبس الجوخ، وهل الجوخ إلا لأجل البغلة؟ وأقسم المحتسب على نائبه أن يخلع الجوخ ويعيده إلى بائعه، ثم قال المحتسب لنائبه، (لا تعد إلى لبس الجوخ ثانياً) إلا إنه وبعد المحن التي تعرضت لها مصر مع مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي،

(١) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٢٩٨هـ/١٨٨١م، ج ٢، ص ٣٢٠.

(٢) بادهنجات: مفردا بادهنج، أو بازهنج وهي كلمة فارسية من باذ، وهنج ومعناها صاحب الهواء، أو فتحة التهوية، (أحمد، سعيد سليمان، تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة بدون تاريخ، ص ٣٥؛ والبطاوي: مرجع سابق، ص ١٦٢).

(٣) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٤٣.

(٤) البطاوي: مرجع سابق، ص ١٣٥.

والتي أدت إلى ارتفاع الأسعار، صار معظم الناس يلبسون الجوخ بما في ذلك الوزير والقاضي^(١).

ودأب السلاطين على منح العلماء والقضاة الخلع في المناسبات، مثل يوم الإحتفال بتتصيب سلطان جديد، وعند ختم قراءة صحيح البخاري، أو عند ولاية أحدهم بوظيفة، أو في الأعياد والمناسبات. وكانت خلعهم بيضاء، ومن تحتها أخضر، ومن ذلك أن السلطان الأشرف برسباي خلع على مجموعة كبيرة من العلماء عند ختم صحيح البخاري في رمضان. فخلع على الهروي^(٢) خلعة كاملة خضراء بفرو سمور، ثم خلع على العيني صوف مربع بفرو سنجاب^(٣).

أما خلع الديوانية، فكان لكبارهم الكمخا^(٤) الأبيض المطرز بحريير ساذج وسنجاب مقندس، وتحتة كمخا أخضر، ثم بقيار وطرحة، وأما دون ذلك عدم السنجاب، بل يكون القندوس^(٥) بدائر الكمين، وطول الفرج، والأقل رتبة من أرباب الأقلام يكون

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٩٨.

(٢) هو: الشيخ شمس الدين بن شمس بن عطاء الهروي، الرازي الشافعي، توفي سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق الأرناؤوط، عبد القادر، والأرناؤوط، محمود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٧، ص ١٨٩-١٩٠.

(٣) العيني، بدر الدين أبو الشتاء أبو محمد محمود بن القاضي شهاب الدين أحمد بن القاضي شرف الدين موسى بن أحمد بن محمود العيني الشهير بالعيني ولد سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م، توفي ٨٥٥هـ/١٤٥١م تولى عدداً من الوظائف، كما صنف كثيراً من الكتب القيمة في فروع كثيرة من العلوم، (ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٧، العيني: عقد الجمان، ص ٢٣٦).

(٤) الكمخا: لم أجد لها مرادفاً في المعاجم اللغوية وهي تركية أوفارسية وتعني نوع من الصوف أو القماش يلبس في الشتاء، ومنه الداخلي ومنه الخارجي، ويرتديه أرباب الأقلام، وجنود الأمراء، (المقرئزي: مصدر سابق ج ٢، ص ٢١٧-٢٢٨).

(٥) القندوس: شريط من فرو القرض، ويستخدم أيضاً في تطريز الملابس، (المقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٠٤).

بدون طرحة^(١). وكان السلطان يتحكم في قيمة الخلعة، وقد ارتبطت قيمتها بالشخص الذي يمنحها، أو الوظيفة التي يتولاها، وارتبطت أيضاً بالأوضاع الاقتصادية للبلاد^(٢).

إلا أنه خلال العصر المملوكي حدثت تغيرات في زي العلماء والديوانيين، فقد تحول زي قضاة القضاة من الحرير إلى الصوف، وذلك منذ ولاية الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد لقضاء القضاة الشافعية عام ٦٩٥هـ/١٢٩٦م، فقد امتنع عن ارتداء خلع الحرير وأمر بتغييرها إلى الصوف فاستمرت على ذلك^(٣).

كان القضاة والوزراء وأكابر الفقهاء وأعيان الكتاب يلبسون الجبة البيضاء في الخدمة السلطانية، وأوقات الركوب، وعند لقاء بعضهم بعضاً، وتكون هذه الجبة في الصيف من القطن، وفي الشتاء من الصوف، وظل الأمر كذلك حتى عام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م، عندما وجه السلطان برقوق كاتب السر بتغيير الزي الأبيض، فقال كاتب السر: (بمرسوم مولانا السلطان يلبسون المُلَوّن) فأمر السلطان بأن يلبس العلماء الصوف المُلَوّن^(٤).

كان على الشخص الذي ينتقل من وظيفة لأخرى أن يغير زيّه طبقاً لتغيير وظيفته، فمثلاً: شمس الدين بن محمد الهروي كان أولاً يتزيا بزي العجم، وعندما ولي قضاء القضاة الشافعية في عام ٨٢١هـ/١٤١٨م، لبس الجبة، وجعل العمامة كبيرةً وأرخى العذبة بين كتفيه؛ ولما ولي كتابة السر تزيا بزي الكتاب، فترك زي

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٠٤.

(٣) الأسنوي، جمال الدين، محمد عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر بن علي، سيد إبراهيم، الأموي المصري: طبقات الشافعية، حققه عبد الله الجبوري، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٧٠م، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٤) ابن الفرات: مصدر سابق، ج ٩، ج ٢، ص ٤٦٠.

القضاة، فضيق كُمه وجعل عمامته صغيرة مدورة ذات أضلاع، وترك العذبة، ولما أعيد إلى القضاء ثانية عام ٨٢٧هـ/١٤٢٤م تزيّا بزي القضاة مرةً أخرى^(١). وسعد الدين بن غراب أحد الكتاب الديوانية، ولي وظيفة الإستدارية عام ٨٠٣هـ/١٤٠١م، ولكنه لم يغيّر زي الكتاب إلا متأخراً عن ذلك فأطلق عليه لقب الأمير القاضي بن غراب، ومنهم من لم يغيّر زيه بانتقاله إلى وظيفة غير وظيفته السابقة، مثل صلاح الدين محمد بن بدر الدين حسن بن نصر الله الذي عين كاتباً للسر عام ٨٤٠هـ/١٤٣٧م، فقد نزل من القلعة، وهو يتزيّا بعمامة مستديرة وفرجية مثل رؤساء القلم على الرغم من أنه تربى تربية عسكرية، وفي زي عسكري، وأصبح أميراً في سلطنة المؤيد شيخ^(٢)، وظل لعدة سنين يشغل مناصب عسكرية^(٣).

أما نساء العلماء فقد وردت بعض الإشارات عن زيهن من خلال انتقادات ابن الحاج لسلوك بعض نساء العلماء، ويستفاد من هذه الإشارات أنهن ابتدعن ارتداء العمام على رؤوسهن، وكانت المرأة منهن تخرج بالسروال تحت الثوب وبعضهن كن يخرجن بالثياب القصيرة محتجات بالسراويل الطويلة، واعتادت بعضهن توسيع الأكمام مع تقصيرها^(٤).

ومن سلبيات أزياء العلماء، اتجاه القادرين منهم إلى شراء الزي الفاخر والاهتمام بالمظهر أكثر من الاهتمام بالأمر ذات الفائدة، فيحليّ العالم منهم الأكمام بالحرير والمطرز، وكذلك الأذغال، وكثير منهم تدلت سراويله عن حد الكعبين، وقد بالغ بعضهم في صناعة الطرز في أكتاف ثيابه، فكان يضطر إلى رفع الطيلسان عن

(١) المقرئزي: السلوك، ج٣، ص١٠٥، وج٤، ص٦٧٠.

(٢) هو: المؤيد شيخ بن عبد الله المحمودي، كان من مماليك الظاهر برقوق، كان أمير حاج ثم تولى نيابة الشام ثم تسلطن سنة ٨١٥هـ/١٤٢٥م، (ابن العماد: مصدر سابق، ج٧، ص١٦٤).

(٣) ماير: مرجع سابق، ص٩٨.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج١، ص٢٤١ وما بعدها.

كتفيه ويشمره خيفةً على الطُّرز أن تختفي فلا يراها الناس. وبذلك صار اهتمام العالم بمظهره يفوق حرصه على أداء رسالته^(١).

لقد عادت ميزة زي العلماء رغم خصوصيتها بمضار على الفقهاء وطلاب العلم، الذين كان عليهم التشبه برؤسائهم وكبرائهم من القادرين، حيث صار لابد لطالب العلم أن يتزيا بزي معين، ولا يمكن أن ينتظم في الدرس إلا به، وإلا صار مهيناً للعلم، فمن لبس هذا الزي قيل عنه (فقيه) وبذلك يتميز عن العوام، ويعلق بن الحاج على خطورة الالتزام بذلك الزي، بقصة رجل أراد أن يعلم أولاده، ولا يملك تحصيل تلك الثياب لهم، فتركوا العلم لأجل الزي^(٢).

ومن سلبية التزام العلماء بالزي أنه إذا استطاع شخص ما محاكاتهم في زيهم صار محسوباً عليهم، وحمل لقب (عالم) أو (فقيه). لذلك صار لا يميز بين العالم والجاهل لتقارب الشبه بينهم في الزي^(٣).

لقد ارتدى بعض العوام لباس العلماء، ليدخلوا أنفسهم في مجال أو وظيفة لا يستحقونها ولا يعرفونها، وساعد أمثال هؤلاء العوام على ذلك سلوك بعض العلماء وتصرفاتهم في مباشرة البيع والشراء، إذ تصرف بعضهم بصورة غير لائقة شبيهة بتصرف العوام، وكأن السلوك المثالي للعالم يكون في المدرسة فقط لا في الحياة العامة^(٤)، وهذا الخلط دفع بعض القضاة إلى إلزام نوابهم في سائر المراكز، أن يرسلوا في عمائهم العزبات ليطيروزا بها عن عوام الناس^(٥).

(١) ابن الحاج: المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٤.

(٣) البطاوي: مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٤) ابن الحاج: مصدر سابق، ج ١، ص ١٥٥.

(٥) ابن كثير: مصدر سابق، ج ١٤، ص ١٤٥.

٢ - الألقاب:

تميز العلماء والقضاة في عصر المماليك بالألقاب متعارف عليها وهي صفات أضيفت إلى لفظ الدين وترتبط باسمه الشخصي فمثلاً شمس الدين تضاف إلى الذي اسمه محمد وسراج الدين للذي اسمه عمر، وشهاب الدين للذي اسمه أحمد، وجمال الدين للذي اسمه يوسف، وبرهان الدين للذي اسمه إبراهيم. وكان الواحد منهم ينادى أحياناً باختصار لقبه مضافاً إلى اسمه، مثل قولهم السراج عمر لمن لقبه سراج الدين، والجمال يوسف لمن لقبه جمال الدين، ثم كان أن ترك أعيان القضاة هذه الألقاب لابتزائها وكثرة استعمال العامة لها، واتجهوا لمخالفتهم في استعمالها، وعدلوا إلى ألقاب أخرى ابتدعوها وفق أغراضهم، فقالوا: في محمد (بدر الدين وصدر الدين وعز الدين) وفي أحمد (بهاء الدين وصدر الدين) وصاروا يتعمدون مخالفة المؤلف، هذا في حين تلقب الكتاب من الأقباط بلقب (الشيخ) فمنهم من تلقب بـ(ولي الدولة) ويعرف اللقب بالألف واللام فيقولون (الشيخ الشمس) و(الشيخ الموفق) وإذا أسلم تحول لقب الشيخ الشمس إلى لقب شمس الدين، والموفق إلى موفق الدين، وولي الدولة إلى ولي الدين، أما غيرهم من أرباب السيوف فقد اختصوا بلقب (سيف الدين) وحسام الدين وعز الدين^(١).

كانت الألقاب من مظاهر التقدير التي يغتر بها العلماء ويحرصون على استخدامها، بحيث أن الواحد منهم إذا قيل له اسمه العلم مجرداً من اللقب مثل أحمد أو علي يغضب من ذلك على من ناداه^(٢). ومن ذلك يحكى أن الشيخ تقي الدين السروجي المتوفي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م، عندما كان يقدم على أصحابه فإنهم كانوا يستقبلونه بالحفاوة وينادونه بقولهم جاء الشيخ تقي الدين، وبعدما يطول بقاؤه معهم

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٨٩-٤٩٠، والباشا، حسن: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٠٤.

(٢) ابن الحاج: مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٦.

ويبدأ الملل يدب في نفوس أصحابه، ينادونه بالتقي وإذا نادوه بالسروجي أدرك أنه لم يعد له بقاء معهم فينصرف^(١).

١٢- أهم ألقاب رجال الدين:

أ/ الشيخ: والشيخ في اللغة المتقدم في السن من الرجال وكان يقصد به التوقير والاحترام؛ انتقل اللقب إلى العلماء فلازمهم وكان مجال استخدام هذا اللقب في مصر المملوكية واسعاً، فكان يطلق على كبار العلماء وخاصة مشايخ الصوفية وأهل الصلاح، والوزراء ورجال القلم والمحتسبين، ولم يقتصر استخدامه على المسلمين وحدهم، بل أطلق أيضاً على أهل الذمة من الكتاب والصيارفة، نصارى كانوا أو يهوداً، كذلك كان يخاطب به بعض الملوك والكتاب غير المسلمين^(٢)، ويقال لعلماء المسلمين الشيخ الخير والشيخ السعيد، من كتاب الضبط.

ب/ شيخ الإسلام: أطلق هذا اللقب على كبار العلماء، ولم يكن صاحبه مقيداً بوظيفة أو منصب، وإنما ارتبط بأصحاب الشهرة الدينية والعلمية الواسعة، والمكانة البارزة في المجتمع المصري ومن أمثلة من حملوا هذا اللقب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وابن تيمية الحراني، وسراج الدين عمر البلقيني، وابن حجر العسقلاني وغيرهم، وقد مارس أصحاب هذا اللقب وظائف متعددة ومتنوعة، وأهم هذه الوظائف التدريس وتلقي العلم في شتى فروعها، وبعض الوظائف الدينية الأخرى مثل القضاء والإمامة والخطابة وغيرها^(٣).

(١) ابن شاکر الکتبی: مصدر سابق، ج ١، ص ٤٦٦.

(٢) العيني، بدر الدين محمود العيني ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق، فهم محمد شلتوت. دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٦-١٩٦٧م، ص ٢٣، وما بعدها .

(٣) البطاوي: مرجع سابق، ص ١٤٠.

ج/ شيخ الشيوخ: اشتهر هذا اللقب في تلك الفترة بشكل كبير، إلا أنه تعرض للتبديل والتغيير في معناه في كل مرة، والأصل فيه أن يطلق على شيخ طائفة الصوفية. ففي العصر الأيوبي أطلق على شيخ خانقاة سعيد السعداء^(١)، وظل شيخ هذه الخانقاة يطلق عليه لقب "شيخ الشيوخ" حتى أنشأ الناصر محمد بن قلاوون خانقاة سرياقوس سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م فخص شيخها بهذا اللقب، واستمر ذلك إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٤م، فتلاشت الرتب وأصبح لقب "شيخ الشيوخ" أو "شيخ خانقاة فلان"، يطلق على كل شيوخ الخانقاوات في مصر المملوكية، وإن ظل شيخ خانقاة سرياقوس صاحب المكانة الأولى واللقب المميز^(٢).

د/ القاضي: أطلق هذا اللقب على من يعمل بالقضاء، وبخاصة قضاة القضاة ونوابهم، واتسع استخدام لقب "قاضي" في فترة المماليك، فأصبح يطلق على العلماء والكتاب وموظفي الدولة من المدنيين. ولم يكن شرطاً أن يكون الملقب به قاضياً، وإنما كان اللقب وفقاً لما جرى به عرف العامة^(٣)، فمثلاً سعد الدين بن غراب وهو أحد مسالمة القبط كان يطلق عليه لقب "القاضي" وكان الشيخ الخطيب وهو أيضاً من مسالمة القبط ينعت بالقاضي، فيشترك هو وقضاة الشرع الشريف في هذا اللقب، ويعلق أبو المحاسن ابن تغري بردي على ذلك قائلاً: كان يمكن للسلطان إذا رقى واحداً من هؤلاء الأقباط والمسالمة إلى رتبة من الرتب أن لا ينعته بالقاضي، بل ينعته بالرئيس أو الكاتب أو بلقب آخر، مثل ولي الدولة أو سعد الدولة أو ما

(١) راجع الحياة النقلية، ص ٢١٩.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ١٤٥، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٨.

(٣) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٥١.

أشبه ذلك ويدع لفظة "قاضي" لقضاة الشرع وكتاب السر وناظر الجيش ولفضلاء المسلمين، ليعطي كل واحد حقه في شهرته والتعريف به^(١).

هـ/ الفقيه: جمعها فقهاء من ألقاب العلماء، ويطلق على القاضي والمدرس ومؤدب الأطفال، والإمام والمؤذن وطلبة العلم وغيرهم^(٢)، وقد شاع استخدام هذا اللقب لطلبة العلم أكثر من غيرهم.

٢-ب أهم ألقاب الموظفين في الدواوين السلطانية:

كانت المكاتبات للموظفين في الدواوين السلطانية تصدر بألقاب تشريفية رفيعة يتصف بها كبار الأمراء والوزراء وأرباب السيوف والأقلام وغيرهم، وسأتحدث عن أهمها:-

أ/ المقر: هو لقب كبار الأمراء، وأما من تلقب به من العلماء فهم من أعيان الوزراء، وكتاب السر وناظر الخاص وناظر الجيش وناظر الدولة وكتاب الدست وقد يلحق بالقضاة والعلماء^(٣).

ب/ الجنب: وهو لقب أرباب السيوف والأقلام جميعاً، وهو أعلى الألقاب التي تكتب للقضاة والعلماء ولمن لا يؤهل للقب "المقر" من الوزراء فيقال "الجنب الشرف العالي"، و"الجنب الكريم العالي"، والجنب العالي حسب رتبة صاحب اللقب^(٤)، على أن أعلى الألقاب التي كان العلماء قد حصلوا عليها كان لقب "المجلس العالي"، فعندما أحب السلطان الناصر محمد بن قلاوون كاتب سره محيي الدين بن فضل الله، قربه إليه وبالع في تعظيمه، ثم منحه توقيعاً بلقب الجنب

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ١١.

(٢) الباشا، حسن: مرجع سابق، ص ٤٢٢.

(٣) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٩٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٩٥.

العالي، فأستكثر محيي الدين هذا اللقب على نفسه وكشطه من توقيعه، وقال: ما يصلح لمتعمم أن يتعدى لقب المجلس العالي^(١). ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن ولي عماد الدين أحمد الكركي قضاء القضاة الشافعية عام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م، كان هو وأخوه علاء الدين كاتب السر لهما خدمة للسلطان برقوق عندما كان بسجن الكرك عام ٧٩١هـ/١٣٨٩م. وسعى علاء الدين كاتب السر عند السلطان برقوق لأخيه عماد الدين قاضي القضاة، فأمر السلطان بمنحه تقليداً كتب له فيه لقب الجنب العالي، ثم لحقه قاضي القضاة الحنفية^(٢) بالحصول على هذا اللقب من سلطنة برقوق أيضاً، ثم لحقه قاضي القضاة المالكية^(٣) في سلطنة فرج بن برقوق، ولم يبق من هو على اللقب الأول من قضاة القضاة سوى قاضي قضاة الحنابلة^(٤).

ج/ المجلس: هو لقب للعلماء الأقل رتبة من لقب (المقر والجنب)، ويقال لصاحب هذا اللقب (المجلس العالي) و(المجلس السامي). وهناك ألقاب أخرى مثل (مجلس القاضي) وهو مختص بأرباب الأقاليم من القضاة والعلماء والكتاب، ولقب (مجلس الشيوخ) ويختص به الصوفية وأهل الصلاح وممن في معناهم^(٥).

لقد أكثر كتاب الديوان المختصين بمكاتبات الولاية وغيرها، من إضفاء الألقاب الكثيرة على العلماء من ذوي الوظائف الدينية والديوانية، فكانت تفتتح المكاتب عادة بسلسلة طويلة من الألقاب، فمثلاً يكتب لقاضي القضاة الشافعي: الجنب العالي، القاضي، الشيوخ، الكبير، العالمي، الأفضلي، الأكمل، الأوحدي، البليغي،

(١) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٣٢.

(٢) انظر الملاحق جدول رقم (٣)، ص ٣٥٨.

(٣) انظر الملاحق جدول رقم (٤)، ص ٣٦٢.

(٤) انظر الملاحق جدول رقم (٥)، ص ٣٦٦.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٩٦.

الفريدي، ٥٠٠ وغيرها من الألقاب العديدة^(١). وهناك ألقاب لبعض الوظائف مثل الخطيب، والمقرئ، المحدث، والمدرس، والمعيد. سنتطرق إليها عند الحديث عن المساجد والمدارس.

ثالثاً: أوضاع العلماء المعيشية:

تمتع فريق من العلماء بحياة مترفة وغنى و ثراء كبير، فسكنوا الدور العظيمة وارتدوا الثياب الفاخرة، وتناولوا الأطعمة الشهية، واغتنوا الجواري الحسان، والخدم والمماليك، واغتنوا من الأدوات المنزلية ومجلدات الكتب النفيسة التي يصعب تقديرها^(٢). ومن ذلك أن شمس الدين بن عبود المتوفي عام ٧٢٢هـ/١٣٢٢م، كان يحتفل بالمولد النبوي الشريف، فينفق فيه الأموال العظيمة من أطعمة وحلوي، وفي أحد الموالد بقي من الأطعمة الزائدة عن حاجة الحاضرين أربعمئة قمع سكر، وثلاثمئة وثمانين رأس غنم بالإضافة إلى باقي الأصناف^(٣). كما أن أحد علماء الصعيد^(٤) كان يعمل قاضياً فتصدق يوم عاشوراء بألف دينار، وأن امرأة ذهبت إليه فأعطاه، ثم ذهبت إليه في رداء آخر فأعطاه، وكررت ذهابها

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٧.

(٢) عاشور: المجتمع المصري، ص ٣٣.

(٣) ابن اييك، أبو بكر بن عبد الله بن أييك، صاحب صرخد، المعروف بابن الدواداري ت ٧٣٦هـ/١٣٣٦م: كنز الدرر وجامع الغرر - تحقيق راتكة، برنرد وآخرون - المعهد الألماني للأثار القاهرة ١٩٦٠م - ١٩٩٤م ج ٩، ص ٣٠٨.

(٤) الصعيد: المرتفع من الأرض وقيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة وقيل: ما لم يخالطه رمل ولا سبخة وقيل: هو وجه الأرض وقيل: الأرض الطيبة وقيل: هو كل تراب طيب، والصعيد منطقة جنوبي القاهرة وشلالات أسوان، وتسمية هذه الجهة من أرض مصر بهذا الاسم إنما حدث في الإسلام سماها العرب بذلك لأنها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر (المقريزي: الخطط، ج ١، ص ١٦٧، والأدقوي: كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب، توفي ٧٤٨هـ/١٤٤٥م: الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩١٤م، ص ٧٦، ومعلوف: المنجد، ص ٤٢٣).

إليه بملايس مختلفة وهو يعطيها، حتى بلغ جملة ما أخذت منه ستمائة درهم فضة، فاشتريت بها مسكناً^(١).

وعندما عزل جلال الدين القزويني قاضي قضاة الشافعية سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٨م^(٢) ورحل إلى الشام، باع من الأواني والصيني ما قيمته أربعين ألف درهم، وباع ابنه عبد الله إحدى عشرة جارية، ما بين ثمانية آلاف إلى أربعة آلاف درهم للجارية الواحدة، وباع من اللؤلؤ والجوهر والزرخش ما قيمته زيادة عن مائتين وعشرين ألف درهم، وباع داره بالقاهرة بخمسة وثلاثين ألف درهم، وقد باعها جميعاً بيعاً اضطرارياً بربع الثمن. وقد ذهب أحد الباحثين إلى أن القضاة والعلماء استمدوا ثراءهم من المرتبات العينية والنقدية التي كانوا يتقاضونها من الديوان السلطاني، ولذلك وضعوا مصالحهم في سلة واحدة مع مصالح الطبقة الحاكمة^(٣). إلا أن هذا الرأي لا ينطبق على الواقع، لأن هذه الرواتب التي يتقاضاها العلماء، ويصرفها لهم الديوان السلطاني، مهما بلغت فإنها لا تصل بصاحبها إلى هذا الثراء، ويرى المقرئ أن مرتبات الوزراء والقضاة وأعيان الكتاب كانت

(١) الأذفوي: المصدر السابق، ص ٥٦.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أبي دلف العجلي القزويني، جلال الدين، ولد سنة ٦٦٦هـ/١٣٦٧م، تفقه ودرس واشتغل في الفنون وبرع في الأصول واللغة العربية والمعاني والبيان، كان عالماً بليغاً فصيحاً ذكياً، حلو العبارة، جواداً. تولى قضاء ناحية في بلاد الروم، ثم ناب عن أخيه في قضاء الشام، وولي خطابة جامع دمشق، ثم تولى قضاء الشام، تولى قضاء مصر سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م بعد اعفاء ابن جماعة، حيث عظم أمره عند الناصر محمد فكانت لا ترد له شفاعته، وكان كثير الإحسان إلى الفقراء، أعيد إلى دمشق سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م بسبب سوء سلوك أولاده، فمرض بها ومات في السنة الثانية (ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة تحقيق، جاد الحق، محمد سيد، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ج ٤، ص ١٢٠-١٢٣).

(٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهم، محمد شلتوت، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ج ٢، ص ٥٦.



تكفيهم، قبل حدوث الأزمات الاقتصادية في بداية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، أما بعدها فلم يعد الراتب اليومي يكفي الغذاء وحده، وذلك لمن كان راتبه ثلاثين درهم في الشهر^(١). ورغم تعدد وظائف ابن دقيق العيد إلا أنه يذكر لإبنه أسباب قبوله وظيفة القضاء، ومن هذه الأسباب الفقر؛ إذ لم يكن يملك غير ثوب واحد فقط للخروج، ولو كانت وظيفة القضاء مريحة لدرجة الثراء ما قال عنها أحد قضاة الصعيد عندما استقال من القضاء: (أنا لي دواليب^(٢) والقضاء يشغلني عنها)^(٣).

يبدو أن ثراء هؤلاء العلماء ليس مصدره الرواتب وحدها، بل أن هنالك مصادر أخرى للأثرياء منهم^(٤). مثل الأملاك الخاصة بهم، حيث أن بعضهم عمل بالتجارة، ومنهم من حاز البساتين والأراضي، ومنهم من امتلك الدواليب لصناعة السكر وغير ذلك. فالقاضي بهاء الدين الحلي المعاصر للسلطان لاجين، كانت له الأموال والأملاك والبساتين الكثيرة في مصر والشام بالإضافة إلى العديد من السواقي والدواليب والغلال^(٥). وكان للقاضي محمد بن ابراهيم المعروف بابن صالح المتوفي سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م^(٦)، من الدواليب ما يشغله عن مباشرة القضاء، لذلك بلغ درجة عظيمة من الثراء، فكان يرسل غلمانه يضعون في دهليز كل بيت من بيوت الفقراء قادوس^(٧) محلب، وطن قصب في ليلة عيد الفطر، وعندما تعرض له

(١) قاسم، عبده: مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢) دواليب. الدولا ب في اللغة هي الآلة التي تديرها ليستقي بها وهي جهاز لرفع الأثقال وهو نوع من الملفاف، وخزانة للثياب، كل آلة تدور على محور (فارسية)، (معلوف: المنجد، ص ٢٢٢).

(٣) المقرئزي: إغاثة الأمة، ص ٨٥.

(٤) البطاوي: مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٥) العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٤١١.

(٦) محمد بن ابراهيم المعروف بابن صالح، (لم أقف له على ترجمة).

(٧) قادوس: إناء يجعل فيه الحب عند الطحن وتسميه العامة الكور، (معلوف: المنجد، ص ٦١٣).

أحد الامراء المماليك، وقال له: يا قاضي تحمل إليّ مائة ألف درهم الآن. فقال القاضي (نعم) فخرج وحملها^(١).

كانت الأوقاف مصدراً من مصادر ثراء بعض العلماء، فكان منهم من يتوارثون الوظائف في المؤسسات إيناً عن أب، بالإضافة إلى مخصصات أخرى نقدية وعينية أجرتها هذه الأوقاف عليهم، وقد تباينت المرتبات النقدية بتباين الوظائف، أي أن صاحب الوظيفة العليا كان يحصل على راتب أعلى بكثير عن صاحب الوظيفة الدنيا، وعلى سبيل المثال خصص السلطان حسن بن محمد بن قلاوون راتباً لمدرسي الحديث في مدرسته قدره ثلاثمائة درهم نقره، ولقارئ الحديث أربعين درهماً فقط^(٢). فنرى الفارق واضح بين كبار الموظفين من العلماء وصغارهم في هذه الرواتب، أما المخصصات العينية فمنها ما كان شهرياً، مثل الغلة، أو يومياً مثل اللحم والتوابل والخبز والعليق، ولبعضهم السكر والشمع والزيت والكسوة في الصيف والشتاء، والأضحية في كل سنة^(٣).

وكانت الرواتب التي تصرف للقضاة والعلماء من دواوين الدولة في أكثرها خمسون ديناراً في كل شهر، وهو مبلغ كبير مقارنة بمستوى الدخل في ذلك العصر، إلا أن التدهور الاقتصادي منذ مطلع القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي أدى إلى تناقص هذه الرواتب وارتفاع الأسعار، وكانت الرواتب التي تصرف للعلماء والديوانيين من ريع الأوقاف المحبوسة على المؤسسات الدينية

(١) الأدفوي: الطالع السعيد، ج٣، ص٤١٨.

(٢) الأدفوي: مصدر سابق، ص٥٤٤، والصفدي: مصدر سابق، ج٤، ص٧٨.

(٣) وثيقة وقف الناصر حسن، نشرها أمين، محمد محمد، ملحق كتاب (إين حبيب: تركرة النبيه، ج٣، ص٤٠٦). (والدرهم النقرة، يكون ثلثاه فضة، والثلث الباقي من نحاس، وسميت بالنقرة تميزاً لها عن الدراهم السود، التي كانت تغلب فيها نسبة النحاس على الفضة). (القلقشندي: مصدر سابق، ج٣، ص٤٣٩-٤٣).

والعلمية وللموظفين منهم أمثال الناظر والشيخ والمدرسين في مختلف فروع العلم التي تدرس، والخطيب والإمام وغيرهم من أرباب الوظائف^(١). وأما من يتولى وظيفة الإمام فقد رتب له المنصور قلاوون في وثيقة وقفه على قبته ثمانين درهماً شهرياً، وخلعة في رمضان^(٢). كما رتب الأمير كمال الدين الأستاذار لمن يتولى وظيفة الإمام في مدرسته خمسين درهماً شهرياً، إضافة إلى معلوم تصوفه^(٣)، ورتب السلطان برسباي في وقفه لمن يتولى الإمامة ألف درهم شهرياً^(٤)، وأما أرباب الوظائف الأخرى مثل القارئ والمنشد والصوفي والطالب والمؤذن، فكانت رواتبهم أقل من ذلك بكثير، وقد شهد أواخر عصر سلاطين المماليك تدهوراً كبيراً في الرواتب نسبة للركود الاقتصادي^(٥).

ورغم ما كان يتمتع به بعض العلماء من ثراء عريض، نجد فئة منهم عاشوا في حالة شديدة من الفقر، حتى شبههم المقرئزي بأنهم: (بين ميت أو مشته الموت) وهؤلاء هم أرباب الوظائف الصغرى، وطلاب العلم ومن يلحق بهم من الشهود^(٦)، وأطلق على هؤلاء لقب الفقهاء، وظل معظمهم يعاني شظف العيش حتى يلحق بوظيفة من الوظائف التي تدر عليه دخلاً مريحاً، ومن ذلك أن عماد الدين المتوفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، عاش فقيراً ليس له سوى معلوم التدريس بإحدى المدارس

(١) عاشور: مرجع سابق، ص ٣٣-٣٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١١٠.

(٣) وثيقة وقف الأمير منجك اليوسفي: جمال الدين يوسف الأستاذار، نشرها محمد عثمان، القاهرة ١٩٨٣م، ص ١٦٩.

(٤) وثيقة وقف برسباي، ورقة ٢، مخطوطة دار الكتب المصري، رقم ٣٣٩٠، (والفلقشندي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٣٩-٤٣).

(٥) البطاوي: مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٦) المقرئزي: إغاثة الأمة، ص ٧٥.

ولذلك كان يذهب إلى المدرسة ماشياً، وتارةً على حمار مكارى^(١)، وكان مجد الدين البليسي المتوفي عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م يعمل قاضياً وموقّعاً، وبعد عزله من القضاء ضاقت أحواله، فكان السلطان برقوق يتفقه بالصدقات، وبعد موت السلطان كف بصر مجد الدين وساء حاله إلى الغاية^(٢).

لقد ألجأت الحاجة بعض العلماء إلى مزاولة بعض الحرف لسد متطلبات الحياة، ولكنها نسبة قليلة منهم هم الذين اتجهوا إلى العمل بالمجالات الحرفية. وهؤلاء العلماء منهم من عمل بالتجارة، والزراعة، ومنهم من احترف حرفة أخرى، مثل صناعة المراوح التي عمل بها محمد بن سليمان بن المنير^(٣)، أحد قضاة الصعيد، المتوفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، عندما كانت تضيق به الحال يصنع المراوح بيده ويأكل من ثمنها ولذلك عرف بالمراوحى^(٤). وكانت الحياكة من أكثر الحرف التي اشتغل بها بعضهم، وكذلك التجارة والحدادة^(٥). وقد كان النسخ أشهر الأعمال التي اشتهر بها كثير من فقراء العلماء، وذلك لقربها من مجالات العلم وسهولة مزاومتها بالنسبة لهم، وقد اتخذها البعض عملاً أساسياً، في حين اتخذها آخرون عملاً

(١) المقرئزي: المقفى الكبير، تحقيق البلادي، محمد ، طبعة دار المغرب الإسلامى - بيروت ١٩٩١م، ج٥، ص٣٠١.

(٢) ابن حجر: رفع الأصر، ج١، ص١١٩.

(٣) القاضي زين الدين أبو الحسن علي ابن القاضي أبي المعالي محمد بن منصور بن أبي القاسم بن مختار بن أبي بكر بن علي الجذامي الإسكندري، المعروف بابن المنير المالكي قرأ الفقه على أخيه القاضي ناصر الدين وابن الحاجب، وروى الأربعين السلفية عن يوسف بن المظلي. وكان محدثاً صدرًا جليلاً محتشماً، وافر الحرمة مليح الصورة، حسن الهيئة، كامل الفضيلة. ولي قضاء الثغر مدة، وأفتى، وصنّف ودرّس، وحدّث بمكة والثغر. من مصنفاته: المتواري عن تراجم البخاري؛ شرح الجامع الصحيح للبخاري. (الزركلي: الأعلام، م٥، ص٨).

(٤) الأذفوي: مصدر سابق، ص٥٢٢، والصفدي: مصدر سابق، ج٣، ص١٣٨.

(٥) السيوطي: بغية الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة. حققه إبراهيم، محمد أبو الفضل ، دار الفكر، بيروت ١٩٦٤م، وج١، ص٦٦.

إضافياً، من ذلك أن بدر الدين البنكي المتوفي سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٧م^(١) كان يلزم النسخ من أول النهار إلى أن يمضي قدر رבעه، فيستريح ثم يعود إلى النسخ. فإذا كان يوم الإثنين والخميس يتوجه إلى سوق الكتب ليعرض ما نسخه للبيع^(٢)، وكان محمد بن محمد الحريري^(٣) ذا خبرة في خطوط العلماء والمصنفين، فكان يشتري الكتاب بالثمن اليسير ثم يكتب عليه خطه مقلداً أحد العلماء المشهورين بالخطوط فيروج الكتاب، وربما يقع له الكتاب المثقوب فيكملة بكلام من عنده أو بتكرار الكلمة المجاورة للثقب^(٤).

ولعل انصراف القضاة إلى أعمال أخرى بجانب القضاء وأختلاطهم بالعامية كان له انعكاس سلبي في نظر الناس، مما انتقص من مكانة هؤلاء القضاة الذين يمارسون هذه المهن في نظر المجتمع، ويرى الباحث أن ممارسة القضاة لبعض الحرف والمهن الهامشية، تقلل من تقدير الناس لهم وتضعف هيبتهم، إلا أن القضاة يتعاضد دورهم وتعلوا قاماتهم عندما يقومون بدورهم في التدريس والدعوة والنصح والإرشاد، ومشاركة الناس في مناسباتهم، افراحهم واتراحهم.

(١) البنكي، لم أقف له على ترجمة.

(٢) ابن حجر: مصدر سابق، ص ٣١٠.

(٣) محمد بن عثمان بن أبي الحسن بن عبد الوهاب الأنصاري شمس الدين الحريري الحنفي، ولد سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م، درس الفقه والنحو والحديث، ولي قضاء دمشق ثم قضاء الديار المصرية سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، وأضيف إليه تدريس المدرسة الصالحية، والناصرية، وجامع الحاكم، كان خلوقاً نزيهاً عادلاً حازماً في مواقفه، متديناً، وكان قوياً لا يلتفت لتأثير السلطان أو ذوي الحاجة، ولذلك عزل لمدة قصيرة سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، استمر في قضاء القضاة الحنفية حتى وفاته سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م. (ابن حجر: الدرر، ج ٤، ص ١٥٨-١٥٩).

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ص ١٤٨.

١- سكن العلماء:

كان سكن العلماء حسب الوضع الاقتصادي لكل واحد منهم، فقد اتخذ بعض القضاة والعلماء والكتاب بيوتاً من أجمل بيوت مصر في ذلك العصر، أمثال جلال الدين القزويني المتوفي ٧٣٨هـ/١٣٣٨م، الذي اتخذ بيتاً على النيل، ثم اتخذ ابنه بيتاً جوار بيت أبيه حمل إليه الرخام واستدعى إليه الصانع من الشام، وبالف في إتقانه حتي بلغت النفقة عليه زيادة علي خمسمائة ألف درهم، كما بالغ في تأثيثه ثم بني بيتاً آخر بمدينة القاهرة^(١)، وسكن برهان الدين بن جماعة قاضي قضاة الشافعية -المتوفي ٧٩٠هـ/١٣٨٨م- دار الأمير تنكر، بعد أن اشتراها فأنفق على زخرفتها على ما أشيع سبعة عشر ألف درهم، ثم اشتراها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل عام ٨٢١هـ/١٤١٨م، فجدد بناءها وبني جامعاً في مقابلها^(٢)، وعندما أتم القاضي شمس الدين محمد القليحي القوسي في رجب ٧٩٧هـ/١٣٩٥م^(٣) داره أخذ في ترخيمها وزخرفتها وبياضها، فجاءت في أعظم قالب، وأحسن هندام، وأبهج زينة^(٤)، أما قاضي القضاة شمس الدين محمد الطرابلسي الحنفي المتوفي عام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م^(٥)، فقد بنى داراً جاءت من أكبر دور القاهرة^(٦). وقد اشترى فتح الدين فتح الله بن معتصم، كاتب السر المتوفي سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م^(٧) - عدة أماكن، وشرع في بنائها داراً له، وغرس في جانبيها

(١) المقرئزي: السلوك، ص ٤٤٠.

(٢) زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شمس الدين بن محمد بن نور الدين بن محمد توفي بالطاعون سنة ٨٩٧هـ/١٢٩٥م، القاضي ولي أبوه قضاء الحنابلة بالديار المصرية في سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٦م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ٢٤، والزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٢٧٠)

(٣) أحمد بن محمد بن عمر بن علي الشهاب شمس الدين بن محمد الحنفي، لم أقف له على ترجمة.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٧٦.

(٥) شمس الدين محمد الطرابلسي، لم أقف له على ترجمة.

(٦) المقرئزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢.

(٧) فتح الدين فتح الله لم أقف له على ترجمة.

عدة أشجار وزرع كثيراً من الأزهار، التي حملت إليه من بلاد الشام وأبدع فيها كل الإبداع وبالغ في تحسين رخام هذه الدار، وأنشأ بها حوشاً كبيراً بواسطة فسيفة ماء بهيج المنظر، ثم أنشأ قاعة تشرف على الحوش، ثم أنشأ أروقة عظيمة فوق هذه القاعة، وبنى بجوارها عدة مساكن لمماليكه، ومسجداً معلقاً كان يصلى فيه وراء إمام له رتبة بمعلوم جارٍ، فجاءت هذه الدار من أجمل دور القاهرة وأبهجها^(١). وكانت دار ابن البارزي كاتب السر المتوفي ٨٢٣هـ/١٤٢٠م قبله للسلطان المؤيد شيخ بعدما يرغب في الاستراحة من مشاغل السلطة، أو من ألم رجله الذي كان يعاوده كثيراً، كان يذهب إلى بيت بن البارزي للإقامة عنده، وببيت عنده الليلة والليلتين^(٢). وكذلك كانت دار جلال الدين البلقيني المتوفي ٨٢٤هـ/١٤٢١م، التي اشتراها من أخيه، فصارت من أجل دور القاهرة صورة ومعنى^(٣).

لم ترد إشارة لمساكن محدودي الدخل من العلماء والديوانيين إنما أهملها المؤرخون، ولكنها فيما يبدو كانت متسقة مع مستواهم الاجتماعي والاقتصادي، فأهملها المؤرخون^(٤). أما الصوفية فقد اتخذوا من الخانقوات والربط والزوايا مأوى لهم، إلا أنها لم تكن سكناً عائلياً يشمل أسرهم، بل اقتصر على سكن الصوفي منفرداً دون أسرته باستثناء قلة، حسب شروط الواقفين، فقد سمح بعض الواقفين لشيخ الخانقاة أن تعيش أسرته معه في مسكن بالخانقاة، من ذلك أن الأمير جمال الدين الأستاذ اشترط في كتاب وقفه، أن من يسكن الخانقاة يكون عازباً غير متزوج، بحيث لا تدنس الخانقاه بسكن الحيض؛ إلا شيخ الخانقاة الخاصة فإنه

(١) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٦٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص ٢٩٩.

(٣) المقرئزي: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٢.

(٤) البطاوي: مرجع سابق، ص ١٤٩.

يرخص له أن يسكن بزوجته للضرورة، وشرط على أرباب البيوت من الصوفية الإقامة والمبيت بها، وسامح كل منهم بالمبيت خارج الخانقة لخمس ليالٍ في كل شهر، ومن أراد الزواج ممن له بيت بها أخذ منه، وأعطى لمن تتوافر فيه الشروط^(١).

كانت بيوت كثير من العلماء تضم بداخلها الخدم من الرجال والنساء، الذين يؤدون الخدمات المنزلية، وكان الأثرياء منهم يحرصون على اغتناء الجوراي الحسان والخيول والمماليك، محاولين التشبه في حياتهم بكبار أمراء المماليك؛ من ذلك أن شمس الدين الحريري قاضي الحنفية المتوفي ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م^(٢)، كان يبالغ في تعظيم نفسه والظهور بمظاهر العظمة، حتى أنه جعل في بيته امرأة نقيية؛ فإذا دخل على حريمه تلقته النقيية هذه بالباب، ومشى بين يديه وهي تقول "بسم الله" سيدنا ومولانا قاضي القضاة، وتذكر نعوتاً كثيرة فيها تفخيم وتبجيل، حتى ينتهي إلى مرتبة عالية في صدر بيته، فيجلس عليها وتقف نساء داره بين يديه بأدب وسكون، فيلنقت إلى زوجته فيقول لها: (أكرمي النقيية فإنها تعظم بعلك). وكان جمال الدين بن جلال الدين القزويني حريصاً على اقتناء الأواني الفاخرة والجوراي والمماليك^(٣).

(١) وثيقة وقف جمال الدين الاستادار، مصدر سابق، ص ١٩٣.

(٢) الحريري أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبي عمرو عثمان بن أبي الحسن عبد الوهاب الأنصاري الحنفي. ولد سنة ثلاث وخمسين، وسمع الحديث واشتغل وقرأ (الهداية)، وكان فقيهاً جيداً، درّس بأماكن كثيرة بدمشق، ثم ولي القضاء بها، ثم خطب إلى قضاء الديار المصرية فاستمر بها مدة طويلة محفوظ العرض، لا يقبل من أحد هدية ولا تأخذه في الحكم لومة لائم (ابن كثير: البداية والنهاية، أحداث سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م، ج ١٤، ص ٣٥٦).

(٣) المقرئزي: المقفى الكبير، ج ٦، ص ٢٠٢.

كان محدودى الدخل من العلماء يعيشون حياتهم مثل عامة الشعب، منهم الزنكلونى^(١) الذى كان ذا نفس راضية بحياته المتواضعة، حتى أنه كان يحمل طبق العجين على كتفه إلى الفرن ويعود به إلى البيت، ويقضى حوائجه من الأسواق^(٢).

كانت نظرة عامة الناس لحياة بعض القضاة الذين يبالغون فى التباهى، تتدرج تحت اعتقاد بعضهم أن ذلك من متطلبات الوظيفة، مما زاد هيبتهم فى النفوس واحترامهم لهم، أما القضاة الذين اتسموا بالتواضع والزهد فانقسم الناس حيالهم صنفين، صنف يرى فيهم الورع والزهد والتواضع، فزاد اكرامهم لهم وتقديرهم إياهم، وصنف وصمهم بالتذلل والضعفة فسخر منهم وأسقط مهابتهم من نفسه، ومن ذلك ما جاء فى القصص الشعبى الذى جعل القاضى الظالم مصدراً للتهكم والسخرية، متناولاً سمته، وهيئته التى تشبه هيئة الوالى الظالم فهو: "لا يقول الحق أبداً". و"يسرق ليأكل الفطورات العظام والحلاوات"^(٣). وقد قال شاعرهم:

قاضي إذا انفصل الخصمان ردهما إلى جدال بحكم غير منفصل

بيدي الزهادة في الدنيا وزخرفها جهراً ويقبل سراً بكرة الجمل

وقال: يا أيها الناس قفوا واسمعوا صفات قاضينا التي تطرب

يدعي وينتشي ويرتشي ينم ويقضي بالهوى يكذب^(٤)

٢- حياة العائلة:

(١) مجد الدين الزنكلوني لم أقف له على ترجمة.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٢٥.

(٣) سيرة الظاهر بيبرس، ج٤، ص٢٧٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٩١-٩٢.

كان من الشائع أن يتزوج طالب العلم إحدى بنات شيخه، وكذلك القضاة مع نوابهم، فتوثقت العلاقة بينهم بالمصاهرة، من ذلك أن قاضي القضاة جمال الدين عبد الله الحنفي المتوفي ٧٦٩هـ/١٣٣٧م^(١)، تزوج بصالحة بنت عز الدين عبد العزيز بن جماعة^(٢) قاضي الشافعية، وكانت تربطه مصاهرة بالقاضي الحنبلي أيضاً، فصار القضاة الثلاثة الحنفي والشافعي والحنبلي أسرة واحدة، وكلمتهم متفقة^(٣)، من ذلك أيضاً أن الكردي، أحد تلامذة الشيخ ابن حجر، تزوج إحدى بنات شيخه في سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م، وظل معها فترة من الزمن، فلما ماتت تزوج بأختها^(٤).

لقد كانت تعترض مثل هذا النوع من الزيجات بعض العقبات تحول دون نجاحها، فمثلاً بدر الدين ابن الصوّاف قاضي قضاة الحنفية والمتوفي ٨٦٨هـ/١٤٦٣م^(٥)، كانت بينه وبين محب الدين ابن الشحنة^(٦) صداقة

(١) جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الحنفي المصري، (الزركلي: الأعلام، م ٤، ص ١٤٧).

(٢) ابن جماعة: عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني، ولد سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، تولى قضاء الشام وحدث وأفتى بها، وله تصانيف كثيرة، عرف عنه الصلاح وحسن الاخلاق، برع في عدد من العلوم، كما درس الفقه والحديث، وتولى وكالة بيت المال إلى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م، وكان - رحمه الله - نافذ الكلمة محترماً ومبجلاً عند السلاطين والأمراء، (السبكي: الطبقات، ج ١٠، ص ٤١٨، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٠٨، والمقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣٣١-٤٢٤).

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٧، ص ١٠٧.

(٤) السخاوي: الذيل على رفع الأصر، تحقيق جودة هلال، ومحمد محمود صبح، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٥) ابن الصواف: محمد بن أحمد بن اسحق، أبوعلي (الزركلي: الأعلام، م ٥، ص ٣١٠).

(٦) ابن الشحنة: أبو الفضل محمد بن محمد بن محمود بن غازي ابن أيوب بن عبد الله محب الدين بن الشحنة الثقفي الحلبي. ولد في حلب وكان أبوه قاضي القضاة فيها، ويقال إنه عندما =بشّر به أبوه أصابه اليأس فقال. الشحنة أبو الفضل محمد بن محمد بن محمود بن غازي ابن

حميمية، فرغبا في تأكيد هذه العلاقة بزواج ابن محب الدين من ابنة بدر الدين، وكاد الأمر أن يتم، ولكن طرأت منافرات بين النساء اقتضت حدوث الوحشة بينهم، وحاول جماعة إزالتها بكل الطرق فما أمكن^(١)؛ وربما تزوج بعض العلماء من نساء المماليك، إما رغبة في وظيفة أو منصب يصل إليه عن طريق المصاهرة أو اعجاباً بجمالهن الفائق، ولم يكن لهذه الزيجات من أثر بين إلا في أواخر عصر سلاطين المماليك، عندما ضعفت الحواجز بين المماليك وأهل البلاد، وبعد أن سمح للمماليك بالنزول إلى المدينة، وبدأ الاختلاط بين الطرفين، فنجد أن ناصر الدين ابن العديم^(٢) قاضي قضاة الحنفية تزوج من بيرم بنت الأمير تغري بردي الأتابكي^(٣)،

أيوب بن عبد الله محب الدين بن الشحنة النقي الحلي. ولد في حلب وكان أبوه قاضي القضاة فيها، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٣، والزركلي: الأعلام، م ٤، ص ٤٤، ومعلوف: المنجد، ص ٣٨٥).

(١) السخاوي: المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) هو: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هرون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جراحه بن ربيعة بن خويلد بن عوف بن عامر بن عقيل العقيلي الحلي، ويلقب بأبي القاسم المعروف بكمال الدين بن العديم، ولد بحلب سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، درس الحديث على يد والده وعمه، وقد درّس وأفتى وألف الكتب وبرع في علوم عديدة، وقد ألف تاريخاً عظيماً لحلب، ويعتبر من الرؤساء في الدولة الأيوبية، كما كانت له مكانة في دولة المماليك، توفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م، (العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٣٣٩-٣٤٠، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٠٣).

(٣) ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي الشيبقايي الظاهري. (ولد بالقاهرة سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م - توفي بالقاهرة سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) (وتغري بردي محرفة من تتكري يردي، ويردي بالتركية تعني عطا الله). مؤرخ مصري كان أبوه من كبار أمراء المماليك في عهد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق وابنه الناصر فرج بن برقوق. تتلمذ علمياً ودينياً على أيدي كبار مشايخ عصره أمثال زوج أخته قاضي القضاة جلال الدين البلقيني، وابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، وابن ظهيرة وابن عربشاه. ثم لازم مجلس شيخ المؤرخين تقي الدين المقرئ فتعلم منه حب التاريخ والتأريخ. وبذلك انتمى ابن تغري إلى طبقة الأمراء وأرباب الدولة وتتلذذ على أيدي العلماء وأهل العمام، (السخاوي: الضوء اللامع، السيوطي، ج ١٠، ص ٣٠٥، وابن العماد: شذرات اذهب، ج ٧، ص ٣١٧، والزركلي: الأعلام، م ٨، ص ٢٢٢) ..

ثم تزوجها بعد وفاته جلال الدين البلقيني قاضي قضاة الشافعية^(١). وتزوج القاضي شرف الدين الأنصاري بخوند زينب ابنة جرباش أرملة السلطان جقمق، وقد عرّضه ذلك للضرب والإهانة والمصادرة من ممالك الطاهر جقمق^(٢). أما التسري بالنساء فكان أمراً شائعاً في ذلك العصر، فهناك بعض العلماء والديوانيين الذين أكثروا من التسري وخاصة الجواري من الممالك^(٣).

كانت إجراءات الزواج بالنسبة للعلماء والديوانيين تسير وفقاً لما كان متبعاً في المجتمع آنذاك من عادات وتقاليد، ومن خطبة ومهر وإعداد مجلس الزوجية، وكانت نفقات هذه المراسم كلها يتحملها الزوج، هذا في حين تقوم العروس وأهلها بتجهيز منزل الزوجية، وكان جهاز العروس يرسل من بيتها إلى بيت الزوجية قبل البناء ثم يسمى بالشورة. وعلى العروس إن حدث تلف للأدوات التي شملتها الشورة أن تعدلها على نفقتها إلى أن يتم البناء عليها؛ فعندما شرع القاضي علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة في الزواج بإحدى بنات التجار، وتعرف بست العمائم وقارب البناء عليها والدخول بها، حضر إليه وكيل العروس وبلغه سلامها عليه، وأخبره أنها بعثت إليه بمائة ألف درهم فضة خالصة ليصلح به ماعسى أن يكون اختلّ من الأواني التي أرسلتها في شورتها، فأمر القاضي بإحضار الفضة وصناعتها، وشرعوا في إصلاح ما أرسلته العروس من الأواني الفضية وإعادة

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص١٢٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٥٢.

(٣) الصفدي: مصدر سابق، ج٥، ص٣٠٥.

طلائها بالذهب فكان منظراً بديعاً^(١). وكانت شورة العروس من بنات أثرياء العلماء المعممين تشمل الأدوات العديدة و النفيسة مثل قطع النحاس المكفت^(٢).

٣- تعدد الزوجات:

انتشرت ظاهرة تعدد الزوجات في المجتمع في عصر سلاطين المماليك بين العلماء، فمن العلماء والديوانيين من تزوج اثنتين، ومنهم من تزوج ثلاث نسوة أو أربعة. أما ظاهرة تتابع أحدهم على أكثر من زوجة فهذا أمر ثابت، وذلك عندما ينفصل أحدهم عن زوجته بسبب الطلاق أو الوفاة، فبالغ بعضهم في أمر هذا الزواج، فالقاضي شرف الدين الأنصاري المتوفي سنة ٨٨١هـ/١٤٧٦م^(٣)، تزوج ابنة الظاهر مطر خفية، ثم طلقها، ثم تزوج زينب ابنة حرباش أرملة السلطان جقمق وقاسى شدائد كثيرة من ممالك السلطان بسبب زواجه منها، وبعد موتها تزوج أرملة نائب الشام، ثم تزوج فاطمة ابنة شرف الدين الملكى، وماتت معه ثم تزوج مطلقة أحد المماليك ولم تحصل له راحة من قبلها، حتى أنه قيل أنها وضعت له السم فقتلته^(٤).

كان موقف المجتمع بصفة عامة من التعدد إيجاباً، وذلك لانتشاره في كافة قطاعات المجتمع، إلا أن أصحاب السلطة والقادة من المماليك رفضوه لبناتهم وقبلوه لأنفسهم، رغم قبول النساء به بدليل تعايش أكثر من زوجة في دار واحدة، ويرجع ذلك لتقيدهم بالشرع الحنيف والسنة المطهرة، لذلك لم تجد ظاهرة التسري بالإماء أدنى اعتراض من العلماء ورجال الدين أو من الزوجات أنفسهن، ولم يكن

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ١٠٥.

(٢) النحاس المكفت: أي النحاس المطعم بالكفت، والكفت ما يطعم به أواني النحاس، من الذهب والفضة، (المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ١٠٥).

(٣) شرف الدين الأنصاري لم أقف له على ترجمة.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ١٨٦.

لتعدد الزوجات والتسري بالإماء، من أثر بين سلباً كان أم إيجاباً علي تربية الأبناء، لأن الباحث لم يقف على دراسة اجتماعية تشير إلى ذلك، ولكن الباحث يرى أن الأمر يختلف من شخص لآخر وفق الأوضاع الاقتصادية والمستوي التعليمي للأسرة وعميدها.

٤- الدور الاجتماعي والعلمي لنساء وبنات العلماء

نجد أن بعض نساء العلماء شاركن في الحياة العلمية وظهرن على مسرح الحياة العامة، فقد حرص كثير من العلماء والديوانين على تربية وتعليم زوجاتهم وبناتهم العلوم الدينية، من قرآن وحديث وغيره، ويحفظ التاريخ أسماء كثيرات ممن اشتغلن في ذلك العصر بالنحو والفقه والحديث وقرض الشعر، وكانت لهن مشاركة في الحياة العامة، ودأبت كثيرات منهن على التنقل بين الشام ومصر شأن فقهاء ذلك العصر للسماع من كبار العلماء والمحدثين، ولم يأنف بعض كبار العلماء من الإعراف بأنهم درسوا على بعض الشهيرات وحصلوا على إجازات منهن^(١). كان الحافظ شمس الدين الذهبي ٧٤٨هـ/١٣٤٧م^(٢) يقول عن إحدى العالمات: (كنت أتلّف على لقيائها)؛ ومن هؤلاء النساء تاج النساء بنت عيسى وأختها مظفرية، سمعت الحديث بقراءة عمها في عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، وخديجة بنت علي المتوفاة سنة ٧١٧هـ/١٣٤١م، سمعت الحديث بقراءة أخيها. ورقية بنت محمد المتوفاة

(١) عاشور، سعيد: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ١٧٧.

(٢) الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، شمس الدين، أبو عبد الله، محدث العصر، إمام الوجود حفظاً، وذهبيّ العصر معنى ولفظاً. وطلب الحديث وهو ابن ثمان عشرة. سمع بدمشق، ومصر، وبعليّك، والإسكندرية. وسمع منه الجمع الكثير، وكان شديد الميل إلى رأي الحنابلة، معظماً لعقيدة السلف، جارياً عليها، راداً على من خالفها، فألف في ذلك مصنفات جليّة في العلوم، والأربعين في الصفات، وكتابه "العرش" وغيرها. وله التصانيف الجزيّة في الحديث، وأسماء الرجال؛ قرأ القرآن، وأقرأه بالروايات، وقد بلغت مؤلفاته التاريخية وحدها نحو مائتي كتاب، بعضها مجلدات ضخمة (ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٠٧، والزركلي: الأعلام، م ٨، ص ٢٤٩).

سنة ٧٤١هـ/١٣٤٧م سمعت الحديث بقراءة أبيها^(١). وفاطمة الحنبلية ابنة شرف الدين موسى بن محمد، وزوجة شهاب الدين أحمد بن السفاح ابنة عالم وزوجة عالم، أجاز لها الكثيرون من العلماء، وتوفيت سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م. أما سارة بنت عمر فهي من أسرة ابن جماعة، وهي أسرة علمية أجاز لها جمع كبير من العلماء. توفيت سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م^(٢).

رابعاً: تقويم عام لحياة العلماء والديوانيين:

وقع بعض العلماء والديوانيين في أخطاء وممارسات كانت مسار انتقاد وموضع لوم اللائمين، منها ما ارتبط بالوظيفة، مثل قبول الرشوة، وبيع الوظائف، الأمر الذي أدى إلى انعدام الكفاءة الإدارية. ومنها ما كان متعلقاً بالنزاع حول الوظائف وأماكن السكن، ومنها ما ارتبط بالحياة العامة مثل تملق بعضهم وتزلفهم للحكام مما عاد بالظلم على الناس. ولأن كان للحوارات التي جرت بين العلماء جانب سلبي بسبب ما تفضي إليه غالباً من خصومة ونزاع، إلا أنها من جانب آخر فقد أثرت الساحة الفكرية بما أوجدته من حراك علمي وجدل فكري طرق قضايا كانت في حكم الممنوع والمسلم به.

فمثلاً نجد أنه رغم تربية الغالبية العظمى من أبناء العلماء تربية دينية إلا أن بعضهم سلك سلوكاً غير مرضٍ، فمثلاً نقرأ عن ابن شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن دقيق العيد أنه خالط أهل المعاصي، وخرج عن طريق أبيه، واستمر على ذلك حتى جفاه أبوه وأبعده من بين الشهود عندما علم عنه ذلك^(٣). كما استخدم بعض أبناء القضاة نفوذ آبائهم في الولاية وعزل النواب، أو الإشراف على أموال اليتامى

(١) الأدفوي: مصدر سابق، ص ١٧٥-٢٤٠-٢٤٨.

(٢) السخاوي: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٥٢-١١٢، وذيل رفع الأصر، ص ٢٠٨.

(٣) الصفدي: مصدر سابق، ج ١٦، ص ٥١٤.

والأوقاف، فقد نفى بن جمال الدين بن قاضي القضاة الشافعي جلال الدين القزويني من مصر إلى الشام، لأنه لم يكن له هم غير الانقطاع في البحر واللهو والتهيه والاعتكاف على الشراب؛ فشفع فيه الأمير قوصون^(١) فأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإعادته إلى مصر فعاد سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٤م، ولكنه استمر على سيرته الأولى، فعزل السلطان والده من القضاء ثم أمر بنفي القاضي وابنه إلى الشام ثانياً في عام ٧٣٨هـ/١٣٣٨م^(٢). ومن العلماء من استهوته مجالس اللهو والطرب وعشرة الملاح ولعب الشطرنج^(٣). فكثير ما كان يجتمع الشيخ تقي الدين السروجي^(٤) بأصدقائه من العلماء ليعرض كل منهم ما كتب من الشعر، وكان السروجي يكره مكاناً فيه امرأة، وإذا دُعي إلى مسامرة يقول للداعي: (شرطي معروف لا تحضر امرأة)^(٥).

(١) هو: الأمير قوصون الساقي الناصري، كان قبجاقى الأصل، وقد حضر مع ابنة القان أربك زوج الناصر محمد، والذي أصر على شرائه، وقد عاش في القلعة وعظمت منزلته عند الناصر محمد حتى زوجه ابنته سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، في فرح كبير، وهو صاحب الجامع الكبير بالقاهرة، والخنقاه المعروفة باسم باب القرافة، وبعد وفاة الناصر محمد تعصب لابنه ابي بكر حتى سلطنه، وأصبح نائباً له وصار صاحب الأمر والنهي، فاجتمع الأمراء ضده وألبوا العامة لنهبه، وأخيراً تمكنوا من إلقاء القبض عليه واعتقل في الإسكندرية، حيث قتل سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م، (ابن حجر: الدرر، ج ٣، ص ٣٤٢-٣٤٤).

(٢) اليوسفي: موسى بن محمد بن يحيى المصري، عماد الدين، اشتهر بابن الشيخ يحيى، ولد سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، وكان من الأمراء المقدمين في الجيوش، ت ٧٥٩هـ/١٣٥٨م: (نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، ط ١، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦م، ص ١٧٦).

(٣) اليوسفي: المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٤) السروجي: تقي الدين عبد الله بن علي بن منجد المتوفي سنة ٦٢٧-٦٩٣هـ/١٢٣٠-١٢٩٤م. له في ضاحية الحسينية بالقاهرة دار جميلة، شاعر وأديب صاحب القصيدة التي مطلعها، أنعم بوصلك لي فهذا وقته، يكفي من الهجران ما قد ذقته (ابن شاعر: فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٢٠، والزركلي: الأعلام، م ٤، ص ١٠٦).

(٥) ابن شاعر الكتبي: مصدر سابق، ج ١، ص ٤٦، ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ص ١٠١.

لقد نفشت الرشوة نتيجة للتدهور الاقتصادي في مصر منذ بداية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حتى لجأ بعض العلماء والديوانيين لبيع وظائفهم؛ فينزل الفقيه عن وظيفته في وقف من الأوقاف أو في الدروس أو الخانقاوات أو المباشرة، ذلك مقابل مبلغ يدفعه له طالب الوظيفة^(١). ونجد أن بعضاً ممن كان يتولى وظيفة يقوم ببيعها وهو على رأسها لغيره، أو يورثها لأحد أبنائه من بعده مهما كان مستوى ذلك الابن، سواءً من حيث صغر سنه أو تدني درجة علمه. وصف ذلك المقرئ بقوله: "وسرى ذلك حتى في التداريس الجليلة، والأنظار المعبرة، وفي ولاية القضاء بالأعمال؛ يتولاها الصغير من بعد موت أبيه، ويستتاب عنه كما يستتاب في تدريس الفقه والحديث النبوي، وفي نظر الجوامع ومشايخ التصوف. فيا نفس جدي إن دهرك هازل"^(٢).

يعلق السبكي على تولي الوظائف لغير أهلها وانتشار البذل وشراء الوظائف بقوله: "والسلمة غالباً إنما نتوقع في ترك الولايات فكيف تبذل فيها الأموال الحرام، فإنه لما رجع الأمر فيها إلى بذل الأموال صار يطلبها من ليس فيه أهلية لها ولا يعرف الأحكام، فضاعت أمور المسلمين بسبب طلبها ودخول الأموال فيها وصارت التولية لمن لا يستحقها"^(٣).

كما أرجع المقرئ في كتابة إغاثة الأمة بكشف الغمة أسباب الفساد والغلاء والقحط الذي نفش في المجتمع المملوكي إلى عدد من الأسباب، منها تولي الوظائف المهمة والدينية في الدولة كالوزارة والقضاء والحسبة وغيرها من

(١) عاشور، سعيد: المجتمع المصري، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٦١٩.

(٣) السبكي: تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، توفي سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م: معبد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، وأبو زيد شلبي، ومحمد أبو العينين، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٥٨.

الوظائف المهمة بالرشوة والبرطلة، فيصل إلى هذه الوظائف المهمة في الدولة من ليس أهل لها، ويتحمل دفع الأموال الطائلة، إما للسلطان أو لحاشيته، ثم يرهق عماله وأعوانه بجمع هذه الأموال، وهم بدورهم يقومون بجمع الأموال من الرعية الذين أثقلت كواهلهم بدفع الضرائب وجور وتعسف الولاة والجباة في أخذ الأموال من العامة بكل الطرق، المشروعة وغير المشروعة^(١).

كما اتصف المناخ الذي عاش فيه العلماء بالتنازع فيما بينهم بسبب الوظائف وبعض القضايا العلمية، فمثلاً عندما بنى الناصر محمد بن قلاوون المدرسة والقبّة الناصرية عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م، عرض على زين الدين بن مخلوف^(٢) قاضي قضاة المالكية ترتيب وظائف الوقف، فجعل بن مخلوف وظيفة النظر لنفسه، ثم لأولاده من بعده، ثم لقاضي القضاة المالكية من بعدهم، واشترط أن يكون التدريس في إيوان^(٣) المالكية لنفسه، ولأولاده من بعده، ووقع السلطان على كتاب الوقف؛ فعلم شهاب الدين بن عبادة بهذا الترتيب فطمع في وظيفة مشارف بشرط الواقف^(٤). فطالب القاضي بها، فرفض؛ فضاق ابن عبادة من رفضه، وتقدم إلى السلطان وأوضح له أمر الوقف وأن المستفيد منه هو القاضي ابن مخلوف وأولاده فقط،

(١) المقرئ: إغاثة الأمة، ص ٣٨-٤٠.

(٢) ابن مخلوف، هو: علي بن ناهض بن مسلم النويري، المالكي قاضي القضاة، بن الدين، ولد سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م، درس الفقه ومهر فيه، واشتغل على مذهب مالك، وعمل أميناً للحكم، وولي القضاء في أواخر سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، إلا أن الناصر محمد عزله - لما رجع من الكرك - ثم أعاده، فباشّر القضاء إلى أن مات، كان مشكور السيرة، كثير الإحتمال، بالغ الإحسان إلى الطلبة، توفي سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، (ابن حجر: الدرر، ج ٣، ص ٣٠٢، ورفع الأصر، ص ٤٠٥-٤٠٦).

(٣) الإيوان: يمثل وحدة معمارية مربعة أو مستطيلة الشكل لها ثلاث حوائط والجهة الرابعة مفتوحة، ويعلو دائماً بمقدار درجة أو أكثر عن بقية مسطحات المكان، وتكون واجهته عقداً كبيراً، (البهنسي، صلاح: الفن المملوكي، المصطلحات، ص ٢١٦).

(٤) المشارف هو موظف يتولى الاشراف على الامور المالية والخاصة والاقواف. (عاشور، سعيد: المجتمع المصري، ص ٤٥٦).

وحسن للسلطان تغيير كتاب الوقف، فأبطل السلطان الكتاب الأول ورتب كتاباً آخر^(١).

وعندما ولي شمس الدين محمد الهروي^(٢) وظيفة قاضي القضاة الشافعية ٨٢١هـ/١٤١٨م، انتصب له جمال الدين عبد الرحمن البلقيني قاضي قضاة الشافعية، واستطاع التوصل إلى العديد من أهل الدولة وعلى رأسهم كاتب السر ناصر الدين بن البارزي^(٣) لمساعدته في العودة إلى الوظيفة، فأبلغوا السلطان المؤيد شيخ أموراً قبيحة عن الهروي وحطوا من قدره، وظلوا بالسلطان حتى أقنعوه بأن أهل البلد الأصاغر والأكابر لا يرضون إلا بجلال الدين البلقيني قاضياً لهم، وليس فيهم أحد يريد الهروي، ثم أبلغوا السلطان إذا أراد التأكد من صحة قولهم أن يجلس وينظر إلى أهل مصر إذا علموا بولاية البلقيني للقاء الشافعي، فقام السلطان بعزل الهروي وولى البلقيني في ربيع أول ٨٢٢هـ/١٤١٤م، وكان البلقيني ورجاله قد أعدوا جمعاً غفيراً من العوام تجمعوا للفرجة عليه بحيث أن أحداً لا يقدر

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ١٠٤١-١٠٤٢، والخطط، ج ٢، ص ٣٨٢.

(٢) الهروي: محمد بن أحمد بن أبي يوسف الهروي، أبو أسعد فقيه شافعي قتل شهيداً مع ابنه في جامع همذان وكان قاضياً فيها، (الزركلي: الأعلام، م ٥، ص ٢١٦).

(٣) ابن البارزي هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم أبو القاسم، شرف الدين الجهني الحموي ٦٤٥ - ٧٣٨هـ/ ١٢٤٨ - ١٣٣٨م، من أهل حماة. ولي قضاءها مدة طويلة بلا أجر، وعين مرات لقضاء مصر فاستغفى. وذهب بصره في كبره. ولما مات أغلقت مدينة حماة لمشهده. له بضعة وتسعون كتاباً، منها «تجريد جامع الأصول في أحاديث الرسول» و«إظهار الفتاوى من أسرار الحاوي» في فقه الشافعية، مجلدان، و«تيسير الفتاوى في تحرير الحاوي» فقه، و«الشرعة في القراءات السبعة» رسالة، و«الفريدة البارزية، في شرح الشاطبية» و«البستان في تفسير القرآن» و«توثيق عرى الإيمان في تفضيل حبيب الرحمن» و«روضات جنات المحبين» اثنا عشر مجلداً، و«الناسخ والمنسوخ» و«ضبط غريب الحديث» مجلدان، و«بديع القرآن» و«رموز الكنوز» منظومة في الفقه، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٣١٥، وابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٤٠١، وحاجي، خليفة باشا: كشف الظنون عن أسامي الأدب والفنون - دار الفكر، بيروت ١٩٩٠م، ص ١٠٤٤، والزركلي: الأعلام، م ٨، ص ٧٣).

أن يصل إلى قاضي القضاة إلا بعنف شديد، فدهش السلطان لذلك وتأكد من صحة كلامهم^(١).

جرت حوارات بين العلماء حول قضايا علمية، وانتهى الأمر فيها غالباً إلى منازعات وخصومات بينهم، وربما تحزب فريق ضد الآخر، ومن ذلك أن شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية^(٢) أثار العديد من القضايا التي صادفت معارضات كثيرة من علماء معاصريين وخاصة من الصوفية، فانصب كثير من العلماء لمحاورته والرد عليه، ولكنه تمسك بآرائه وتبعه الحنابلة في مصر والشام، وقد لحقهم نتيجة لذلك أذى كثيراً، وأحضر ابن تيمية من الشام إلى القاهرة فناظر كثيراً من العلماء والقضاة حتى انتهى الأمر بسجنه^(٣). كذلك حدث أن اجتمع أبو البقاء السبكي^(٤) قاضي قضاة الشافعية والأحنائي قاضي قضاة المالكية في أحد المجالس

(١) البطاوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٧.

(٢) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (٦٦١-٧٢٨هـ/١٢٦٣-١٣٢٨م)، ولد في حران وهي بلدة تقع حالياً في الجزيرة الفراتية بين دجلة والفرات. وحين استولى المغول على بلاد حران وجاروا على أهلها، انتقل مع والده وأهله إلى دمشق سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٢-١٢٦٨م، فنشأ فيها وتلقى على أبيه وعلماء عصره العلوم المعروفة في تلك الأيام. كانت جدته لوالده تسمى تيمية وعرف بها. وقدم مع والده إلى دمشق وهو صغير. قرأ الحديث والتفسير واللغة وشرع في التأليف من ذلك الحين. بعد صيته في تفسير القرآن واستحق الإمامة في العلم والعمل وكان من مذهبه التوفيق بين المعقول والمنقول، (الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٥-٤٥، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ١٤٤، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٣٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٧١، والزركلي: الأعلام، م ١، ص ١٤٤).

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٩-٤٠.

(٤) أبو البقاء. محمد بن محمد بن عبد البر بن يحيى بن علي الأنصاري الخزرجي، بدر الدين أبو عبد الله السبكي القاهري، الفقيه الشافعي، المعروف بابن أبي البقاء وأخذ عن والده القاضي بهاء الدين ثم ولي القضاء في سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) وناب عنه في القضاء بالقاهرة، ودرس الحديث والفقه بالمنصورية وتوجه إلى دمشق وولي بها خطابة بالجامع الأموي بعد وفاة ابن جماعة سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، وتوجه إلى دمشق وولي بها خطابة وتدریس الغزالية، وعزل فاستقر في تدریس الشافعي إلى أن ولي قضاء القاهرة مرتين، مات سنة ثلاث وثمانمائة (ابن حجر: إنباء الغمر =

عام ٧٧٣هـ/١٣٧٢م^(١)، فجرت بينهما محاورة فقال أبو البقاء للأخنائي: (لو كان الإمام مالكاً حياً لناظرته) فاعتبر الأخنائي ذلك خروجاً عن الدين وعنف أبا البقاء قائلاً: (والله لو كان غيرك لضربت عنقه)^(٢).

ومن الأمور التي أثارت جدلاً بين العلماء إقامة الخطبة بالمدرسة المنصورية بعد تجديدها عام ٧٧٤هـ/١٤٧٣م، فقد أفتى بعضهم بجواز الخطبة بها، وأنكر آخرون ذلك لقربها من الجامع الأزهر، فعقد مجلس بين العلماء والقضاة لهذا الغرض، وآل الأمر إلى المنع من الخطبة وانفضوا على ضغائن في نفوس من أفتى بالجواز على من منع^(٣).

وكثيراً ما أثار التعصب إلى المذهب حفيظة بعض العلماء على بعضهم، ففي عام ٧٨١هـ/١٢٧٩م، أحضر قاضي قضاة الحنفية جابر الله الواعظ^(٤) إبراهيم الحلواني وعزّره وسجنه ومنعه من الكلام، ذلك لأن الحلواني هذا كان يقرأ بالجامع الأزهر فإذا بشخص يقال له القدسي أحضر للحلواني الواعظ كتاباً فيه مناقب للشافعي وقال له: يأمرك القاضي برهان الدين بن جماعة أن تقرأ هذا الكتاب على الناس، فقرأه فبلغ ذلك بعض الحنفية فشكوا الحلواني إلى القاضي فأحضره وعزّره،

=بأبناء العمر، ج ٤، ص ٣٣٣، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ٨٨٠، والنعمي، عبد القادر، توفي ٩٢٧هـ/١٥٢٠م، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسين، مطبعة المجمع العلمي العربي، دمشق ١٣٧٨هـ/١٩٤٨م، ج ١، ص ١٣٥، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٣٧).

(١) هو: محمد بن علم الدين محمد بن أبي بكر الأخنائي قاضي المالكية، ولد سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م، ودرس على الحافظ شرف الدين الدميّطي، كان فقيهاً فاضلاً، ولي قضاء الديار المصرية للمالكية، واستمر في القضاء في عهد الناصر محمد رغم ما أصاب عينيه من ضعف نظر. قال السلطان الناصر عنه: (لا أعزله أبداً لو استمر أعمى حتى يموت) توفي بالطاعون سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م، (المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٨٨٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٢).

(٢) ابن إياس: مصدر سابق، ج ١، ص ١٠٧.

(٣) البطاوي: مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٤) جابر الله الواعظ، لم أقف له على ترجمة.

وأحضر القدسي فاعترف أن ابن جماعة لم يأمره بشيء من ذلك، فعزّره القاضي أيضاً^(١). ومن القضايا التي أثارت النزاع بين العلماء أقوال ومعتقدات الصوفية، ففي عام ٨٣١هـ/١٤٢٨م نشب الخلاف بين القضاة والعلماء حول أقوال محي الدين بن عربي المتوفي عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م^(٢)، فقد أنكر شمس الدين البساطي قاضي قضاة المالكية على المعارضين لكلام ابن عربي، وكان منهم علاء الدين البخاري وابن حجر العسقلاني، فاحتد علاء الدين وأقسم بالله إن لم يعزل السلطان برسباي البساطي من القضاء ليخرجن من مصر، فوصل كلام الشيخ علاء الدين إلى السلطان، فاستدعى قضاة القضاة والعلماء ودار الحوار في معنى أقوال ابن عربي، وانتهى الأمر بتبرأ البساطي من كلام ابن عربي وكفر من يعتقده، فأقره السلطان على ما بيده من الوظائف بعد أن كان قد هم بعزله^(٣).

إن أكثر ما أثار خلاف العلماء على مصطلحات الصوفية وأقوالهم؛ القصيدة التائية لعمر بن الفارض الصوفي المتوفي ٦٣٢هـ/١٢٣٥م، فقد نسبته جماعة إلى الفسق بسببها ودافع عنه آخرون، واشتعلت الفتنة لذلك عدة سنوات بين العلماء، فذهب كل فريق إلى مساندة رأيه بتأليف الكتب في تلك القضية، فكتب جلال الدين السيوطي كتاباً سماه: (قمع المعارض في الرد على ابن الفارض)^(٤)، وكان

(١) ابن حجر: أنباء الغمر، ج ١، ص ١٩٥، والبطاوي: مرجع سابق، ص ١٥٩.

(٢) هو: محيي الدين محمد بن علي الحاتمي الطائي، ولد في مرسية في الأندلس في عام ٥٥٨هـ/١١٦٤م، وتوفي في دمشق عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م بسفح جبل قايسون، صوفي، يلقب بالشيخ الأكبر، أقام ٣٠ عاماً في إشبيلية ثم رحل إلى الشرق، له ٤٠٠ مصنف منها (الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والمكية)، و(نصوص الحكم)، و(ترجمان الأشواق) و(جامع الأحكام)، ((ابن شاكِر: فوات الوفيات، ج ٢، ص ٢٤١، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٩٠، والزركلي: الأعلام، م ٦، ص ٢٨٢، ومعلوف: المنجد، ص ١٢).

(٣) السخاوي: مصدر سابق، ص ٢٢٩.

(٤) هو: أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي، أحد أشهر الشعراء المتصوفين، وكانت أشعاره غالبها في العشق الإلهي حتى أنه لقب بـ "سلطان العاشقين" ولد بمصر =

البقاعي^(١) أحد العلماء القائلين بفسق ابن الفارض، فصنف أحد العلماء كتاباً رد فيه على أقوال البقاعي سماه (ترياق الأفاعي في الرد على البقاعي)، ثم أمر السلطان قايتباي بحسم الخلاف بين العلماء بأخذ رأي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، فأجاب الشيخ بأن كلام الشيخ عمر بن الفارض يؤخذ على اصطلاح أهل الصوفية وهو ظاهر عندهم ولا شيء فيه فسكن الحال بين العلماء^(٢).

إن من المفسدات العقدية التي ابتليت بها بعض المجتمعات المملوكية الاستعانة بالمنجمين، وقد نفشت بشكل واضح وجلي عند عامة الناس وخاصتهم، حتى شمل ذلك عليّة القوم كالسلاطين وحاشيتهم ونسائهم، وكذلك رجالات الدولة من نواب وأمراء ووزراء وغيرهم^(٣)، وكذلك الاعتقاد في الأولياء الصالحين والمجاذيب، ولم يكن هذا الاعتقاد مقتصرًا على العامة فقط، بل تعداها إلى الطبقة الحاكمة؛ فمن ذلك على سبيل المثال ما شاع في المجتمع المصري من الاعتقاد في السيد أحمد البدوي^(٤)، وقد ذكر ابن إياس أن الظاهر بيبرس كان يقدّره ويتأدب معه، وأن

=سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨١م. ولما شب اشتغل بفقّه الشافعية، وأخذ الحديث عن ابن عساكر. ثم سلك طريق الصوفية ومال إلى الزهد. رحل إلى مكة في غير أشهر الحج، واعتزل في واد بعيد، توفي سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م، صاحب اللامية الشهيرة التي مطلعها: هُوَ أَحَبُّ فَاسَلَمَ بِالْحُشَا مَا أَهْوَى سَهْلُ، (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٨٣، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٤٩-١٥٣، الزركلي: الأعلام، م ٥، ص ٥٥).

(١) إبراهيم بن عمر، برهان الدين: مؤرخ وأديب ٨٠٩-٨٨٤هـ/ ١٤٠٦-١٤٨٠م، ولد في خربة روحا (البقاع) وتوفي بدمشق، من مؤلفاته (عنوان الزمان) و(نظم الدرر) و(سر الروح) اختصر به كتاب ابن القيم الجوزية، (معلوف: المنجد، ص ١٣٧).

(٢) ابن إياس: مصد سابق، ج ٣، ص ٤٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٥٨١، وابن الأخوة: معالم القرية، ص ٨٩، وعاشور، سعيد: المجتمع المصري، ص ٢٤١.

(٤) هو: أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر البدوي، وأصله من قبيلة بري من قبائل غرب الشام، انتقل والده إلى المغرب، فولد أحمد هذا في مدينة فاس سنة ٥٦٩هـ/ ١١٩٩م، وحفظ القرآن=

الظاهر برقوق كان يعتقد في المجاذيب والفقراء، حتى أن أحدهم أعطاه طوبة وأمره أن يضعها في أحد قناديل مدرسته لتظل عامرة ففعل^(١)، كما أوصى أن يدفن تحت أقدام الفقراء^(٢).

=وشيناً من الفقه الشافعي، عرف بالبديوي لأن أباه كان دائم اللثام، إدعى فعل الخوارق والكرامات حتى افتنن به الناس، توفي سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م. (ابن العماد: شذرات، ج ٥، ص ٣٤٥-٣٤٦).

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٧٣.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ٩٣٧.

مقدمة

ورث سلاطين المماليك بني أيوب الذين اهتموا بالعلم والعلماء، والدين والثقافة والأدب، وقد زادت درجة الاهتمام عند المماليك بالعلماء وزادت الأنشطة العلمية عندهم عن بني أيوب، إلا أن المماليك اكتفوا بتشجيع العلماء دون أن نجد لهم جهوداً في التأليف والتصنيف كأساتذتهم الملوك الأيوبيين إلا فيما ندر، فقد كان السلطان صلاح الدين الأيوبي شديد الكلف بعلوم الدين، وكان السلطان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه الأئمة المشهورين، وكان يصحب معه أبناءه، منتقلاً بهم من مصر إلى الإسكندرية ليتعلموا - على حد قوله - حياة الإمام الحافظ السلفي أو حياة غيره من الأئمة المعروفين: كالشيخ أبي طاهر بن عوف، الذي سمع السلطان عليه موطأ مالك برواية الطرطوشي، وكالشيخ تاج الدين المسعودي، الذي كان السلطان - مدة إقامته بالقاهرة - يعين ميقاتاً لسماع الأحاديث النبوية عنه^(١). ويقول ابن شداد متحدثاً عن السلطان: "كان - رحمه الله - شديد الرغبة في سماع الحديث، متى سمع عن شيخ ذي دراية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضره عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من كان يحضر في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به. وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين، ويتجاوز عن الحضور في مجالسهم، سعى إليه وسمع عليه، شيئاً من كتب الحديث، ويقرؤها هو، فإذا مرَّ بحديث فيه عبرة رق قلبه، ودمعت عينه^(٢)."

ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب خلفه على عرش مصر ولده المعظم توران شاه وكان موصوفاً بطيشه وميله إلى اللهو والمجون والحمافة. ومع ذلك فقد أثنى المؤرخون عليه من الناحية العلمية؛ فقالوا: "ولكنه كان قوي المشاركة في

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٧٣.

(٢) ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم، ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م، النوار السطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٧.

العلم، حسن المباحثة ذكياً^(١). إذن فقد كان ملوك الأيوبيين يتحمسون للعلم ويكرمون أهله. ومن هنا ليس غريباً أن يسير على نهجهم مماليتهم وورثة عرشهم، خاصة وأن أحوال العالم الإسلامي كانت تفرض عليهم الاهتمام بالعلم والعلماء، وأن يعطوا علماء الدين الإسلامي عناية خاصة. فقد كان قيام دولة المماليك في مصر نتيجة ظروف سياسية وعسكرية مر بها العالم الإسلامي حينها، فكانت مصر تعاني من أثر الحملة الصليبية السابعة، والشام ترزح عدد من حواضرها ومدنها الساحلية تحت الاحتلال الصليبي، وجحافل المغول تجتاح المدن الإسلامية واحدة أثر أخرى. الأمر الذي دفع سلاطين المماليك إلى إحاطة دولتهم الجهادية الفتية بكوكبة من العلماء الأجلاء المشهود لهم بالاستقامة ليكسبوها صبغة دينية، ولتتال الثقة والقبول عند عامة الشعب وخاصتهم، لذا حرص السلاطين على تقريب العلماء واستشارتهم في أحلك الظروف، هذا ما فعله السلطان قطز عشية الاستعداد لمعركة عين جالوت، حيث استفتى العز بن عبد السلام في أخذ أموال الناس للاستعانة بها في تعبئة الجيش، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في قلوب الناس، كما أقدم الظاهر بيبرس على إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ليضفي على القاهرة صفة الزعامة الدينية. فأصبحت القاهرة تضم الخلافة والسلطة، وبذلك احتل العلماء مكانه مرموقة في المجتمع المملوكي. وزخرت مجالس سلاطين المماليك بالعلماء والأدباء^(٢).

أولاً: ١- انتقال العلماء من بغداد إلى القاهرة

لم يكن انتقال العلماء من بغداد إلى القاهرة عملاً طوعياً، وإنما أملت الظروف التي مرت بها أرض الإسلام وقتذاك، وهي الهجوم التنكري على مدينة بغداد وعاصمة الخلافة. والتتار من الجنس المغولي الذي يسكن الأطراف الشمالية لبلاد الصين. وقد بدأ التتار حياتهم جهلاء وثنيين، وكانوا متفرقين في صحراوات الصين

(١) الأذفوي: الطالع السعيد، ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٥.

حتى وحدهم ملكهم جنكيزخان^(١)، وزحف بهم في عام ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م على أواسط آسيا وغربها، فقتلوا ما لا يحصى من المسلمين. وما زال سيلهم طاغياً بعد جنكيزخان حتى احتلوا مدينة بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٦م، بقيادة ملكهم هولاكو. فقتلوا آلافاً من أهلها وأعيانها وأزالوا خلافتها، فضغت بذلك شوكة العرب والمسلمين فتطلعوا إلى حماة جدد يدافعون عنهم ويدرعون أعداءهم بعيداً عن ديارهم، فلم يكن هناك أقوى من سلاطين مصر الممالك، الذين نصبوا أنفسهم ذواً عن الدين وحماة للمسلمين، شاعرين أن الاقدار حملتهم أمانة الدفاع عن تراث الإسلام^(٢).

تتبع التتار - فيمن تتبعوا - علماء بغداد قتلاً، وكُتب حضارتها إبادة وإتلافاً، وذلك أثناء الهجوم. ولقد ذكر أن هولاكو قتل علماء بغداد من أمثال محيي الدين ابن الجوزي وأولاده، وأمر بإلقاء جميع الكتب التي في دور الخلفاء في نهر دجلة، فأضاع بذلك على الدين واللغة ذخائر لا تعوض. وكانت لهذه الكوارث آثارها في نفوس العلماء ورد فعل قوي دعاهم إلى النهوض لإحياء هذا التراث العلمي المجيد وتجديده، حتى قال المقرئ: "ذهب جُل الكتب في الفتن الكائنة بين التتار وغيرهم"^(٣).

ولما اشتد عبث التتار في العراق وبغداد وغيرهما فرَّ كثير من العلماء من وجههم، ولم يجدوا أمامهم أرحب من مصر والشام صدرًا، فوفدوا إليهما، فوجدوا ترحيباً وأهلاً بأهل، سواء أكان ذلك من الحاكمين أم من أبناء الشعب. وقد أغرى ذلك كثيراً من العلماء في الأصقاع الأخرى فوفدوا هم كذلك إلى مصر والشام حيث الأمن والسكينة والكنف الرحب. فاشتغلوا بالقضاء أو الإمامة أو الكتابة أو التعليم

(١) ابن حجر: رفع الأصر، ص ١٦٨.

(٢) سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٧-٣٠، وضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والأمارات - مصر والشام - دار المعارف القاهرة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٨-٩.

(٣) زيدان، جورج: تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، القاهرة، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج ٣، ص ١٢٢.

ونحو ذلك. وتعاونوا هم والمتوطنون من العلماء على تعليم الناشئة وإنضاجها وتحميلها أمانة العلم من بعد^(١).

واستمر توافد العلماء إلى مصر والشام طوال عصر المماليك وأصبح الترحيب بهم صفة متبعة بدافع الإخوة الإسلامية الصادقة. وفتحت مصر للعلماء آفاقاً جديدة للظهور والبروز مادامت ملكاتهم العلمية تؤهلهم لذلك^(٢). قال السيوطي في ذلك: "صارت مصر محل سكن العلماء ومحط رجال فضلاء"^(٣). وممن وفد إلى مصر: ابن خلكان الأربيلي المؤرخ صاحب وفيات الأعيان، وابن مالك النحوي الأندلسي صاحب الألفية والتسهيل، وابن خلدون المغربي صاحب كتاب "العبر" ومقدمته الشهيرة، وابن تيمية الحراني الإمام المجتهد صاحب الفتاوى، وابن منظور الإفريقي صاحب لسان العرب وغيرهم.

٢- علاقة السلاطين والأمراء بالعلماء:

اشتهرت مجموعة كبيرة من سلاطين المماليك بحبها للعلم والعلماء وتقديرها لهم وبزل العطاء لهم. وقد وصف أبو المحاسن ابن تغري بردي السلطان بيبرس بأنه: "كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً، ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب"^(٤).

وكذلك فقد وجد من سلاطين المماليك من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بمقر إقامتهم بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع. وكثيراً ما كان السلطان نفسه هو الموجه للمناقشة، في النواحي الدينية والتاريخية والاجتماعية وغيرها^(٥).

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٥١٠.

(٢) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ج ٥، ص ٨٤-٨٥.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٦١.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٨٢.

(٥) عزّام، عبد الوهاب: مجالس السلطان الغوري، القاهرة، ١٣٦٠هـ/١٩٤١م، ص ٤٩.

لقد كان حكام البلاد، في جملتهم، متعصبين لدينهم، عظيمي الغيرة على مصالح المسلمين. وكذلك كافحوا الصليبيين وهزموهم مراراً، وكافحوا التتار وصدوا تيارهم عن البلاد. ودفعتهم غيرتهم أيضاً إلى تعظيم العلماء ورعايتهم، واستشارتهم في أمورهم العليا، واختيار أصلحهم لولاية القضاء والتعليم ونحوها. على أن سطوة علماء الدين حينذاك كانت واسعة، ولهم جاه عند العامة عريض، لما كانوا يتصفون به من غزارة علم ورجاحة عقل وسلامة قلب وإيمان شديد، وزهادة في الدنيا، وتعصب للحق وجرأة على الباطل. فلعل هذه السطوة كانت أحد الأسباب التي دعت الحكام إلى تعظيمهم. ولقد كان السلطان الظاهر بيبرس يخشى الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فلما مات الشيخ قال الظاهر: "ما استقر ملكي إلا الآن"^(١). ولا يخفى ما لهذا التعظيم وهذه العناية من أثر كبير في شحذ همم العلماء ودفعهم إلى النشاط العلمي النافع للاحتفاظ بمكانتهم وجاههم^(٢). وقد شعر العلماء بواجبهم وبالأمانة الثقيلة الملقاة على كواهلهم إثر سقوط بغداد وكارثة العلم والدين بها، وإثر ما أصيبت به دول المسلمين شرقاً وغرباً على يد الفرنجة، فأغذوا السير، بل تنافسوا في ميدان التعليم والتأليف، فأقاموا بذلك حركة إحياء علمية جليلة الشأن. وازدان كثير منهم بالعلم الغزير، والزهد في الدنيا، والغضب للحق، والغيرة على مصالح الأمة، وبهذا اكتسبوا مكانة ملحوظة بين أبنائها ونفوذاً ضخماً بين طبقاتها وشجعهم على ذلك السلاطين، وأكرمهم وفتحوا لهم المدارس وأغدقوا عليهم الأموال، كل ذلك لصيانة التراث العربي القديم^(٣)، وبلغ بعضهم حد الإجهاد والقدرة على التجديد والابتكار في ميدانه، ونذكر منهم العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد القشيري،

(١) السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، القاهرة ١٩٧٦م، ج ٥، ص ٨٢.

(٢) سليم، محمود رزق: عصر سلاطين، ص ٩ - ١٠.

(٣) الجمال، أحمد صادق: الأدب العامي في العصر المملوكي، الدار القومية للكتب، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٢٦.

وتقي الدين السبكي، وابن تيمية الحراني، وابن حجر العسقلاني، والجلال السيوطي، وزكريا الأنصاري^(١).

على الرغم من أن المماليك كانوا ذوي لسان غير عربي ولم يكن لهم ثقافة معينة، لأنهم أخلط من أجناس شتى ولأنهم من بلاد متفرقة، إلا أنهم تعلموا اللغة العربية لغة القرآن، وتفهموا آدابها، آداب الدين الرسمي للبلاد، فلم يكن همهم تثقيف المصريين ثقافة معينة، اللهم إلا محو آثار التشيع الموروثة عن الفاطميين من عقولهم^(٢).

لقد امتاز العلماء من أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب، وتسميهم بعض المصادر "أهل العمامة"^(٣) كما أطلق عليهم أرباب الأقلام تمييزاً لهم عن غيرهم من الطوائف كأرباب الحرف والسيوف من المماليك - امتازوا طوال عصر المماليك بنفوذهم في الدولة، واحترام السلاطين وإجلالهم كما استأثروا بالمناصب العليا كالقضاء والحسبة والوزارة وغيرها. و ذلك لحاجة المماليك إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها في كسب ود الشعب. وذلك بحكم ما

(١) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ١١.

(٢) وفي هذا الصدد ما يزال يوجد بمصر أثر التشيع حتى بداية حكم المماليك، على الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين وأولاده لتدعيم المذهب السني، حيث سقطت الخلافة الفاطمية، وقد اتبع حكام المماليك سياسة واضحة للقضاء على ذلك حتى خفت آثار التشيع بالبلاد، ويتضح من ذلك حين قام السلطان بيبرس بتحريم أي مذهب عدا المذاهب السنية الأربعة سنة ٦٦٥هـ/١٣٦٥م، وقد استمرت مدارس العصر المملوكي في مقاومتها للمذهب الشيعي ومحاربته، والدعوة إلى المذهب السني. (عبد العاطي، محمود، عبد الغني: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك جامعة القاهرة - كلية الاداب - ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص ١٢٣).

(٣) ابن حجر: أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٧٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٠٥، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ١، ص ٢٣٧.

للدين ورجاله من قوة و سطوة في النفوس^(١). أو لأن بهم عرفوا دين الإسلام وفي
بركتهم يعيشون^(٢).

لقد ظهر احترام السلاطين للعلماء جلياً، فحين دخل الشيخ فتح الرحمن محمد بن
سيد الناس على السلطان لاجين منعه السلطان من أن يقبل الأرض، حسب العادة
المتبعة وقال له: "أهل العلم منزّهون عن هذا" وأجلسه بجواره على المقعد^(٣). وهذا
السلطان برقوق إذا دخل عليه عالم أو فقير انتصب له قائماً^(٤) بل أن السلطان
خشدهم لم ينس وهو يعاني آلام الموت أن يقوم من فراشه إذا دخل عليه أحد
العلماء^(٥) وبالع بعض سلاطين المماليك في إظهار إجلالهم للعلماء حتى أن لاجين
نزل عن سرير الملك ليقبل يد الإمام محمد بن علي المنفلوطي^(٦) بل أن الأشرف
قايتباي مرغ وجهه على قدمي الشيخ عبد القادر الدشوطي^(٧) ولا عجب لنزول
بعض السلاطين من القلعة مرة أو مرتين في الأسبوع ليزور أحد العلماء أو يعود
في مرضه^(٨) فإذا مات ذلك العالم حضر السلطان للصلاة عليه ومشى أمام نعشه
إلى أن يدفن، وربما حاول السلطان أن يحمل النعش على كتفه فتحمله أكابر الأمراء
عنه^(٩).

كما كانت مكانة العلماء عند عامة الشعب كمكانتهم عند السلاطين بل أجل، ذلك أن
الناس أكرموا العلماء وأطفوا عليهم مختلف ألقاب التبجيل، والتقدير، والتفخيم، مثل:

-
- (١) عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري، ص ٣٥.
(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ٣٨٢.
(٣) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٨، ص ١٠٨.
(٤) المقرئزي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٥٢٣، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٥،
ص ٤٢٢ - ٥٩٩.
(٥) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج ٣، ص ٥٥٥.
(٦) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ٩١ - ٩٤.
(٧) الشعراني: طبقات الشعراني، ج ٢، ص ١٩٠.
(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٧٨، والذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣١، ص ٢.
(٩) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ٤٤٤، وابن حجر: أنباء الغمر، ج ١، ص ٢٢٠ - ٢٢١، وابن تغري
بردي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٣١.

"فقيه زمانه" و"عالم عصره" و"انتهت إليه رياسة العلم" و"انتهت إليه رياسة المذهب" وفي زحام الأسواق عند البيع والشراء اعتاد الناس أن يقدموا العالم على أنفسهم^(١) ولعل أقوى دليل على إحساس الناس بمكانة العلماء أنهم صاروا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ويتوسلون بهم للشفاعة عند أهل الدولة^(٢). وقد حظي العلماء والمعممون بمكانة كبيرة سامية في عصر المماليك، أمثال عز الدين بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وابن تيمية وغيرهم^(٣). على أن العلماء لم يحظوا بهذه المكانة باضطراد طوال العصر المملوكي، بل تخللت ذلك العصر حوادث ظهر فيها حقد المماليك على العلماء بسبب قربهم من السلاطين، وبخاصة بعد النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، وكأن المماليك لم يعجبهم أن تشاركهم طائفة أخرى في ركوب الخيل، فثاروا واشترطوا على السلاطين المناداة في شوارع القاهرة أن متعمماً لا يركب فرساً كما حدث سنة ٧٨١هـ/١٣٩٧م - و ٧٩١هـ/١٣٨٩م وعندئذ يضطر السلاطين للإذعان لطلبهم^(٤).

ثانياً: إنشاء المؤسسات التعليمية ورصد الأوقاف لها:-

بظهور المدارس النظامية، وبروز فريق من المعلمين المتفرغين لمزاولة مهنة التدريس، إضافة إلى تزايد أعباء الحياة هذا الأمر دعا إلى ظهور الحاجة إلى مورد ثابت يُنفق منه عليهم، فكان أن أوقفت بعض الممتلكات الخاصة على المدارس للصرف عليها وعلى المشتغلين بها، وأنفقت في ذلك أموال طائلة مما ضمن بقاء هذه المؤسسات واستمرارها في أداء الوظيفة التي أنشئت من أجلها، لأن الوقف جعل هذه المعاهد تكتسب صفة الدوام والاستمرار. وبدون الأوقاف لا يمكن أن تقوم قائمة لأي مدرسة أو منشأة تعليمية في كثير من العصور الإسلامية. وقد

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) عاشور: مرجع سابق، ص ٣٨.

(٣) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م، وفيها ذكر العيني أنه قبض على أحد القضاء بسبب بغض أكابر الأمراء له "لقربة من السلطان جداً، واستمالته قلوب الناس بالمواهب والعطايا" (ج٧، ص ٢٧٣) ..

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج ٣، ص ٥٣٤.

تفاوتت أوقاف المدارس بعضها عن بعض، فمنها ما حظي بنصيب وافر نتيجة غنى وثراء من أوقف عليها، أو تكاثر أوقافها ونمائها، فيحظى منسوبها بالتالي بنصيب وافر من المال والمأكولات والملابس. ومنها ما يكون نصيب منسوبها أقل من ذلك. وغالباً ما تشتهر المدرسة ويعلو صيتها بكثرة أوقافها، ويحصل عكس ذلك أيضاً، إذ إنه ثبت أن كثيراً من الطلبة الذين يعتمدون في إعاشتهم على الأوقاف يضطرون إلى ترك المدرسة في حال تأثر وقفها - إذا كان زراعياً - بأحوال الموسم. وقد أشار النعيمي إلى شيء من ذلك، فذكر أن الحضور في بعض السنوات في مدارس دمشق كان قليلاً بسبب قلة الجوامك^(١). و بسبب الآفات التي تصيب أوقاف المدارس إذا كانت زراعية^(٢).

لم يقتصر الوقف في عملية التعليم على كونه مورداً مالياً لها، بل تعدى ذلك إلى تنظيم العملية التعليمية ووضع الشروط والأسس والضوابط التي من شأنها أن تضمن نجاحها، حتى أنه يمكن القول: إن وثيقة الوقف كانت بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية، حيث تضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التي يجب أن تتوافر في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة، والحقوق والواجبات، وما إلى ذلك من التنظيمات الإدارية والمالية^(٣). ولما كانت الموارد المالية للمدرسة محددة بشرط الواقف، فقد حدد الواقفون أعداد الطلبة الذين يتلقون العلم في المدرسة، وليس ذلك فحسب، بل إنهم حددوا طلبة كل مذهب من المذاهب الأربعة وطلبة

(١) الجوامك: "الجامكيات"، مفردها "جامكية" وبالفارسية جامكي من جامعة وتعني الثوب، اللباس، ومعناها المال المخصص للملابس، ثم أصبحت تعني عطاء وأجر أو المرتبات التي تدفع كأجر للمدرسين وكذلك للطلبة، (النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٢٩٠).

(٢) النعيمي، المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(٣) أمين، محمد محمد: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، دراسة تاريخية وثائقية - القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م، ووثائق وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون علي البيمارستان المنصوري - دراسة ونشر وتحقيق - كلية الآداب؛ جامعة القاهرة، ص ٢٤٠.

التفسير، وطلبة الحديث، وما إلى ذلك من التخصصات التي تدرس في المدرسة^(١).
وحين قامت دولة المماليك البحرية كانت مصر قد أصبحت منارة للعلم ومركز
إشعاع ثقافي وحاضرة من حواضر العلم العظيمة في أرض الإسلام ثم ازدهرت
وازدادت أهميتها بعد نكبة بغداد عاصمة الدولة العباسية على أيدي التتار
٦٥٦هـ/١٢٥٨م، فقد استقبلت القاهرة أعداداً كبيرة من العلماء الذين فروا إليها
هرباً من المغول^(٢)، لا سيما بعد قيام الخلافة العباسية على أيدي السلطان الظاهر
بيبرس، وتزامن ذلك مع نزوح بعض علماء الأندلس الفارين من بلادهم - بعد
سقوطها في أيدي النصارى القشتاليين في ربيع الأول ٨٩٧هـ/٢ يناير ١٤٩٢م - إلى
القاهرة أو دمشق ومن ثم ورثت مصر العراق في الزعامتين الدينية والسياسية
للبلاد الإسلامية^(٣)، وصحب ذلك ازدياد عدد الطلاب وأماكن الدراسة، ومرتببات
المدرسين وإعانات الطلبة، وغير ذلك مما أشرنا إليه من قبل^(٤).

لا شك أن إنشاء دور التعليم سبب أساسي وعامل جوهري لنشر العلم والأدب بين
طبقات الأمة. وهي البيئة الطبيعية الأولى للمشتغلين بالعلوم والآداب طلاباً وأساتذة.
وقد ورثت دولة المماليك في مصر عدداً لا بأس به من دور العلم والعبادة يرجع
تاريخ بعضها إلى الفتح الإسلامي لمصر أهمها: جامع عمرو بن العاص، وجامع
ابن طولون، والجامع الأزهر، وجامع الحاكم بأمر الله، ومدارس أخرى عدة أسسها

(١) أمين، محمد محمد: مرجع سابق، ص ٢٤٠.

(٢) من بين العلماء المشاهير الذين وفدوا إلى مصر في هذه الفترة ابن خلكان، وابن النديم، المؤرخان
المعروفان. وابن النفيس الطبيب النابغة، ومن علماء الأندلس الذين نزلوا القاهرة، أبو حيان الأندلسي -
النحوي الشهير - ومحمد بن أحمد القرطبي، صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن، (سليم، محمود
رزق: مرجع سابق، ص ١٨، وضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات - مصر
والشام - دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م، ص ١١٨ - ١٣١.

(٣) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ٤٤٢.

(٤) أمين، محمد محمد: الأوقاف في الحياة الاجتماعية، ص ٢٤٢.

الأيوبيون في مدينة القاهرة كالمدرسة الصالحية، والمدرسة الناصرية^(١)، وكلها كانت عامرة بالدراسات المختلفة. وقد شَمَّر سلاطين المماليك وأمراؤهم وبعض أهل الفضل عن ساعد الجد، على مدى العصر، وأنشأوا إلى جانبها عدداً ضخماً من دور التعليم في القاهرة وغيرها من المدن المصرية والشامية. وبلغ ما أنشأوه في القاهرة وحدها نحواً من أربعين مدرسة، وتقننوا في عمارتها يدفعهم إلى ذلك تدين صادق ورغبة في نشر العلم والثقافة الإسلامية، وقد عرف عن كثير منهم اختلاطهم بالعلماء ورعايتهم لهم مثل: الظاهر بيبرس الذي يصفه ابن تغري بردي بأنه: "كان يميل إلى التأريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول: (سماع التاريخ أعظم من التجارب)^(٢). وأوقفوا عليها الأوقاف الدارة التي تهئ لها أسباب الحياة والاستمرار في أداء رسالتها^(٣)، حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية فضلاً عن العلوم الدينية^(٤).

يأتي اهتمام سلاطين المماليك وأمراؤهم بالمراكز التعليمية وإحاقها بالمساجد، والزوايا، والخوانق، والربط، نابعاً من روح التدين فيهم، وقد عبر بعض أهل ذلك الزمان عن دهشتهم من كثرة عدد المدارس، من ذلك قول ابن بطوطة: "لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"^(٥) وكذلك قول القلقشندي: "إن هؤلاء المماليك بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها"^(٦) ومما قاله الشعراء في تقرير بعض تلك

(١) انظر الملاحق صورة ص ٣٣٢ و ٣٣٣ .

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٨٢.

(٣) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٨٠.

(٤) شلبي، أحمد (دكتور): موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية

الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج ٥، ص ١٢.

(٥) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٧٠.

(٦) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٦٧.

المدارس ما قاله البوصيري في مدرسة شيدها السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م^(١).

كان للسلطان الناصر اشتغال بالعلم حتى أنه نسخ كتاب "دلائل النبوة للإمام البيهقي بخطه"^(٢)، وعدّ المقرئ في خطه أكثر من أربعين مدرسة وبين تاريخ إنشائها والأوقاف التي رصدت^(٣) لها ومن أشهرها:-

أ- المدرسة الظاهرية:-

أسسها الملك الظاهر بيبرس بالقاهرة سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، لتدريس المذهب الشافعي والحنفي وتدريس القراءات والحديث النبوي، وأجرى الرواتب على شيوخها وتلاميذها وألحق بها مساكن لهم وخزانة كتب تشمل أمهات الكتب في سائر العلوم، وبنى بجانبها مكتباً لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله تعالى وأجرى لمن بها من الأطفال الطعام والكسوة^(٤). و كان تصميم المدارس في العصر المملوكي يتكون في الغالب من أربعة إيوانات متعامدة متقابلة أكبرها إيوان المحراب وأصغرهما الإوانان الجانبيان، ويتوسطها صحن مكشوف به قبة، ويلحق المدرسة مدفن للمنشئ، وسبيل يعلوه مكتب لتعليم الأيتام بالإضافة إلى مساكن الطلبة والمدرسين^(٥).

(١) نبيل، أبو علي: البوصيري شاهداً على العصر المملوكي، ط٤، دار المقداد للطباعة، غزة ٢٠٠٥م، ص ٦٥.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٠، والمقرئ: السلوك، ج ٣، ص ١. والبيهقي، هو أبو بكر بن أحمد بن الحسين بن علي الفقيه الشافعي الكبير المتوفي سنة ٤٥٨هـ/١٤٥١م، له مصنفات كثيرة منها: السنن الكبرى والسنن الصغرى، ومعرفة السنن والآثار، ودلائل النبوة، المشار إليه في المتن، وابن خلكان: مصدر سابق، ج ١، ص ٧٥، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ١، ص ٨.

(٣) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣٦٢ - ٤٠٣.

(٤) النويري: مصدر سابق، ج ٣٠، ص ٩٣ - ٩٤، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٠، والمقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣٧٨.

(٥) كان هذا هو النموذج الأكثر شيوعاً خلال العصر المملوكي من بدايته حتى نهايته مثل مدرسة الناصر محمد ومدرسة السلطان حسن ومدرسة السلطان شعبان، ويبلغ عدد المدارس القائمة ٤٤

ولم تقتصر المدرسة على أداء وظيفتها التعليمية بل أقيمت بها الشعائر الدينية، واتخذت مسجداً تقام فيه الصلوات المفروضة وصلاة الجمعة والعيدين، وبذلك أصبحت المدرسة مكان درس وعبادة مقتفية دور المسجد قبل إنشاء المدارس^(١).

وألحقت بكل مدرسة خزانة كتب يرجع إليها الطلاب والمدرسون في البحث والدرس، ويشرف عليها مسؤول يطلق عليه خازن الكتب تتوافر فيه صفة الأمانة والفتنة والذكاء والقدرة على تنظيم الكتب وترتيبها وحفظها وترميمها، ليكون عوناً للطلبة والباحثين في تلبية ما يحتاجون إليه، وكان يقوم بهذه المهمة أحد العلماء أو الأدباء لقدرته على أدائها^(٢).

وكانت وظيفة المدرس بالمدرسة جليلة القدر يختار لها الأكفاء من الراسخين في العلم، وكان منشئ المدرسة يشترط شروطاً رفيعة فيمن يقوم بالتدريس، تشمل سعة العلم والورع والصلاح والأهلية للتدريس والفتوى، وحسن الهيئة^(٣)، وجرت العادة أن يساعد المدرس معيد أو أكثر في مهمته التعليمية، وكان يعيد للطلبة ما ألقاه عليهم الشيخ من دروس ليحسنوا فهمها واستيعابها ويشرح لهم ما شق عليهم فهمه واستيعابه^(٤).

وبلغ من سمو مكانة المدرس أنه كان يصدر في كثير من الأحيان مرسوم من السلطان بتعيينه في المدرسة والانتفاع منه مثلما فعل السلطان المنصور قلاوون حيث عين القاضي تقي الدين بن شاش المالكي في مدرسته، وكتب له تقليداً بذلك

=مدرسة بحالة جيدة وفق ذلك التخطيط، إسماعيل، محمد حمزة: العلاقة بين المنصب التأسيسي والوظيفة في التخطيط المعماري للمدرسة، (بحث منشور ضمن ندوة المدارس في مصر القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٢١٨).

(١) المقريري: المصدر سابق، ج ٢، ص ٣٧٠ - ٣٨٢.

(٢) عاشور، سعيد: المجتمع المصري، ص ١٤٥ - ١٤٦. وأمين، محمد محمد: مرجع سابق، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٣) أمين، محمد محمد: المرجع سابق، ص ٢٤٣.

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٦٤، و عبد العاطي، محمود، عبد الغني: مرجع سابق، ص ٢٧٤.

ضمنه نصائحه مثل قوله: "واليلق طلبته بوجه طلق، وثغر باسم و ليتعهدهم بملازمة دروسهم، وحفظ ماضيهم، والبحث في استعادتهم ما حفظوه، ولينصف كبيرهم في بحثه، وليسف صغيرهم بحضه على الاشتغال ..."(١).

وكان القضاة وقضاة القضاة والوزراء يتولون التدريس في كثير من المدارس، والأمثلة على ذلك كثيرة، كقاضي القضاة تقي الدين بن بنت الأعز الذي كان يدرس في المدرسة الصالحية والشريفية(٢).

لم تكن هناك برامج تعليمية واحدة تلتزم بها المدارس جميعاً بل كان منها ما خصص لمدارس المذاهب الأربعة مثل مدرسة السلطان حسن، ومنها ما خصص للمذهب الحنفي دون غيره مثل مدرسة الأمير غتمش(٣) أو المذهب الشافعي فقط مثل المدرسة المجدية الخليفة(٤) ومنها ما خصص لدراسة مذهبين مثل المدرسة الحجازية التي جعلت لدراسة المذهبين المالكي والشافعي(٥).

ومن أهم الكتب التي كانت تدرس في هذه المدارس، المنهاج للنووي في الفقه الشافعي، والهداية في الفقه الحنفي، والكشاف للزمخشري في التفسير، وموطأ الامام مالك، وصحيح البخاري ومسلم في الحديث، والكافية لابن الحاجب، وألفيه ابن مالك في النحو، ومتن الشاطبية في القراءات، والعمدة للنسفي في أصول الدين، وألفيه العراقي في مصطلح الحديث(٦).

(١) ابن عبد الظاهر: تشریف الأیام، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٨، ص ١٧٢، والوافي بالوفيات، ج ١٨، ص ١٧٩.

(٣) هو: الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد الله، من ممالك السلطان الناصر محمد، ترقى في الخدمة حتى صار من كبار الأمراء في عصره، قتل بأمر من السلطان الناصر حسن سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٨م، (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤٠٥، وابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٦، ص ٣٤٢).

(٤) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨١.

(٦) سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، ج ٣، ص ٧٧، والنباهين، علي سالم: نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك - دار الفكر العربي القاهرة ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠م، ص ٣٥٠.

ولم تكن المدة التي يقضيها طالب العلم بالمدرسة محددة بوقت معين بل كان يرجع ذلك إلى مدى قدرته على الفهم والاستيعاب فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للتدريس، أجازته الشيخ وكتب له إجازة بذلك، يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك^(١).

وتراوحت عدد أيام الدراسة في المدارس بين ثلاثة وخمسة أيام من كل أسبوع، ولم تكن مواعيد الدراسة اليومية محددة تحديداً دقيقاً، فتراوحت في المدة التي بين طلوع الشمس إلى آذان العصر^(٢). وكانت المدارس تلتزم بإجازة سنوية تتوقف فيها الدراسة وغالباً ما كانت تستغرق شهر رجب وشعبان ورمضان وعشرين يوماً من شوال، وخمسة عشر يوماً من ذي الحجة^(٣).

ب- المدرسة المنصورية:-

أسسها السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة، وعيّن لكل مذهب مدرساً، وخصص له في كل شهر مئتا درهم، وثلاثة معيدين لكل منهم خمسة وسبعون درهماً^(٤).

وبنى المنصور قلاوون تجاه المدرسة قبة عظيمة عرفت بالقبة المنصورية^(٥)، قامت بوظيفة المسجد والمدرسة، جعل فيها خمسين مقراً ودرساً للتفسير وآخر للحديث يلقيه مدرسان ولكل منهما معيد وطلبة، ولهم في كل شهر رواتب محددة

(١) الفلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣٢٢، وعاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٢) عبد العاطي، محمود عبد الغني: مرجع سابق، ص ٢٢٩، وأمين، محمد محمد: مرجع سابق، ص ٢٤٩.

(٣) عبد الغني، محمود: مرجع سابق، ص ٢٩٠.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ص ٣١-١١٢، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ص ٨ - ١٠، والمقريزي: الخطط، ص ٢١ و ٢٧٩ - ٢٨٠، وإسماعيل، محمد حمزة: مرجع سابق، ص ٤٩.

(٥) هذه القبة: اتخذت للدفن، دفن فيها المنصور قلاوون: وابنه الناصر محمد وهي تعد من أروع القباب في مصر، (ماهر، سعاد: قباب مصر وأوليائها الصالحون - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٧١م - ١٩٨٣م، ص ٣-٧١).

وقد احتوت القبة على مكتبة كبيرة تضم مختلف انواع العلوم والآداب، وجعل لها أميناً ومساعدين له وفراشين وبوابين^(١).

ج- مدرسة السلطان حسن:-

أنشأها السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون وشرع في بنائها سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م واستمر العمل بها ثلاث سنوات حتى خرجت ضخمة البناء عظيمة العمارة^(٢)، وهي مسجد كبير يضم أربع مدارس تخصص كل مدرسة بتدريس مذهب من المذاهب الأربعة^(٣).

ومن أهم هذه الدور التعليمية المجيدة: بيمارستان المنصوري^(٤)، وهو بناء ضخم فسيح، بناه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م بخط بين القصرين، ويحتوي على مستشفى للمرضى ومدرسة للطب، ويعتبر من أعظم الأعمال التي خلدت ذكرى قلاوون. وندر أن يوجد له نظير في تلك العصور الخالية. وكان ينقسم إلى عدة أقسام: قسم الحميات، وآخر للرمد، وآخر للجراحة، وآخر للأمراض النسوية، وآخر للإسهال، وقد جهز بصيدلية عظيمة تحتوي على أنواع الأدوية والعلاج، وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرّة وموظفين، وهيئت به قاعات تلقى بها دروس الطب على الطلاب، وضمت إليه خزانة جليلة الشأن. وكان العلاج والتعليم فيه بالمجان، كما كان الحال في جميع دور التعليم الأخرى^(٥).

(١) النويري: مصدر سابق، ص ٣١ و ١١٠ - ١١١، والمقريزي: الخطط، ص ٣٨٠.

(٢) وهذه المدرسة من أعظم العمائر الإسلامية ومن أضخم مساجد مصر عمارة وأعددها بنياناً، وأكثرها فخامة في مساحة من الأرض تبلغ ثمانية آلاف متر، (ماهر، سعاد: مساجد مصر، ص ٢٨٢).

(٣) المقريزي: الخطط، ص ٢-٣٦.

(٤) النويري: مصدر سابق، ج ٣١، ص ١٠٨، والمقريزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٥) وينسب هذا البيمارستان إلى الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي المشهور بالآل في المتوفي سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م. ويعد هذا البيمارستان بحق من أكبر المستشفيات وكليات الطب في تاريخ مصر في عصورها الإسلامية المبكرة، فقد استمر البيمارستان المنصوري محط اهتمام السلاطين المماليك، وبخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي حرص على أن يؤدي البيمارستان وظائفه الاجتماعية كاملة، سواء في تقديم الرعاية الصحية، داخل البيمارستان أو في=

ولم تكن هناك سياسة تعليمية مرسومة تشرف عليها الحكومات وتقوم بتنفيذها كاملة - كما هو الشأن في العصر الحديث - ولهذا كانت الأوقاف هي الوسيلة الوحيدة أو الأساسية لضمان استمرار دور التعليم مفتوحة الأبواب عامرة بطلابها وشيوخها. وكثيراً ما كانوا يغالون في هذه الأوقاف، ويبالغون في بذلها، كما كانوا يبذلون بين وقت وآخر ألواناً من الهبات والعطايا والصدقات للطلاب والشيوخ^(١)، وكان بالبلاد نوعان من التعليم:

١- التعليم العسكري: وقد كان مقصوراً على طائفة المماليك ومحرمات على أبناء الشعب، وكان من عادة السلاطين أن يجلبوا المماليك الجدد من أسواق الرقيق، ويدفعوا بهم إلى طباق القلعة حيث يعلمون تعليماً عسكرياً خاصاً يؤهلهم لخوض غمار الحروب والمحافظة على الدولة، ومن ينبغ منهم يعتق ويمنح إقطاعاً ومالاً وخيلاً وقماشاً ويعطى لقباً من ألقاب الإمارة. ثم قد يترقى صعداً حسب كفايته وحيلته - في سلك الإمارة حتى يصير أميراً كبيراً وقد يدفع به حظه إلى مرتبة السلطنة^(٢).

٢- التعليم الشعبي: وهو مباح لطبقات الشعب بالمجان، ومكانه المساجد وهي دور التعليم في ذلك العهد وكان تعليماً حراً وغير مقيد، وكان الطالب توجهه رغبته الخاصة إلى تنظيم جدول دروسه واختيار شيوخه والتنقل من مسجد إلى آخر طلباً للعلم. والدراسة في المساجد تعتبر دراسة عليا، تسبقها مرحلتان يمر بهما الطالب: المرحلة الأولى مرحلة "الكتاتيب" وقد كانت منتشرة في أرجاء البلاد، ويتعلم الصبيان فيها مبادئ الكتابة والقراءة، ويحفظون القرآن الكريم. والمرحلة الثانية مرحلة حفظ الكتب، وفيها ينكب الطالب على عدة كتب مختارة في علوم شتى

=زيارة المرضى الفقراء في منازلهم وتزويدهم بما يصلح حالهم من الأدوية والأشربة، والأغذية أيضاً، أو فيما يوزع صدقة من ريع الأوقاف المرصدة للصرف على البيمارستان واحتياجاته. (الحجي، حياة ناصر (دكتورة): صور من الحضارة العربية والإسلامية في دولة المماليك، مطبعة دار القلم للنشر والتوزيع - الكويت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٨٧).

(١) سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، ص ١٣.

(٢) المقرئزي: السلوك، ص ٢٣١.

يحفظها عن ظهر قلب، تمهيداً للمرحلة العالية، وفيها يبذل الطالب جهداً كبيراً في حفظ الكتب حفظاً جيداً ويمتحنه شيوخه فيما بعد، فيما حفظ، ويمنحه كل شيخ إجازة بنجاحه تسمى: إجازة العراضة" وبعد ذلك يلتحق بالمساجد ويتصل بكبار الشيوخ ويأخذ عنهم العلم، وقد ينتقل من مكان لآخر بل من مصر إلى غيره طلباً للشيوخ - وبخاصة شيوخ الحديث - وقد يلزم شيخاً أو أكثر، ملازمة الظل، ليستوعب أكثر ما عنده من العلم. فإذا نضج الطالب من الناحية العلمية اختبره أستاذه، فإذا نجح [منحه إجازة بالفتوى أو التدريس أو نحوهما^(١)].

ثالثاً: ازدهار حركة التأليف والترجمة

أ- حركة التأليف:-

كان التأليف من أهم آثار النشاط العلمي، لأنه حلقة الوصل بين الماضي والحاضر. وهو بما أنتجه من مؤلفات - حلقة ذهبية فريدة في سلسلة العلم والأدب، وفي ذلك العصر حظيت البلاد بكثير من العلماء والأدباء الذين أقبلوا على التأليف بشغف شديد، وافتن بعضهم في اختيار موضوعاته وتنويعها وترتيبها، وأكثر بعضهم من مؤلفاته حتى عدت بالعشرات بل بالمئات^(٢).

وإن ممن أكثر من التأليف: الجلال السيوطي، وابن تيمية الحراني وابن حجر العسقلاني، وابن قيم الجوزية، وتقي الدين السبكي وابن تاج الدين صاحب طبقات الشافعية، وصلاح الدين الصفدي، وتقي الدين المقرئ وغيرهم كثيرون. وقد كانت هناك عناية ملحوظة بالتأليف في التاريخ والحديث ورجاله والفقه ومذاهبه والتصوف والقراءات واللغة وفنونها^(٣).

(١) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ١٦.

(٢) سلام، محمد زغلول: مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٣، وضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ج ٥، ص ٨٦.

(٣) السيوطي: بغية الوعاة، ص ٥٦٨، و شاكر، محمود: موسوعة التاريخ الإسلامي، العهد المملوكي، ج ٧، ص ١٥-١٧.

كان كثير من هذه المؤلفات إما موسوعات جامعة، وكتب فياضة حشدت فيها مسائل العلوم حشداً، وغاية مقصد جل مؤلفيها الجمع والاختيار أو الشرح، وإما مختصرات لكتب سابقة، أو تدوين لفتاوى أو تسجيل لمناقشات. غير أن هذا لا ينفي قيمة هذه المؤلفات، فمن يعاني مشقة التأليف يشعر أن بعض ألوان التأليف المبتكر أيسر مشقة وأقل جهداً من بعض ألوان الجمع والشرح والاختصار، وهذه طوائف من المؤلفات عصر المماليك^(١):

١- ومن كتب الحديث: الإمام لتقي الدين بن دقيق العيد، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، وعمدة القارئ في شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، وإرشاد الساري لشرح البخاري، للقسطلاني.

٢- ومن كتب الفقه: الروضة والمنهاج، والمجموع، وكلاهما للنووي في الفقه الشافعي، وشرح متن الكنز، لفخر الدين الزيلعي في فقه الحنفية، وشرح مختصر ابن الحاجب، للزواوي في فقه المالكية، والفتاوى المصرية لابن تيمية الحراني ٧٢٨هـ/١٣٢٧م^(٢) في فقه الحنابلة.

٣- ومن كتب التفسير: الاتقان في علوم القرآن، ولباب النقول في أسباب النزول، وكلاهما لجلال الدين السيوطي، والتيسير في علم التفسير للكافجي، وتفسير المعوذتين، لابن تيمية الحراني.

٤- ومن كتب الصوفية مدارج السالكين لابن قيم الجوزية.

٥- ومن كتب القراءات: "النشر في القراءات العشر" لشمس الدين بن الجزري الدمشقي، وشرح الشاطبية للشهاب القسطلاني، وشرح الجزرية لذكريا الأنصاري.

٦- ومن كتب العربية: الألفية والتسهيل لابن مالك النحوي الأندلسي نزيل دمشق، شروح الألفية لكل من برهام بن عبد الله وشمس الدين الصائغ، ومحب الدين

(١) شاكر، محمود: مصدر سابق، ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨.

الحلي، وبهاء الدين بن عقيل وغيرهم - ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لجمال الدين بن هشام المصري^(١). وشروح التسهيل لكل من المرادي وشهاب الدين الحلي، وناصر الدين بن عطاء الله الزبيدي وغيرهم، وشفاء العليل في علم الخليل لأمين الدين الحلي، وخزانة الأدب للقزويني، والمزهر في فقه اللغة للجلال السيوطي، ولسان العرب وهو معجم لغوي عظيم لابن منظور الإفريقي.

٧- ومن كتب العلوم الأخرى: المختار من الأغذية لعلاء الدين ابن النقيب^(٢)، وهو في الطب والنبات، وحياة الحيوان الكبرى لقاضي القضاة محيي الدين بن كمال الدين بن الدميري^(٣)، وهو في الحيوان واللغة والأدب والتاريخ. وتحفة المجاهدين في العمل بالميادين، للأmir لاجين الذهبي، ومقدمة ابن خلدون، وهي في فلسفة الاجتماع وفلسفة التاريخ^(٤)، وتقويم البلدان لأبي الفداء وهو في الجغرافيا^(٥).

٨- ومن الموسوعات: والتي تضمنت عدة فنون: مسالك الأمصار لابن فضل الله العمري، ونهاية الأرب لشهاب الدين النويري، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء لشهاب الدين القلقشندي.

(١) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ١٧ - ١٩.

(٢) ابن النقيب: هو: علاء الدين عبد القادر بن علي بن محيي الدين، المعمري الظاهري الشافعي، تولى مشيخة الصلاحية، وسعيد السعداء ودرّس بالظاهرية والبرقوقية، توفي سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ٢٨٠-٢٨١).

(٣) ابن الدميري، هو: محيي الدين، محمد بن موسى ١٣٤١-١٤٠٦م، مفكر وعالم حيوان، ولد في مصر، درس في الأزهر ومكة المكرمة، اشتهر بكتابه (حياة الحيوان)، وهو أول مؤلف من نوعه في الأدب العربي فيه معلومات عن الطب النبوي وعلم الحيوان، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٥٩، وحاجي: كشف الظنون، ص ٦٩٦، والزركلي: الأعلام، م ٧، ص ١١٨، ومعلوف: المنجد، ص ٢٨٨).

(٤) سلام، محمد زغلول: مرجع سابق، ج ١، ص ١١٠.

(٥) المرجع السابق، ج ١، ص ١٢١.

ب- خزائن الكتب:

لقد اعتنى المماليك عناية ملحوظة بإنشاء خزائن الكتب في دور العليم بها وتزويدها بالمؤلفات النفيسة، رغبة منهم في معاونه علمائها وطلابها في جهادهم العلمي النبيل، وقل أن تجد مؤسسة تعليمية حينذاك خالية من مكتبة زاخرة. ورغم أن الكتب - ذلك العهد - كانت خطية ونادرة وقليلة النسخ ومتفرقة في شتى النواحي، وغالية الثمن. ومن أشهر خزائن الكتب: خزانة جامع الحاكم بأمر الله التي زود بها السلطان العادل بيبرس عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م، وخزانة جامع المؤيد^(١) زوده بها منشئ الجامع وهو الملك المؤيد عام ٨١٩هـ/١٤١٦م، وخزانة القبة المنصورية التي أنشأها المنصور قلاوون، هذا عدا ما كان يقتنيه بعض كرام الأمراء والعلماء من مكتبات، فقد روى ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور)، بين حوادث عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، أن القاضي نجم الدين يحيى بن حجي، كان عالماً فاضلاً، ولما مات في العام المذكور وجد عنده خزانة كتب بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة^(٢).

ملحوظة: ويجب التنبيه في هذا السياق إلى أن كثيراً من كتب هذا العصر لا يزال مخطوطاً قابلاً في دار الكتب المصرية أو في مكاتب الإستانة وعواصم أوروبا، وقد تسلل إليها عن طريق الغزو أو السلب والسرقة، وقليل منها طبع وحظي بالنشر^(٣).

ج- ازدهار حركة الترجمة

الترجمة من الكلمات الدخيلة على اللغة العربية، وذلك لاختلاط العرب بالآراميين واليونان، مما أدى إلى حمل قاموس اللغة العربية لكثير من الكلمات

(١) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٢٩.

(٢) ابن إياس: مصدر سابق، ج٣، ص٢٠١، وسليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، ص١٣-١٤.

(٣) سليم، محمود رزق: المرجع السابق، ج١، ص١٢٣.

ذات الأصل الدخيل. فكلمة (ترجمة) التي منها اسم الفاعل (ترجمان)، كان يعتقد سابقاً أنها مشتقة من الفارسية (تراجومان)، ولكن الدراسات الحديثة أبانت أنها مشتقة من الفعل الآرامي (ترجم)، الذي يعني أن الإنسان يعمل مترجماً أو يلقي خطاباً أو يشرح أو يعظ^(١).

وكانت الترجمة والتعريب في عصر المماليك ضرورة حيوية لبقاء الدولة من جانب، وللتوحيد اللغوي والثقافي لأجناس المماليك المتعددة من جانب آخر وكانت حركة الترجمة والتعريب تلقى قبولاً تاماً من المماليك الصغار^(٢)، الذين عرفوا الكتابة لمناسبة سنهم للتعليم، وقد أبدى المقرئ عجاظه بالمدرسة العسكرية الكبرى (مدرسة الطباقي) التي تقوم بتعريب المماليك وتنشأتهم تنشئة عربية إسلامية قائلاً: (وكانت للمماليك بهذه الطباقي عادات جميلة أولها: أنه إذا قدم بالملوكي تاجر، عرضه على السلطان ونزله في طبقة جنسه، وسلمه لطواشي برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط والتمرن بأداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحروب)^(٣).

وقد ترتب على هذه الحركة الإيجابية لتعريب المماليك أن تهذبت أخلاقهم، وعظموا الإسلام وأهله، وأصبحوا فرساناً للإسلام (فمنهم من يصير في رتبة فقيه وعارف، أو أديب وشاعر، أو حاسب ماهر)^(٤)، ومع هذه الجهود التي بذلتها مدرسة الطباقي في تعريب المماليك إلا أن مجيء بعضهم كبيراً، وعدم دخولهم لهذه

(١) حمد، محمد عبد السيد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ١٤٨.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ١١٩.

(٣) المقرئ: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٣.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٤.

المدرسة التي تصقل ألسنتهم بالعربية، كان له آثار سالبة على الممالك أنفسهم، والعربية نفسها، وتنقل لنا التراجم نماذج من أمراء الممالك وسلطينهم وأفرادهم، الذين لم يتعلموا العربية بتاتاً، و ترفعوا حتى عن الحديث بها، أو الذين نالت اللغات الأعجمية منهم عناية تفوق عنايتهم بالعربية، مثال: سيف الدين بشتاك الناصري ت ٧٤٢هـ / ١٣٤١م، الذي كان من أكابر أمراء الدولة وأعيانها، وكان مقرباً من السلطان محمد بن قلاوون، ولكن بشتاك كان تياهاً صلفاً، لا يتكلم ولا يخاطب الناس إلا بترجمان^(١)، وألماس الحاجب الناصري الذي كان ينوب مناب السلطان حال غيبته، كان لا يفهم بالعربية شيئاً^(٢).

كما تعصب الممالك لأجناسهم وألسنتهم وأزيائهم الخاصة، حافظوا على أسمائهم التركية أو المغولية ووجدوا من المترجمين والمؤرخين من يفسر معانيها لهم، فمثلاً: أرتماش يعني بالتركية: فضلة، وبطا معناه: الجمل الصغير، وتغري بردي يعني: الله أعطى^(٣).

إذا فإن حركة الترجمة والتعريب كانت ضرورية لتحقيق التجانس الثقافي، والتواصل المعرفي، لبقاء اللغة العربية حية في مؤسسات الدولة المختلفة، وبخاصة ديوان الإنشاء الذي صدرت عنه جميع المكاتبات الرسمية.

وثمة دافع آخر لا يقل عن سابقه أهمية، وهو الباعث العسكري المتمثل في تأمين حدود الدولة، ومعرفة مخططات الأعداء المسبقة، وما يجري حولها، من أحلاف وتجمعات دولية، والمكاتبات والتفاوض والمعاهدات، والاطّلاع على العملاء والجواسيس وإلقاء القبض عليهم. وقد نجحت الدولة المملوكية نجاحاً كبيراً في هذه الناحية، وجعلت أمر العيون والجواسيس منوطاً بديوان الإنشاء ورئيسه، ومن مهماته التي يتصرف بها. ويوضح القلقشندي ذلك بقوله: "وهذا جزء عظيم من أسس الملك وعماد المملكة، وعلى صاحب ديوان الإنشاء مداره، وإليه رجوع

(١) ابن حبيب: مصدر سابق، ج ٣، ص ٣١.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٤٣٨-٤٣٩ و الصفي: مصدر سابق، ج ٩، ص ٣٧١.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٢ ص ٢٩١، و ج ٣، ص ٣٨٠-٤٢١، و ج ٤، ص ٢٢٢.

تدبيره، واختيار رجاله، وتصريفهم، فيجب عليه الإحتياط في أمر الجواسيس أكثر مما يحتاط في أمر البريدية والرسول، لأن الرسول قد يتوجه إلى العدو وغيره وإذا وثق بجاسوسه فإنه إلى ما يأتي به صائر وعليه معتمد وبه فاعل"^(١).

وقد وضعت مؤسسة ديوان الإنشاء شروطاً لمن ينتدبون لهذا العمل (الجاسوسية) ومن أهم الشروط:- الفراسة، والحدس الصائب، وصدق النصيحة، والدهاء، والحيلة، ومعرفة البلاد التي يتوجه إليها، والصبر وإلى غيره.....، ولكنهم خصصوا الإلمام بلغة القوم المتوجه إليهم الجاسوس بالأهمية. يقول القلقشندي: "ومنها أن يكون عارفاً بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها لينتقط مايقع من الكلام، فيما ذهب بسببه ممن يخالطه من أهل تلك المملكة، وسكان البلاد العالمين بأخبارها ولا يكون مع ذلك ممن يتهم بممالة أهل ذلك اللسان"^(٢) من حيث أن الغالب على أهل كل لسان اتحاد الجنس، والجنسية.

وقد استطاعت الدولة عن طريق الجواسيس والترجمة أن تقف على تحركات الأعداء ومخططاتهم نحوها واتصالاتهم الداخلية والخارجية عبر اراضيها ومثال ذلك أن ملك الحبشة اسحق بن داؤود بن سيف بن أرعد الملقب بالحطي المتوفي سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م قد كاتب ملوك الفرنج داعيهم إلى غزو الدولة المملوكية، ونسق معهم الخطة الحربية المناسبة وذلك بقدومهم بحراً من الشمال وهجومهم براً من الجنوب^(٣). لكن الدولة المملوكية عرفت بالأمر وألقت القبض على حملة رسائل ملك الحبشة إلى الأوربيين.

ومن بواعث الترجمة في العصر المملوكي، التجارة التي كانت أهم أسباب ثراء الدولة وقوتها الاقتصادية، وكانت إحدى ساحات الحرب بين المماليك والبابوات الذين ما توقفوا عن إصدار قرارات الحرمان والتحريم ضد التجار الأوربيين الذين

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٤.

(٣) المقرئزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، بيروت، مطبعة دار الغرب الإسلامي - الطبعة الأولى - ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م - ٤ مجلدات، ج ٢، ص ٢١٣.

نشطوا في التجارة مع المماليك، وخاصة بعد استرداد عكا من الصليبيين سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م، فقد قام أحد علماء الكنيسة وهو مارينو ساندو تورسلو بتأليف كتاب (أسرار حماة الصليب) في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، محاولاً إقناع الأوروبيين بأن قطع التجارة مع المماليك هو السبيل إلى نضوب موارد ثروتهم، وبالتالي إضعافهم وهزيمتهم عسكرياً^(١).

وقد أدرك المماليك أن الحرب الاقتصادية التي شنها عليهم الصليبيون لا تقل ضراوة وخطورة عن مواجهتهم الحربية لهم، فهم يسعون إلى حرمانهم من المال ومن مصادر قوتهم العسكرية^(٢).

وقد كان الوسطاء الذين يقومون بالتفاهم بين المتبايعين من مختلف اللسان يؤدون واجبهم على أكمل وجه، ولا تخلو وثيقة من الوثائق التجارية بديوان الإنشاء من الإشارة إليهم، ويظهر أن الدولة المملوكية كانت تحصل على إيرادات كبيرة من الرسوم التي تدفع أثناء عقد المبيعات والصفقات التجارية، مقابل القيام بالترجمة. ولقد كان للتسامح الديني من المماليك تجاه النصاري ورجال الدين المسيحي أثر كبير في مختلف البلدان، في القدس وبيت لحم وسيناء والناصرية وغيرها، وقد كان رجال الدين يمثلون مختلف الطوائف المسيحية من روم وسريان وآرمن وكرج وأقباط وأحباش وفرنسيسكان^(٣). وكانت لهم أديرتهم وكنائسهم التي يتمتعون فيها بأتم الحماية والرعاية من الدولة، وفقاً لما تذكره وثائق هذه الطوائف الصادرة إليهم من ديوان الإنشاء المملوكي^(٤). ولمعرفتهم بعدد من اللغات، كانت الدولة المملوكية تستعين بهم في أعمال الترجمة عند الحاجة، خاصة في: المشاركة والتصديق على الهدن بين المماليك والفرنج، فقد وقع المنصور قلاوون على هدنة مع الجنيوة

(١) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٤٤.

(٢) هايد، ف: تاريخ التجاره في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، عربيه من الترجمة الفرنسية، رضا، أحمد محمد، الهيئة المصرية للكتاب، ط١، القاهرة ١٤٢٢-١٤٢٣هـ/١٩٨٤-١٩٨٥م، تاريخ التجارة في العصور الوسطى، ج٣، ص ٤٠ و ج٤، ص ٥٤.

(٣) السيد، علي: القدس في العصر المملوكي، ص ٨٢-٨٧.

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج٥، ص ٣٠٨.

سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، وجاء رسل الفرنج إلى القاهرة لتوقيع الهدنة، فشهد عليها بطرس أسقف مصر وميخائيل الراحل من دير طور سيناء^(١).

كذلك الاستعانة بهم في تعريب الكتب الواردة إليهم ورفعها إلى السلطان المملوكي فيما كان متعلقاً به^(٢) وحمل رسائلهم إلى ملوك الغرب المسيحي، وقد استتجد صاحب الأندلس بالسلطان المملوكي طالباً منه النصرة على الفرنج الذين هددوا غرناطة^(٣).

١- المهندارية:-

يقول الخالدي العمري في تعريفه للفظ مهندارية: "وهم جمع مهندار، وهو فارسي معرب و أصله مهمن ومعناها الضيف، والثاني دار ومعناها ممسك الضيف^(٤)، "أما السبكي فقد عرف المهندار بأنه: "اسم لمن يقوم بأمر قصاد الملوك ورسلمهم^(٥)، "أما القلقشندي فإنه جعل المهندارية من وظائف أرباب السيوف، ويقوم صاحب هذه الوظيفة بتلقي الرسل الواردين وأمراء العربان وغيرهم^(٦). ويكون المهندار تابعاً لكاتب السر أي صاحب ديوان الإنشاء، ويشترط فيه: "أن يكون عاقلاً زكياً فطناً يقظاً أميناً ناهضاً فصيحاً في اللغتين^(٧)".

ويبدو لنا أن مهمة المهندار ومساعدته كانت على درجة كبيرة من الأهمية لأنه أول رجال الدولة الذين يستقبلون القصاد والرسل ويقومون بأمر ضيافتهم ويتكلمون معهم بالسننهم ولغاتهم، وينزلونهم في أماكن إقامتهم اللائقة بهم، ومن ثم فإن

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٠٧.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص ١٦٦-١٦٩.

(٣) ابن إياس: مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٤) الخالدي العمري، بهاء الدين محمد بن لطيف: المقصد الرفيع المنشأ الحاوي على صناعة الإنشاء (مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، ورقة ١٠٣).

(٥) السبكي: معيد النعم، مصدر سابق، ص ٣١.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢.

(٧) الخالدي العمري: مصدر سابق، ورقة ١٠٣.

المهندار يترك الانطباعات الأولية في نفوس الرسل عن الدولة المضيفة لهم. ولذلك نجد أن السبكي في كتابه "معيد النعم" الذي يعد من كتب الإصلاح السياسي والإداري في الدولة المملوكية اشترط على المهندار أن يعتمد مصلحة الإسلام، ويرهب القصاد، ويريهم قوة المسلمين وشدة بأسهم وعظيم سطوتهم، واتفاق كلمتهم وقيامهم في حوزة الدين والذب عن حرمان الملة الإسلامية وحفظ النظام وأن ينهي أمور القصاد إلى الملك بمقدار ما يكون فيه المصلحة، ورب من يتعين عليه المبادرة إلى إكرامه، ومن يتعين عليه الكف عن إعظامه، بحسب ما تقتضيه الحال^(١).

ومن مهام المهندار أن يتعرف على سبب هجرة الرسل وقصدهم من سفاراتهم، ويقوم بإبلاغ كاتب السر بذلك، ثم يقوم بإحضارهم بين يدي السلطان للاطلاع على رسالتهم وغرض قدومهم^(٢). ثم هو ملزم "بعدم إقامتهم بعد تناول أجوبتهم ليوم الواحد"^(٣). ويفهم من ذلك بأن مهمة المهندار ومساعديه هي الترجمة الشفوية التي يعرف منها غايات القصاد من زياراتهم لبلاط الدولة المملوكية ثم تنظيم مراسم إقامتهم واستقبالهم وسفرهم^(٤).

وانطلاقاً من قاعدة التسامح فإنه سمح لليهود بممارسة التجارة وجوب الآفاق بحثاً عن الثراء مما مكنهم من معرفة عدد من اللغات التي يتواصلون بها مع شعوب الأرض المختلفة كما سمح لهم بالإقامة للعبادة في الأماكن المقدسة^(٥).

وبناءً على ما تقدم فإن عدداً منهم برعوا في الترجمة واتقان اللغات المختلف كما برعوا في التجارة والطب والصرافة وغيرها، فقد ذكر الرحالة اليهودي ميشو

(١) السبكي: مصدر سابق، ص ٣٢، ٣١.

(٢) ابن واصل: مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٧٤-٢٧٥-٢٧٨.

(٣) الخالدي العمري: مصدر سابق، ورقة ١٠٣.

(٤) سمير الدروبي: "منهجية المسلمين في الترجمة في العصر العباسي"، مجلة ترجمان، جامعة عبد الملك السعدي، ع ١ ص ٥١-٩٣، سنة ١٩٩٩م.

(5) F.F.Suriano. Treaties on Holy land. Jerusalem, pp.101-102

لام أن مترجم السلطان المملوكي كان يهودياً من أصل إسباني وكان عارفاً بسبع لغات وهي العربية والإيطالية والتركية والألمانية والفرنسية إلى جانب اللغة العبرية^(١).

٢- القناصل:

لقد كان من النتائج الإيجابية لحركة التجارة النشطة بين دولة المماليك وجنوة والبندقية وفلورنسيا وغيرها من المدن الإيطالية والممالك الأوربية وجود عدد من القناصل الذين يراعون المصالح التجارية لهذه الدول، ولا شك أن اختيارهم كان بناءً على معرفتهم بأحوال الشرق العربي ولغته، الأمر الذي يحتم عليهم إقامة طولية في الشرق، والاحتكاك الوثيق بأهله^(٢)، ولدينا من النصوص ما يثبت معرفة القناصل للغة العربية وقدرتهم على نقل مراسيم السلطان التي يصدرها بشأن رعاياهم إلى لغاتهم، فقد حدث خلاف بين مسلمي الإسكندرية وتجار الإفرنج بشأن أسرى المسلمين، وذلك سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م، فما كان من نائب الإسكندرية إلا أن دعا قناصل الإفرنج المقيمين في المدينة، وقرأ عليهم كتاب السلطان المتضمن منع سائر الإفرنج من السفر مالم يردوا الأسرى، فلما سمعت القناصلة والتجار ذلك كتبوا كتاباً بالخط الرومي ودخل به رجل من المسلمين البحر، وجعله بعقب رمحه، وغرز سنانة بقاع البحر ورجع إلى البر، فأتى قارب من مراكب الإفرنج وأخذوه ورجع به إلى المراكب، فلما قرأوه تيقنوا أن أصحابهم مأسورون^(٣).

إن حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء قد أدت دوراً إيجابياً كبيراً، حيث ساهمت هذه الحركة في وقف زحف اللغات الأعجمية على اللغة العربية، التي

(١) قاسم، عبده: اليهود في مصر منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني، القاهرة، عام ١٩٩٣م، ص ٦٤.

(٢) الدروبي سمير: مرجع سابق، ص ٦٥.

(٣) النوبري، محمد بن القاسم، ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٢م: الإمام فيما جرت به الأحكام والأمر المفضية في واقعة الإسكندرية؛ تحقيق د.سوريل عطية، من مخطوطة برلين وبنكي بور، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، ج ٥، ص ١٩٢-١٩٣.

فقدت مكانتها كلغة علمية وإدارية في مشرق العالم الإسلامي، حتى العراق نفسه الذي يعد من أمنع حصون العربية تلاشت هذه اللغة عنه تماماً، وذلك ما عبّر عنه ابن خلدون بقوله: "فسدت اللغة العربية على الإطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس، وأرض الهند والسند، وما وراء النهر، وبلاد الشمال وبلاد الروم، وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق لها أثر ولا عين، حتي أن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي^(١). وقد ساهمت حركة الترجمة في نقل كثير من المعارف إلى العربية، وخاصة في مجال التجارة ورغم أن كثيراً من سلاطين المماليك وأمرائهم كانوا مخلصين للغتهم التركية مقدمين لمن يعرفها ويتكلم بها^(٢)، بل أن بعضاً من سلاطينهم كان فصيحاً باللغة التركية وباللغة العربية لأبأس بها^(٣)، إلا أنهم حرصوا على أن تكون لغة المكاتبات ودواوين الدولة هي العربية. وعلى ضوء ما تقدم فإننا ندرك أهمية حركة الترجمة والتعريب، ولولا ذلك لتغلبت لغة الأتراك على العربية وتحولت لغة الإدارة والحكم إلى اللغة التركية، وقد ساهمت حركة الترجمة في ديوان الإنشاء المملوكي في نقل كثير من مصطلحات الكتابة وأساليبها ومصطلحات العربية إلى دواوين الإنشاء المغولية والتركية والفارسية^(٤).

(١) ابن خلدون: مصدر سابق، ص ٣٨٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٣٧٤، و ج ٥، ص ٨٨-٨٩.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٤٥٨.

(٤) ابن منظور: لسان العرب، ص ١٥٦.

رابعاً: ديوان الإنشاء^(١)

لقد حقق ديوان الإنشاء والرسائل أحد أبرز مظاهر التقدم الحضاري الإسلامي، بل كان دليلاً بيّناً على رقي الحضارة الإسلامية، ونظامها المحكم في التسيير على الرعية، والتأكيد على الهوية الإسلامية. أنشأ في مصر قبل عصر المماليك بزمان بعيد، ويرجع ذلك إلى ما قبل الدولة الطولونية (٢٥٤-٧٠٠هـ/٦٨٦-٨٨٤م)، فقد عني ابن طولون بمراسلاته فأنشأ لها ديواناً، ولما جاءت الدولة الفاطمية عيّنت عناية كبيرة بهذا الديوان وأوكلت له كتابة تدبير المراسلات الهامة، وقد استمر الديوان على عهد الأيوبيين^(٢). ولما وصل المماليك إلى السلطة في مصر استبقوا ديوان الإنشاء ووسعوا اختصاصات رئيسه، حتى صار في بعض الأيام هو مدير الدولة ومستشار السلطان الخاص، وصاحب الرأي الأول في السلطنة بعد السلطان، وتقدم بذلك على مراتب الأمراء والوزراء وسمي "كاتب السر"^(٣).

أ- كاتب السر

"يعتبر كاتب السر من أكابر الأعضاء والأعوان للسلطان، وهو قائم في اهتمام مقاصده واغراضه مقام الترجمان، فأنزل منه منزلة القلب واللسان من اللسان، فإنه المطلع على الأسرار، المجتمع لديه خفايا الأخبار، المنتفع بها في طريق النفع والأضرار"^(٤). وأبرز اختصاص "كاتب السر" رئاسة الديوان وقراءة الرسائل الواردة إلى السلطان بمجلسه، وتلقي إشارته للرد عليها وتوقيعه بما يراه فيها،

(١) تعني كلمة ديوان الموضع الذي يجلس فيه الكتاب، وتعني كلمة الإنشاء في اللغة: الإبداء والخلق، ويسمى ديوان الإنشاء بهذا الاسم لأن الأمور السلطانية من المكاتبات أو المراسلات كانت تصدر عنه وكان يطلق على هذا الديوان في بادئ الأمر ديوان الرسائل. (القلقشندي: مصدر سابق، ج ١، ص ١٠١-١٠٤، والباشا، حسن: الألقاب الإسلامية، ج ١٠، ص ٣٥، وماجد، عبد المنعم: دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ص ٥٤ - ٥٦، و حسن، علي إبراهيم: مرجع سابق، ص ٣٠٨-٣٢٢).

(٢) النوبري: مصدر سابق، ج ٨، ص ١ - ٥١، والسبكي: مصدر سابق، ج ٧، ص ١٦٦.

(٣) حسن، علي إبراهيم: مرجع سابق، ص ٣٠٩.

(٤) ابن شاهين: ذبذة الفكرة، ص ٩٩.

ويكتب الرد بقلمه أو بقلم أحد موظفيه حسب أهمية الرسالة، ويقوم بتسجيل المراسيم السلطانية وتصديرها، ويجلس بدار العدل مع السلطان ليقراً عليه الشكاوى المقدمة عليه، ويستشير السلطان في عليا المسائل، وغيرها^(١).

وأول من لقب بكاتب السر القاضي فتح الدين بن محيي الدين بن عبد الظاهر (٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، لقبه بذلك الملك المنصور قلاوون. وقد حظي عنده فتح الدين وزاد اختصاصه، وارتفعت منزلته، ولبت في منصبه زهاء ثلاثين سنة بكفاية وجاه عظيمين، عاصر خلالها اثنين من السلاطين هما المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل، وتولى كتابة السر بالقاهرة ثم دمشق، كما برع في الأدب، واتصف برجاحة العقل والوقار والتدين والأمانة، توفي سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م^(٢)، وتوالى من بعده كثيرون على رئاسة الديوان منهم علاء الدين بن فضل الله العمري سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، وشرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمري^(٣)، ومحيي الدين بن فضل الله العمري وأولاده^(٤)، وعلاء الدين بن الأثير وغيرهم من أفاضل

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٣٠، والبقلي، محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣م، ص ٢٣٨، والباشا، حسن: الألقاب، مرجع سابق، ص ١٧-١٨، وضيف، شوقي: مرجع سابق، ص ٤٠١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧٨-١٧٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٧٠-١٧١، وابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٥٢، والباشا، حسن: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٩٢٣.

(٣) عبد الوهاب بن فضل الله بن مجلي العدوي، تولى كتابة السر في كل من مصر ودمشق، عرفت عنه الخصال الحسنة وعفة وتدين كما إشتهر بالخط الجيد والإنشاء الرائع، توفي سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، (ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٤٦).

(٤) هو: أحمد بن محيي الدين بن فضل الله العمري، ولد بدمشق سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، تولى كتابة السر بدمشق، ثم مصر عوناً لوالده محيي الدين، وقد كان إماماً فقيهاً عالماً بارعاً ألف عدداً من التصانيف، المفيدة، منها موسوعته الكبرى "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، و"التعريف بالمصطلح الشريف"، توفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٨٥).

الكتاب^(١). كابن منظور المصري، ويعاون كاتب السر في عمله صنفان من موظفي الديوان هما:

ب- كتاب الدست:

وهم، يقومون بإعادة قراءة الأوراق على السلطان بعد قراءة كاتب السر لها، وذلك في مجلس دار العدل، وغالباً، هم منشئون يؤلفون الرسائل، كل منهم حسب اختصاصه وجهته، ويجلسون عادة مع كاتب السر في مجلس السلطان، ليعرف كل منهم ما يخصه من الرسائل وما ينبغي لها، سمي متولي هذه الوظيفة بهذا الأسم نسبة إلى مرتبة السلطان التي يجلس عليها^(٢). ومن الذين باشروا هذه الوظيفة المؤرخ ابن أبيك الصفدي^(٣)، والقاضي شرف الدين الحلبي^(٤)، والقاضي علاء الدين البيري^(٥).

ج- كتاب الدرّج:

وهم، غالباً، خطاطون توكل إليهم كتابة الرسائل بخطهم بعد إنشائها^(٦). ويقومون بكتابة ما يوقع عليه كاتب السر أو كاتب الدست، أو أي أوامر تصدر عن النائب أو الوزير أو الدوادر، سواء كانت تلك الأوامر مكاتبات أو توقيعات أو تقليدات أو مراسيم أو غيرها. و اسم هذا الموظف مشتق من درّوج الورقة التي يكتبون عليها،

(١) ابن تغري بردي: مصدر سابق ج٧، ص ٢٩٣.

(٢) الدست: صدر المجلس، وأطلق على الكتاب "كتاب الدست" لأنهم كانوا يصطحبون السلطان ومعهم رئيسهم ويجلسون بين يديه في دسسته. (القلقشندي: مصدر سابق، ج٤، ص ٣٠، ج١، ص ١٧٢، وماجد، عبد المنعم: مرجع سابق، ج١١، ص ٥٥).

(٣) هو: صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أبيك الصفدي الشافعي، وهو من العلماء الأجلاء والرؤساء المشهورين بالأدب والفصاحة وحب النظم والنثر، إضافة إلى العلم الواسع، تولى توقيع الدست بدمشق وحلب، ثم كتابة السر بها ثم القاهرة، له تصانيف في الأدب والتاريخ، توفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، (السبكي: طبقات الشافعية، ج١٠، ص ٥-٦، وابن حبيب: تذكرة النبیه، ج١، ص ٢٦٨-٢٧١).

(٤) هو: موسى بن القاضي بدر الدين محمد بن محمد بن شهاب الدين محمود الحلبي الحنبلي، كان من أسرة اشتهرت بالكتابة والإنشاء، توفي بالرملة سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م، (المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٥١١؛ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٢٤٥).

(٥) المقريزي: السلوك، ج٩، ص ٦٣٩؛ وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩، ص ١١٤.

(٦) الباشا، حسن: مرجع سابق، ص ٢٣ - ٢٤.

وقد يطلق عليهم الموقعون^(١) كتاب الإنشاء^(٢). ومن أشهر من تولى هذه الوظيفة الشيخ كمال الدين بن العطار^(٣)، والقاضي فتح الدين بن عقيل^(٤).

ويوجد ديوان إنشاء في كثير من العواصم على غرار ديوان القاهرة، مثل دمشق وحلب، وكثيراً ما كانت تتم التنقلات بين موظفي هذه الدواوين. وقد ظل ديوان الإنشاء قائماً بالقاهرة حتى ألغاه العثمانيون فيما ألغوا من دواوين^(٥).

ولقد كان لديوان الإنشاء أثر كبير في شحذ همم الأدباء وحفزهم إلى إجادة صناعتهم وإتقان الكتابة، لاتخاذ ذلك وسيلة للوصول إلى مناصب الديوان، ولهذا بلغت الكتابة ذروتها في الجودة وحسن الأدب، وقدموا ثروة أدبية ضخمة لا يستهان بها^(٦).

د- الكتابة الإنشائية:

"الكتابة الإنشائية هي الكتابة الأدبية التي تخرج المعاني والأفكار في صورة تعبيرية جميلة عاطفية مؤثرة مصوغة على قواعد أسلوبية فنية ملتزمة لها غايات

(١) الموقعون: وهم كتاب الرسائل والمكاتبات السلطانية، وعليهم الرفق بالرعية فيما يكتبونه، والتخفيف من التشديدات التي يؤمرون بكتابتها، ولا يسوغ الأمر بها، فإن لم يستطع فعله ألا يبالغ في الأمر وزيادة الظلم، وعليه أن يكون حسن العبارة، واضح الكلمات، بسيط التعبير حتى يفهم الناس ما يكتب بسهولة، (السبكي: معبد النعم، ص ٣١).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ١٧٢-١٧٣، ج ٤، ص ٣٠، والبقلي: التعريف، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٣) هو: أحمد بن الفتح محمود بن أبي الوحش أسد بن سلامة بن سليمان فتيان المعروف بابن العطار، هو من الأئمة المحدثين، له نظم ونثر رائع، وكان يحب تلاوة القرآن وسماع الحديث، توفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، (المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٩٤٥-٩٤٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٦١-١٦٢).

(٤) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٥٧٠-٥٧١، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ١١، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٥) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣٤٢.

(٦) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ٢٩-٣٠.

معنوية عليا، سواء أكانت رسائل ديوانية، أم كانت نوعاً آخر خارج الديوان. ومن أنواع الرسائل :-

د-١- الرسائل الديوانية:

وهي الرسائل "الرسمية" التي يكتبها منشئو الديوان في الأمور العليا للدولة وهي متنوعة حسب الأغراض^(١)، ومن أمثلتها:-

د-١-أ- **الرسائل الملوكية:** وهي التي تكتب على لسان السلطان لأحد الملوك والأمراء في أمر مهم، رداً على رسالة، أو ابتداءً بها. وهذا النوع أهم رسائل الديوان وأوثقها تعبيراً عن السياسة العليا للدولة. فقد تكون عقداً لمودة، أو تهديداً لغزو، أو أمراً لزحف، أو اتهاماً بممالة خصم، أو إجابة لمعونة، أو فضا لمشكلة، أو شكراً على هدية، أو غير ذلك^(٢).

د-١-ب- **العهود:** العهد رسالة من خليفة أو سلطان لمن اختاره لولاية منصبه من بعده^(٣).

د-١-ج- **المبايعات:** والمبايعة رسالة على لسان الخليفة إلى السلطان يبايعه فيها بالسلطنة.

د-١-د- **التقاليد:** التقليد هو "أمر تعيين" يصدر إلى أحد موظفي الدولة الكبار، تسند إليه الوظيفة، مثل رئيس ديوان الإنشاء أو قاضي قضاة الشافعية، وفيه تضي

(١) سميت رسائل من حيث أن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره مخبراً فيها بصورة الحال، مفتحة "بما تفتتح به المكاتبات، ثم توسعت فيما بعد لتفتتح بالخطب وغيرها. (القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ١٣٨).

(٢) رسالة في خبر السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون: من إنشاء القاضي، تاج الدين البارنباري، (القلقشندي: مصدر سابق، ص ١٦٥).

(٣) تقليد من الخليفة العباسي المستعصم بالله بتولية الظاهر بيبرس حكم مصر والشام سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، الوثيقة من إنشاء القاضي فخر الدين بن لقمان، أوردها، (ابن عبد الظاهر: في الروض الزاهر: مصدر سابق، ص ١٠٦ - ١٠٩، وبيبرس المنصوري: مصدر سابق، ص ٦١ - ٦٢، والنويري: مصدر سابق، ج ٣٠، ص ٣٠ - ٣٥، وابن آبيك: مصدر سابق، ج ٨، ص ٧٣ - ٧٩).

عليه أثناء الثناء ويبين سبب اختياره، ويوضح له اختصاصه، ويوصي بالعدل وقد يقرأ التقليد في مسجد أو بين جمهور حسب أهميته^(١).

د-١-هـ-البشارات: والبشارات رسالة طويلة شائقة تبشر بمجئ السلطان من رحلة أو غزوة، أو وفاء النيل أو نحو ذلك، وقد تقرأ البشارة في المساجد كالخطبة، وقد ترسل إلى الأفق لإعلانها أو قراءتها على الجماهير، هذا وتجد في كتاب "السلوك" للمقرئزي وكتاب "قهوة الإنشاء"، لابن حجة الحموي، نماذج كثيرة لرسائل ديوانية مختلفة. بشارة أنطاكية على يد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، وكانت تحت يد الصليبيين، وكتب نص البشارة القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر^(٢).

٢- الرسائل الإخوانية:

الرسائل الإخوانية يكتبها صديق إلى صديق في مدح أو شكر أو تهنئة، أو تعزية أو شوق، أو عتاب أو شكوى أو مداعبة أو استدعاء أو مجون، أو اعتذار، أو لغز أو سؤال علمي أو أدبي، أو نحو ذلك مما يكون بين الأصدقاء. وقد راج هذا الضرب من الكتابة الأدبية في هذا العصر رواجه في العصر العباسي - وكثيراً ما اتخذ بعض الأدباء وسيلة للتسلية وتمرين القريحة، دون أن تكون هناك دواعي إخوانية إلى ذلك. وقد صرح بذلك الأديب الشاعر زين الدين بن الوردي في خطبة ديوان شعره ونثره، وكذلك الأديب الكاتب شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه "حسن التوسل". وفي الكتابين نماذج عدة للإخوانيات^(٣).

(١) التقليد: هو تقليد سلطاني بتفويض قضاء القضاة المصرية لشيخ الإسلام علي بن وهب بن مطيع المعروف بإبن دقيق العيد سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م، (النويري: المصدر السابق، ج ٣١، ص ٣٠٠-٣٠٤).

(٢) ابن عبد الظاهر: مصدر سابق، ص ٣٠٩ - ٣١٣، وبيبرس المنصوري: مصدر سابق، ص ١١٢ - ١١٣، وابن آبيك الداوداري: مصدر سابق، ص ١٢٨ - ١٣١. كما كتب تقي الدين بن حجة بشارة بوفاء النيل وذلك في ٨١٩هـ/١٤١٦م، في عهد السلطان المؤيد.

(٣) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣٢٢.

ومن كُتاب الإخوانيات الأديب البارع الشاعر برهان الدين القيراطي، والشاعر الفحل جمال الدين بن نباته المصري، والأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدي. وللصفدي كتاب مخطوط ظريف بدار الكتب المصرية اسمه "ألحان السواجع" سجل فيه مراسلاته الإخوانية وردود إخوانية عليها.

٣- الاستجازات والأجازات:

الاستجازة هي رسالة يكتبها أحد الأدباء إلى صديق له أديب، يطلب إليه أن يمنحه إجازة برواية آثاره الأدبية. ومن أشهر الاستجازات رسالة (صلاح الدين الصفدي) إلى ابن نباته المصري، أما الإجازة فهي رسالة يرد بها الأديب على من استجازته ويصرح له فيها برواية آثاره الأدبية. وقد رد (ابن نباته المصري) على الصفدي فكتب له إجازة طريفة. وهناك ثلاثة أنواع منها:-

٣-أ- إجازة العراضة: وهي "شهادة" يمنحها أحد الشيوخ لأحد طلابه بعد أن يعرض عليه أحد الكتب العلمية، ويتأكد من أنه حفظه جيداً. يأتي على رأسها الإفتاء حيث تؤهل صاحبها في أن يفتي ويدرس بعد حصوله على هذه الإجازة التي كانت غالباً ما تكتب على ورق شامي بقلم الرقاع، ويجيزها أحد كبار العلماء لمن يؤهل لها من تلاميذه بعد ملازمة دراسية طويلة وتتم كتابتها والتصديق عليها بحضور قاضي القضاة^(١).

٣-ب- إجازة الفتيا والتدريس: وهي شهادة يمنحها أحد الشيوخ لواحد من طلابه بعد أن يختبره في مادته العلمية ويتأكد من أنه فهمها فهماً جيداً يؤهله للتصدي للإفتاء أو التعليم. وهي أعلى الإجازات الدراسية حينذاك. وكان كثير من الطلاب يحرصون على الإكثار منها، وذلك بملازمة عدد كبير من شيوخ العلم، لاستغراق ما عندهم من مسائل العلم ومشاكله. وقد يسافر أحدهم من بلد إلى بلد آخر أو من مصر إلى سواه للقاء الشيوخ والتعلم منهم واستمناحهم هذه الإجازة^(٢).

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٢٢ - ٣٢٦.

(٢) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ٣٢-٣٣.

٣-ج- إجازة رواية الحديث: وهي إجازة يمنحها أحد شيوخ الحديث وحفاظه، لواحد من تلاميذه يجيزه فيها برواية ما أخذه عنه من الأحاديث النبوية شفاهاً، ويجيزه أيضاً بأن يجيز غيره ممن يأخذون هذه الأحاديث عنه. وقد راج طلب الحديث في ذلك العصر رواجاً عظيماً، وعني الطلاب بحفظه وأخذوه عن حفاظه الثقات، والترحل في سبيله والغربة للقاء شيوخه. فلم يكن طلب الحديث حينذاك أقل شأنًا من طلب الفقه^(١).

٤- حرص العلماء والأدباء على الرسائل والمقارنات الوصفية:

هي التي تتناول أداة أو منظرًا أو حدثًا أو رحلة أو حيوانًا أو أي شيء آخر، وتصفه وتفصل نعوته المختلفة بروح أدبية ممتعة. وقد امتلأت كتب الأدب بهذا اللون الكتابي البارع، وهو دليل على حسن امتزاج الأدباء ببيئاتهم وعمق إحساسهم بمحتوياتها وحوادثها ودقة ملاحظاتهم عليها وإحاطتهم بأجزائها ومنافعها وآثارها. ومن أمثال هذه الرسائل والمقالات ما جاء في كتاب "ثمرات الأوراق" لابن حجة الحموي^(٢)، وفيها وصف لبعض الرحلات، ما جاء في كتاب "مجرى السوابق" لابن حجة أيضاً، وبه وصف لأنواع الخيل، وكتاب "نسيم الصبا" لبدر الدين بن حبيب الحلبي^(٣)، وبه وصف لجملة أشياء منها السماء والشمس والقمر والسحاب، ووصف طيور وغير ذلك. ومنها "ديوان ابن الوردي" وبه مقالات في وصف بعض الحوادث^(٤).

(١) الفلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) ابن حجة الحموي: تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي، ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م، شاعر اديب سوري ولد وتوفي بحماه، شهد حريق دمشق لما حاصرها الظاهر برقوق سنة ١٣٩٠م، عمل في ديوان الإنشاء في القاهرة على أيام السلطان المؤيد شيخ، من مؤلفاته الكثيرة: (خزانة الأدب، وثمرات الأوراق، وكشف اللثام)، معلوف: المنجد، ص ٢٣٠.

(٣) ابن حبيب، بدر الدين الحسن بن عمر، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م: نسيم، الصبا، تحقيق الفخوري، محمود، منشورات دار القلم العربي، حلب، سوريا، ١٩٩٣م، ص ٢٠١.

(٤) هو: زين الدين أبي حفص عمر بن مظفر بن عمر بن الوردي، بن أبي الفوارس، ولد بمعرة النعمان سنة ٦٨٩هـ/١٢٨٨م وكان من علماء اللغة، والنحو واللغة والتاريخ، توفي بالطاعون=

٥/ الموازنات والمفاخرات:

الموازنة أو المفاخرة، مقالة أو رسالة، وصفية مزدوجة لأنها تصف شيئين في آن واحد. ولكنها تفترق عن المقالة بعدة عناصر أدبية طريفة تجعلها أقرب منها إلى باب الأدب، ومن هذه العناصر عنصر المفاخرة والمحاورة. وهذا يستتبع تقسيم المقالة إلى مقاطع، يتكلم في كل مقطع منها أحد الشئيين الذين تتعقد بينهما الموازنة، كأن يتكلم عن نفسه فيصف محاسنها ويتكلم عن زميله فيصف مساوئه، فيرد عليه زميله في مقطع آخر، وهكذا دواليك، وكثيراً ما يدخل عنصر آخر وهو عنصر المغالطة، فيقلب كل منهما محاسن زميله مساوئ، ومساوئه محاسن. و الموازنات لون أدبي طارئ على مصر من الأندلس فقد راج هنالك ثم وفد إلى المشرق. ومن أبرع موازنات الأدباء المصريين: "الموازنة بين السيف والقلم"^(١) للكاتب والشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة المصري ت٧٦٨هـ/١٣٦٧م. وفي كتاب "تسيم الصبا" موازنات بين فصول العام؛ وللجلال السيوطي موازنة بين النار والتراب، تجدها في كتاب "الكنز المدفون"، غير أنها فقدت عنصر الحوار. وللقلقشندي موازنة بين السيف والقلم في كتابه "صبح الأعشى". وللسعدي توفى ٧١٧هـ/١٣٢٧م، موازنة بين السيف والرمح، و لابن الوردي، ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م، (المفاخرة بين السيف والقلم)^(٢).

٦/ القصص:

القصص من أهم الفنون الأدبية، ففيها متعة وفيها نصيحة، وفيها توظيف القصص لشغل العامة عن واقعهم الحياتي، وفيها تعليم ودراسة لأحوال الحياة

=سنة٧٤٩هـ/١٣٤٩م، صاحب صفوة الرحيق في وصف الحريق والبهجة الوردية، وديوان في الفقه الشافعي،(معلوف: المنجد، ص٧٤١، والزركلي: الأعلام، ص٦٧، و ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص١٩٥، السيوطي: بغية الوعاة، ص٣٦٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٤٠، وسليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص٣٣).

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج١٤، ص ٢٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ج١٤، ص ٢٣١.

وكشف لغوامضها. والأدب العربي - في جملته - فقير في هذا الفن في تلك العصور، بالقياس إلى النتاج القصصي في الأمم المعاصرة للعرب مثل اليونان والهند، وإن كان للعرب في ميدانه جهود لا بأس بها، وبخاصة في عصر بني العباس، وذلك لطبيعتهم البدوية وتفشي الأمية فيهم.

لم يخل ميدان الأدب في عصر المماليك من أدب القصة. نشير إلى كثير من النصوص الأدبية وما سجلته كتب الأدب والتاريخ من أخبار هذه النصوص، وكثيراً ما عبثت يد الضياع بهذه النصوص. ولقد كانت لها سوق رائجة في عصر المماليك وذلك لضرورتها القصوى للحكام لينتهي بها العامة لملء أوقات فراغهم، ولصرفهم عن التفكير في السياسة والثورات، وتوجيه فن القصة إلى الميادين التي تستهوي العامة ويجدوا فيها متنفساً وملاذاً^(١). ومن أهم قصص العصر:

٦-أ- كتاب "ألف ليلة وليلة" وهو مشهور، وبه حكايات تصف أحوال الأمم العربية والإسلامية في عصور عدة، وأسلوبه شعبي غالباً، وهو منثور تتخلله الأشعار، وبه كثير من الأخيلة البديعة والأساطير والجد والهزل. وتترجح عباراته بين الجودة والرداءة لاختلاف أساليبه و تعدد البيئات التي تتضمنها قصصه.

٦-ب- كتاب "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء"، لمؤلفه شهاب الدين بن عربشاه^(٢) المتوفي سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م، وبهذا الكتاب عشر قصص لطيفة رواها الكاتب على لسان الحيوان، وكشف فيها عن غوامض النفوس وتأرجحها بين الخير والشر وساق فيه النصائح والأمثال على نمط كليل ودمنة. غير أنه اتبع في كتابته منهج

(١) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥.

(٢) هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم، بن نصر الدين محمد بن شهاب الدين بن عربشاه، مؤرخ رحالة له اشتغال بالأدب، ولد ونشأ في دمشق، ولما غزا تيمور لنك ديار الشام تحول بعائلته إلى سمرغند فتعلم على كبار علمائها جلال بلاد المشرق وتعلم التركية والمغولية، له كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور، وفاكهة الحكماء وغيرها. (الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٢٢٨، والسخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ١٢٦، وابن العماد: الشذرات، ج ٧، ص ٢٨٠، ومعلوف: المنجد، ص ٤٥٩).

المقامات الذي يقص فيه رجل عن آخر. فجمع في ذلك بين فن ابن المقفع وفن الحريري. لكنه جعل القاص فيه حكيماً لا مستجدياً، وقد التزم السجع في جميع سطورهِ، ومعه كثير من المحسنات البديعية الأخرى التي اعتبرت كلفاً في وجه كتابة القيم^(١).

٦-ج- كتاب "طيف الخيال" لمؤلفه ابن دنيال الموصلي المتوفي سنة ٧١٠هـ/١٣١١م، وهو شاعر مداعب لطيف خفيف الروح، كان يشتغل كحالا إلى جانب أدبه؛ وكتابه طيف الخيال يحتوي على ثلاث تمثيلات أو "بابات" كما يسميها المؤلف^(٢).

التمثيلية الأولى: مسرحية كاملة يطرد فيها الحوار بين تسعة أبطال أهمهم: "طيف الخيال" و"الأمير وصال" وهذه التمثيلية محبوكة الأطراف، بارعة لا يكاد ينقصها شيء من فن المسرحية. وهي تصف المجتمع المصري إذ ذاك في بعض جوانبه، وما فيه من عادات وتقاليد ونزوات ومكابرات، ويتخلل موضوعها النثري مقاطع وأبيات شعرية في مناسباتها. وهي تدل دلالة قطعية على أن التأليف المسرحي نثراً وشعراً قد طاف بأذهان أدباء العربية وأقلامهم منذ أمد بعيد؛ بل وفن التمثيل الخيالي "السينمائي" الذي كانت المسارح فيه مضاعة بالشمع وتسمى "خيال الظل". ولها تاريخ قبل ابن دنيال وبعده^(٣).

التمثيلية الثانية: استعراضات مسرحية سريعة، يقوم فيها بعض الحواة والرياضيين ومروزي الوحوش - كل منهم في منظر واحد - بعرض ألعابهم أمام المشاهدين

(١) سهير القلماوي: مرجع سابق، ص ٢٢.

(٢) بابات: مفردُها باب، وقد فقدت كل باباته ولم يتبق منها سوى ثلاث هي، خيال الطيف، وعجيب وغريب، والمتيم أو الضائع اليتيم، والبابات كتبها ابن دنيال شعراً ونثراً منظوماً. (القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١١٢).

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٤.

ثم استجدائهم. وقد كتبت بعبارات وجيزة مسجوعة، مما يدل على انتشار الألعاب الشعبية حينها^(١).

التمثيلية الثالثة: صورة ماجنة موغلة في المجون وقعت حوادثها بين عاشق وجملة من معشوقيه، واحد بعد آخر وهي من نوع الأدب المكشوف.

٧/ المقامات^(٢):

وقد تميزت بالسهولة والوضوح، والتخلص من الألفاظ الغريبة والمهجورة، وأول من فتح باب المقامات أمام العرب، البديع الهمزاني^(٣)، ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحميري^(٤). والمقامة قصة قصيرة حوارية مسجوعة، كتبت بأسلوب بديعي وقد راجت هذه المقامات في عصر بني العباس رواجاً كبيراً لاختلاط العرب بالعجم وخوف بعض علماء العربية من ضياع اللغة واندثارها، وقد صارت أحد فنون الكتابة. وفي عصر المماليك ظل لها هذا الرواج ونشط في تدبيجها كثير من الأدباء^(٥) للأسباب السابقة نفسها. ومقامات ذلك العصر – وإن كانت قد التزمت

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١١٠.

(٢) وهي جمع مقامة بفتح الميم، وهي في أصل اللغة، اسم للمجلس والجماعة من الناس، وسميت الأحدث من الكلام مقامه، لأنها تذكر في مجلس واحد مجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها، أما المقامة بالضم، فبمعنى الإقامة ومنه قوله تعالى: (الَّذِي أَحْكَنَّا دَاكِرَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ) (سورة فاطر: الآية ٣٥، الرازي: مختار الصحاح، ص ٥٥٧).

(٣) بديع الزمان: أبو الفضل أحمد بن الحسين بن سعيد عاش في الفترة ما بين سنة ٣٥٨هـ – ٩٦٩/٣٩٨م، أحد أئمة الكتاب ولد بهمزان. مدح الأمراء والوزراء واشتهر بكتابة الرسائل التي بلغت ٢٣٣ رسالة والمقامات وعنه أخذ الحريري مقاماته، مات مسموماً، (الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ١١٥، ووفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٩، والنويري: نهاية الأرب، ج ٣، ص ١١٠، ومعلوف: المنجد، ص ٧٣٠).

(٤) أبو القاسم الحميري، أحمد بن عبد الرحمن الشهاب، أبو العباس بن الفاسي الأصل، القسطنطيني المولد، التونسي الدار، المغربي المالكي، ت ٦٨٠هـ/١٢٨١م. (الزركلي: الأعلام، م ١، ص ١٤٨).

(٥) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ١١٠.

السجع والأسلوب البديعي - أيسر عبارة وأخف تكلفاً من المقامات العباسية. كما خرجت عن منهج الاستجداء، وتنوعت موضوعاتها وافتتاحاتها وذلك يدل على الشخصية المستقلة المبتكرة التي كان يتمتع بها بعض الأدباء إلى حد كبير. وقد تناول الكتاب في المقامات الغزل والعشق ووصف الخمر ومجالس المنادمة، وأبواب الفكاهة والمداعبة والمجون، وتسجيل الحوادث العامة، وبيان خطرها، ووصف أخلاق الناس وعاداتهم، وتصوير مناظر البيئة، والشكوى والمدح، وأبواب النقد واللغة، وغيرها^(١). و من كتاب المقامات: الشاب الظريف^(٢) وله مقامات عاطفية غزلية، وزين الدين بن الوردي: ومن مقاماته: "صفوة الرحيق في وصف الحريق" وهي في وصف حريق دمشق سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م، و"المقامة الصوفية" في وصف أحوال الصوفية، و"المقامة الأنطاكية" في وصف مدينة أنطاكية. ومنهم صفي الدين الحلي: وله رسالة "التوأمية" وهي مقامة بين كل لفظين متجاورين فيها جناس خطي ولا يفرق بينهما إلا الألفاظ، مثل رسالة "الدار في محاورات الغار" وهي مقامة دعابية شاكية، كتبها على لسان دار تشكو حالها إلى أحد الملوك^(٣).

وصلاح الدين الصفدي^(٤): وله "دمعة الباكي ولوعة الشاكي" يصف فيها الكاتب رحلته إلى رياض أهله ومعه أحد أصدقائه. ومنهم شهاب الدين القلقشندي: وله

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج٢، ص١١٥.

(٢) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص٣٦-٣٧.

(٣) هو: عبد العزيز بن سرايا بن علي بن القاسم الطائي، صفي الدين الحلي، ت٦٧٧-٧٥٠هـ/١٢٧٨-١٣٤٩م، ولد في الحلة بين الكوفة وبغداد، أقام في القاهرة وأغرم بالبديع وهو أول من نظم البديعيات له ديوان شعر بعنوان (درر النحور) وهي قصائده المعروفة بالأرتقيات نسبة للأمير الأرتقي، (الزركلي: الأعلام، م٤، ص١٧، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٦٩، وابن شاعر: فوات الوفيات، ج١، ص٢٧٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٣٨، ومعلوف: المنجد، ص٢٥٨).

(٤) هو: صلاح الدين، أبو الصفاء، خليل بن الأمير عز الدين أيوب بن عبد الله الصفدي المولد، الدمشقي المنزل والوفاء. كان والده من أمراء المماليك في صفد، وفيها ولد خليل، ونشأ في بيئة عربية، وحفظ القرآن صغيراً، فكان لهذين العاملين أثرهما في فصاحة لسانه وإجادته العربية. ولكن أباه منعه من الانصراف إلى طلب العلم والاشتغال به، فلما بلغ العشرين من عمره انصرف إلى طلب العلم=

"الكواكب الدرية في المناقب البدرية" وهي مقامة في مدح بدر الدين محمد بن علي بن فضل الله العمري: صاحب ديوان الإنشاء، وقد وصف فيها القلقشندي ما ينبغي للمنشئ من الأخلاق والفضائل^(١).

ومنهم جلال الدين السيوطي: وله عشرات المقامات، وقد تغلب السيوطي بمقاماته بين موضوعات شتى، ونوع في افتتاحياتها بما يناسب موضوعاتها، ومنها: "المقامة الوردية"، وهي مناظرة طريفة - ومناقشة حامية بين الورد وغيره من الأزهار، وكل منهما يدعي أنه ملك الرياحين. و"المقامة السيوطية" وهي مملوءة بالأسئلة النحوية^(٢).

٨ / النصائح والحكم:

وقد كتب كثير من أدباء عصر المماليك في النصائح والمواعظ والحكم والأمثال، إلا أن أغلبها كان يصدر من معين واحد، وهو الدين، وتنبيه الوازع النفسي وبيان محاسن الشريعة، ولعل من أسباب انتشار هذا اللون، من الكتابة، لكثرة ما حاق بالمسلمين من كوارث، وما اتصل بأيامهم من حروب مع الصليبيين والتتار، وما كان يتصف به بعض الحكام من استبداد وقسوة، وما كان يتصف به بعض شيوخ الدين من جرأة وصلابة^(٣) ومن هؤلاء: محيي الدين النووي: وقد كتب إلى الظاهر بيبرس أكثر من رسالة ينصحه فيها بالترام العدالة. ومنهم تقي الدين بن تيمية الحراني: وله "الرسالة القبرصية" في نحو أربعمئة سطر، كتبها إلى ملك جزيرة قبرص، ينصحه فيها بحسن معاملة المسلمين من رعاياه، ويهدده ويتوعده إذا لم يحسن معاملتهم. ومنهم جلال الدين السيوطي: وله رسالة بعث بها إلى ملوك

=بنفسه وإلى الاتصال بالعلماء والشيوخ. وممن اتصل بهم وأخذ عنهم الإمام تقي الدين السبكي (ت ٧٥٦ هـ / ١٣٥٤ م)، وأخذ الأدب عن شهاب الدين محمود بن سليمان (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م، (الزركلي: الأعلام، ج ٢، ص ٣٦٥).

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٠٩-١١٥.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٣.

(٣) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ٣٨.

التكرور - وكانوا مسلمين - ينصحهم بالتزام أحكام الشريعة الغراء في تصريف رعاياهم. ومنهم تاج الدين بن عطاء الله السكندري: صاحب كتاب "تاج العروس" وكله عظات ونصائح^(١)؛ وللجلال السيوطي مقالة بعنوان: "درر الكلم وغرر الحكم"^(٢)، وهي عبارة عن حكم مزدوجة تتكون كل منها من جملتين مسجوعتين.

٩/ التقاريط والاهاجي:

٩-أ- التقاريط: ضرب من الرسائل الإخوانية، يكتبها بعض الأصدقاء إلى البعض يمدحه ويثني عليه الثناء المستطاب، بمناسبة ما أصدره من نتاج قلمه وفكره، سواء أكانت ديواناً شعرياً أو كتاباً علمياً أو غيره، واستمر ذلك إلى وقت قريب. وقد نشط هذا اللون من الكتابة نشاطاً بالغاً في عصر المماليك وكان مظهراً جميلاً من مظاهر العلاقات الشخصية. وميداناً يتنافس فيه كرام الكاتبين^(٣). فقد ألف الأديب جمال الدين بن نباتة المصري كتاب "مجمع الفرائد"^(٤) وهو بدمشق، فاطلع عليه عدد من فضلاء الشام فقرظوه فجمع ابن نباتة^(٥) هذه التقاريط في كتاب مستقل سماه سماه "سجع المطوق" وترجم فيه لمنشئ هذه التقاريط، وروى شيئاً من مراسلاته إليهم ومدائحهم فيهم والكتاب محفوظ بدار الكتب المصرية^(٦).

(١) هو: تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله المالكي السكندري، الصوفي، (٦٥٨-٧٠٩هـ/١٢٦٠-١٣٠٩م)، (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص١٢٠، والنجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج٨، ص٢٨٠).

(٢) القلقشندي: مصدر سابق، ج٤، ص٣٣٤.

(٣) المصدر السابق، ج١٤، ص٣٣٥.

(٤) هو: محمد بن محمد بن محمد بن الحسين الخزامي الفارقي، أبوبكر جمال الدين (٦٨٦-٧٦٨هـ/١٢٨٧-١٣٦٦م)، أديب وشاعر، (السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣٢٩، وابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٣٢٢، وابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢٢١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٩٥، الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٣٨).

(٥) هو: عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نباتة السعدي، (٣٢٧-٤٠٥هـ/٩٣٨-١٠١٥م)، من شعراء سيف الدولة الحمداني، (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٢٩٥، الزركلي: الأعلام، م٤، ص٢٤).

(٦) سليم، محمود رزق: المرجع سابق، ص٣٩.

٩ب- الأهاجي: ضرب آخر من الرسائل لكنها تدور حول هجاء المرسل إليه أو أحد الناس وذكر معانيبه. والأهاجي نادرة الوجود في أدب العصر المملوكي، فلزين الدين بن الوردي المتوفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٩٢م، أهجية مقزعة في القاضي الرباحي^(١) الذي كان قاضي المالكية في حلب، وأساء فيها إلى كثير من الناس^(٢). ومن أبرع الأهاجي ما كتبه القاضي محي الدين بن عبد الظاهر المنشئ البارع المشهور عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور الكناني، المعروف بابن النقيب، يهجو رجلاً كان قد عابه في مجلس ابن النقيب. وهي رسالة قوية الإسلوب نسجها على نمط من رسالتي ابن زيدون: "الجدلية والهزلية" إذ حشد فيها كثيراً من الحكم والأمثال والأبيات السائرة للأقوال المشهورة حشداً مناسباً، حتى بدت الرسالة كأنها من تأليفه هو، لا من تأليف غيره، ودلت على كثرة اطلاعه وكثافة محفوظه وقوة أدبه^(٣).

هذا ومن أطرف الأهاجي ما سيق مساق التقاريط، فكان تقريضاً في ظاهر أمره، وهجاء في حقيقته، فيدل ذلك على براعة أدبية ودقة ذوقية بالغة - ومن ذلك ما كتبه بدر الدين بن الدماميني^(٤) يقرظ بن نافع الفقاعي^(٥)؛ وكان قد كتب سيرة الملك المؤيد شيخ، ولم يوفق في كتابتها، وطلب إلى الدماميني أن يقرظها، فأحرجه بذلك. ثم تخلص الدماميني بأن كتب تقريضاً مبهماً استخدم فيه عنصر الإبهام، وهو لون بديعي شبيه بالتورية يجمع اللفظ فيه بين غرضين متضادين هما المدح والهجاء، ويوري بأحدهما عن الآخر^(٦).

(١) لم أفق له على ترجمة..

(٢) حمزة، عبد اللطيف (دكتور): مرجع سابق، هامش، ص ٢٩٥.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٣١.

(٤) هو: محمد بن أبي بكر عمر بن أبي بكر المخزومي ٧٦٣-٨٢٧هـ/١٣٦٢-١٤٢٤م. عالم بالشريعة وفنون الأدب ولد بقرية دمامين في صعيد مصر، له كتاب سماه (الحرقة للخرقة)، (معلوف: المنجد، ص ٢٨٧).

(٥) لم أفق له على ترجمة..

(٦) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣٤٥.

١٠/ **النقد:-** النقد هو وضع المقاييس وتحرير القواعد الذوقية للشعر والنثر، وانقسم علماء العصر المملوكي وأدباؤه لقسمين فيه^(١):

١٠-أ- النقد البلاغي: في تحرير القواعد والتعاريف بصورة أقرب للعلم منها للأدب، ومنهم الخطيب جلال الدين القزويني في كتابه "تلخيص المفتاح".

١٠-ب- النقد الأدبي: ورواده كانوا أحراراً في نقدهم، ولا سلطان عليهم إلا ذوقهم وإدراكهم، في تناولهم للقواعد والتعاريف، في سعيهم للموازنة بين معنى وآخر ولبيان الفروق بينهما، مثل: شهاب الدين الحلبي ٦٤٤-٧٢٥هـ/١٢٤٧-١٣٢٥م^(٢) في كتابه "حسن التوسل" وتقي الدين بن حجة في كتابه "خزانة الأدب وأساليبها أكثر استرسالاً وأقل ملازمة للبديع. ومن بينهم تاج الدين السبكي في كتابه "طبقات الشافعية"، وجمال الدين بن نباتة الذي ألف كتابه "خبر الشعير" نقداً لشعر صلاح الدين الصفدي وبياناً لسرقاته منه^(٣).

هـ - التدوين التاريخي :-

علم التاريخ: يعد في كثير من مظاهره فناً من فنون الأدب، لذلك ظهرت في الكتب التاريخية النزعات الأدبية أكثر مما في غيره، بما فيها من زخارف بديعية خاصة السجع والجناس والطباق. ويكثر هذا عند كتاب تراجم الأعلام. يتضح في "الدرر الكامنة" لابن حجر العسقلاني، و"الضوء اللامع" للسخاوي، و"حسن

(١) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ٩٢-٩٦.

(٢) هو: شهاب الدين أبو الثناء، محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحنبلي الدمشقي (٦٤٤-٧٢٥هـ/١٢٤٦-١٣٢٥م)، عالم وقاضي وحافظ وأديب بارع في الشعر والنثر، ولد في دمشق وحصل على العلم من شيوخ عصره، (ابن حجر: الدرر، ج ٤، ص ٣٢٤، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٢٠، الزركلي: الأعلام، م ٧، ص ١٧٢).

(٣) خزانة الأدب: إحدى مجاميع الأدب الكبرى وأعلى موسوعة في علوم اللغة وآدابها كما قال محققه عبد السلام هرون، وهي غير خزانة الأدب لأبي بكر بن تقي الدين حجة الله الحلبي، طبعة بولاق، سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م، سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ٩٤.

المحاضرة" للسيوطي، إلا أن الغالب في كتب التاريخ الإسلوب المرسل غير المقيد^(١).

إلا أننا نجد أن كتاب "عجائب المقدور في نوائب تيمور" لشهاب الدين بن عربشاه، وهو في تاريخ تيمور لنك التنري وحروبه ودولته، كله مسجوع بتكلف، محشو بألوان البديع دون ضرورة ملئ بالمبالغات^(٢).

من كتب التاريخ: هنالك مجموعات قيمة من كتب التاريخ المختلفة، فمنها في التاريخ العام، أو تاريخ الأعلام أو السيرة النبوية أو تاريخ المدن والأمصار والسير، أو تاريخ مصر والقاهرة، أو غير ذلك^(٣). ومن هؤلاء- (ابن خلكان توفي ٦٨١هـ/ ١٣٨٤م)^(٤) صاحب كتاب وفيات الأعيان و(الأدفي المتوفي ٧٤٩هـ/ ١٣١٣م)^(٥) في التراجم صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع لأسماء أدباء الصعيد و(النويري ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)^(٦)، صاحب نهاية الأرب، و(الصفدي ٧٦٤هـ/ ١٣٦٤م) وكتابه الوافي بالوفيات، و(ابن خلدون توفي ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) في المقدمة المبتدأ والخبر و(المقريزي المتوفي ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) و(ابن إياس المصري ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)، وابن فضل الله

(١) حمزة، عبد اللطيف: مرجع سابق، ص ٢٨٨-٢٩٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤٣٩.

(٣) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ١٧-١٨.

(٤) ابن خلكان: هو أحمد البرمكي، مؤرخ ولد في أربيل وتعلم في حلب ودمشق والقاهرة، قاضي القضاة (٦٥٩-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) وضع في دمشق، كتابه (وفيات الاعيان وأنباء الزمان) وهو معجم تاريخي شهير، (معلوف: مصدر سابق، ص ١٠، ودائرة المعارف الإسلامية العدد الثالث المجلد الأول، ص ١٥٧).

(٥) هو: كمال الدين جعفر بن ثعلب بن جعفر الادفوي الشافعي، ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م كان فقيهاً ولغوياً، وهو من كتب التراجم، له "البدور السافر" و "تحفة المسافر" في تراجم مشاهير القرن السابع، = والطالع السعيد، الجامع لأسماء نجباء الصعيد، (معلوف: مصدر سابق، ص ٢٩، وحمزه، عبد اللطيف: الحركة الفكرية، ص ٣٠٧-٣٠٨).

(٦) النويري: أديب مصري ولد ونشأ وتوفي بالقاهرة، عمل في خدمة المماليك، (معلوف: مصدر سابق، ص ٧١٩).

العمرى توفي (٧٤٩هـ/١٣٣٢م)، وابن شداد صاحب (النوادر السلطانية). ومن النابهين في غير ما سلف: (ابن النفيس الطبيب ٦٨٧هـ/١٢٨٨م) و(الأصفهاني) في المنطق والأصول و(الباجي ٦٨٨هـ/١٢٨٩م) و(المغربي رئيس أطباء القاهرة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) و(محيي الدين الكافيجي، إمام المعقولات ٨٧٩هـ/١٤٧٤م) ^(١).

هـ-١- كتب المختصرات التاريخية:

هناك ظاهرة لافتة في عملية التدوين التاريخي في هذا العصر أدت إلى غزارة الإنتاج وهي شيوع اختصار المؤلفات التاريخية، لأن حاجة العلماء والأمراء قد اشتدت إلى المعلومات السريعة المكثفة، وكان بعض المؤرخين يختصر تاريخه بنفسه ولعل المسعودي ^(٢) المتوفي سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م، كان من أقدم هؤلاء فقد ألف كتابه "أخبار الزمان" ^(٣) ثلاثين مجلداً، ثم اختصره في أربعة أجزاء هي "مروج الذهب" ثم عاد المسعودي واختصر "المروج" في مجلد واحد باسم "النتبيه

(١) هو: محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي محيي الدين، (ابن خلكان: ج١، ص٦٨، والسخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٢٥٩، وابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٢٦، وحسن المحاضرة، ج١، ص٣١٧، والزركلي: الأعلام، ج٦، ص١٥٠).

(٢) هو: أبو الحسن علي بن الحسين، المعروف بالمسعودي، ت ٦٤٦هـ/٩٥٧م أحد أعلام المؤرخين في القرن الرابع الهجري، وقد ضاعت معظم مؤلفاته ولم يصل إلينا إلا القليل، مثل "مروج الذهب ومعادن الجوهر" و"النتبيه والإشراف". (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص٥٦٩، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٣، ص٤٥٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٣١٥).

(٣) لم يبق من كتاب أخبار الزمان إلا الجزء الأول والذي طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م في حين طبع "مروج الذهب" مبكراً، وترجم إلى الفرنسية وطبع مع النص العربي في تسعة أجزاء فيما بين سنتي ١٢٧٨هـ-١٢٨٨هـ/١٨٦١-١٨٧١م، وطبع "النتبيه والإشراف" في لندن سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م، إسماعيل، أحمد عبد الفتاح: رسالة دكتوراه عن التأليف، مرجع سابق، ص٩٣.

والإشراف" وكذلك فعل الجوزي^(١) المتوفي سنة ٥٩٠هـ/١٢٠٠م، حيث اختصر كتابه المنتظم في "شذور العقود".

وفي عصر المماليك البحرية عمد كثير من المؤلفين على بعض المدونات التاريخية الكبرى فاختصروها، مثل ابن منظور المصري المتوفي سنة ٧١١هـ/١٣١١م، ومن أشهر كتبه التي عمل فيها قلم الاختصار "مختار الأغاني في الأخبار والتهاني" و"مختصر تاريخ مدينة دمشق" ومختصر "ذيل تاريخ بغداد للتلسماني"^(٢). كما اختصر بيبرس المنصوري المتوفي سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م كتابه "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" تحت عنوان "مختار الأخبار"^(٣).

وقام ابن أبيك الداوداري بوضع تاريخ عام مختصر تحت عنوان "درر التيجان ودرر تواريخ الزمان" إلى جانب تاريخه الكبير "كنز الدرر وجماع الغرر" وهو تاريخ عام في تسع مجلدات^(٤). كما أن عبد الوهاب السبكي المتوفي سنة ٧٧١هـ/١٣٩٦م، وضع ثلاثة مؤلفات في تراجم رجال الشافعية هي "طبقات الشافعية الكبرى"، و"الطبقات الوسطى" وهي مختصر الكبرى، و"الطبقات الصغرى" التي جاء في آخرها: هذا أخي المختصر الأصغر في كتابنا طبقات الشافعيين، وهو مع التناهي في الاختصار والاقتصار جليل الفائدة، جميل العائدة ولا يقدر على جمعه إلا من جمع من كتابنا الكبير والأوسط^(٥).

(١) هو: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، المعروف بأبي الفرج بن الجوزي، أحد أئمة الحديث والتاريخ، (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٤٠).

(٢) المقرئزي: الأدب الكبير، ج ٧، ص ٢٨٦، والصفدي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٥٦.

(٣) شاكر، مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، لبنان، دار العلم للملايين ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ج ٣، ص ٢١.

(٤) طبع في تسع مجلدات ضمن منشورات المعهد الألماني للآثار ولم يطبع المختصر بعد، وتوجد منه نسخة خطية في ٦٧٦ ورقة في مكتبة أحمد خان باسطنبول صورت منها نسخة بدار الكتب المصرية رقم (٢٦٠٥)، (إسماعيل، أحمد عبد الفتاح: رسالة دكتوراه، مرجع سابق، ص ٩٥).

(٥) جرجي زيدان: مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٠٧ - ٢٠٨، وشاكر، مصطفى: مرجع سابق، ج ٣، ص ٢١٨.

كثير من المختصرات لم يتقيد مختصروها بمنهج الكتاب الاصلي في ترتيب تراجمه وتهذيب مادته بل أضافوا إليه فائدة عظيمة مثال: كتاب ابن منظور "مختار الأغاني في الأخبار والتهاني" وهو مختصر لكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، فقد التزم فيه ابن منظور الترتيب الهجائي للتراجم، كما أفرد فيه ترجمة ضافية للحسن بن هاني المعروف بأبي نواس، استغرقت معظم الجزء الثالث من كتابه وهذه الترجمة خلت منها نسخ كتاب "الأغاني"^(١).

هـ-٢- كتب الذيل:-

لقد شاعت كتب الذيل التي ارتبطت بكتب التراجم، حيث يعتمد أحد المؤرخين إلى أحد الكتب التاريخية المعروفة والتي ألّفت في فترة سابقة عليه، فيضع لها ذيلاً يستكمل به التاريخ من الفترة التي توقف عندها المؤلف الأصلي مما أدى إلى تضخيم العمل التاريخي بالذيل وذيول الذيل. ولعل تاريخ الطبري من أقدم المؤلفات التي تسابق المؤرخون على الذيل عليه ومن أشهرها "صلة تاريخ الطبري" لعريب بن سعيد^(٢). ونال "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي عناية المؤرخين في التذييل عليه^(٣).

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص٥.

(٢) ترجم له عبد الملك المراكشي في كتاب "الذيل والتكملة" لكتابي "الموصل والصلة، ط ج٥، ص١٤١ - ١٤٢، فقال: "القرطبي كان أديباً شاعراً مطبوعاً تاريخياً تام المعرفة بالأخبار ... له مصنفات منها: تاريخه الذي اختصره من تاريخ أبي جعفر الطبري، وأضاف إليه أخبار أفريقيا والأندلس، ولم يذكر المراكشي سنة وفاته، (أحمد عبد الفتاح اسماعيل: رسالة دكتوراه، مرجع سابق، ص٩٧).

(٣) هو: أحمد بن ثابت بن أحمد المعروف بالخطيب البغدادي، من أشهر الحفاظ والمؤرخين، رحل كثيراً في طلب العلم، وصنف مؤلفات عظيمة في التاريخ والحديث، وتوفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، (الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج١٥، ص٥٦٩، والسبكي: طبقات الشافعية، مصدر سابق، ج٤، ص٢٩).

و- الشعر :-

كانت مهنة الشعر خاسرة في سوق العلم والعمل، إذ كانت الحياة في عصر المماليك إما حرب وقتال وإما عمل وسجال، وإن كان الملوك أعاجم، وأمراء الدولة كذلك، فإن عامة الناس وخاصتهم انشغل أكثرهم بكسب العيش، وتحصيل العلم، ورغم أن الشعر لم يجد مكانة في الأسماع ولا مجلبة للمال، إلا أن بعض الشعراء أبدعوا في تشخيص حالهم وعكس واقعهم، منهم من اغتنم فرصة الانتصار في المعارك لينثر درراً في الحماسة والمديح^(١).

والشعر، لم يكن قطّ لعبة أو حرفة مورست بمهارة، وبراعة وتفنن كلامي من الخارج. بل كان إلى حد بعيد، أحد أبرز منارات العصر مواكبة ونقلًا وتأريخاً لشتى الجوانب والمرافق، هزت أصحابه الانتصارات العظيمة، فبادلوها بشعر إن لم يكن عظيماً، فقد تمكن من القلوب وحاذ الرضا، أما الجانب الديني القومي فقد أولاه الشعراء وملوكهم وسلطينهم كل ما تجود به قرائحهم من حماسة وتضحية في سبيل الجهاد، يدفعهم إلى ذلك أيضاً شعورهم بالمسؤولية العظمى الملقاة على عواتقهم، إذ أنهم كانوا صوت الحق ولسان الخلق. وهكذا نستطيع أن نسجل للشعر فضله. فقد كان حقاً صورة صادقة عن الملاحم الإسلامية والأحداث الكبرى ضد الفرنجة والتتار، لأنه أدى واجبه كاملاً سواء أكان في الاستثارة والتحريض، أو في وصف الانتصارات والفتوح الكبرى، أو في ترجية البشائر والتهاني^(٢)، وها هو ابن نبأته المصري، أمير الشعراء في عصره، أخذ يزرع الأرض من مصر إلى الشام طلباً للرزق شاكياً بؤسه وشظف عيشه مصوراً حاله يقول^(٣):-

لا عار في أدبي إن لم ينل رتباً وإنما العار في دهري وفي بلدي
هذا كلامي وذا حظي فيا عجباً مني لثروة لفظ وافتقار يدي

(١) إسماعيل، أحمد عبد الفتاح: رسالة دكتوراه، مرجع سابق، ص ٩٥.

(٢) ضيف، شوقي (دكتور) عن هذا العصر، في مجلة "المجلة" المصرية عدد شباط سنة ١٩٦٧م، ص ٦٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٥٤.

وقد عمد بعض الشعراء لامتهان حرف دنيا سداً للحاجة وحفظاً للنفس، مثال الشاعر جمال الدين أبو الحسن الجزار ٦٧٩هـ/١٢٩٧م^(١) الذي احترف الجزارة، وهو أحد كبار شعراء زمانه، وصفه ابن تغري بردي فقال: "كان من محاسن الدنيا وله نوارد مستظرفة ومداعبات ومفاوضات مع شعراء عصره"^(٢). ومن أشعاره في شكوى الحياة، ما ذكره من جهده المتواصل في سبيل الآخرين ولكن من غير مقابل يسد حاجة أو يذهب همماً.

أكلف نفسي كل يوم و ليلة هموماً على من لا أفوز بخيره
كما سودّ القصّار^(٣) بالشمس وجهه ليجهد في تبيض أثواب غيره
ومن أطرف ما أنشد الجزار:-

كيف لا أشكر الجزارة ماعشت حافظاً وأرفض الأدابا
وبها صارت الكلاب تروجوني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ومن هؤلاء الشعراء من تخرج في الفقه فدلّف إلى القضاء، كابن دقيق العيد الذي كان أيضاً من كبار علماء الأصول المجتهدين، فكان - رضي الله عنه - بصيراً بعلل المنقول، خبيراً بعلل المعقول. وكأبن حجر العسقلاني، ومنهم من اصطنع الكتابة، وسلك في دواوين الإنشاء كابن حجة، والقلقشندي، ومنهم من امتنن الوراقه كسراج الدين الوراق، ومنهم من اتخذ صناعة الكحل كابن دانيال الموصللي^(٤).

وعلى الرغم من تضافر الظروف التي ساهمت في تأخر الشعر عن غيره من فنون الأدب الأخرى، إلا أن الكثير من القصائد كانت جيدة جزلة العبارة، مليحة

(١) الشاعر جمال الدين أبو الحسن الجزار (٦٠١-٦٧٩هـ/١٢٠٤-١٢٨٠م) وهو أحد كبار الشعراء في زمانه، وصفه ابن تغري بردي فقال: "كان من محاسن الدنيا، وله نوارد مستظرفة ومداعبات ومفاوضات مع شعراء عصره؛ (ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج٧، ص٣٤٦).

(٢) ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٧، ص٣٤٥.

(٣) القصّار: محور ومبيض الثياب (فارسية)، (معلوف: المنجد، ص٦٣٣).

(٤) سليم، محمود رزق: الأدب العربي، ص٦٢.

الإشارة، جديدة في المعاني المبتكرة والتعبير الدقيقة الدلالة، تنم عن العاطفة صادقة التصوير. وترجع أسباب ذلك إلى: - الموهبة الفطرية لدى الشعراء، والتي تكمن في نفوسهم كمون العطر في الزهور^(١).

كما ظهرت روح النقد الاجتماعي في هذا العصر بشكل كبير، فقد كان الشاعر البويصري، شرف الدين محمد بن سعيد المتوفي سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، الذي زاع صيته ناقدًا بارعاً، ومن شعره النقدي المسؤول، أنقل بعض ما أورده الصلاح خليل الصفي في كتابه القيم "الوافي بالوفيات" حول كتاب عصره من "مباشري الشرقية"^(٢):

أمولاي الوزير غفلت عما يتم من اللئام الكاتينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ولا شربوا خمور الأندرينا
وقد طلعت لبعضهم ذقون ولكن بعدما نتفوا الذقونا
تفقهت القضاة فخان كل أمانته وسموه الأميننا^(٣)

و-١- العلاقات الشخصية:

وهي العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين الشعراء من مودة وصدقة، ويتبادلون بينهم قصائد الإخوانيات، وهذه العلاقة أوجدت لديهم موضوعاً متجدداً لعرض الشعر في حالة التهنية أو العزاء أو التشوق والحنين، أو تبادل المدح والعتاب، أو الإستدعاء والاستهداء، والشكر والشكوى، فضلاً عن المطارحات والمناقضات والمعارضات الشعرية، والمفاكهات، أو الملاغزة والمحاجاه^(٤). ومن ذلك ما كان

(١) سليم، المرجع السابق، ص ٦٢.

(٢) الصفي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٠٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٨-١٠٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشي، ج ١٤، ص ١٨٤.

بين أبي الحسين الجزار والسراج الوراق في مطارحة الشعر. وما بين حصن الدين الحلي وجمال الدين بن نباته الذين تقارضا الثناء، وما بين أبي جبر العسقلاني، والبدر العيني الذين تبادلوا المفاكهة والتورية، وبين الناصر البارزي، وتقي الدين بدر ابن حجة والأول دفع الثاني إلى نظم بديعته^(١).

و-٢- المنافسة الأدبية:

وتعتمد على الموهبة والغيرة والرغبة في الظهور وحب السبق وقطع الفراغ في الكسب الأدبي، وقد وقع بين شعراء مصر والشام كثير من المطارحات والمعارضات والألغاز الشعرية وتبادل الملاحاة والأهاجي، ومثال ذلك ما وقع بين ابن نباتة والصفدي، حيث كان الصفدي يسطو على بعض الجديد من شعر ابن نباتة، فإذا نظم ابن نباتة أبياتاً تلقفها الصفدي وغير في بعض ألفاظها أو معناها ونظمها لنفسه، وبسبب ذلك تبادل الإثتان الهجاء المر، ثم ألف ابن نباتة كتابه "خبز الشعير" وبين فيه سرقات الصفدي^(٢). وروى ابن حجر في الدرر: أن حسن بن محمد الأصفوني الشاعر المتوفي سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٣م، كانت بينه وبين معاصره نبيه الدين بن عبد المنعم مواجعات ومحاورات ومراجعات حتى أن أهل عصرهم شبهوهما بالجزار والوراق^(٣).

و-٣- الولع بالبديع:

اهتم أدباء عصر المماليك بالبديع حتى أصبح هو البلاغة في نظرهم، فكان له أثر بالغ في إذكاء الروح الشعرية والمنافسة الأدبية، حيث عمد الشعراء إلى تراكيب معاني الجناس والطباق والمقابلة والتورية وغيرها مما قد يصرف الشاعر عن

(١) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٢.

(٣) ابن حجر: الدرر، ج ٢، ص ٤٢٦، القلقشندي: صبح الأعشي، ج ١٤، ص ١٨٧.

الفكرة الأساسية. وكان تشجيع بعض السلاطين والأمراء والوزراء للشعراء كبيراً، وإن جاء ذلك في حوادث فردية لا تمثل سمة العصر أو سياسة عامة، كما كان الشأن في العصور السابقة. ومن أبرز تلك الحوادث في هذا العصر ما لقيه ابن نباته وصفي الدين الحلبي من الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، المعروف بأبي الفداء وقد كان مولعاً بالأدب وكذلك الملك الناصر حسن بن قلاوون، فقد كان يحب أهل الأدب والشعر^(١).

ز- الرثاء:-

إن من أجمل الفنون التي برزت في هذه الحقبة الزمنية هو فن (الرثاء) وبالتحديد لون (رثاء المدن). وهو فن في غاية الروعة والصدق يفوح من بين سطوره عبق الحزن والأسى، وتتساقط من بين كلماته دموع الفاقد لأعز ما يملك. فالشرق عندما يرثي ترتسم الأصالة ممتزجةً بإبداع العربي والشرقي. إنه عندما يرثي أرضه، فإنه يرثي عرضه لأن أرض العربي تعني الشرف؛ لذلك نراه يسح كلماته دموعاً على وجه الصفحات أشد ما يكون الرفض في التفريط بشبر من أرضه. ومن أعنف ما ألمَّ بالشرق في عهد المماليك هو الغزو التتري بقيادة هولاكو على بغداد^(٢). بغداد هذه المدينة الشرقية المليئة بالأحزان، التي امتزجت دموعها بالأنهار والشطآن، هذه المدينة الأصيلة التي قاومت جيوش الطغیان. إنها بغداد التي رثاها شمس الدين الكوفي بقصائد تعد من أروع أنواع الرثاء الرومانسي منها قوله يرثيها^(٣):

إن لم تقرح أدمعي أجفاني

من بعد بعدكم فما أجفاني

(١) سليم، محمود رزق: المرجع السابق، ص ٦٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٤٥.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٤٢٠ - ٤٣٣.

إنسان عيني مذ تتساءت داركم
ما راقه نظره إلى إنسان
ياليتني قد مت يوم فراقكم
ولساعة التوديع لا أحياني
مالي وللأيام شئت شمله
شملي، وخلاني بلا خلاني
ما للمنازل أصبحت لا أهلها
أهلي ولا جيرانها جيرانني
وحياتكم ما حلها من بعد رحيلكم
غير البلى والهدم و النيران
ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم
ووقفت فيها وقفة الحيران
وسألتها لكن بغير تكم
فتكلمت لكن بغير لسان
ناديتها: يا دار ما فعل الألى
كانوا هم الأوطار في الأوطان
أين الذين عهدتهم ولعزهم

ذلاً تـخـر معـاقد التـيجـان

وهي قصيدة طويلة هذه بعض أبياتها، وفيها ركز الشاعر على بكاء أهلها أكثر من بكاء الآثار الموجودة في المدينة، ففيها أصحابه الذين عاش معهم على هذه الأرض ولا أثر لهم اليوم سوى ذكراهم تحاصره في أرجاء هذه المدينة. ولعل هذا ما يفسر هيمنة حزنه الذاتي على أبيات القصيدة. كما أن الأسلوب الإنشائي طغى على الأسلوب الخبري في أبياته. وهذا ما نحتاجه عند الحديث عن العاطفة^(١).

أما عن القافية المكسورة التي اختارها شمس الدين فإن وقعها على النفس توحى بانكساره النفسي. وبهذه الأبيات قدم لنا شمس الدين طريقة جديدة في رثاء المدن لم تكن موجودة في الشعر العربي من قبل يمكن أن نسميها الرثاء الرومانسي^(٢). وفي الحقيقة أن هذه الأبيات لم تكن فقط لمجرد الترويح عن هذه النفس المتعبة المحملة بأحزان وجروح وهموم هذه المعارك. وإنما كانت تستنهض الهمم وتقوي العزائم وتبعث الحماس كي تتحول هذه الدموع من بين هذه السطور إلى جيوش من المحررين لأوطانهم. وما زال هذا الغرض مسيطراً على أدباء الأمة ومفكرها إلى الآن. وكأنه كتب علينا الحزن^(٣).

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٣٨.

(٣) سليم، محمود رزق: مرجع سابق، ص ٦٦.

مقدمة

إن المسلمين في عهدهم الأول اهتموا بالعلوم النقلية وهي التي كانت تعرف أيضاً بالعلوم الشرعية، وقد ارتبطت بها علوم أخرى كالنحو والأدب واللغة والتي عرفت عند البعض باسم العلوم اللسانية^(١).

أولاً: العلوم الدينية

إن الدين دائماً يكون ركناً أساسياً في بناء المجتمع ودعمه، حتى قال بعضهم: إن الدين في المجتمع شبيه بالأسمنت الذي يربط أجزاء البناء. وقد درج بعض الدارسين على وصف العصر المملوكي بإنحطاط مستوى الحياة الأدبية والثقافة الدينية، متغافلين ذكر المفكرين والعلماء والأدباء الذين تباهاي بأسمائهم كتب الأعلام والتراجم، ومتجاهلين ما أنتجوه من موسوعات علمية وأدبية، تشغل حيزاً كبيراً في مكتبة التراث الإسلامي وأرجع الكثير منهم الانحطاط والتخلف إلى عدة أسباب أهمها في رأيهم - جهل الأمراء والسلاطين المماليك باللغة العربية، وعدم تشجيعهم لعلماء المسلمين وأدبائهم^(٢).

وهذا الموقف يجافي الحقيقة فكيف يجهل السلاطين اللغة العربية ويبقونها لغة رسمية للدولة، وقد اهتموا بالتعليم وأنشأوا المدارس، وحرصوا على علوم اللغة والقرآن والسنة، ثم العلوم العسكرية وفنون القتال، وقد أشرنا لأسماء بعض العلماء المماليك البارزين أمثال ابن إياس، وابن تغري بردي، وابن دقماق، وابن شاهين...^(٣) وكثير من البلدان العربية استبعدت تدريس عهد المماليك من مناهجها بحجة ركوده وانحطاطه.

(١) زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة، ١٩٠٦م، ج٣، ص ٧٤.

(٢) الجمال، أحمد صادق: مرجع سابق، ص ٣٥، وقاسم، عبده: عصر السلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ١٧٠، و الريداوي، محمود: ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً، طبعة دار قتيبة، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٣٤.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج٣، ص ٣٧٢.

إلا أن مصر في عصر المماليك قد شهدت في حقيقة الأمر، نشاطاً دينياً منقطع النظير خدمة للسنة. غير أن آثار المذهب الشيعي ظلت باقية وواضحة في عصر المماليك، برغم الجهود التي بذلها سلاطين الأيوبيين من قبلهم في مصر في محاربة الشيعة والتشيع. مثال ذلك ما حدث في بلدة أصفون - القريبة من الأقصر حيث وجدت بها في القرن الثامن الهجري "طائفة من الإسماعيلية والرافضة والإمامية وطائفة من الدرزية والحاكمية"^(١).

ويقول ابن حجر عن أحد أدباء مصر في عصره: "إنه فاضل وأديب ولكنه يميل إلى الرفض"^(٢). وحكى بعض أهالي الصعيد أيام أبي المحاسن: "أن غالب مزارعي بلدنا أشرافاً علوية"^(٣). وهؤلاء الأشراف ظلوا موضع رعاية سلاطين المماليك لأنهم من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم^(٤)، فميزوهم بعلامة خضراء في عمامتهم تشريفاً لهم^(٥)، وكان معظمهم شيعة زيدية يجاهرون بذلك^(٦). وحدث أكثر من مرة في عصر المماليك أن ثار بالقاهرة جماعة من "السودان والركبدارية والغلمان، يشقون المدينة صائحين "يا آل علي!"^(٧).

ولعل ظهور تيار التشيع بعض الأحيان بهذا الشكل هو الذي حدا بالسلطان بيبرس أن يأمر سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م باتباع المذاهب السنية الأربعة "وتحريم ما عداها"، وأن يأمر ألا يولى قاضٍ ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو

(١) شيخ الربوة الدمشقي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي، توفي عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٢٣٣، عاشور، عبد الفتاح: المجتمع المصري، ص ١٧٠.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤١٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٣٩.

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١١، ص ١٦٢، وزبترشتين: مصدر سابق، ص ٢١٧.

(٥) العيني: عقد الجمان، ص ٧٣٣، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٢١٦.

(٦) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٨٦.

(٧) علي، عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية، دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المماليك، رسالة لم تطبع، المجلد الأول، جامعة القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٢٩، وعاشور، سعيد، مرجع سابق، ص ١٧١.

الإمامة أو التدريس " ما لم يكن مقلداً لأحد المذاهب الأربعة"، وقد أصدر ابن تيمية فتوى وصف فيها بعض طوائف الشيعة بأنهم أكفر من اليهود والنصارى، وأفشى بالقضاء عليهم ومحاربتهم^(١).

الخلافة العباسية في القاهرة:-

ولما استتب أمر السلطنة للظاهر بيبرس، رأى أن يقيم خلافة عباسية ثانية بالديار المصرية، فقام باستقدام المستنصر أبو القاسم بن الخليفة الظاهر سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وأثبت نسبه وبايعه بالخلافة، واصطحب معه قضاة الشرع وأمراء الدولة في حفل عظيم. ومن ثم استمد بيبرس منه الشرعية. واستمرت الخلافة قائمة بمصر موروثاً في البيت العباسي حتى ٩٢٣هـ/١٥١٧م، إذ زالت على يد العثمانيين الذين أرغموا آخر الخلفاء العباسيين وهو المتوكل على الله، على التنازل عن الخلافة للسلطانهم سليم الأول، ونقلوها إلى عاصمة ملكهم^(٢).

ظل الخليفة العباسي منذ إحياء الخلافة العباسية بمصر سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، رمزاً للشرعية الدينية فقط ليس "في خلافته أمر ولا نهى، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين" وذلك أن الذي استقر عليه حال الخلفاء العباسيين بالديار المصرية، أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان، ويكتب له عنه عهداً بالسلطنة، ويُدعى له قبل السلطان على المنابر، وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شؤون الدولة، في حين يقنع الخليفة بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد^(٣). وكثيراً ما لجأ بعض سلاطين المماليك إلى تحديد إقامة الخليفة، فيظل في بيته بعيداً عن الاختلاط بالناس، كما فعل الظاهر بيبرس مع الخليفة الحاكم بأمر

(١) المقريزي: الخطط، ج٤، ص ١٦١.

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص ١٦١.

(٣) القلقشندي: مصدر سابق، ج٣، ص ٢٧٥.

الله العباسي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، وكما فعل الناصر محمد مع الخليفة المستكفي بالله سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م^(١).

والخلافة العباسية الثانية، وإن كانت هزيلة ضعيفة بجانب سلطان البلاد - تعتبر كسباً أدبياً لمصر، ورمزاً روحياً قوياً اتجهت إليه قلوب المسلمين شرقاً وغرباً، وذلك مما عاون على جعل القاهرة قلباً لأرض الإسلام، ومركزاً للعلوم والأداب الإسلامية، كما كان دافعاً لحكام مصر على تشجيع علماء الدين.

ثانياً: دور المساجد والجوامع :-

كان في مصر العصر المملوكي عدد كبير من المساجد والجوامع، منها ما بني في فترة سابقة لحكم المماليك، وجدد في أيامهم، ومنها ما بني أثناء العهد المملوكي على يد السلاطين والخوندات^(٢). والأمراء والنواب وكبار رجال الدولة، ولم يقتصر هذا الإمعان في بناء المساجد على مصر، فقد جدد الناصر محمد ٧١٨هـ/ ١٣١٨م في دمشق ثلاثة جوامع هي: جامع تنكز^(٣) المشهور به، وجامع كريم الدين، وجامع شمس الدين غربال^(٤). وأهم هذه الجوامع، جامع القلعة والذي أنشأه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م وعمره أحسن عمارة وعمل فيه من الرخام

(١) السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، تاريخ الخلفاء، أمراء المؤمنين القائمين بأمر الدولة، المطبعة الأميرية، ٩١١هـ/ ١٣٥٢م، تحقيق محمد محيي الدين، القاهرة، ١٩٤٤م، ص ٣١٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١١٥.

(٢) خوند: لفظ تركي أو فارسي وأصله خدواند بضم الخاء، بمعنى الأمير أو السيد و يفيد معنى التبجيل والاحترام، ويخاطب به الذكور والإناث على السواء، وكان هذا اللفظ يستعمل لقباً للملوك فقط، أما الملكات الأميرات فكن يلقبن غالباً بلفظ خاتون، (المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٣١، هامش ٨).

(٣) هو: الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري، إشتهر الأشرف خليل، ثم صار من جملة مماليك المنصور لاجين، وصار في دولة الناصر محمد أمير عشرة وصاحبه عندما كان في الكرك، فلما عاد للملك ولأه الناصر نيابة الشام فظل في هذه النيابة ثمانية وعشرين سنة، وقد سار بالناس سيرة حسنة، وعظم أمره عند الناصر محمد، لكن الناصر تغير عليه وأعتقله حيث مات في معتقله بالإسكندرية، سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، (ابن حجر: الدرر، ج ١-٢، ص ٣٠٨-٣١٢).

(٤) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٩، ص ٥٧.

الفاخر الملوّن شيئاً كثيراً. فلما تم بناؤه جلس فيه السلطان وأستدعى جميع المؤذنين بالقاهرة ومصر وسائر الخطباء والقراء، وأمر الخطباء فخطب كل منهم بين يديه، وأقام المؤذنون فأذّنوا، وقرأ القراء، فاختر الخطيب جمال الدين محمد بن الحسن القسطلاني^(١). خطيب جامع عمرو وجعلة خطيباً بهذا الجامع، واختار عشرين مؤذناً رتبهم فيه وجعل به قراء ودرسا وقارئ مصحف^(٢).

وقد كان المسجد في العصر الأيوبي هو المعهد الأول للتعليم الذي ينهض بمعظم أعبائه، حتى كثرت المدارس، فتأثر التدريس بالمساجد، بعد أن اجتذبت المدارس الأيوبية الشيوخ والطلاب بما قدمته لهم من مرتبات وسكن، فتدفقوا عليها والتحقوا بها، وانتقلت قيادة الحياة التعليمية والحركة الفكرية إلى المدارس بعد أن كانت في المساجد^(٣).

ثم لم يلبث أن عادت الحركة التعليمية في المساجد إلى نشاطها السابق بعد أن زادت عناية سلاطين المماليك بالمساجد وأكثروا من تشييدها حتى صارت (أكثر من أن تحصى، وأعز من أن تستقصى، بكل خط منها مسجد أو مساجد، لكل منها إمام راتب ومصلون)^(٤). وأضافوا إليها وظيفة التدريس، حيث نظمت بها الدروس ورتب لها الطلاب والمدرسون على غرار ما هو متبع في المدارس^(٥)، كما رتب الدروس في المساجد الكبرى، مثل جامع عمرو بن العاص، وجامع أحمد بن

(١) محمد بن محمد بن الحسن بن أحمد القسطلاني، ولد سنة ٦٧٣هـ/١٣٧٤م، وسمع من ابن خطب المزه، وصحب المرجاني وحج معه، وولي إمارة جامع مصر، وخطابته مدة طويلة، ثم ولي خطابة جامع القلعة، ومات سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٠٩).

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٢٥، والسلوك، ج ٢، ص ١٨٤.

(٣) عبد العاطي، محمود عبد الغني: مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٦٥.

(٥) من تلك المساجد التي رتبت بها مدارس العلم: الجامع الخطيري الذي بالغ مؤسسة في عمارته، وتأنق في رخامة فجاء من أجل جوامع مصر وأحسنها. وجعل فيه خزانة كتب جلييلة نفيسة، ورتب فيها دروس للفقهاء الشافعية. (المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ١٢٤).

طولون، والجامع الأزهر الذي بلغ عصره الذهبي خلال العصر المملوكي من حيث المكانة العلمية أو الإنتاج الفكري، أو العناية بعمارته والزيادة عليها^(١).

وامتازت الدراسة في المساجد بالحرية التامة، حيث حلقات العلم المتعددة التي تمتلئ بها أروقة المسجد، يختار المدرسون فيها ما يروقه من الكتب في أي فن من الفنون العربية والإسلامية لتدريسها، ويلتف حولهم من يشاء من الطلاب، دون التزام بمدة محددة، فإذا ما أخذوا كفايتهم انتقلوا إلى غيره لسماعه والتلمذة عليه^(٢).

وقد اشتهرت في عصر دولة المماليك عدة مساجد شاركت في الحياة التعليمية، وأسهمت إسهاماً وأضحاً في إثراء الحركة الثقافية والفكرية في مصر، واجتذبت أئمة الحديث لعقد حلقاتهم بها مثال:

جامع عمرو بن العاص^(٣) :-

هو أول مسجد أسس بمصر بل في أفريقيا كلها، أقامه عمرو بن العاص في وسط مدينة الفسطاط التي أنشأها عقب إتمامه فتح مصر، وقد أطلق على هذا الجامع المسجد العتيق^(٤). وهو يعد أقدم المعاهد العلمية في مصر، حيث بدأت حلقات العلم تعقد فيه منذ سنة ٣٦هـ/٦٥٦م^(٥)، ولم تكن حلقات على النحو المعروف بل دروس وعظ وفقه، يقصد بها تعليم الناس أصول دينهم وتهذيب أخلاقهم ومداركهم، ثم اتسع نطاق الدريس بالجامع، وازدادت حلقاته مع ظهور المذاهب الفقيه، واتخاذ

(١) عنان، محمد عبد الله: تاريخ الجامع الأزهر، مؤسسة الخانجي، القاهرة ١٩٥٨م، ص ١٢٤.

(٢) عاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٤٥، وسليم، محمود رزق: مرجع سابق، ج ٣، ص ٧٦، و عبد العاطي، عبد الغني: مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٣) انظر الملاحق صورة ص ٣٣٥ و ٣٣٦.

(٤) ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد ايدمير المتوفي ٨٠٩هـ/١٤٠٧م (الانتصار لواسطة عقد الأمصار - طبعة مصورة عن نشرة قولرز - القاهرة ١٨٩٤م، ج ٤، ص ٥٩، والمقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٤٦، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٣٢.

(٥) عبد العاطي، محمود عبد الغني: مرجع سابق، ص ٢١١، وسعيد، إسماعيل علي: مرجع سابق، ص ٢١٠.

كل فريق مكاناً خاصاً به في المسجد لتدريس مذهبه^(١)، حتى جاء الإمام الشافعي إلى مصر سنة ١٩٩هـ/٨١٤م^(٢) ووجد بها ثمان زوايا للتدريس، فاتخذ لنفسه زاوية للتدريس، عرفت باسمه^(٣) فلما توفي صارت حلقة إلى تلميذه يوسف بن يحيى البوطي، ثم تعددت الحلقات العلمية بالمسجد، حتى صار مركزاً للعلم وملتقى العلماء والفقهاء، ومقصداً للطلاب الذين يفدون إليه لدراسة الفقه والحديث واللغة وغيرها^(٤). وقد نال المسجد اهتمام ولاية مصر، فزادوا في مساحته وعنوا بعمارته وبنائه، وبالغ الأمراء الإخشيدون في العناية به، فنقشوا أكثر أعمدته، وطوقت بأطواق الفضة^(٥).

كان المسجد العتيق في عهد الفاطميين قد بلغ مبلغاً كبيراً من الروعة والبهاء فوصف بأنه قائم على أربعمئة عمود من الرخام، والجدار الذي عليه المحراب مغطى بألواح الرخام الأبيض، وأنه يضاء كل ليلة بأكثر من مئة قنديل، ولا يقل من فيه في أي وقت عن خمسة الاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والمبايعات^(٦).

غير أن المسجد قد خرب عند حريق الفسطاط سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م^(٧)، في أواخر الدولة الفاطمية، فلما آل الحكم إلى صلاح الدين الأيوبي قام بإصلاح

(١) صفي، علي محمد: الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط، الفسطاط وسلسلة تاريخ المصريين -

الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٦٧، والنباهين، علي سالم: مرجع سابق، ص ٢٤٠.

(٢) محمد أبو زهرة: الامام الشافعي حياته وعصره - دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٢١٠.

(٣) المقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٤) صفي، علي محمد: مرجع سابق، ص ٦٧، وضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي، ج ٦، ص ٧١.

(٥) ابن دقماق: مصدر سابق، ج ٤، ص ٦٧، والمقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٤٩، وماهر،

سعاد: مرجع سابق، ج ١، ص ٦٦.

(٦) ناصر خسرو: سفر نامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٧٨، وماهر، سعاد:

مرجع سابق، ج ١، ص ٦٨..

(٧) قرر شاور حرق مصر (الفسطاط) لعرقلة دخول الصليبيين القاهرة، وأمر أهل مصر (الفسطاط)

بترك بيوتهم ومحالهم والانتقال إلى القاهرة التي بناها المعز، وقام بإحراق الفسطاط بأكملها، وظلت =

المسجد، وتجديده سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م، ثم توالى عليه يد الإصلاح والتعمير والتجديد طوال العصر المملوكي، فعني به السلطان بيبرس وجدده سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م ثم تأثر المسجد بالزلزال الذي وقع في مصر سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وتهدمت بعض جدرانه وسقفه، فأصلحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وظل المسجد موضع، عناية سلاطين المماليك وأمراءهم لم تتوقف أيديهم عن إصلاحه وتجديده كلما وقع به ضرر أو حل به خلل في بنائه^(١).

لقد ظل المسجد منذ إنشائه جامعاً تعقد فيه حلقات الدرس التي يتصدرها كبار الفقهاء والمحدثين، وأطلق على أماكن هذه الحلقات بالمسجد اسم (الزاوية) ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن القائمين بالتدريس في جامع عمرو بن العاص من الأئمة وكبار الفقهاء كانوا ينزفون في ركن معين فيجتمع التلاميذ والمريدون حولهم^(٢)، وكانت الزاوية تسمى باسم شيخها أو واقفها، يقول بن سعيد المغربي الذي نزل بمصر أوائل القرن السابع الهجري وزار جامع عمرو بن العاص: "وأستحسننت ما أبصرته فيه من حلق المتصدين لإقراء القرآن والفقهاء والنحو في عدة أماكن منه"^(٣)، ويذكر المقرئزي: (أنه كان بجامع عمرو قبل الوباء الكائن في سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٦م بضع وأربعون حلقة، لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه)^(٤). ولقد تمثل النشاط العلمي بجامع عمرو في عدد كبير من الزوايا التي رتبها الأمراء والأثرياء، وأوقفوا عليها الأموال للإنفاق منها على القائمين بالتدريس، ومن تلك الزوايا:-

=النار مشتعلة فيها ٥٤ يوماً وكان الدخان يري على مسيرة ٣ أيام، وبذلك ضاع كل أثر للفسطاط التي بناها عمرو بن العاص ولم يبق منها إلا جامع عمرو بن العاص (المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٥١).

(١) ابن دقماق: مصدر سابق، ج ٤ ص ١٠٠، والمقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥٤.

(٢) ابن دقماق: مصدر سابق، ج ٤، ص ٦٨-٧١، والمقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥١-٢٥٢،

وأحمد فكري: مساجد القاهرة، ومدارسها، دار المعارف - القاهرة ١٩٦٥/١٩٦٩م، ج ١، ص ٦٦.

(٣) ماهر، سعاد: مرجع سابق، ج ١، ص ٧٢.

(٤) المقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥٥-٢٥٦.

١- الزاوية الخشابية، وكانت تعرف بزاوية الإمام الشافعي، لأنه درّس بها، وقد أوقف عليها العزيز صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر أراضي للإنفاق عليها^(١). وظل يتولى بها التدريس أعيان الفقهاء وكبار العلماء، من أمثال صدر الدين بن المرحل^(٢). ومجد الدين عيسى بن الخشاب^(٣).

٢- الزاوية المجدية:- وكانت بصدر الجامع بجوار المحراب الكبير، رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارثي، وزير الملك الأشرف موسى بن العادل، أخو صلاح الدين الأيوبي، وأوقف عليها أموالاً كثيرة^(٤). وكان كثير من الطلبة يتلقون تعليمهم بها، نظراً لمكانتها العلمية وشهرة شيوخها وكان التدريس بها يعد من المناصب الجليّة^(٥).

٣- الزاوية الصباحية التاجية:- وهذه الزاوية أقامها صاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين بن حنا^(٦). وجعل لها مدرسين: أحدهما مالكي والآخر شافعي، وأوقف

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٦، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٢) هو: الإمام محمد بن عمر العثماني مكي، المعروف بصدر الدين المرحل وابن الوكيل، ولد سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، بدمياط، ونشأ في دمشق، ثم انتقل إلى القاهرة واستقر بها وكان فقيهاً محدثاً ذكياً قوي الحجة، له مناظرات مع ابن تيمية، توفي سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م، ولما بلغت وفاته ابن تيمية قال: أحسن الله عزاء المسلمين فيك يا صدر الدين (السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٩، ص ٢٥٩، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٩، ص ٢٣٣، والسيوطي: مصدر سابق، ج ١، ص ٤١٩).

(٣) هو: الفقيه عيسى بن عمر بن خالد، المعروف بمجد الدين بن الخشاب، تولى الحسبة بالقاهرة ووكالة بيت المال والتدريس بالزاوية الشافعية والمدرسة الناصرية، توفي سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م، السبكي: مصدر سابق، ج ١٠، ص ٣٧٩، ابن حجر: مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٨٥.

(٤) ابن دقماق: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٠٠، والمقريزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥٤.

(٥) المقريزي: مصدر سابق ج ٢، ص ٢٥٦، و محمود، عبد الغني: مرجع سابق، ٢١٢، وماهر، سعاد: مرجع سابق، ج ١، ص ٧٢.

(٦) هو: محمد بن محمد بن علي، المعروف بتاج الدين بن حنا، ولي الوزارة في أيام الناصر محمد بن قلاوون: وكان مع جانب ذلك محدثاً محباً للعلماء مكرماً لهم، توفي سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٨م، (المقريزي: المقفى الكبير، ج ٧، ص ١١١، والصفدي: مصدر سابق، ج ١، ص ٢١٧).

عليها (ربيعاً بظاهر القاهرة يشتمل على فندق به مخازن وحوانيت ومنازل وغير ذلك)^(١).

إلى جانب ذلك كانت هنالك خمس زوايا ذكرها ابن دقماق والمقريزي وأوردا أسماء منشئها، والأوقاف التي حبست عليها، والمدرسين الذين تولوا التدريس بها^(٢). بالإضافة إلى هذه الحركة العلمية التي كانت تقوم بها الزوايا كانت تعقد في المسجد حلقات للعلم يتصدرها الفقهاء والمحدثون، تعطى تطوعاً وحسبة الله تعالى دون انتظار مرتب معلوم. وهذه الحلقات كانت كثيرة، تجاوزت في بعض الأوقات الأربعين حلقة، وقد أشار إلى ذلك المقريزي^(٣).

جامع أحمد بن طولون:

هو من المساجد الجامعة القديمة، أقامه أحمد بن طولون وانتهى من بنائه سنة ٢٦٥هـ/٨٧٩م، وقد بدأت فيه حركة علمية زاهرة، ويذكر المؤرخون أن الربيع بن سليمان المرادي^(٤) الفقيه المعروف وتلميذ الإمام الشافعي كان يلقي دروسه فيه، وأن أحمد بن طولون أعطاه في أول درس ألقاه في جامع، كيساً به ألف دينار^(٥).

إلا أن هذا الجامع قد قل نشاطه في عهد الدولة الفاطمية بعد إنشاء مدينة القاهرة، وإقامة الجامع الأزهر، وبعد إقامة مسجد الحاكم بأمر الله وبدأ شأنه يضمحل حتى

(١) ابن دقماق: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٠٠، والمقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٢) ابن دقماق: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٠٠-١٠١، والزوايا الخمسة -: الزاوية التاجية، والزاوية المعينية، والزاوية العلانية، والزاوية الكمالية، والزاوية الصاحبية الزينية، (المقريزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥٦).

(٣) المقريزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٤) هو: صاحب الشافعي وراوية كتبه، روى عنه كثير من المحدثين مثل أبي داود والنسائي وابن ماجه، توفي سنة ٢٧٠هـ/٨٨٤م، (السبكي: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٣، والذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٢، ص ١٤٨).

(٥) سيدة، إسماعيل الكاشف: أحمد بن طولون - سلسلة أعلام العرب - المؤسسة المصرية للتأليف - القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٣٣.

قيل إنه تشعث وخرب أكثره في أيام الخليفة الفاطمي المنتصر بالله^(١)، وظل كذلك حتى نهض إلى إصلاحه السلطان المملوكي المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وأزال ما فيه من خراب وقام بتبليط المسجد وتبيضة ورتب فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرساً لتفسير القرآن الكريم ودرساً للحديث ودرساً للطب^(٢)، وجعل لهذه الدروس مدرساً لكل طائفة ومعيداً وطلبة ووفر لهم مرتبات سخية، ثم قام الأمير يلْبغا العامري الخاصكي^(٣)، بإقامة درس بالجامع سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م فيه سبعة مدرسين للحنفية وقرر لكل فقيه من الطلبة في الشهر أربعين درهماً^(٤)، وهكذا أعيدت إلى المسجد مكانته العلمية وأستمر في أداء رسالته في العصر المملوكي.

الجامع الأزهر:-

أتم جوهر الصقلي في السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ/٢٢ من يونيو ٩٧١م بناء الجامع الأزهر في مدينة القاهرة ليكون مسجداً جامعاً لمدينة القاهرة العاصمة الجديدة للدولة الفاطمية^(٥)، ولم يكد يمضي أكثر من ثلاث سنوات ونصف على إنشاء المسجد وافتتاحه للصلاة حتى شهد أول درس علمي في صفر ٣٦٥هـ/أكتوبر ٩٧٥م، حين جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني^(٦)، وقرأ وسط جمع حافل مختصر أبيه في فقه الشيعة وكانت هذه الحلقة

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٨، وأحمد فكري: مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٢) ابن الفرات: مصدر سابق، ج ٨، ص ٢٢٩-٢٣٠، المقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٣) هو: يلْبغا العمري الناصري الخاصكي الأتابكي أستاذ الملك الظاهر برقوق، حاجب الحجاب في الديار المصرية، كان من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون: وارتفع شأنه في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين توفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م، (المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ٢٤٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٣٤).

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٩، و محمود، عبد الغني: مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٥) المقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧٣، وعنان، محمد عبد الله: مرجع سابق، ص ٣٥.

(٦) هو: أبو الحسن علي بن محمد بن النعمان القيرواني، تولى قضاء مصر في أواخر عهد المعز لدين الله، وهو أول من لقب بقاضي القضاة في مصر، وظل في منصبه حتى وفاته سنة=

الدراسية الأولى في أواخر عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وتوالت حلقات بني النعمان في الجامع الأزهر، وكانوا من أكابر علماء المغرب الذين اصطفتهم الدولة الفاطمية^(١).

روى المقرئ عن الجامع الأزهر: "أنه حتى عام ٨١٨هـ/١٤١٥م، كان به عدد كبير من الفقراء المنقطعين لطلب العلم بلغ عددهم ٧٥٠ رجل، وهم ما بين عجم وزیالعة، ومن أهل ريف مصر، ومغاربة، ولكل طائفة رواق^(٢) يعرف بهم. وأنه كان عامراً بتلاوة القرآن ومجالس الوعظ وحلق الذكر، وأن الداخل إليه يجد من الأنس بالله والارتياح وترويح للنفس ما لا يجده في غيره، وأن أرباب الأموال صاروا يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة، إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى، وكانت تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلوات لاسيما في المواسم"^(٣).

ظل الجامع الأزهر يتمتع بالرعاية الرسمية من قبل الدولة الفاطمية بإعتباره مسجد الدولة، ومعهداً للقراءة والدراسة، حتى قام صلاح الدين الأيوبي الذي كان يتولي الوزارة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين بإبطال شعائر الدولة الفاطمية وكل رسومها، فقطع اسم العاضد من الخطبة ودعا للخليفة العباسي، ومنع إقامة الجمعة بالجامع الأزهر، وقطع عنه موارده المالية التي كانت تدرها عليه الأوقاف المحبوسة عليه^(٤). وأتبع صلاح الدين ذلك بإنشاء عدد من المدارس السننية لتدريس المذاهب

= ٣٧٤هـ/٩٨٥م، وكان من غلاة الشيعة وأقطابها، (ابن خلكان: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤١٧، وابن حجر: رفع الأصر، ص ٤٠٧).

(١) عنان، محمد عبد الله: مرجع سابق، ص ٤١.

(٢) الرواق: ككتاب وغراب بيت كالفسطاط أو سقف في مقدم البيت، وهو المسطحات المسقوفة بين الأعمدة، (الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ص ٨٠٠، والبهنسي: مصطلحات، ص ٢١٨).

(٣) ضيف، شوقي: مرجع سابق، ج ٥، ص ٨٤-٨٥.

(٤) السيوطي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥٢، وعنان: مرجع سابق، ص ١١٠.

الأربعة، بعيداً عن الأزهر، وأغرى عناية الدولة الأيوبية بهذه المدارس وأغدق الأموال على القائمين عليها، مما شجع الشيوخ والمدرسون وطلاب العلم إلى الانتقال إليها، الأمر الذي أدى في النهاية إلى فتور الإقبال على الأزهر وضعف الحركة العلمية فيه^(١).

على الرغم من جو العزلة الدينية والعلمية الذي عاش فيه الأزهر وفرضته عليه الدولة الأيوبية، فإنه ظل محتفظاً ببعض سمعته العلمية، فقصده بعض كبار العلماء الذين قدموا إلى مصر خلال هذه الفترة، مثل: عبد اللطيف البغدادي^(٢)، الذي قدم مصر سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، على عهد السلطان عثمان بن صلاح الدين الأيوبي، وتولى التدريس بالأزهر. وظلت صلاة الجمعة معطلة بالجامع الأزهر نحو مائة عام من سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م إلى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، حتى سعى الأمير عز الدين أيدمر الحلي نائب السلطنة في إعادة صلاة الجمعة إلى المسجد، ونجح في إقناع السلطان الظاهر بيبرس في الاقدام على تجديد الأزهر وتبرع إلى جانب ما قرره السلطان بمبالغ كبيرة من امواله، وقام على عمارة الأزهر وتجميله وتأسيسه، واستعاد له كثيراً من أوقافه المغصوبة، ورتب فيه جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على المذهب الشافعي، ومدرساً للحديث، وكلل جهوده بإقامة صلاة الجمعة في ١٨ ربيع الأول ٦٦٥هـ/١٧ ديسمبر ١٣٦٧م، وكان يوماً مشهوداً حضره كثير من الأمراء والأكابر^(٣). وكانت إعادة صلاة الجمعة بالجامع الأزهر وإعادة الأوقاف

(١) عاشور، سعيد: صلاح الدين الأيوبي، ص ٩٢، و محمود، عبد الغني: مرجع سابق، ص ٦٦-٦٧.
(٢) هو: أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف، المعروف بموفق الدين البغدادي، فقيه وطبيب له مؤلفات كثيرة منها اخبار مصر الكبير، والإفادة والاعتبار، توفي سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م، (السبكي: مصدر سابق، ج ٨، ص ٣١٣، والذهبي: سير اعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣٢٠).
(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٥٥٦-٥٥٧، وعنان، محمد عبد الله: تاريخ الجامع الأزهر، ص ١١٣، و محمود، عبد الغني: مرجع سابق، ص ٢١٥، والنباهين، علي سالم: مرجع سابق، ص ٢٤٢.

إليه بمثابة رد الاعتبار له فاسترد مكانته العلمية وأخذ يتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع في القاهرة قدراً^(١).

أقبل الأمراء المماليك على المسجد يجددون عمارته، ويوسعون فيه وتولى الأمير سلار عمارته بعد أن تأثرت مبانيه بالزلزال الذي أصاب مصر، سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م^(٢) ثم قام الأمير علاء الدين طيبرس^(٣)، ببناء مدرسة عرفت بالمدرسة الطيبرسية، وأنتهى من بنائها سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وألحقها بالجامع الأزهر وقرر بها دروساً للفقهاء الشافعية وأوقف عليها أموالاً كثيرة^(٤)، كما أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد مدرسته المعروفة بالأقبغاوية سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وكانت هي الأخرى بجوار الأزهر، على يسار الداخل إليه من بابه الكبير الغربي، وتشرف بشبابيك عليه، فأصبحت تجاه المدرسة الطيبرسية، ورتب بها منشؤها دروساً للفقهاء الشافعية والحنفية، وعيّن بها إماماً ومؤذناً

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٦٤.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٧٦، وماهر، سعاد: مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠١. الأمير سلار بن عبد الله المنصوري: نائب السلطنة بمصر في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون: وبيبرس الجاشنكير، وكان من أصحاب النفوذ والسلطان في مصر توفي، سنة ٧١٠هـ/١٣١١م (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٦، ص ٥، والصفدي: مصدر سابق، ج ١٦، ص ٥٥).

(٣) علاء الدين طيبرس بن عبد الله الخازنداري (ن ٧١٩-١٤١٩م) هو نقيب الجيوش المصرية، دفن بقبته التي أنشأها بمدرسته (المدرسة الطيبرسية) على باب الجامع الأزهر. وبها الآن جزء من المكتبة الأزهرية على يمين الداخل من الباب الغربي للأزهر المعروف بباب المزينين. وطيبرس معناها الفهد، لأن طاي معناها المهر، وبرس معناها الفهد. (عبد الرحمن الزكي، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧م، ص ١٥٥)

(٤) ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٩٦، والمقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٨٣، وماهر، سعاد: مساجد مصر، ج ١، ص ٢٩، طيبرس: هو الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش في مصر، وكان أميراً قوياً أميناً عفيفاً، أنفق على الأزهر بسخاء وبالغ في تجميله وعمارته، توفي سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م؛ (المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ١٩٩، والخطط: ج ٢، ص ٣٨٣).

وخادماً لها^(١)، ثم توالى على الأزهر يد الإصلاح والتجديد، وحسبت الأوقاف عليه طوال العصر المملوكي، فعاد إليه نشاطه القديم، واسترد عافيته الأولى، وزاول نشاطه العلمي في حرية بعد أن أسبغ عليه سلاطين المماليك وأمراؤهم رعايتهم له، وغدا مقصد الأساتذة والطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامي^(٢). واختلف نظام التعليم في الأزهر عما كان موجوداً في المدارس، فهو يستقبل كثيراً من الطلاب دون إلزام بإعداد معينة، ومن ثم ضم طوائف مختلفة الأجناس من الطلاب، جاؤوا الذين جاءوا إليه وأقاموا فيه وتجاوزت أعدادهم المئات من عجم وزیالة ومغاربة وشوام، ومن صعيد مصر وريفه، وكان كل جماعة منهم تتخذ لها رواقاً من أروقة الجامع الأزهر تتجمع فيه، ويسمى باسمهم مثل رواق المغاربة والزیالة^(٣)، وكان هؤلاء الطلبة يعتمدون على أنفسهم في النفقة، فلم يكونوا يتلقون الرواتب الشهرية مثل طلبة المدارس، وفي بعض الأحيان كان بعض القادرين يخصصون جزءاً من أوقافهم للإنفاق من ريعها على المجاورين بالأزهر وعلى بعض شيوخهم^(٤)، وبدأ الأزهر منذ القرن الثامن الهجري يتبوأ مكانة رفيعة في مصر والعالم الإسلامي، ويجتذب إليه كبار العلماء للتدريس به،

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٨٢-٣٨٤. وماهر، سعاد: مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠٢، مؤسس المدرسة هو الأمير أقبغا بن عبد الله بن عبد الواحد كان من كبار مماليك الناصر قلاوون، تقلد مناصب عديدة في عهده، توفي سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٤م، (المقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٨٤، وابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٢، ص ٤٨٠) انظر الملاحق صورة ص ٣٢٥. علاء الدين طيبرس بن عبد الله الخازنداري (ن ٧١٩١٩-١٤١٩م) هو نقيب الجيوش المصرية، دفن بقبته التي أنشأها بمدرسته (المدرسة الطيبرسية) على باب الجامع الأزهر. وبها الآن جزء من المكتبة الأزهرية على يمين الداخل من الباب الغربي للأزهر المعروف بباب المزينين. وطيبرس معناها الفهد، لأن طاي معناها المهر، ويرس معناها الفهد ١.

(٢) عنان، محمد عبد الله: المصدر السابق، ص ١١٩.

(٣) محمود، عبد الغني: مرجع سابق، ص ٢١٧، والنباهين، علي سالم: مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٧٦، وأمين، محمد محمد: الأوقاف، ص ٢٦١، ومحمود، عبد الغني: مصدر سابق، ص ٢١٨.

من أمثال: علي بن يوسف بن جرير اللخمي شيخ الإقراء في عصره^(١)، ومحمد بن يوسف بن حيان النحوي الكبير^(٢)، صاحب البحر المحيط في التفسير، وابن خلدون الذي قدم مصر في غرة شوال سنة ٧٨٤هـ/ ٨ ديسمبر ١٣٨٢م^(٣).

على الرغم من أن القاهرة كانت يومئذٍ تحفل بطائفة كبيرة من المدارس التي رسمت مكانتها العلمية بانتظامها، وتولى أكابر العلماء والأساتذة التدريس بها، فإنها كانت تعتبر بالنسبة للأزهر كالأفرع الصغيرة من الدوحة العظيمة، وكان الأزهر في تلك الحقبة هو المدرسة الأم، وهو الجامعة الإسلامية الكبرى التي لا تنافسها أي جامعة أخرى^(٤).

زخر العصر المملوكي، بعدد وافر من علماء المذاهب الأربعة، وبخاصة المذهب الشافعي، لا يقلون عن أسلافهم في العصور السابقة، ذكاءً وفطنة ولا إدراكاً لمسائل المذهب وإحاطة بها، ولا مقدرة على الفتيا. وكذلك زخر بحفاظ الحديث ورجال التصوف والكلاميين والأصوليين والنحويين واللغويين والأدباء والكتاب والشعراء، والأطباء والمنجمين والفلكيين والمؤرخين وغيرهم. في الفقه والإصول والحديث والتفسير والمنطق والقراءات واللغة، وكانت كتب الدين هي المفضلة عند المتعلمين بعامة، ويليهما كتب اللغة والأدب ودروسهما، ثم يلي ذلك كتب العلوم الأخرى ودروسها. وكانت أهم كتب الدين: كتب الفقه ومذاهبه الأربعة،

(١) ولد سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م، وشقف بعلم القرآن ونبغ في القراءات حتى تصدر الإقراء بالجامع الأزهر وتكأثر عليه الطلبة، وتوفي سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م، السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٠٦.

(٢) هو أبو حيان بن يوسف بن علي إمام النحاة في عصره، ولد في غرناطة سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٤٨م، وبها نشأ وتعلم، وقرأ بها القراءات والنحو واللغة، ثم قدم إلى مصر وإستقر بها له مؤلفات كثيرة، توفي سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م، (السبكي: طبقات الشافعية، مصدر سابق، ج ٩، ص ٢٧٦، والسيوطي: حسن المحاضرة، مصدر سابق، ج ١، ص ٥٣٤).

(٣) المقرئ: السلوك، ج ٣، ص ٤٨٠.

(٤) عنان، محمد عبد الله: مرجع سابق، ص ١٢٦.

وكتب الحديث ومصطلحه وتاريخ رجاله، ومن أمثلة الكتب التي سعدت بال العناية والرواج في ذلك الحين، حفظاً ودراسة (المنهاج الأصلي) لمحب الدين النووي^(١)، و(مختصر القدوري)^(٢) في الفقه و(العمدة) و(الكفاية) لابن الحاجب ٥٧٠-٦٤٦هـ/١١٧٤-١٢٤٩م^(٣)، و(المنار) في الأصول للحافظ النسفي ٦٠٠-٦٨٧هـ/١٢٠٣-١٢٨٩م^(٤)، وبرز في مصر في علوم القرآن والتفسير والقراءات: محمد بن أحمد القرطبي، توفي ٦٧١هـ/١٢٧٢م^(٥)، ومن القراء (تقي الدين يعقوب بن بدران بن منصور المصري، الجرائدي توفي ٦٨٨هـ/١٢٨٩م)^(٦)

(١) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٤-٣٥٦، والنعمي: الدارس تاريخ المدارس، ج ١، ص ٢٤-٢٥.

(٢) القدوري: الإمام أبو الحسين أحمد بن محمد بن جعفر بن حمدان القدوري البغدادي المولود، انتهت إليه رئاسة الحنفية في العراق، صنف المختصر المعروف باسمه (القدوري)، في فقه الحنفية، (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٤).

(٣) هو: الشيخ الامام عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس أبو عمرو ابن الحاجب الكردي الدؤيني الاصل الانساني المولد. ولد سنة سبعين أو إحدى وسبعين وخمسائة (٥٧٠هـ أو ٥٧١هـ/١١٧٤م، أو ١١٧٥م) في إسنا في صعيد مصر وكان أبوه جندياً كردياً، حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي- وهو ابن خال السلطان صلاح الدين الأيوبي- قدم به أبوه إلى القاهرة فحفظ القرآن وبدأ الاشتغال بالعلم في صغره (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٤ والأدقوي: الطالع السعيد، ص ١٨٨، والزركلي: الاعلام، م ٤، ص ٢١١).

(٤) حافظ الدين، أبو البركات، أبو الفضائل محمد بن محمد بن محمد المعروف بالبرهان النسفي، فقيه وعالم، ولد عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، ودرس على علماء عصره، وفاق أقرانه، وله تصانيف عديدة ومشهورة في علم الكلام، والخلاف، ولخص تفسير القرآن للإمام الرازي، وأعطى الإجازة للحافظ أبي محمد القاسم البرزالي عام ٦٨٤هـ/١٢٨٤م، وتخرج على يديه علماء كثيرون. مؤلف المدارك في التفسير، والكنز في الفقه، والمنار في الأصول، توفي سنة ٧١٠هـ/١٣١١م، وهو من كبار أئمة الأحناف، وأهم أعيان الماتريدية (ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٨٧، والزركلي: الاعلام، م ٧، ص ٣١).

(٥) المقرئزي: المقفى الكبير، ج ٥، ص ١٤٧، والصفي: المصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٢.

(٦) هو: يعقوب بن بدران بن منصور، أبو يوسف، تقي الدين الجرائدي ٦٨٨هـ/١٢٨٩م: شيخ وقته في القراءات بالديار المصرية. ولد بدمشق، واشتهر وتوفي بالقاهرة. عاش نيلاً وثمانين سنة له كتاب 'المختار' في القراءات، وحل رموز الشاطبية، نظم (سكر مصر في ذوق أهل العصر)، (السيوطي: حسن المحاضر، ص ٢١٢).

و(محمد بن أحمد بن عبد الخالق المصري شمس الدين، تقي الدين بن الصائغ ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)^(١)، وفي التفسير ابن النقيب، توفي ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م^(٢).

وتوالى طبقات هؤلاء الرجال الأفاضل، طبقة بعد طبقة على مدى العصر، وكان جيل الملك الناصر محمد بن قلاوون أكثر أجيال العصر علماً وفضلاً، وهو النصف الأول من القرن الثامن الهجري ويليه النصف الثاني. وأكثر هؤلاء الرجال تخرج في أكثر من علم وفن. ومن الأئمة المجتهدين: العز بن عبد السلام المتوفي سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م وهو من عاصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، وتقي الدين محمد بن علي بن وهب المعروف بابن دقيق العيد، ت ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م^(٣)، له مصنفات كثيرة وابن المنير الإسكندراني ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م^(٤)، والعباس أحمد بن محمد بن علي، بن الرفعة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م^(٥)، وكان عالماً كبيراً، إنتهت إليه زعامة الفقه الشافعي في مصر، وعدّ ثالث ثلاثة بعد الرافعي، والنووي^(٦) في الاعتماد عليه في ترجيح الآراء الفقهية في المذهب الشافعي، درّس بالمدرسة المعزية، وولي الحسبة،

-
- (١) السيوطي: مصدر سابق، ص ٢١٣، وحمزه، عبد اللطيف (دكتور): الحركة الفكرية، ص ٢٣٥.
- (٢) ابن شاکر الکتبی: فوات الوفيات، ج ٣، ص ٣٨٢، والصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٣٦، والمقريزي: السلوك، مصدر سابق، ج ١، ص ٨٨، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٦٧.
- (٣) ابن دقيق العيد: هو الشيخ تقي الدين أبو الفتح محمد بن الشيخ مجد الدين علي بن وهب بن مطيع القشيري القوسي نسبة إلى قوص أشهر مدن الصعيد بمصر وصل في الفقه إلى درجة الاجتهاد المطلق، (السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٢٦).
- (٤) الإسكندراني، الإمام ناصر الدين: أحمد بن محمد بن المنير بن يحيى القباري؛ أحد الشيوخ الذين اشتهروا بالصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنكار ظلم الولاة، كان يقصده الناس للزيارة فلا يخرج لهم، فيحدثهم من نافذة المنزل، توفي سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٢م، (ابن كثير: مصدر سابق، ج ١٣، ص ٢٨٤، والعيني: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٩٠-٣٩١).
- (٥) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٩، ص ٢٤، والاسنوي: طبقات الشافعية، ج ١، ص ٦٠١، وابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٠٣، وابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٢، ص ٨٢، والصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١، ص ٣٩٥.
- (٦) النووي: هو محمد بن عمر الجاوي البنتني، ت ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، ولد ببنتنا (بجاوا)، وتوفي بمكة، له كتاب (عقود اللجين في بيان حقوق الزوجين)، وكتاب (التفسير المنير لمعالم التنزيل) و(بهجة الرسائل بشرح المسائل) في الفقه، (معلوف: مصدر سابق، ص ٧١٩).

وصنف "الكفاية" في عشرين مجلداً و"المطلب" في ستين مجلداً في الفقه الشافعي. وأبي حفص عمر بن عبد الله السبكي توفي سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٧٠م^(١)، وهو أول من ولي قضاء المالكية بعد أن جعل السلطان الظاهر بيبرس قاضياً لكل مذهب من المذاهب الأربعة وأبو الحسن علي عبد الكافي المعروف بتقي الدين السبكي، توفي سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م^(٢) انتهت إليه رئاسة الفقه الشافعي في وقته، له مصنفات كثيرة كثيرة أوردتها ابنه المؤرخ تاج الدين السبكي في "طبقات الشافعية الكبرى"^(٣)، ومن المتأخرين الذين ألفوا في الفقه والتفسير وبرعوا في كافة فنون العلم والأدب الجلال السيوطي المتوفي سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م^(٤). ومن حفاظ الحديث وشراحه: فخر الدين عثمان بن علي، المعروف (بالجمال الزيلعي المتوفي سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م^(٥)، أحد

(١) النويري: مصدر سابق، ج ٣٠، ص ١٨١، والمقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٩٦، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٧.

(٢) السبكي، تقي الدين؛ كبير فقهاء الشافعية، ولد بسبك "منوفية مصر" ولي قضاء الشام ثم عاد إلى مصر وتوفي فيها، مؤلف مكثر أهم كتبه التربوية "الابتهاج في شرح المنهاج" و "شفاء السقام في زيارة خير الأنام" و"إحياء النفوس في صفة إلقاء الدروس"، (معلوف: المنجد، ص ٢٤٩، و السبكي: مصدر سابق، ج ١٠، ص ١٣٩، والاسنوي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٧٥، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣٢١).

(٣) السبكي، تاج الدين: حجة ومؤرخ ثبت ولد بالقاهرة، سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م، وصحب أباه تقي الدين إلى دمشق، انتهى إليه القضاء في الشام وحين ضرب الطاعون دمشق لقي حتفه. من أجّل تصانيفه "طبقات الشافعية الكبرى" و"جمع الجوامع"، في أصول الفقه، و"معيد النعم ومبيد النعم"، (معلوف: مصدر سابق، ص ٣٥٠).

(٤) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، عالم مشارك في أنواع العلوم ولد وتوفي بالقاهرة، نشأ يتيماً وقرأ على واحد وخمسين عالماً، رحل في طلب العلم إلى جميع البلاد العربية والهند، تفرغ للتأليف بعد بلوغه الأربعين، فاقت مؤلفاته الخمسمائة مؤلف في التفسير والحديث والفقه واللغة، ومنها (الدر المنثور في التفسير المأثور) و(المزهر) في فلسفة اللغة و(حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) و(بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) وغيرها، (معلوف: مصدر سابق، ص ٣٧٨).

(٥) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ١٠، ص ٧٩، والأسنوي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٨٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١١، ص ٧٩، والسخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ١٧١، والسيوطي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٦٠، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٤٢).

أئمة الفقه الحنفي، له مؤلفاً كبيراً في الفقه الحنفي هو "تبيين الحقائق على كنز الدقائق" في ستة أجزاء. ومحمد بن إبراهيم بن سعد الله (بدر الدين بن جماعة، المتوفي سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م^(١))، تولى منصب قاضي القضاة وله مؤلفات كثيرة. وزين الدين العراقي المتوفي سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م^(٢)، وابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٨م^(٣).

ثالثاً: التصوف:-

شهدت مصر زمن سلاطين المماليك نشاطاً دينياً صافياً كان التصوف أحد ثمراته البارزة، حيث تصوف أهل مصر والوافدون إليها في هذا العصر على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم ومذاهبهم، ومنزلهم الدينية والدنيوية، فالفقير والغني والحاكم والمحكوم، والعالم والجاهل كل هؤلاء تصوفوا إما تصوفاً نظرياً أو عملياً.

نشطت في مصر مؤسسات دينية خصصت للتصوف وأنشطته مثل الخانقوات، والربط، والزوايا، حيث تنافس سلاطين المماليك وأمرأؤهم في تشييد، وحبس الأوقاف عليها حتى أمست تحفاً معمارية نادرة المثال. كما وفد إلى مصر حشد هائل من مشايخ الصوفية، اتخذوا منها مركزاً لنشر دعوتهم وبث مبادئهم^(٤). ومن المبادئ التاريخية والاجتماعية المسلم بها أن أية حركة روحية تقوى وتشد نتيجة

(١) السيوطي: مصدر سابق، ج ١، ص ٤٧٠.

(٢) العراقي: عبد الرحيم الحافظ، فقيه شافعي، وقف جهده على الحديث حتى كتب العلم الشامخ فيه، ولد في رازان، (أربيل) كردي الأصل، أم مصر صغيراً وفيها نبغ، ترحل كثيراً وولي قضاء المدينة قرابة ثلاث سنين ثم عاد إلى القاهرة وفيها توفي. له (المغنى عن حمل الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار) وألفية مصطلح الحديث، (معلوف: مصدر سابق، ص ٤٥٩).

(٣) العسقلاني: علم الدين صالح بن عمر بن شيخ الإسلام عمر البلقيني، ولد سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م، وتولى عدة مناصب، توفي سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م، (ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٣٠٧، والسخاوي: الذيل، ص ١٥٥-١٦٩).

(٤) إبراهيم، أحمد، محمود محمد: الدور السياسي والحضاري للصوفية في مصر زمن المماليك، رسالة ماجستير، قسم التاريخ الإسلامي، جامعة القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٩.

لتأنيب ضمير الفرد على أخطائه، الأمر الذي يأتي مصحوباً برغبة خالصة في التوبة، والتوجه إلى الله تعالى والزهد في الدنيا^(١).

كان قد وفد على مصر في القرن السابع الهجري كثير من مشايخ الصوفية مثل أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي وأبي القاسم القباري والسيد أحمد البدوي^(٢) فوجدوا عامة المصريين في ضيق وكمد بسبب كثرة الفتن وضيق العيش واختلال الأمن مما دفع الكثير للدخول تحت لواء مشايخ الصوفية. وقد كانت الصوفية موجودة منذ الفاطميين، كما يقرر ابن خلدون أن الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع^(٣) مما يشير إلى أن المجتمع المصري عرف التصوف قبل أن يعرف حكم المماليك، ولكنه ظل تصوفاً هادئاً قليل الأثر ولم يشتد تياره في الحالتين الاجتماعية والدينية إلا في عصر سلاطين المماليك^(٤).

انقسم الصوفية إلى فرق عديدة، لكل فرقة شيخها وشعارها؛ فالطائفة الأحمدية مثلاً نسبت إلى شيخها أحمد البدوي، وشعارها اللون الأحمر^(٥)، والرفاعية نسبت إلى أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي، وشعارها العمائم السوداء^(٦)، وعند موت شيخ الطائفة يخلفه خليفة في رئاسة طائفته، وقد جرت العادة في عصر سلاطين المماليك أن تصدر تولية هذا الخليفة من السلطان، فيخلع عليه وينزل من القلعة في حفل كبير يحيط به سائر فقراء طائفته^(٧)، واتخذ الصوفية في ذلك العصر

(١) وهناك عدة آراء بخصوص اشتقاق كلمة "تصوف" أهمها الرأي القائل بأنها مشتقة من الصوف، وهو لباس الصوفية المفضل، ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٥٢٢، وهناك رأي آخر يقول أنها مشتقة من الصفاء لتصفية القلوب، السيوطي: إتمام الدراية لقراء النقاية، ط ١، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٢٠٣.

(٢) نورين، إبراهيم: مرجع سابق، ص ٢.

(٣) زكي مبارك: التصوف، ج ٢، ص ٣٥، والشيباني، كامل مصطفى: العلاقة بين التصوف والتشيع، دار الأندلس للطباعة والتوزيع ١/١/١٩٨٢م، ج ١، ص ٣٣٩.

(٤) زكي، مبارك: الصوف، ج ١، ص ٣٣٩.

(٥) المقرئزي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٥٢.

(٦) ابن خلكان: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤.

(٧) ابن إياس: مصدر سابق، ج ٣، ص ٧٨.

اصطلاحات خاصة بهم، فقالوا مثلاً، روح الأعظم وهي العقل الأول - وروح الضاف وهي النفس الكلية، والرياضة وهي تهذيب الأخلاق النفسية بمجاهدة النفس، وغير ذلك كثير^(١).

أطلق الصوفية على أنفسهم اسم "الفقراء" وذلك "لأن الفقر شعار الصالحين" ولكل شيخ مردييه وهنالك مقولة للشيخ إبراهيم الدسوقي: "إن المرید مع شيخه على صورة الميت، لا حركة ولا كلام، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه، ولا يعمل شيئاً إلا بإذنه، من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك"^(٢). وبالع بعض شيوخ الصوفية في عصر السلاطين المماليك، فاشتروا في العهد الذي يأخذونه على مرديهم أن المرید لا ينبغي له تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه^(٣) وكان عنوان إخلاص المرید لشيخه المداومة على حضور مجلسه، فإذا انقطع المرید عن مجلس الشيخ لخله بسبب ذلة وقع فيها أمام الشيخ "كان ذلك كالطلاق الرجعي" فللشيخ أن يقبله إذا رجع لأن حرمة الشيخ في نفس المرید لا تزال باقية^(٤) ويبدو أن هذه الرابطة بين الشيخ ومردييه تعدت نطاق الحياة إلى الممات، إذ حرص كثير من الصوفية على أن يدفنوا بجوار مشايخهم وأوصوا بذلك^(٥).

(١) ابن جهضم: (بهجة الأسرار)، ومن الواضح أن المصطلحات الصوفية كثيرة جداً ومتعددة بحيث يصعب حصرها في هذا البحث وقد ذكرنا هذه النماذج الثلاثة على سبيل المثال لا الحصر، (عاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٨١).

(٢) الشعراني: ذيل لواقح الأنوار، ج ١، ص ٢٤٢.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ج ٣، ص ٢٠٧.

(٤) الشعراني: ذيل لواقح الأنوار، ج ٢، ص ١٧٦.

(٥) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٩، ص ٢٩٥، والسخاوي: تحفة الأحباب وبغية الأصحاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، صححه حسن، قاسم، ومحمود، ربيع، مكتبة العلوم للاداب والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٣٧م، ص ١٩ - ٢٦.

قامت حياة الصوفية على أساس النقشف في اللبس والمأكل وغير ذلك من أركان الحياة، وأن لفظ الفقراء أطلق عليهم لافتقارهم في كل الأحوال إلى الله تعالى^(١) ففي الملبس بالغوا في التخشن وأكثروا من لبس الصوف والمرقع من الثياب^(٢) وفي المأكل حكى عن السيد البدوي أنه يمكث أربعين يوماً أو أكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام^(٣). وقد تطرف بعض الصوفية في آرائهم وأفعالهم فنشأ عن ذلك طائفة أطلق عليها "ال دراويش"^(٤) والذين اشتهروا في عصر المماليك بأفعالهم الغريبة التي زعموا أنها من الدين. وقد شاهد ابن بطوطة زاوية في دمياط لطائفة من الصوفية تسمى القلندرية أو القرندرية وقال عنهم: "وهم الذين يخلقون لحاهم وحواجبهم" فبدوا في صورة مزعجة تشبه المجانين ويزعمون أن ذلك ضرب من التقوى والعبادة^(٥).

لقد عرف المجتمع المصري آنئذ ما أطلق عليه صلاة الرغائب والتي عرفها أبو شامة بقوله: "أما صلاة الرغائب فالمشهود بين الناس اليوم أنها هي التي تصلى بين العشاءين - المغرب والعشاء - ليلة النصف من شعبان كانت تسمى صلاة الرغائب جمع رغبة، وهي العطاء الكثير"^(٦).

كانت العامة أكثر المواظبين على تلك الصلاة بسبب تفريط بعضهم في الفرائض والنوافل وانغماسهم في المعاصي، وهم ينتظرون هذه الليلة للصلاة ويواظبون على أداء هذه الصلاة، لأنها بزعمهم تكفر عنهم ما قصرُوا فيه من الفرائض وما ارتكبوا من المعاصي"^(٧).

(١) ابن الحاج: مصدر سابق، ج٣، ص ١٨٤.

(٢) زكي مبارك: التصوف، ج١، ص ٣٦٩.

(٣) الشعراني: مصدر سابق، ج١، ص ٢٤٦.

(٤) الشربيني: يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربيني، هز القحوف في شرح قصيده أبي

الشادوف: طبعه مصر، سنة ١٨٩٠م، ص ٧٦.

(٥) المقرئ: السلوك: ج١، ص ٦٥٥ حاشية (٤).

(٦) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٦١.

(٧) المصدر سابق، ص ٨٤.

شايح كثير من سلاطين المماليك بمصر حركة التصوف وشاركوا عامة الشعب في الاعتقاد في الصوفية والعطف عليهم. فالسلطان برقوق رتب للمدرسة التي أنشأها بين القصرين عدداً من الصوفية وقرر لهم المرتبات الكثيرة^(١)، ويروى أن الأمير حسام الدين لاجين كان: "يحب الفقراء ويجمعهم على سماطه"^(٢).

وقد كان لانتشار التصوف والمتصوفة في مصر على عصر سلاطين المماليك أثر خطير في الحياة الاجتماعية. إذ أنهم بالغوا في صبغ القيم والمثل العليا بصبغة الزهد والرغبة عن الدنيا ومتاعها، والاتجاه نحو الآخرة، والعمل لها. مما ترتب عليه نشر روح الاستكانة والقناعة والتذلل بين عامة الناس^(٣).

الخوانق والزوايا والربط :-

نسبة لانتشار الصوفية في مصر في عصر المماليك ازدادت البيوت التي خصصت للصوفية لإقامتهم وإنقطاعهم فيها، وسميت بالخوانق^(٤) والربط^(٥) والزوايا^(٦). وعلى الرغم من اختلاف اسمائها فإنها جميعاً تقوم على خدمة هدف واحد. وقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم بإنشاء الكثير منها، وحبس الأوقاف عليها إلى أن أخذت الخانقاه تحل محل المدرسة تدريجياً. وقد تعددت الخوانق

(١) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٦٠٠.

(٢) عاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٨٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٨٦.

(٤) الخانقاة: كلمة فارسية معناها الدار أو البيت، وأصبح مقصوداً بها المكان الذي يختفي فيه

الصوفية للعبادة، (المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤١٤، وعاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٦٨).

(٥) الرباط: في الأصل البناء المحصن الذي يقام قرب الحدود، ويرابط به جماعة من المجاهدين، للتصدي للأعداء، وكان أهل الرباط أو المرابطون يجمعون بين حياة الجهاد والحياة الدينية، ثم غلب على الرباط الحياة الدينية بعد أن ضعف أمر المسيحية على الإسلام في المشرق، وأصبح يطلق فقط على المكان الذي ينزل به الصوفية، وأكثر المسلمون من إقامة الربط على أطراف دولتهم لا سيما في الشام والمغرب والأندلس؛ (المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٢٧ وعاشور: مرجع سابق، ص ١٨٩).

(٦) الزاوية: هي بناء صغير للصلاة والعبادة، يتخذها أحد الصالحين سكناً له، ولمن يرد عليه من الناس، ويقوم بالوعظ والإرشاد فيه، (عاشور، سعيد: المرجع نفسه، ص ١٨٦، وحمزة، عبد اللطيف: مرجع سابق، ص ١٠٥).

ووظيفتها التي أنشئت من أجلها إلى قيامها بوظيفة تعليمية وأخذها صورة المعهد العلمي، ومن أشهر تلك الخوانق^(١):-

أ- الخانقاة الصالحية (سعيد السعداء)،

كانت تعرف في الدولة الفاطمية بهذا الاسم، فلما تولى الحكم صلاح الدين الأيوبي جعلها داراً للفقراء الصوفية القادمين من مختلف البلاد، وولى عليها شيخاً، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة، ورتب فيها للصوفية كل يوم طعاماً، ولحماء، وخبزاً، وبنى لهم حماماً بجوارها. فكانت أول خانقاة بمصر لذلك نعت شيخها بشيخ الشيوخ^(٢).

ب- الخانقاه البيبرسية:-

أنشأها السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٨م، في موضع دار الوزارة، قبل أن يتولى السلطنة، وعندما مات أغلقها من بعده السلطان الناصر قلاوون في سلطنته الثالثة مدة من الزمن ثم أمر بفتحها بعد ذلك. قال المقرئزي: وكانت من أجل الخوانق بنياناً وأوسعها مقداراً وأتقنها صنعة، والشباك الكبير الذي بها هو شباك دار الخلافة ببغداد، وكانت الخلفاء تجلس فيه، وحمله الأمير البساسيري من بغداد لما غلب على الخلافة القائم العباسي وأرسل به إلى صاحب مصر^(٣)، وأوقف عليها ضياعاً بدمشق وحماة وصعيد مصر للإنفاق عليها، ورتب بها دروساً للحديث النبوي، وكان يقيم بها نحو أربعمئة صوفي^(٤).

ج- خانقاة سرياقوس:-

بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكانت في أيامه من أجمل ضواحي القاهرة، قال المقرئزي في سبب بنائها: إن الناصر ركب كعادته للصيد، وبينما هو في الطريق إذ انتابه ألم شديد كاد أن يقضي عليه، فنذر إن عافاه الله أن يبني في

(١) محمود، عبد الغني: مرجع سابق، ص ٢٣٥.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٤١٥-٤١٦.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٤٣.

(٤) المقرئزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤١٦، والسيوطي: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٦٥، وسليم،

محمود رزق: مرجع سابق، ج ٣، ص ٦١.

هذا الموضع مكاناً يتعبد فيه الناس لله تعالى. ولما عاد للقلعة وشفى من مرضه، سار بنفسه إلى الموضع الذي انتابه فيه المرض، وصحبه جماعة من المهندسين واختط هذه الخانقة. وكان ذلك سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م وجعل فيها الناصر مائة خلوة لمائة صوفي. وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة، وبنى بها حماماً ومطبخاً. فكانت سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م كمل ما أراد من بنائها، وخرج إليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانق، ومدت هناك أسمطة عظيمة^(١).

د- خانقة قوصون:-

بنيت بالقرافة سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م وأول من ولي مشيختها شمس الدين محمود الأصفهاني الإمام وصاحب التصانيف المشهورة. وكانت من أعظم جهات البر، وأكثرها خيراً، إلى أن حصلت المحن سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٤م، فتلاشى أمرها كما تلاشى غيرها^(٢).

هـ - خانقة شيخو :-

أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري^(٣). في حي الصليبية سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م ورتب بها دروساً للفقة على المذاهب الأربعة، ودرساً في القراءة ودرساً في الحديث، وجعل لكل درس من هذه الدروس الستة مدرساً، وعنده عدد من الطلبة مقيد بالحضور والاستماع إلى الدرس، مع الاشتراك فيما يقوم به الصوفية من ضروب العبادات، ووكل مشيختها إلى الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي الحنفي ووكل إليه كذلك درس الحنفية^(٤). وأول من تولى تدريس

(١) المقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٢٢.

(٢) السيوطي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٢.

(٣) هو: شيخو بن عبد الله الناصري، من ممالك السلطان الناصر محمد، ارتفع شأنه في عهد السلطان حسن وصار أتابك العسكر، وسمي بالأمير الكبير، وتوفي سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م، (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٦، ص ٢٥٧، والصفدي: مصدر سابق، ج ١٦، ص ٢١١، وابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ٢٠٤).

(٤) هو: محمد بن محمد بن محمود البابرتي، من أعلام الفقه الحنفي في مصر، برع في الشرح والتأليف في المذهب، من مؤلفاته شرح الهداية، وشرح مختصر ابن الحاجب، توفي سنة

الشافعية بها الشيخ بهاء الدين بن الشيخ تقي الدين السبكي، وأول من تولى تدريس المالكية بها الشيخ خليل صاحب المختصر، وأول من تولى تدريس الحنابلة بها قاضي القضاة موفق الدين^(١).

كانت ببعض الخوانق مكتبات عامرة بالكتب القيمة، ولها خازن يقوم بخدمة من يرد إليها من الطلبة وغيرهم ممن يريد الاطلاع أو الاستعارة، وقد يلحق بها مكتب لتعليم الأيتام، وأبناء الفقراء القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة^(٢).

مارست بعض الربط والزوايا نشاطاً علمياً، مثل: الرباط الذي أنشأه صاحب تاج الدين، وتوفي دون أن يكمل بناءه، فأتته ابنه صاحب نصر الدين، ولما حكم الملك الأشرف شعبان^(٣)، قرر في هذا الرباط درساً للفقهاء الشافعية، وجعل له مدرساً وأوقف عليه رواتب شهرية من ريع الأوقاف التي أوقفها على الرباط^(٤). ويبدو لنا من كتابات المعاصرين أن الرباط غلبت عليه صفة الملجأ، فقد ذكر المقرئ: (أن بيبيرس الجاشنكير بنى رباطاً قرر به مائة من الجند و"أبناء الناس" الذين قعد بهم الوقت)^(٥). وكذلك نفهم أن الغرض الأساسي من إنشاء الربط الخاصة بالنساء، هو أن تكون (كالمودع للنساء الأرامل) أي كالملجأ لهن^(٦). وفي تلك الربط حاكت النساء الرجال في لبس المرقعات من الصوف^(٧).

٧٨٦هـ/١٣٨٤م، (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٥٠، وأنباء الغمر، ج١، ص٥٩٨، والسيوطي: حسن المحاضر، ج١، ص٤٧١، الزركلي: الأعلام، م٧، ص٤٢).

(١) السيوطي: مصدر سابق، ج٢، ص٤٣.

(٢) محمود، عبد الغني: مرجع سابق، ص٢٤٣، والنباهين، علي سالم: مرجع سابق، ص٢٦٧.

(٣) هو: الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، وعمره عشر سنوات، (المقرئ: السلوك، ج٣، ص٨٣).

(٤) ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص١٠٢، والمقرئ: الخطط، ج٢، ص٤٢٩.

(٥) المقرئ: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٧٦.

(٦) ابن حجر: أنباء الغمر، ج١، ص٣٧٦، والسخاوي: الضوء اللامع، ج١٢، ص٢٥.

(٧) السخاوي: تحفة الأحباب، ص١٨٠.

أما الحياة في داخل هذه الخوانق، فتؤخذ من النصوص التي قدمناها إلى أنها توصف بالترف والسعة أدنى منها إلى أن توصف بالفقر والخشونة، ولم لا يكون الأمر كذلك؟ وإنما يوتى لهم فيها بطعامهم وشرابهم، ويسهر على راحتهم فيها ملوكهم وحكامهم، ويتنافس هؤلاء جميعاً في تزويد البيوت الدينية بالأثاث الفخم والرياش الفاخر^(١).

رابعاً: الطوائف الدينية

أهل الذمة^(٢):-

لقد أحاط الإسلام نفسه بمبادئ عظيمة تتم عن سماحته وقوته واحتوائه لكافة متطلبات المجتمع الراقي، وطريقة التعايش، ومن أسمى هذه المبادئ، التسامح الديني وحسن المعاملة مع أهل الذمة، الذين كانوا يمثلون أقلية ذات أهمية كبيرة، في مصر حتى قدرهم بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر في عصر سلاطين المماليك بعشرين ألفاً في القاهرة وحدها، نصفهم من الأقباط والنصف الآخر من اليهود وقد احتفظ الأقباط بنظمهم الخاصة في الحياة، كما احتفظوا بكنائسهم، الكثيرة في القاهرة وسائر بلاد القطر المصري، وعدد المقرزي أديرة القبط بالوجه القبلي، (فبلغ عددها ثمانية وخمسين ديراً، يحمل النصارى إلى رهبانها النزور والقرايين)، عدا الكنائس العديدة التي إذا أضيفت إلى أديرة الصعيد فإنها تقارب الألف^(٣) كذلك جاء في تاريخ الفيوم أن عدد الأديرة بالفيوم وحدها بلغ قبيل العصر المملوكي مباشرة ثلاثة عشر ديراً خلاف الكنائس^(٤)، كما حرص القبط على

(١) حمزه، عبد اللطيف: مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢) أطلق هذا اللفظ على اليهود والنصارى، وكل من يصح عقد ذمة معهم، كما شمل اللفظ المجوس أيضاً والسامرة والصابئة؛ ومن عاهدهم المسلمون على حماية أنفسهم وأموالهم مقابل دفع الجزية، (الماوردي، علي بن محمد، المتوفي سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الطبعة الأولى دار الفكر، الكويت ١٩٨٩م، ص ٢٥١-٢٦١، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٥٥، وقاسم، عبده: أهل الذمة، ص ٢١).

(٣) ابن شاهين، فريس الدين خليل: مصدر سابق، ص ٣٣.

(٤) النابلسي: ابن عثمان الصفدي الشافعي، تاريخ الفيوم، القاهرة المطبعة الأهلية ١٨٩٨م، ص ٢٢.

طقوسهم واستخدام اللغة القبطية في محادثاتهم فيما بينهم كما يعامل البطرك^(١) باحترام في المكاتبات الرسمية الصادرة من الديوان السلطاني^(٢) و كان تعيين بطارقة طوائف النصارى كلها وخاصة طائفتي: الملكانيين^(٣) - واليعاقبة^(٤) يتم بإشراف مباشر من القضاة، الذين كانوا يشترطون أن يتوفر في من يتولى هذا المنصب عدد من الشروط، أهمها الإلمام بالإنجيل، والورع والتقشف، كما يوحي البطريك بمراعاة قواعد الدين المسيحي، وإدارة شؤون أتباعه. أما أبرز مهام هذا البطريك فهي تنظيم علاقة النصارى بالدولة المملوكية وبالدول الأجنبية، كما يجب عليه الاهتمام بالكنائس والأديرة والاضطلاع بشؤون الرهبان والقساوسة ورجال الدين عموماً. كما يُحذر البطريك من الخيانة ومكاتبة الدول الأجنبية المعادية للدولة المملوكية^(٥).

(١) البطرك: مفرداً بطرك، وهولقب يمنح للشخص الذي يتولى الإشراف على النصارى، وذكر القلقشندي أن البطارقة أربعة كراسي: أحدها في روما وفيها يكون البابا، وآخر في أنطاكية، والثالث في القدس، والرابع في الإسكندرية. (القلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٤٣-٤٤٤).

(٢) القلقشندي: المصدر السابق، ج ١١، ص ٣٩٣-٣٩٤.

(٣) الملكانيون أو الملكية: وهم الطائفة التي عرفت بالأرثوذكس، كان ظهورهم نتاج مجمع أفسس الأولى سنة ٤٣١م. الذي أعلن قبول فكرة أن للمسيح طبيعة واحدة، وهم ينسبون للأمبرطور البيزنطي مركبان (مركبانوس) (٤٥٠ - ٤٥٧م) وهم القائلون بعقيدة التثليث؛ (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٧٩-٢٨٠، والمقريري: السلوك، ج ١، ص ٩١٢، هامش ٥، وقاسم، عبده: أهل الذمة، ص ٩٧-٩٨).

(٤) اليعاقبة: وهم الذين اتبعوا مذهب ديسقورس أحد بطارقة الإسكندرية، وخلاصة مذهبه بأن للمسيح (جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين، ومشية من مشيتين) كما عرف أصحاب هذا المذهب بـ المونوقبزيين، أي أتباع مذهب المشية الواحدة، ويشرح القلقشندي هذه العبارة بقوله: (فجوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركب النفس والبدن فصارا جوهرًا واحدًا أقنومًا واحدًا، وهو إنسان كله وإله كله)، (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٨١-٢٨٢، وقاسم، عبده: أهل الذمة، ص ١٠٠).

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٣٨٧-٣٨٩، والعمرى: التعريف، ص ١٨٣-١٨٥، وقاسم، عبده: أهل الذمة، ص ١٠٠-١٠١.

أما اليهود فقدرهم برنارد برينباخ في القاهرة وحدها على عصر سلاطين الممالك بخمسة عشر ألف يهودياً يشتغلون بمختلف الأعمال لا سيما التجارة^(١). ويبدو أن هؤلاء اليهود الذين استقروا في مصر صارت لهم سيطرة خطيرة على النشاط المصرفي والأعمال المالية^(٢)، وقد احتفظ اليهود في مصر بمعابدهم كما حافظوا على عوائدهم ونظمهم الموروثة، وتولى زعامتهم رئيس أو حاخام أشرف عليهم بطوائفهم الثلاث: -

الربانيين^(٣)، والسامريين^(٤)، والقرائين^(٥) وتمتع ذلك الرئيس بنفوذ ديني وقضائي كبير في حل مختلف المشاكل التي تنشأ فيما بينهم^(٦). ولم تكن لليهود المقيمين في البلاد الإسلامية دولة أجنبية تتدخل لرعاية مصالحهم وتحسين أوضاعهم، وذلك لانعدام القوة المركزية لهم، فلا توجد دولة في ذلك الوقت تدين بدين اليهودية، وذلك بسبب تشتت اليهود في الأرض^(٧)، إلا أن المصادر أشارت إلى أن تعيين

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١١، ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٤، ص ٣٤٩.

(٣) الربانيون: مفرداها ربان، وتأتي بمعنى الفقيه والإمام والحبر، وهي أكثر فرق اليهود، وبطلق عليهم اسم الفريسيون، أي "الاحبار المتشددون"، أما لفظ (الرباني) فبمعنى العارف بالله؛ (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٦٠-٢٦١، وقاسم، عبده: أهل الذمة، ص ١٠٣-١٠٤).

(٤) السامرة: هم من أتباع السامري الذي أضل اليهود و ذكر في القرآن الكريم بهذه الصفة، قال تعالى: (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)، طه: ٨٥، ولهذه الفرقة تورااة خاص بهم، وهم يؤمنون بنبوة موسى وهارون ويوشع بن نون فقط، ويستقبلون طور نابلس بدلاً من صخرة بيت المقدس، ويتكلمون لغة غير العبرية، كما عرفت هذه الفرقة باسم (الكويتين) كويت أي الخارجين عن الدين، (القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٣، ص ٢٧٠-٢٧٢، هامش ٢، وقاسم، عبده: مرجع سابق، ص ١٠٦-١٠٨).

(٥) القرائون: وهي أقل فرق اليهود عدداً، وقد نادى هذه الفرقة بحرية شرح التوراة، فهم لا يتقيدون بالتلمود، ولا يعترفون إلا بالعهد القديم أي التوراة، دون التلمود لأنهم يؤمنون أنها شرح للتوراة ولم تنزل على موسى عليه السلام، (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٦٠-٢٦١، وقاسم، عبده: مرجع سابق، ص ١٠٤-١٠٦).

(٦) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٤٠، والمقرئزي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٣-٤٤.

(٧) قاسم عبده: مرجع سابق، ص ٩٦.

رأس الهرم التنظيمي لليهود والمتمثل في رؤساء اليهود^(١)، وبطريقة النصارى، كان يتم بتقليد من القضاة المسلمين، وقد أورد القلقشندي نص تعيين رئيس لليهود، اشترط فيه أن يكون من طائفة اليهود الربانيين، ويقوم بالإشراف على بقية الطوائف الأخرى كالقرائين والسامرة، وعادة ما يحوي نص التقليد وصايا لرئيس اليهود بمراعاة الفرق الأخرى، وتحري العدل بينهم، وعدم التفريق بينهم في المعاملة، من ذلك ما جاء في أحد نصوص التقليد: "وجماعة الربانيين فهم الشعب الأكبر، والحزب الأكثر، فعاملهم بالرفق الأجدى والسر الأجدر ولكونك منهم، لا تمل معهم على غيرهم، فيما به من النفس الأمانة تؤمر؛" كما يلتزم رئيس اليهود بحث اليهود على أداء الجزية والتقليد بلبس الملابس المغايرة للمسلمين والركوب بخلاف المسلمين^(٢).

في شهر رجب سنة سبعمئة وصل إلى القاهرة المحروسة وزير صاحب المغرب حاجاً، فاجتمع بالملك الناصر "محمد قلاوون" ونائبه حينئذ الأمير سلال^(٣)، فتحدث الوزير معه ومع الأمير بيبرس الجاشنكير في أمر اليهود والنصارى، وأنهم عندهم في غاية الذلة والهوان، وأنهم لا يمكن أحد منهم من ركوب الخيل ولا الاستخدام في الجهات الديوانية، وأنكر حال نصارى الديار المصرية ويهودها بسبب لبسهم أفخر الملابس، وركوبهم الخيل والبغال واستخدامهم في أجلّ المناصب، وتحكيمهم في رقاب المسلمين، وذكر أن عهد ذمتهم انقضى من سنة ستمئة من الهجرة النبوية فأثر كلامه عند أهل الدولة، لا سيما الأمير بيبرس

(١) رئيس اليهود هو كالبطرك عند النصارى، ويقوم بالإشراف على جميع شؤون اليهود من الطوائف الثلاث، والفصل بينهم في قضاياهم، كما روعي أن تتوفر فيه عدد من الشروط، أهمها أن يكون أكبر الكهنة وذا علم، وأن تتوفر فيه النزاهة والأخلاق الحسنة، (القلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٤٥، وج ١١، ص ٢٧٨-٢٧٩، وقاسم، عبد: مرجع سابق، ص ١٠٩).

(٢) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١١، ص ٣٧٨-٣٨٣.

(٣) الأمير سلال: هو سلال بن عبد الله المنصوري، تركي الأصل، تولى نيابة السلطنة، كاد أن يلي السلطنة بدلاً عن السلطان بيبرس الجاشنكير، لكنه رفض. فقتله الناصر محمد بن قلاوون، سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، وكان أميراً كريماً جليلاً مهاباً وشجاعاً، (ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٦، ص ٥-١٣).

الجاشنكير فأمر بجمع النصارى واليهود، ورسم أن لا يستخدم أحد منهم في الجهات السلطانية ولا عند الأمراء، وأن تغير عمامتهم. فلبس النصارى العمام الزرق، وأن تُشد في أوساطهم الزنابير ويلبس اليهود العمام الصفرة وغلقت الكنائس بمصر القاهرة وسُمرت أبوابها، وألزموا ألا يركبوا إلا الحمير، وأن يلف أحدهم إحدى رجليه إن ركب، وأن يقصر بنيانهم المجاور لبناء المسلمين عن بناء المسلم، وكتب بذلك إلى جميع الأعمال ليعمل بمقتضاه وأسلم بسبب ذلك كثير منهم^(١).

من المعروف أن أهل الذمة في مصر أصبحوا منذ الفتح العربي الإسلامي أسعد حالاً مما كانوا عليه تحت حكم البيزنطيين بفضل التسامح الديني، واستمر حالهم في عهد المماليك، فقد سمح لهم سلاطين المماليك برعاية شؤون النصارى في الدولة الإسلامية حيث أخذت الطابع الودي الممزوج بنوع من الاستعطاف والرجاء، وذلك حينما يطلب الأباطرة البيزنطيين رعاية النصارى الموجودين في الدولة المملوكية، وهذا يرجع إلى قلة المسلمين في الدولة البيزنطية^(٢)، وتذكر المصادر أنه في عام ٧٠١هـ/١٣٠١م أرسلت سفارة بيزنطية إلى القاهرة رسالة يطلب فيها الإمبراطور البيزنطي من السلطان الناصر محمد أن يتعطف ويتكرم على النصارى بفتح كنيسة ميكايل في القاهرة وأغلقها في القاهرة وهما كنيسة المعلقة^(٣) وكنيسة ميكايل^(٤). كما أرسلت رسالة أخرى من دولة أخرى لم يذكرها المقرئ وأسفرت عن فتح ثلاث كنائس أخرى في القاهرة^(٥). وقد وفر المماليك لأهل الذمة كل سبل العيش الكريم داخل دولتهم، حتى أنهم تركوا لهم حرية الاتصال بالدول الأجنبية خارج دولة المماليك، فقد بقيت الصلات وثيقة بين الطرفين، نستشف ذلك من كتابات أحد الرحالة الروس يدعى باسيل يوسيناكوف الذي ذكر أن رئيس الأساقفة في روسيا

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٣، ص ٣٧٨.

(٢) قاسم، عبده: مرجع سابق، ص ٨٨.

(٣) كنيسة المعلقة: تقع في طريق قصر الشمع، وهي من الكنائس العظيمة عند النصارى، (المقرئ: الخطط، ج ٤، ص ٤٣٨).

(٤) كنيسة ميكايل: تقع خارج مدينة مصر عند خليج بني وائل، (المقرئ: الخطط، ج ٤، ص ٤٤٧).

(٥) المقرئ: السلوك، ج ٣، ص ٩١٢-٩١٣، وقاسم، عبده: أهل الذمة، ص ٨٨-٨٩.

أرسل معه رسالة يطمئن فيها على أحوال النصارى في مصر ويطلب منهم الدعاء، كما أرسل مبلغاً من المال لرهبان جبل سيناء وبطريك الإسكندرية (١).

إلا أن الحروب الصليبية أثارت روح العداء بين المسلمين وغير المسلمين في مصر والشام، وذلك للاعتداءات المتكررة من الصليبيين والأطماع الاستعمارية لديهم، ولرغبة السلاطين المماليك في مصر في الظهور بمظهر حماة الدين لدعم مركزهم لدى المسلمين ويرى د. عبد الفتاح عاشور أن من أسباب اضطهاد أهل الذمة أن كثيراً من أمراء المماليك حسدوا أهل الذمة على ثروتهم وطمعوا في الاستيلاء عليها، وهم مطمئنون إلى عدم تعرضهم للنقد أو المعارضة من الفقهاء (٢).
الآن أن الباحث يعتقد أن منشأ ذلك الاضطهاد نابع مما لمسوه من الممارسات الاستعمارية للنصارى على المسلمين إبان الحروب الصليبية واستمالة اليهود لفقراء المسلمين بأموالهم.

الأعياد الدينية

١- الإحتفال برأس السنة الهجرية:

أول الأعياد الدينية عيد رأس السنة الهجرية ويحتفل به في غرة محرم، فيطلع الخليفة والقضاة الأربعة إلى القلعة ليهنئوا السلطان بالعام الجديد (٣) ويخصص السلطان بهذه المناسبة أرزاقاً ومنحاً إضافية لأرباب الرواتب وذلك (لاستقبال المحرم) (٤)، على أن التهنئة أول كل شهر عربي جرت مجرى العادة كذلك، فينهض القضاة ومشايخ العلم لتهنئة السلطان (٥)، وقد حرص العلماء والتجار وعامة الناس

(١) قاسم، عبده: أهل الذمة، ص ٢٣.

(٢) عاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٧٧.

(٣) ابن إياس : مصدر سابق، ج ٢، ص ٩٩، وج ٤، ص ٤.

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ١٦٥.

(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص ١٤٥ - ٢٥٤.

على تبادل التهنة أول المحرم في اليوم الأول من كل شهر عربي، كما اعتاد أصحاب السعة منح العطايا لكل وارد عليهم (يوم تهنة الشهر)^(١).

٢- عاشوراء:-

هو اليوم العاشر من المحرم - اعتبره فقهاء عصر المماليك من المواسم الشرعية الرسمية^(٢)، وقد اعتاد الناس في ذلك اليوم التوسعة على الأهل والأقارب واليتامى والمساكين، حتى بلغ الأمر ببعض الأثرياء أن يتصدق بألف دينار في يوم عاشوراء^(٣) وقد حرص الشيعة في يوم عاشوراء على إقامة عزاء الحسين، فينشد شعراؤهم قصائد الرثاء وفق ما جرت به العادة في مصر الفاطمية^(٤)، هذا في حين يناظر شعراء أهل السنة شعراء الشيعة وتخرج نساؤهم إلى الطريق وقد كحلن أعينهن وخضبن أيديهن بالحناء (فمن لم تفعلها فكأنها ما قامت بحق عاشوراء)^(٥).

٣- المولد النبوي:-^(٦)

ثم يأتي الاحتفال بالمولد النبوي في ربيع الأول وقد حرص سلاطين المماليك وعامة الشعب على الاحتفال بهذا العيد احتفالاً يفوق الوصف، ويبدأ الاحتفال من منتصف ربيع الأول وفي الليلة الكبرى ينصب السلطان بالحوش السلطاني بالقلعة الكبرى خيمة ذات أوصاف خاصة سماها المعاصرون "خيمة المولد"^(٧)، ويصاحب الاحتفال في داخل هذه الخيمة من مشرب ومأكّل الشئ العجيب، حتى إذا استقر

(١) الشعراني: أبو المواهب، عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري، ت ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م، لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار - جزاءن - القاهرة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م: ذيل لوائح الأنوار القدسية في طبقات العلماء الصوفية (دار الكتب المصرية القاهرة)، ص ٣٢.

(٢) ابن الحاج: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٨٩.

(٣) الأذفوي: الطالع السعيد، ص ٢٥.

(٤) ابن الحاج: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٩.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٠-٢٩٣.

(٦) انظر الملاحق صورة ص ٣٢١.

(٧) ابن إياس: مصدر سابق، ج ٣، ص ١٦-١٧.

السلطان في صدر خيمته جلس عن يمينه شيخ الإسلام وعن يساره قضاة القضاة الأربعة وشيوخ العلم، في حين يأخذ الأمراء أماكنهم على مسافة من السلطان^(١)، ويبدأ الاحتفال بتلاوة آي الذكر الحكيم فيتعاقب المقرئون، وكلما فرغ أحدهم من التلاوة أنعم عليه السلطان "بخمسمائة درهم فضة" وبعد ذلك يأتي الوعّاظ واحداً بعد آخر، وكلما فرغ أحدهم من الوعظ ناوله السلطان "صرة فيها أربعمائة درهم فضة" ومن كل أمير شقة حرير^(٢) ثم ينصرفون إلى الطعام فإذا انتهى الطعام أخذ المنشدون في الإنشاد فيمدحون الرسول صلى الله عليه وسلم ويتدارسون مولده حتى تلت الليل^(٣)، ويقام هذا المولد عند عامة الناس نساءً ورجالاً (فتكثر البدع والمخالفات)^(٤).

٤- دوران المحمل :-^(٥)

تحتفل القاهرة ومصر في النصف الأخير من شهر رجب بدوران المحمل، والواقع أن الاحتفال بدوران المحمل في عصر سلاطين المماليك كان يحدث مرتين في السنة الأولى في شهر رجب والثانية في شوال^(٦) أما الدورة الأولى التي اطلق عليها "دوران المحمل الرجبي"^(٧) فأول من استحدثها في مصر هو السلطان الظاهر بيبرس ٦٧٥هـ/١٢٧٧م^(٨) وقد قيل أن الغرض من تدوير المحمل في هذا الوقت المبكر من السنة هو إعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن وأن من شاء الحج فلا يتأخر ولا يتخوف من الطريق^(٩)، وبذلك تنهيج العزمات وتبعث

(١) المقرئزي: الخطط، ج٣، ص٣٧٣.

(٢) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج٥، ص٥٧٥. والمقرئزي: السلوك، ج٤، ص٣٦-٣٧.

(٣) القلقشندي: مصدر سابق، ج٤، ص٥٧-٥٨.

(٤) ابن الحاج: مصدر سابق، ج٢، ص١١.

(٥) انظر الملاحق صورة ص٣٢٢ و٣٣٠.

(٦) المقرئزي: مصدر سابق، ج٣، ص٢٧٢.

(٧) القلقشندي: مصدر سابق، ج٤، ص٥٧-٥٨.

(٨) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٨٨.

(٩) ابن حجر: أنباء الغمر، أحداث سنة ٨٣١هـ/١٤٢٨م، ج٢، ص٤٥٠، والسخاوي: التبر المسبوك،

أحداث سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٥م، ج٢، ص٤٥٠.

الأشواق وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء في التأهب للحج^(١). وكان الاحتفال بدوران المحمل من أجل الاحتفالات التي ينتظرها الناس، فينادى قبل مواعده بثلاثة أيام أن يزّين الناس حوانيتهم ودورهم^(٢) ويُزّين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بشقق من الحرير والحلي^(٣)، ولا يكون دوران المحمل غالباً إلا يوم اثنين أو خميس^(٤)، وعندئذ توضع الكسوة وهي من الحرير النفيس المطرز بالذهب والقصب على جمل في هيئة لطيفة، ويبدأ الموكب من عند باب النصر وأمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم^(٥)، ويشاهد الناس كسوة الكعبة، وكان عدد الجمال التي تخرج لحمل الكسوة ثمانية وعشرين جملاً، أما صفة المحمل فكانت الكسوة تسير محمولة وعن يمينها وشمالها فرسان السلطان على خيولهم مرتدين دروعهم وهم في ملابس الحرب وبأيديهم الرماح، وتنفق خلف المحمل الطبول والصنوج والكوسات السلطانية، ويظل الموكب يتهاذى في طريقه حتى يصل إلى القلعة حيث يلعب المماليك برماحهم ثم ينصرف المحمل بعد ذلك إلى الفسطاط^(٦).

خامساً: ثراء اللغة العربية ومرونة تداولها :

تعد اللغة العربية من أغنى لغات العالم بالمفردات والمترادفات، وقد انقضت كل اللغات التي نشأت معها — على وجه التقريب، ولم يعد منها إلا آثار تاريخية في النقوش والمخطوطات، مثل الكنعانية والفينيقية والعبرية، والآرامية، والنبطية، والبابلية، والكلدانية، والسريانية، والهيروغليفية، والحبشية. ولا يدل على مرونة

(١) ابن بطوطة: مصدر سابق، ج ١، ص ٩٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٠٧. وابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج ٣، ص ٥٣٨.

(٣) ابن الحاج: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٧٣.

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٧٥.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٩٨-٢١٠.

(٦) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٥٧-٥٨، وماجد، عبد المنعم: نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١٤٥-١٤٦.

اللغة العربية، واتساعها وشموليتها كثرة مفرداتها — التي تعد بمئات الألوف — فحسب، ولكن يدل على ذلك أيضاً كثرة الروافد، والطرائق التي تغذي اللغة العربية، وتسمح لها بالتوليد والإضافات. كالقياس، والاشتقاق، والنحت، والتعريب، وغيرها. وهذا يعني أنها لغة مفتوحة للتواصل الدائم على مدى العصور، وأن باب الاجتهاد فيها لم يغلق، ولن يغلق. وقد تحدث اللغويون عن خصائص اللغة العربية وتفردها في جوانب كثيرة، وتفوقها على كثير من اللغات الأخرى في هذه الجوانب ليس هذا مجال تفصيلها. وقد كان ديوان الإنشاء وخزائن الكتب من أهم العوامل التي استبقت اللغة العربية حيّة متداولة، بل نابضة متطورة تؤدي حاجة الدولة وحاجة الناس. وقد كان حكام البلاد أعاجم عن العربية، فهم بفطرتهم لا يغارون عليها ولا يعطفون على أهلها ولا يشجعون علومها وآدابها، ولكن الظروف القاهرة التي كانت تحيط بهم دفعتهم إلى العناية بها وتشجيع أهلها، ذلك لأن اللغة التركية التي يتحدثون بها كانت إلى ذلك الوقت قاصرة عاجزة عن أداء حاجة الدولة ودواوينها المختلفة، والقيام بشؤون القضاء والفتوى والتعليم وغيره، بمعنى أن تستوعب مفاهيم الإسلام ومقاصده ومصطلحاته. بينما كانت العربية مهية لذلك منذ أمد بعيد، هذا فضلاً عن أن الممالك كانوا يحكمون شعوباً عربية ولا يمكن أن يتم التفاهم بينهم وبينها إلا باللغة العربية، لهذا اتخذوها لغة رسمية في دواوين الدولة، واستخدموا في هذه الدواوين عدداً من "المتعممين"^(١) مخرجي المساجد لمزاولة المكاتبات العربية التي تحتاجها الدولة، وكان ألمع دواوينها حينذاك، "ديوان الإنشاء"^(٢) الذي اختص بالمكاتبات الديوانية العليا، وكان يختار للعمل فيه أبرع أهل اللغة والأدب والكتابة. وقد كان ذلك كله سبباً في رواج العربية، وفي رواج الفصحى داخل الدواوين، وبخاصة في كتابة المراسلات، والوثائق العليا، وسبباً في ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء. ومن رجال اللغة والنحو الذين أثروا الحياة العلمية وأثروا في من جاء بعدهم: ابن دريد (٨٣٧-

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٩.

(٢) عبد العاطي: مرجع سابق، ص ٢٣١.

٩٣٣هـ/١٤٣٤-١٥٢٧م^(١) صاحب "الجمهرة"^(٢)، و(تلخيص المفتاح) في البلاغة للقزويني^(٣)، و(الكنز) في فقه الحنفية، و(ألفية ابن مالك) في النحو، و(فصيح ثعلب) في اللغة، و(إيساغوجي)^(٤) في المنطق، وكان منظور(ابن مكرم الإفريقي ٧١١هـ/١٣١١م)^(٥) بكتابه لسان العرب الذي يعد من أضخم المعاجم اللغوية وأحفلها مادة، جمع فيه من أمهات كتب اللغة المعروفة مثل: ابن منصور الأزهر صاحب "تهذيب اللغة"^(٦)، والجوهري صاحب "الصاحح"^(٧)، كما قام ابن

(١) ابن دريد: هو أبو بكر محمد الاندي، ولد وتوفي في بغداد، لغوي وشاعر وصاحب "المقصورة" وله (الجمهرة في اللغة) وهو أشهر المعاجم التي صُنفت في القرون الأولى بعد كتاب العين، (معلوف: مصدر سابق، ص ١٨).

(٢) هو: القزويني، محمد بن عبد الرحمن جلال الدين. فقيه شافعي أديب، يعرف بالخطيب، من أحفاد أبي دلف العجلي، ولد بالموصل وتوفي بدمشق، كان قاضي القضاة في مصر ودمشق، حيث ولي =الخطابة بها، له (تلخيص المفتاح) للسكاكي، و(الإيضاح في المعاني والبيان)، (معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم، ص ٥٥١).

(٣) إيساغوجي: يونانية معناها المدخل، وكتاب المنطق معروف باسم المقولات الخمس ألفه يورفيريوس الصورتى تلميذ إفلوطين وهو المختصر المنسوب إلى الفاضل أثير الدين الأبهري(كشف الظنون)، (معلوف: المصدر سابق، ص ١٠١).

(٤) ابن منظور: المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٩. محمد بن مكرم لغوي وأديب ولد بمصر وتولى القضاء في طرابلس، (معلوف: مصدر سابق، ص ١٣، والصفدي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٥٤، وابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج ٤، ص ٣٩، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣٨٨-٥٣٤).

(٥) الأزهرى: هو أبو منصور محمد بن أحمد، ولد في هراة، توفي، ٨٩٠هـ/١٤٨٥م، من علماء اللغة أخذ في مدينته عن محمد بن جعفر المنزري، وفي بغداد عن يفتويه، وعند رجوعه من الحج وقع بالهيرة في قبضة القرامطة فبقي زمناً طويلاً يشقى في الدهناء ويرتج في الصمان، وتعلم عليهم كتاب التهذيب في اللغة وهو معجم من أمهات كتب اللغة، مرتب على نسق الخليل في كتاب العين. (معلوف: مصدر سابق، ص ٣٩).

(٦) الجوهري هو: أبو الفداء أبو نصر إسماعيل، ت ٣٩٤هـ/١٠٠٥م، ولد في غاراب بتركيا، وتوفي في نيسابور، من مشاهير أصحاب المعاجم، عاش زمناً بين قبائل البدو لاسيما ربيعة ومضر فتمكن من اللغة وتحقق معاني الفاظها وكان خطاطاً ماهراً علماً في نيسابور، وأصيب بالسويداء، فرمى بنفسه من على سطح بيته؛ أشهر مؤلفاته: (تاج اللغة وصحاح العربية المعروف بالصاح) وهو معجم جمع فيه نحو أربعين ألف كلمة ترتيبها الأبجدي على أواخر الكلم، وسبقه إلى هذا النسق خاله الفاراني أبو =

منظور بإختصار كثير من كتب التاريخ والأدب مثل: "تاريخ دمشق" لابن عساكر و"الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني. و(أثير الدين أبو حيان الأندلسي المتوفي، ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م)^(١) الذي قدم مصر سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م وتصدر التدريس في جامع الحاكم بالقاهرة، وتحلق حوله الكثيرون وتخرج على يديه جيل من النحاة، ومن أشهر كتبه "إرتشاف الضرب" أي العسل، وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة، وله شرح على ألفية ابن مالك، والممتع لابن عصفور، فضلاً عن كتابه ذائع الصيت "البحر المحيط" في تفسير القرآن^(٢)، وجمال الدين عبد الله بن يوسف، (ابن هشام المصري، المتوفي ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م)^(٣)، والذي بلغ من اعجاب معاصريه به أن قال عنه ابن خلدون وهو بالمغرب: نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه" ولابن هشام مؤلفات في النحو يأتي في مقدمتها "شذور الذهب" و "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" و"أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك"، و"قطر الندى" وكلها كتب معروفة متداولة بين دارسي العربية، وكان يعاصره ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن، المتوفي سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م^(٤)، ومن أهم مؤلفاته شرحه على ألفية ابن مالك المعروف "بشرح ابن عقيل" والمتداول إلى يومنا هذا^(٥)، و(الجلال القزويني

=إبراهيم اسحق، في معجمه (ديوان الأدب). ولايخلو معجمه هذا من الخلل والغلط، فنقحه بعد موته تلميذه إبراهيم بن صالح الوراق، (معلوف: المصدر سابق، ص ٢٢٢).

(١) السبكي: مصدر سابق، ج ٩، ص ٢٧٦، والصفدي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٦٧، وابن شاکر: مصدر سابق، ج ٤، ص ٧١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١١١-١١٥، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٣٤.

(٢) سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف - القاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ١٥١-١٥٢، وضيف، شوقي: مرجع سابق، ج ٥، ص ١١٨.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٧، ص ١٣١٢، و النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣٦١ والمقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٥٥.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٧، ص ٩٤، و النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٠٠، والمقريزي: السلوك، ج ٣، ص ١٦٥، وابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ٣١٨، وابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٢٦٦.

(٥) محمد زغلول: مرجع سابق، ص ١٥٤.

المتوفي ٧٣٩هـ/١٣٣٨م). وأصبحت لشعوب العربية منذ زمن بعيد منذ أواسط العصر العباسي، لغتان مميزتان:-

الأولى: اللغة العامية وهي لغة الشعب التي يتحدث بها جميع أبنائه، في شتى أحوال معاشهم فيما عدا ما سبق، وهي محرفة عن الفصحى، وتتمتع بحرية التطور والتحول حسب مقتضيات الاحوال ولهذا لا تكثر كثيراً بمراعاة القواعد التي تلتزم بها الفصحى.

الثانية. اللغة الفصحى، وهي لغة تسجيل العلم والأدب، والشعر وكتابة الدواوين والغناء؛ وتمتاز بمراعاة نحوها وصرفها وذوقها البلاغي وطرق توليد مفرداتها، والتأني على الدخيل لفظاً وتعبيراً^(١). وقد انقسمت اللغة في استخداماتها إلى:-

١- لغة التخاطب:-

كانت لغة الأوساط الحاكمة تركية كانت أو جركسية لأنها لغاتهم الوطنية، أما في البيئات الشعبية فكانت اللغة العامية المحرفة عن العربية الفصحى، والموروثة عن الأجيال السابقة مع بعض الكلمات والمصطلحات التركية الجركسية. ويتمثل ذلك في^(٢):-

١/ الأزجال^(٣)، وهي أشعار العامية، وما يميزها تفرداً ببعض التحريف الصوتي وإبدال الحروف المتشابهة وإشباع الحركة، فضلاً عن اللحن وترك الإعراب.

٢/ الشعر الفصيح: إن كثيراً من شعراء العصر ضمّنوا أبياتهم الألفاظ والأمثلة السوقية، ما يبين أثر اللغة العامية وثرأها حينذاك في ألفاظها وأمثالها وتعبيراتها.

(١) ابن حجر: الدرر، ج ١، ص ٥٣٦، وسليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، ص ١٦-١٧.

(٢) سليم: مرجع سابق، ص ٢١-٢٣.

(٣) الزجل: درجة من درجات الصوت الصوت في اللغة ذات الجلبة والأصداً ومنها رفع الصوت والجلبة والترنيم. في الاصطلاح، شكل من أشكال النظم العربي، مشتق من أوزان العروض، ومن أشهر الزجالين: إبراهيم الحائك المعماري، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، وأبو عبد الله الغياري، ت ٧٦٢هـ/١٣٦١م.

٣/ أساليب بعض المؤلفين: وإن كانت في جملتها فصيحة معربة، فإن بها لوثة من العامية في كثير من سطورها. ومن ذلك ترى أنها كانت متمكنة من السنة العلماء فلم يستطيعوا تجنبها في مؤلفاتهم. وكتب التاريخ أكثر إلتبائاً بالألفاظ والأساليب العامية وغيرها، ومثال ذلك: خطط المقريري، وبدائع ابن إياس؛ قد اشتد خطر العامية وانتشرت في أواخر عصر المماليك، باعتبارها لغة الشعب، كما لم يستطع العلماء تجنبها في إنتاجهم ليسهل تواصلهم مع العامة^(١).

أ-الخطابة:

جاء في كتاب الخطابة لأرسطو طاليس في تعريف الخطابة: "أنها ضرب من الكلام غايته التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر، وهي حاجة فطرية في الإنسان كالنطق^(٢).

رغم أن فن الخطابة اضمحل انتشاره في عصر المماليك لعدة أسباب منها: تبعية المنطقة العربية لحكم المماليك الأعاجم - زوال الحزبية السياسية بين طوائفه، ولكن مع ذلك فقد ازدهرت بعض ألوان الخطابة العربية الفصيحة^(٣) بفضل الظروف السياسية والدينية والتعليمية والاجتماعية. الأمر الذي أدى إلى الارتقاء بقدرات المتحدثين ورصانة أسلوبهم.

ب - أنواع الخطب

١/ الخطب الدينية المنبرية: وهي خطب الجمع والأعياد، وقد نشط هذا اللون من الخطابة بسبب الغيرة الدينية، التي وجدها المسلمين من حكامهم، بسبب ما تخلل العصر من حروب مع التتار والفرنجة وهما أعداء الدين والمسلمين، وبسبب عناية السلاطين بالمساجد واختيار أفضل العلماء وأشهرهم للخطابة بها. فتجددت معاني

(١) سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، ص ١٢٤.

(٢) أرسطو: كتاب الخطابة؛ تعريب إبراهيم سلامة، مصر مطبعة لجنة البيان ١٩٥٣م، ص ٧٦.

(٣) أمين، محمد محمد: مرجع سابق، ص ١٨٧.

الخطب ومبانيها، بتجدد الموضوعات مثار اهتمام الناس، وصارت جملة ما تجدد من الخطب بالمدارس في الدولة الناصرية إحدى وثلاثين خطبة^(١).

وقد قال ابن شاهين: "قيل إن بمصر والقاهرة داخل السور وخارجه ألف خطبة ونيف عن ذلك"^(٢)، أما المقرئ فيذكر أن عدد المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجداً^(٣) وقال القلقشندي: "إنها أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى"^(٤).

٢/ خطب المبايعة: وكانت تلقى عند مبايعة الخلفاء والولاطين.

٣/ خطب الوفود: كانت تلقى في الاحتفال عند قدوم وفد من بلد آخر، فقد روى أبو المحاسن في كتابه "النجوم الزاهرة": "أن بهاء الدين قاضي الموصل وخطيبها قدم في وفد، فاحتفل الناصر بقدومهم، وزين القصر ليلاً وأوقد فيه الشموع، وقام القاضي كمال الدين وخطب خطبة بليغة موجزة، وذكر آيات في معنى الصلح واتفق الكلمة، ثم إن الناصر أرسل معه وفداً على رأسه القاضي عماد الدين بن السكري خطيب جامع الحاكم"^(٥).

٤/ رسائل التقاليد والبشارات: والتقليد رسالة ديوانية تكتب لأحد كبار موظفي الدولة عند تقلده الوظيفة، والبشارة رسالة ديوانية أيضاً تكتب لزف البشري في أنحاء البلاد بمقدم السلطان أو انتصار الجيش أو وفاء النيل. ورغم أنها رسائل

(١) المقرئ: السلوك، ج٢، ص ٥٤٤ - ٥٤٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٩٨ - ٢١٠، وزبتر شتين: تاريخ سلاطين المماليك، ٦٩٠هـ/٧٤١هـ - ١٢٩١م/١٣٤١م، لم يعلم مؤلفة وربما كان معاصراً للناصر محمد بن قلاوون، ليدن، ١٤١٢هـ/١٩١٩م، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) ابن شاهين: غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهري، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، وزبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، مطبعة الجمهورية، باريس ١٣١٢م/١٨٩٤م، ص ٢٤٥.

(٣) المقرئ: الخطط، ج٢، ص ٢٣٤.

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج٣، ص ٣٦٥.

(٥) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج٩، ص ٢١٣.

إنشائية إلا أن كثيراً منها كان يتلى على المنابر، ويلقى بين الجماهير كالخطب سواء بسواء^(١).

٥/ خطب الزواج: وكانت ذائعة لضرورتها الدينية.

ج- من أشهر الخطباء في تلك الفترة:

١/ عز الدين بن عبد السلام "٦٦١هـ/١٢٦٣م" وكان خطيباً بالجامع الأموي^(٢)، قال عنه تلميذه أبو شامة: "كان أحق الناس بالخطابة والإمامة".

٢/ تقي الدين بن بنت الأعز "٦٩٥هـ/١٢٦٧م" ولي خطابة الجامع الأزهر.

٣/ تقي الدين بن دقيق العيد القشيري "٧٠٣هـ/١٣٠٣م" كانت له نزعة خطابية مؤثرة، وهو واعظ عاطفي مثير. وذكر تاج الدين السبكي في طبقاته: "أن له ديوان خطب مفرداً معروفاً"^(٣).

٤/ جلال الدين القزويني "٧٣٩هـ/١٣٣٨م" كان خطيب دمشق وإشتهر بالخطابة حتى لقب بالخطيب^(٤).

د - نماذج من خطب العصر:

١- خطبة الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله "الأول". وهي خطبة منبرية خطبها يوم الجمعة غداة مبايعته بالخلافة ومبايعة السلطان الظاهر ببيرس بالسلطنة. وموضوعها وصف جرائم التتار ببغداد وحض الناس على قتالهم، جاء فيها:

"الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركناً ظهيراً، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً، أحمدته على السراء والضراء وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، واستتصره

(١) سلام، محمد زغلول: مرجع سابق، ج ١، ص ١٣٢.

(٢) حمزة، عبد اللطيف: الحركة الفكرية في مصر العصريين الأيوبي والمملوكي الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ٢٠٤.

(٣) حمزة، عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٣١٥.

على الأعداء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء.. إلخ"، ثم قال: "أيها الناس: اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد. ولا سببت الحرم إلا بانتهاك المحارم. ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم. فلو شاهدتم أهل الإسلام، حيث دخل "التتار" دار السلام واستباحوا الدماء والأموال وقتلوا الرجال والأطفال. وهتكوا حرم الخلافة والحريم وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضججات من هول ذلك اليوم الطويل. فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه. وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمروا ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد^(١)، قال تعالى: ﴿اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).

٢- خطبة زواج كتبها الأديب الشاعر زين الدين بن الوردي، في عقد قران أحد بني النصيب على بنت عمه قال:

"الحمد لله الذي أطلع في منازل الشرف شمساً مصوبة البهاء والضياء وأبدع لشرف تاجه البديع درة مكنونة في بحر الحياة والحياء، ومنحه عقداً زان به جيد الوجود، وجمع الشمس والقمر في سعود الطالع، وطالع السعود... إلخ" ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال: "وبعد، فإن أولى ما بادر إليه أولوا الأحلام، وتتافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام، ما كان لكثير الأمة متضمناً، وبفضله العاجل والأجل نافعاً نفعاً بيناً. و هي سنة النكاح التي عظمت بها المنة، وأثنى عليها لسان الكتاب وأشارت إليها يد السنة. و خصوصاً بنات العم التي أرشدت قصة البتول عليها السلام إليها، وأحسن أن يتلى لها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

(١) ابن إياس: مصدر سابق، ج ١، ص ٣١٧.

(٢) سورة التغابن : الآية ١٦.

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

أنفسكم أنزواجاً تسكنوا إليه»^(١)، فإن بنات العم أجدى بالصحة وأجدر؛ وأوفى بالمودة وأوفر، وأوصى إلى العهد وأصبر. سيما من حازت كرم الأوائل والأواخر، وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر، وأصبحت سليلة الأعيان والأكابر^(٢).

هـ - ملاحظات عامة واستنتاجات حول مجالات الخطابة:-

١/ إن أساليب الخطابة كانت جارية على النمط البديعي، الذي كان متبعاً في الشعر حينذاك، وأنها كانت تتميز بالرونق والتأنق والجزالة على الرغم من تكلف البديع وإنها كانت أميل إلى الأطالة.

٢/ إن خطب المبايعة ورسائل التقليد، كانت تحتوي على جملة أغراض جزئية عدا غرضها الرئيس وهو المبايعة مثل: بيان اختصاص الموظف والثناء المستطاب عليه، وبيان إختياره لمنصبه، ووصيته برعاية الأمانة في عمله وغير ذلك^(٣).

٣/ وإن ما يشبه الخطب كذلك: النصائح والوصايا، وكان يكتبها بعض العلماء الغيورين على دينهم إلى السلاطين وأشباههم بدعوتهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتباع العدالة في معاملة الرعية، وقد كتب محي الدين النووي إلى الظاهر بيبرس أكثر من نصيحة.

٤/ المناظرات والمجادلات المذهبية، وهي تشبه الخطب وقد انتشرت بين بعض أرباب المذاهب، مثال ما دار بين ابن تيمية الحراني وخصومه من الجدل والمناظرة، كتابة وشفاهة، بسبب فتاويه^(٤).

٥/ إن خطب الوفود تعتبر ضرباً من الخطب السياسية إلا أنها نادرة الوقوع.

(١) سورة الروم: الآية ٢١ .

(٢) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣١١.

(٣) سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٣-٢٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٥-٢٦

٦/ إن الخطب كانت في أكثرها مكتوبة معدة، ولم تكن مرتجلة، ففي إشارة المؤرخين للخطيب مثلاً: "إنه يخطب من إنشائه" مما يعني أنه يعد الخطبة قبل إلقائها، كما يعني أن بعضهم كان يخطب من إنشاء غيره.

٢- الكتابة :-

حافظت الكتابة على مكانتها في هذا العصر وتطورت لتواكب حاجة الدولة وحاجة الشعب، فصارت سجلاً حافلاً وترجماناً صادقاً للحياة العلمية والعملية في مصر المملوكية وذلك للأسباب الأتية^(١): أ/ ما اتسمت به الكتابة العربية في سابق أيامها من سماحة وكرم، ومن كفاية ومقدرة، ومن مرونة ومرانة، وطول مزاوله؛ لأداء هذه الحاجات في الدولة الإسلامية المتعددة، فكانت لسان الحضارة في الدولة العباسية وغيرها؛ وكانت أداة العلم والأدب فيها.

ب/ ضعفت الكتابة التركية - وهي لغة الحاكمين - عن أن تنهض بهذه المسؤولية الضخمة التي تتطلبها منها الدولة فضلاً عن الشعب.

ج/ إن الكتابة العربية كانت آنذاك الوسيلة الطبيعية والإدارية الوحيدة، التي بها يستطيع الحكام الأعاجم أن يتفاهموا بها مع شعوبهم العربية والإسلامية، ومع من حولهم، ولهذا اتخذت اللغة الفصحى وسيلة للتعبير في شتى شؤون الدولة، فانتسج لها بذلك مجال العمل والظهور^(٢).

(١) سليم، محمود رزق: المرجع السابق، ص ٢٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٨-٢٩.

مقدمة

العلوم العقلية^(١) هي التي اصطلح العلماء على تسميتها بالعلوم الدخيلة^(٢) أو بعلوم العجم أو بعلوم الأوائل، لأنها لم تظهر مع بداية الإسلام، وإنما عرفت من خلال الإحتكاك بشعوب البلاد المفتوحة^(٣).

الكتابة العلمية :

وهي الإنتاج العلمي وكتابة المؤلفات غير الأدبية مثل كتب الفقه والحديث والإصول والمنطق والتاريخ والطب والهندسة والحساب والفلك وغيرها. والكتابة العلمية تهتم بذكر الحقائق والمعلومات العلمية وصواب عرضها على القارئ لتستقر في ذهنه على نسق خاص، ولذا لا تلقي بالاً إلى الإطار اللفظي والتعبيري الذي تضعها فيه، ولا تكثر بجمال الإخراج، ولهذا لا تروج لديها بضائع البديع ولا سلع التشبيه والمجاز ولا طرائق المبالغات والتهاويل، بل إن هذه تفسد ما تعرضه من حقائق ومعلومات وتشغل بال القارئ عن أهدافها الأصلية^(١).

(١) ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ١٣٥ .

(٢) زيدان، جرجي: تاريخ التمدن، ج ٣، ص ٤٧٨، وحسن، إبراهيم: مرجع سابق، ج ١، ص ٤٩٦.

(٣) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ١، ص ١٣٣.

أولاً: الطب والاطباء:-

إنهمك الغرب في الفترة التي أعقبت سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد في ترجمة كتب العصر العباسي الشهير إلى اللاتينية بينما تراجع التأليف الطبي باللغة العربية، بشكل ملحوظ إلا أن الأبحاث التراثية الأخيرة أثبتت أن العصر المملوكي تمتع بعلماء أفاضل ألفوا في تاريخ العصر العباسي، أمثال الرازي، والمجوسي، وابن سينا، والسمرقندي، وغيرهم.

يعد ابن النفيس^(٢) ٦٨٧هـ/١٢٨٨م أهم طبيب وسم بداية العصر المملوكي بشروحاته وملخصاته لقانون ابن سينا، لذا دأب لاحقوه على شرح كتاب الموجز الذي ألفه مختصراً به كتاب القانون لابن سينا، أمثال الكازروني، ت ٧٥٨هـ/١٣٥٧م^(٣)، والإسرائي ت ٨٠٠هـ/١٣٩٨م، والأمشاطي

(١) سليم، محمود رزق : مرجع سابق، ص ٤٣.

(٢) ابن النفيس: علاء الدين علي بن أبي الحزم، المعروف بأبي الحسن ابن النفيس، طبيب وكحال وعالم موسوعي، وفيلسوف، ولد بدمشق سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، درس الطب في دمشق على مشاهير العلماء، وخصوصاً على مهذب الدين الخوار، ثم نزل مصر ومارس الطب في المستشفى الناصري ثم المستشفى المنصوري، الذي أنشأه السلطان قلاوون، حيث أصبح عميد أطباء هذا المستشفى (السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٢٨، والزركلي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٥٨ و السيوطي: حسن المحاضرة، ص ١٨٢) .

(٣) الكازروني: أحمد بن محمد بن خضر العمري الشافعي، نور الدين الكازروني، مفسر، جاور بمكة له كتاب (السرط المستقيم) في تفسير القرآن، (حاجي: كشف الظنون، ص ١٠٧٧، والزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٢٣٢) .

ت ٩٠١ هـ/ ١٤٩٦ م^(١)، كما اشتهرت مؤلفات معاصريه، كأبن القف الكركي^(٢)، صاحب كتاب (عمدة الإصلاح في صناعة الجراح)، الذي جعل منه أعظم جراحي العرب بعد الزهراوي، كما اشتهر بمؤلفه الذي سماه (جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض)، الذي عده الناقدون أهم مرجع في الصحة العامة في ذلك العصر. ومن الأطباء الكبار محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري السخاوي^(٣)، وابن الأكفاني^(٤) أبو عبد الله: طبيب وباحث وعالم بالحكمة والرياضيات والكيمياء والفلك. ولد ونشأ في سنجار^(٥)، وسكن القاهرة حيث أشرف على خزانة العقاقير في البيمارستان المنصوري. توفي في القاهرة سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م، أهم كتبه في الطب والعلوم الأخرى:-

١- روضة الألبا في أخبار الأطباء: اختصر وأكمل به عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة.

(١) الأمشاطي: محمود بن أحمد بن حسن بن إسماعيل ، مظفر الدين أبو التثاء العيني، عالم بالطب وفنون القتال، ولد وتوفي بالقاهرة واشتغل بالطب ودرس بجامع طولون والمنصورية، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٢٨، والزركلي: الأعلام، م ٧، ص ١٧٣) .

(٢) أحمد خير الدين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن جبريل، الشافعي المتصوف صاحب كتاب (الحدق في لبس الخرق) و(شرح الحكم العطائية) الزركلي: الأعلام، م ١، ص ٢٣٢.

(٣) السخاوي، نسبة إلى سخا في دلتا النيل حيث أقام مدة من الزمن، (السبكي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٩).

(٤) هو: محمد بن إبراهيم المصري بن ساعد الأنصاري شمس الدين أبو عبد الله السنجاري، طبيب، وعالم جواهر، اشتهر في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ولد في بلدة سنجار بالعراق وإليها نسب. كان أبوه يمتهن حرفة صناعة الأكفان فعرف بابن الأكفاني، = طلب العلم فتفوق في عدة فنون وأتقن الرياضيات والحكمة، فكان إماما في الفلك والهندسة والحساب. كما كان من أفضل علماء عصره وأعلمهم بدراسة العقاقير الطبية وأنجحهم في مداواة الناس، ومستحضراً للتواريخ والأخبار، وحافظاً للأشعار، وله في فنون الآداب تصانيف كثيرة، (لأعلام: الزركلي، ج ٦، ص ١٨٩، وابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٢٣).

(٥) سنجار: بلدة في الجزيرة الفراتية على الحدود السورية العراقية (موسى الهسنياني، سنجار، دراسة في تاريخها السياسي والحضاري، ١١٢٦-١٢٦١ م العراق اربيل ٢٠٠٥ م، ص ١٩١).

٢- غنية اللبيب في غيبة الطبيب: وهو كتاب في حفظ الصحة والتحرز من الأمراض ومعالجتها حيث لا يوجد طبيب، أي في الطب المنزلي والإسعافي. وقد طبع في جامعة بغداد عام ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ونسخته الخطية في بيروت بالجامعة الأمريكية ومنها صورة في معهد التراث بحلب، وفي دار الكتب المصرية ولوس أنجلوس وغوتا وأحمد الثالث بإسطنبول.

٣- كشف الرين في أحوال العين: وهو مختصر في طب العين ويتألف من ثلاث مقالات: في كليات العين، وفي أمراض العين، وفي أدوية العين المفردة والمركبة. طبع بتحقيق محمد قلعه جي ومحمد وفائي بالرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٤- نهاية القصد في صناعة الفصد: ومخطوطاته في الأحمديّة بحلب ومنها صورة في معهد التراث، وفي تونس وفي دار الكتب المصرية برقم (٤٨/٦) وفي بيروت^(١).

٥- إرشاد القاصد إلى أسمى المقاصد: وهو رسالة في مختلف العلوم، طبعت في بيروت وكلكتا، وترجم القسم المتعلق بعلم النجوم إلى الألمانية عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.

٦- نخب الذخائر في أحوال الجواهر: حققه لويس شيخو وطبعه الأب أنستاس الكرملّي في بغداد عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م، ثم أصدرته دار مكتبة لبنان ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٧- كتب أخرى: الدرر النظيم في أحوال العلوم والتعليم، النظر والتحقيق في تقليب الرقيق، اللباب في الحساب وغيرها.^(٢)

كما اشتهر كذلك خضر بن علي بن مروان بن علي الخطّاب، حسام الدين الأيديني أو (الأيديني) حاجي باشا المتوفي سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م^(١) طبيب تركي

(١) حاجي: كشف الظنون، ص ١٠٧٨

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٢٧٩، والزركلي: الأعلام، م ٥، ص ٢٩٩.

تعلم في القاهرة المملوكية وخدم الدولة العثمانية الناشئة في النصف الثاني من القرن الثامن طيبب متكلم من علماء الحنفية، أصله من قونية ومولده في أيدين في الأناضول، سافر إلى مصر لتعلم الفقه فأصيب بمرض مما حمله على تعلم الطب بعد شفائه منه في القاهرة. مارس القضاء والطبابة في سراي قونية التي كانت عاصمة الدولة العثمانية آنذاك. من أهم كتبه في الطب^(٢):

- ١- شفاء الأسقام ودواء الآلام: وهو أهم مؤلفاته الذي ألفه في القاهرة المملوكية.
- ٢- التعاليم في الطب: وهو أول مؤلفاته وثاني أهم كتبه بعد شفاء الآلام، وتوجد منه عدة مخطوطات في تركيا أهمها مخطوطة مكتبة أحمد الثالث في طوبقابي بإسطنبول المحفوظة برقم (١٩٤٧) والمؤلفة من (١٥١ ورقة)، بخط المؤلف سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م، وقد كتبها عندما كان في المدرسة الشيخونية بالقاهرة، وهناك مخطوطة أخرى محفوظة في مكتبة طرخان في جامع السلیمانیة بإسطنبول برقم (١/٢٥٨)، وهي بخط المؤلف كتبها سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م^(٣).
- ٣- التسهيل في الطب: وهو مختصر لكتاب شفاء الأسقام كتبه بالتركية.
- ٤- الفريدة في ذكر الأغذية المفيدة.

- ٦- أرجوزة في الطب طبعت في اسطنبول.
- ٧- كتب أخرى: اختيارات الشفاء والتعاليم في الطب والكي في الطب وكناشة الجلال...وله كتب أخرى في المنطق والفقه الحنفي أهمها: حاشية على لوامع

(١) حاجي باشا الأيدنلي ت ٨١٦هـ/١٤١٣م، فقيه نسبة إلى أيدين من نعاصري السلطان بايزيد الأول تعلم في القاهرة وأتقن الطب إلى أن أصبح كبير أطباء مارستان مصر، من مؤلفاته (الشفاء)، (معلوف: المنجد، ص ١٠٠).

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج ١، ص ٣٠٢، وعيسى، أحمد بك (دكتور): تاريخ البيمارستان في الإسلام، وقد طبع الكتاب طبعة ثانية، مصورة، في مطبعة دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ١٦٥.

(٣) الزركلي: الأعلام، ج ٢، ص ٣٠٧.

الأسرار وحاشية على شرح قطب الدين الرازي لمطالع الأنوار في المنطق والحكمة وشرح طوابع الأنوار للبيضاوي في علم الكلام ومجمع الأنوار في جميع الأسرار في تفسير القرآن، ومسالك الكلام في مسائل الكلام.... كما اشتهرت القاهرة المملوكية بأطباء تخرجوا في مدارس الطب بالقاهرة. كما أن تدفق الأموال على البلاد نتيجة انتعاش التجارة صحبه ازدهار كبير سواء في بقية النشاط الاقتصادي كالزراعة، والصناعة، أو في بعض العلوم التي جمعت بين المهارة في فن الصناعة والدقة في تطبيق العلم على العمل ومن أبرزها علم الطب^(١).

ابن قيم الجوزية^(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي، شمس الدين أبو عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية ٦٩١-٧٥١هـ/١٢٩٢-١٣٥٠م، نسبة إلى أبيه الذي كان قيماً على المدرسة الجوزية، أول من كتب في علم تطور الجنين والوراثة بشكل موضوعي من أركان الإصلاح الإسلامي وأحد كبار العلماء، وعالم مشارك في علم الحياة والطب. مولده في دمشق حيث نشأ وتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه وطيف به على جمل مضروباً بالعصي وأطلق سراحه بعد موت ابن تيمية. كان حسن الخلق محبوباً عند الناس، شغف بحب الكتب فجمع منها عدداً عظيماً، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً، كما ألف تصانيف كثيرة في الطب والفقه والأدب، وله نظم جميل. دفن في سفح جبل قاسيون بدمشق. من تصانيفه المطبوعة في الفقه والحديث والأدب: أخبار النساء، وإعلام الموقعين، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية، وشفاء العليل في مسائل

(١) السيوطي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٨٦، وعاشور، سعيد: مصر في العصور الوسطى، من الفتح العربي حتى الغزو العثماني دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٥٤٧-٥٤٨، وعاشور، سعيد: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، مرجع سابق، ص ٣٢-٣٣.

(٢) الزركلي: الأعلام، ج ٦، ص ٥٦، وبروكلمان: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٦٢.

القضاء والقدر والحكمة والتعليل، وروضة المحبين، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، وغيرها كثير^(١). من تصانيفه في الطب:-

١- تحفة الموجود بأحكام المولود.

٢- الطب النبوي: من أشهر الكتب في هذا الموضوع، وأهم طبعاته ما حققه عبد المعطي قلعه جي في القاهرة عام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، كما طبعته دار الكتاب المصري اللبناني عام ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٣- كتاب الداء والدواء: ويسمى كذلك الجواب الكافي، وقد طبعته دار الكتاب المصري بتحقيق عبد الغفار سايم في القاهرة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٤- كتب أخرى: زاد المعاد في هدي خير العباد، بتحقيق شعيب الأرنؤوط- معجم النداوي بالأعشاب والنباتات الطبية.

ومن الأطباء داود الموصلي^(٢) داود بن ناصر الأغبري الموصلي الحصكفي توفي بعد سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م، طبيب من أهل الموصل، أقام في حصن كيفا حتى وفاته، وهو يلقب بطبيب الدولتين. ومن أهم كتبه في الطب:-

١- روضة الألبا في تاريخ الأطباء: جعله ذيلاً لطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ومخطوطته في دار الكتب المصرية وفي برلين، حققه عبد الكريم أبو شوירب ولم ينشر بعد.

٢- نهاية الإدراك والأغراض من الأقرباذينات: فرغ منه سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م.

٣- خاص الخاص الملتقط من خواص الخواص، في الطب.

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٠٠، والسيوطي: بغية الوعاة، ص٢٥، وابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٣٤، وابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٦٨، والزركلي: الأعلام، م٥، ص٥٦.

(٢) الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٣٣٥، وحاجي، خليفة: كشف الظنون، ص١٩٨٥، وبروكلمان: مصدر سابق، ج٢، ص٢١٩.

٤ - الرسالة الأحمدية في الفراسة الإنسانية وعلماء الفلكية^(١).

ومنهم ابن الوردي عمر بن المظفر بن الوردي الكندي المعري الحلبي، زين الدين أبو حفص ٦٩١-٧٤٩هـ/١٢٩١-١٣٤٨م، طبيب وباحث في علوم النبات ومؤرخ وجغرافي وشاعر. ولد بمعرة النعمان ودرس في حماه، ثم ولي القضاء في حلب حيث توفي. وهو صاحب اللامية المشهورة:-

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقُل الفصلَ وجانبَ مَنْ هزلَ
ودع الذكرَ لأيام الصِّبا فلأيام الصِّبا نجمٌ أفلَ^(٢)
من مؤلفاته في الطب والعلوم الأخرى:-

١ - رسالة في الطب: ومخطوطته في مكتبة بن عاشور بتونس.

٢ - كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب: صنفه بحلب، وبحث فيه عن المعادن والنبات والحيوان والبلدان. ترجم إلى اللاتينية وطبع عام ١٢٤١هـ/١٨٢٤م، قبل طبعه بالعربية عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، من قبل المستشرق تورنبرغ، كما طبع في القاهرة طبعات كثيرة أولها سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م^(٣).

٣ - منافع النبات والثمار والبقول والفواكه، ومخطوطته كذلك في تونس، ولعل الكتاب هو نقل للفصول المتعلقة بالنبات وفوائده من كتاب خريدة العجائب^(٤).

(١) بروكلمان: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٦٥.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٩٨، والزركلي: الأعلام، ج ٥، ص ٢٢٨، وبروكلمان: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٦٢.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٦٨، خليفة: كشف الظنون، ص ١٩٨٦.

(٤) هو: يوسف بن محمد بن مسعود بن العبادي السرمري، (الحافظ أبو الفضل تقي الدين محمد، ت ٨٧١هـ/١٤٦٧م): لحظ الألاحظ بزيل طبقات الحفاظ، دار الفكر الإسلامي، دمشق، ط ٣، = ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ١٦١، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٤٩، والزركلي: الأعلام، م ٨، ص ٢٥٠).

ومنهم الطبيب يوسف السرْمَرِّي^(١) يوسف بن محمد بن مسعود العبادي السرْمَرِّي الحنبلي، جمال الدين أبو المظفر ٦٩٦-٧٧٦هـ/١٢٩٧-١٣٧٤م، محدث وحافظ وفقيه ونحوي وناظم ومشارك في الطب والعلوم. ولد بسر من رأى وتفقّه ببغداد، وأخذ عنه ابن رافع، وتوفي بدمشق. من تصانيفه الكثيرة في الطب:-

١- شفاء الآلام في طب أهل الإسلام: وهو في الطب الإلهي والنبوي والبقراطي والجالينوسي، مع ذكر للأدوية والأمراض ومداواتها حسب ما ورد في كتب الطب الدينية والتقليدية. ومخطوطاته في مكتبة الفاتح باسطنبول مصورة في معهد التراث بحلب، ومكتبة صمصون بتركيا وجامعة لوس أنجلوس. والكتاب لم يحقق بعد رغم أهميته الدينية والتراثية^(٢).

٢- الفوائد السرمرية، وغيث السحابة في فضل الصحابة، ونهج الرشاد في نظم الاعتقاد، وصاح الأحكام وسلاح الحكام، الحمية الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية في الفقه والحديث....الخ.

ومن الأطباء، صدقة بن إبراهيم الشاذلي، الشهير بالمصري توفي ٧٩٢هـ/١٣٩٠م، طبيب كحال، اشتهر بمؤلفه في طب العيون المسمى "العمدة الكحلية في الأمراض البصرية" وقد فرغ من تأليفه سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م، والذي يتألف من خمس جمل:

- ١- في تشريح العين ووظائفها.
- ٢- في بعض الكليات المتعلقة بالعين.
- ٣- في أمراض العين الواقعة تحت الحس.
- ٤- في أمراض العين غير الظاهرة للحس.

(١) الزركلي: الأعلام، ج٨، ص ٢٥٠.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص ١٩٩، خليفة: كشف الظنون، ص ١٩٨٩.

٥- في أدوية العين^(١).

صلاح الدين بن يوسف الكحل صاحب كتاب "نور العيون وجامع الفنون" صنفه حوالي سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م. وقد قسمه إلى أبواب في وصف العين، والبصر، والأمراض، وأسبابها وأعراضها، وحفظ صحة العين، وأمراض الجفون، والملتحمة، والقرنية، والحدقة، وأمراض العين التي لا تقع تحت الحواس، وأدوية العيون. وقد أخذ عن أفضل من كتب عن العين من حيث الجانب الفيزيائي وهو الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م)، وامتاز وصفه للعين بالدقة. كما بحث في قضايا البصريات وفي طبيعة النظر، وقال: "إن النور يدخل العين لا يخرج منها كما كان يعتقد، وأن شبكية العين هي مركز المرئيات، وأن هذه المرئيات تنتقل إلى الدماغ بوساطة عصب البصر، وأن وحدة النظر بين الباصرتين عائد إلى تماثل الصور على الشبكيتين..."^(٢).

ومن الكتب التي اشتهرت كتاب ألفه أحد أطباء العيون في مصر، وهو القاضي فتح الدين أبو العباس القيسي (ت ٦٥٧هـ/١٢٥٨م) وكان يلقب برئيس الأطباء المصرية^(٣). ويحتوي كتابه على ١٥ فصلاً في علم الرمد. وكذلك كتاب الكافي في الكحل لخليفة بن أبي المحاسن الحلبي وألفه بين عامي ٦٥٤—٦٧٤هـ/١٢٥٦—١٢٧٥م.

عائلة بن صغير

اشتهرت عائلة ابن صغير بأنها أنجبت العديد من الأطباء الذين ترأسوا الطب في بيمارستان القاهرة؛ وعلى الرغم من قلة المؤلفات الطبية لأطباء بني صغير إلا أن شهرة العائلة تكمن في أنها قدمت أطباء عالجا سلاطين المماليك وأمراءهم، كما أن أحد أفرادها وهو علاء الدين بن صغير اشتهر بعلاجه للسلطان العثماني بايزيد بن مراد في القسطنطينية.

(١) بروكلمان: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٧.

(٣) انظر الملاحق جدول ، ص ٣٦٧.

وفيما يلي أهم أطباء هذه العائلة المؤلفة من عدة فروع حتى نهاية القرن التاسع للهجرة، علماً أن الأسماء والألقاب قد تختلف حسب المرجع:

١- ناصر الدين ابن صغير^(١) محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير، ناصر الدين المصري ٦٩١-٧٤٩هـ/١٢٩١-١٣٤٨م، أول من اشتهر من عائلة ابن صغير الطبية، وقد اشتهر بعلاجه للأمير المملوكي الطنبغا المارداني في حلب سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م، كما ورد في الضوء اللامع^(٢).

٢- علاء الدين بن صغير علاء الدين علي بن عبد الواحد بن محمد بن صغير، توفي ٧٩٦هـ/١٣٩٤م، وهو أشهر أطباء بني صغير، إذ ولي رئاسة الأطباء بالديار المصرية ثم توجه إلى حلب كي يكون في خدمة الملك الظاهر برفوق الذي أرسله بدوره إلى بلاد الروم ليعالج الملك بايزيد بن مراد من مرض في مفاصله، وبعد إتمام مهمته عاد إلى حلب حيث توفي سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م، لكن جثمانه نقل إلى القاهرة حيث دفن. قال عنه السيوطي: ابن صغير، الرئيس علاء الدين علي بن عبد الواحد بن محمد الطبيب، كان أعجوبة الدهر في الفن. ولي رئاسة الطب دهرًا طويلاً، وله فيه المعرفة التامة، بحيث كان يصف الدواء الواحد للمريض الواحد بما يساوي ألفاً وبما يساوي درهماً، وكان الشيخ عز الدين بن جماعة يثني على فضائله. مات في ذي الحجة سنة ست وتسعين وسبعمائة^(٣). وقال عنه المقريزي: وفي سنة سبع وتسعين وسبعمائة مات الرئيس علاء الدين علي بن عبد الواحد بن محمد بن صغير رئيس الأطباء، وهو بحلب، في يوم الجمعة تاسع عشر ذي الحجة، ودفن بها، ثم نقل إلى القاهرة، وكان من محاسن الدنيا^(٤).

٣- عبد الرحمن بن صغير عبد الرحمن بن ناصر بن صغير. قال عنه السخاوي إنه ترأس الطبابة، توفي بعد سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م^(٥).

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٥٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٠٢.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة ج ١، ص ١٨٤.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٤٦٤.

(٥) عيسى، أحمد: معجم الأطباء - دار الرائد العربي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٢م، ص ٢٦٤.

٤- شمس الدين بن صغير محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد الطبيب الفاضل شمس الدين بن صغير ٧٤٥-٨٢٣ هـ/١٣٤٤-١٤٢٠ م، ولد في مكة وكان أبوه فراشاً فمال إلى الطب وحفظ الموجز لابن النفيس وشرحه وتصرف في معالجة المرضى وصحب البهاء الكازروني وغيره من المتصوفة، فمهر وتعلق بالزكي الخروبي التاجر وجاور معه بمكة فأجزل له من المال بحيث إنه دفع له مرة في مجاورته معه ألف مثقال ذهب هرجه دفعة واحدة. ذكره المقريزي وقال: كان يتردد إلي كثيراً وله ثروة وحسن شكالة. مات بعد مرض طويل في عاشر شوال سنة ثلاث وعشرين؛ ثم ساق عنه أشياء جمعتها أنه رأى في مباشرته المرستان، شاباً حسن الهيئة جميل الصورة غل في عنقه بسلسلة فقال له: ما حالك فأنشده:

يعاندي دهري كأي عدوه وفي كل يوم بالكريهة يلقاني
فإن رمت شيئاً جاعني منه ضده ... وإن راق لي يوماً تكرر في الثاني
من آثاره: شرح الموجز في الطب لابن النفيس^(١).

٥- الشمس بن صغير محمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن عبد الواحد بن صغير، الشمس أبو عبد الله بن العلاء أبي الحسن ٧٥٥-٨٣٩ هـ/١٣٥٤-١٤٣٥ م، طبيب المهنة مارس في البيمارستان في خدمة السلطان قلاوون بالقاهرة، وهو والد الكمال وابن العلاء ابن صغير. تميز في الطب وتدرّب على يد ابن جماعة، كما ألف في الطب كتاباً أسماه (الزبد في الطب)، وقد عرض ابنه هذا الكتاب في جملة محافيطه على ابن جماعة وغيره في سنة ٨١٦ هـ/١٤٠٦ م^(٢).

٦- الكمال ابن صغير، محمد بن محمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن عبد الواحد بن صغير ٧٨٥-٨٩١ هـ/١٣٩٣-١٤٨٦ م، الكمال بن الشمس بن العلاء. وهو حفيد رئيس الأطباء علاء الدين. عمل في الكحالة في بيمارستان قلاوون. حفظ القرآن والعمدة والخرقى وألفية النحو والموجز في الطب واللمحة العفيفية في الأسباب والعلامات في الطب وفصول أبقرات ومقدمة المعرفة وتشريح الأعضاء،

(١) المقريزي: مصدر سابق، ص ٤٦٥.

(٢) عيسى، أحمد بك: بيمارستانات الإسلام، ص ١٦٢، و السخاوي: الضوء اللامع في أخبار القرن التاسع ج ٩، ص ١٥٠٠.

وكتاب والده المسمى الزبد في الطب، وعرضها في سنة ست عشرة على العز بن جماعة. سافر مع الركب السلطاني إلى آمد وحج غير مرة. كف بصره في آخر أيامه ثم أقعد حتى مات في القاهرة وهو ابن ست وتسعين^(١).

٧- عمر بن صغير، عمر بن محمد بن علي بن عبد الواحد، السراج بن البدر بن الرئيس العلاء بن صغير توفي ٨٦٧ هـ/١٤٦٢ م، وهو حفيد الرئيس علاء الدين بن صغير، وابن عم الشمس بن صغير وقريب الكمال بن صغير. أخذ الطب عن عمه والعز بن جماعة وصحب البدر الطنبدي، وتميز في الطب وعالج المرضى واستقر في رئاسة الطب مدة. وفي أواخر أيامه كف بصره ثم قدح له فأبصر وعمر ستاً وتسعين سنة. مات سنة سبع وستين^(٢).

٨- السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد الخضير السيوطي الشافعي. كانت ولادته في مستهل رجب عام ٨٤٩ هـ/تشرين الأول ١٤٤٥ م، في القاهرة حيث كان أبوه يدرس الفقه في المدرسة الشيخونية. نشأ يتيماً، فقد توفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر. وأسندت وصايته إلى أحد مشايخ الصوفية من أصدقاء أبيه، وقد حفظ القرآن وله من العمر ثماني سنوات. وشرع في الاشتغال بالعلم عام ٨٦٤ هـ/١٤٢٥ م، فقرأ على الشمس السيرافي صحيح مسلم، ومنهاج النووي، ومنهاج البيضاوي، والشفاء وألفية ابن مالك، كما قرأ على غيره كثيراً من المؤلفات الدينية في أصول الفقه وشرح العقائد. أما العلوم المتصلة بأمور الدنيا والتي اهتم بها السيوطي فكان منها علم الفرائض والحساب، قرأها على العلامة الشهاب الشارماجي، وقرأ علم التوقيت على محمد الميقاتي، والطب على محمد بن إبراهيم الدواني. من اعتقاده الذي ألّب عليه العلماء في عصره أنه ادعى رؤية الرسول في اليقظة والنام، وله رسالة في ذلك. بدأ السيوطي دراسته في القاهرة، وأتمها منتقلاً بين بلدان مصر، وحاجاً إلى مكة المكرمة سنة ٨٦٩ هـ/١٤٣٠ م. ثم عاد إلى القاهرة واشتغل ببذل المشورة في المسائل الفقهية. وتولى بعدها منصب التدريس في المدرسة الشيخونية

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٥٠٢، وعيسى، أحمد: معجم الأطباء، ص ٤١٠.

(٢) السخاوي: مصدر سابق، ج ٩، ص ١٥٠٢.

عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م. ولما بلغ الأربعين من عمره أعفى من التدريس، فاعتزل الناس، واعتكف في دار للعبادة (خانقاه) في جزيرة بالنيل، حيث انصرف للتأليف والتصنيف. كان السيوطي عفيفاً كريماً غني النفس، متباعدًا عن ذوي الجاه والسلطان، لا يقف بباب أمير ولا وزير، قانعاً برزق ضئيل. وكان بعض الأمراء والوزراء والأغنياء يزورونه، ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها^(١). وروي أن السلطان الغوري أرسل له مرة خصياً وألف دينار. فرد الدينار وأخذ الخصي ثم أعتقه. وقال لرسول السلطان: لا تعد تأتينا بهدية، فإن الله أغنانا عن ذلك^(٢). نشأ الإمام السيوطي في عائلة اشتهرت بالعلم. وحينما شبّ ونضج كانت إقامته في مؤسسة علمية دينية خيرية تدعى الشيخونية. وكان فيها مكتبة عامرة، يرتادها كثير من العلماء وطلبة العلم.

عدد السيوطي في أحد مؤلفاته، أسماء العلوم الدينية واللغوية والإنسانية، التي رزق نعمة التبخر بها. وصرّح بعجزه عن إدراك قضايا الحساب، وكراهيته لعلم المنطق.

ومن مزايا السيوطي أنه ذكر أسماء جميع الأساتذة العلماء، الذين أخذ عنهم بعض العلوم الأساسية والتطبيقية، ففي العلوم المتعلقة بالحساب قرأ الميقات أيضاً على الشيخ مجد الدين إسماعيل بن السباع. وقرأ الطب على محمد بن إبراهيم الدواني، وكان طبيباً قدم إلى القاهرة من بلاد الروم.

وجلال الدين السيوطي لم يعرف عنه أنه مارس الطب، ولكن شغفه بالمطالعة والتأليف والتلخيص شجعه على وضع بعض المؤلفات الطبية، وشبه الطبية. كما نُسب إليه كتاب مشهور جمع بين الطب التقليدي والطب النبوي، بالإضافة إلى طب العرافين والمشعوذين. وفيما يلي أسماء أهم تلك المؤلفات^(٣):-

(١) الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٧١، والسخاوي: الضوء اللامع ج ٤، ص ٦٥، وابن العماد: شذرات

الذهب، ج ٨، ص ٥١، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٨٨ - ١٩٥.

(٢) الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٧١، والسخاوي: الضوء اللامع ج ٤، ص ٦٥، وابن العماد: شذرات

الذهب، ج ٨، ص ٥١.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٥٠٩، وعيسى، أحمد: معجم الأطباء، ص ٤١٦.

- ١- كتاب المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي: ترجم الكتاب إلى الفرنسية عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م، من قبل بيرون، وإلى الانجليزية عام ١٩٦٢م، من قبل إلجوود، وأولى طبعاته بالعربية كانت في القاهرة سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م^(١).
- ٢- كتاب غاية الإحسان في خلق الإنسان: نشر الكتاب محققاً دار الفضيلة بالقاهرة سنة ١٩٩١م، بتحقيق مرزوق علي إبراهيم.
- ٣- كتاب الرحمة في الطب والحكمة، المنسوب لجلال الدين السيوطي: لهذا الكتاب عدة طبعات جرت في مصر، الأولى في المطبعة الشرقية سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م، والثانية في المطبعة الميمنية سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، والثالثة في دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م، والرابعة في مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م. وفي سورية قامت مكتبة محمد الحلبي بتصوير الطبعة الأخيرة، ونشرتها بدون تاريخ، كما قامت مطبعة صبيح بالقاهرة بالعمل نفسه. ويجمع الباحثون في التراث الطبي العربي أن كتاب الرحمة في الطب والحكمة إنما هو من تأليف محمد مهدي بن علي الصُنْبُري، اليميني المقرئ، المتوفي سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، وقد نُسب خطأً للسيوطي؛ كما أكد حاجي خليفة في كشف الظنون^(٢).
- ٤- رسالة (ما رواه الواعون في أخبار الطاعون): ومخطوطته محفوظة في مكتبة الأسد برقم (١٧٣٦٥)^(٣).
- ٥- كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية: وهو كتاب مدرسي، ألفه جلال الدين السيوطي، وجعله على نمط كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي المتوفي عام (٧٨٣هـ/٩٩٧م)^(٤). يوجد من هذا الكتاب في مكتبة الأسد بدمشق خمس نسخ مخطوطة وكتاب مطبوع على الحجر عام ١٣٠٩هـ/١٨٩٢م، وقد جاء على

(١) الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٧٣، والسخاوي: الضوء اللامع ج ٤، ص ٦٠، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٩٧.

(٢) حاجي، خليفة: كشف الظنون، ص ٨٣٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٣٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٥٠٧، وعيسى، أحمد: معجم الأطباء، ص ٤١٨.

غلافه: إن السبب في طبعه، لتعميم نفعه، الأجل الأمد، الكامل المكرم، محمد الشيرازي، الملقب بملك الكتاب، لا زال لكل خير عام. وسنكتفي فيما يلي ببيان ما تكلم عنه السيوطي في علمي التشريح والطب، يقول السيوطي: "لقد قدّمت التشريح على الطب لأنه منه كنسبة التصريف للنحو، لأن التشريح يبحث عن ذات البدن وتركيبها، أما الطب فيبحث عن الأمور العارض لها. ولما كان الطب لمعالجة الأمراض الظاهرة الدنيوية لذلك (يستحسن) أن يعقبه التصوف الذي تعالج به الأمراض الباطنة الأخروية".

٦- فوائد لعلاج بعض الأمراض: ومخطوطته في مكتبة سامي حداد ببيروت.

٧- المقامات الطبية: وتحتوي على مقامات في التغذية كالمقامة الخضرية والمقامة الفستقية والمقامة التفاحية^(١).

١- تطور البيمارستان:-

لقد حظي علم الطب باهتمام بالغ من المسلمين في ظل الحضارة الإسلامية، ولقي تشجيعاً كبيراً من سلاطين المسلمين وملوكهم على مرّ العصور الإسلامية، تجلّى ذلك في الاهتمام الكبير بإنشاء البيمارستانات^(٢)، والصرف عليها، وجذب الأطباء الأكفاء للعمل فيها، وتوفير كافة الاحتياجات المعنوية والمادية لضمان أداء هذه البيمارستانات رسالتها وقيامها بوظائفها على الوجه المنوط بها. وتعدّ البيمارستانات (دور المرضى) أحد المظاهر الطبية التي أبانت عن التفوق العلمي والتطبيق العملي الذي برع فيه المسلمون وفاقوا فيه غيرهم، ووصلوا بها إلى درجة متقدمة من التطور الحضاري والتقدم العلمي، وكانت الأهداف والغايات التي تنتشدها رسالة البيمارستانات نبيلة وسامية، لا يقصد من ورائها إلا خدمة الإنسان والمجتمع دون أي ثمن أو مقابل، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير والحاضر والبادي، والمسافر والمقيم، ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على مداواة المرضى،

(١) عيسى، أحمد بك: بيمارستانات الإسلام، ص ١٦٦، والسخاوي: الضوء اللامع في أخبار القرن التاسع، ج ٩، ص ١٥٢٢.

بل كانت في الوقت نفسه دوراً للرعاية الاجتماعية، ومعاهد علمية لتعليم الطب والصيدلة، حيث تلقى فيها الدروس النظرية إلى جانب التطبيقات العملية، إضافة إلى أن هذه البيمارستانات في ذلك العصر كانت منظمة تنظيمًا مثاليًا من جميع النواحي المتصلة بها، سواء من ناحية اختيار الموقع والتصميم والبناء وتمويلها وإدارتها، أو من ناحية أنظمتها العلاجية والإدارية والمالية.

كان للأوقاف التي أوقفها السلطان المنصور قلاوون، على البيمارستان المنصوري، عظيم الأثر في تدريس الطب به، فقد نصت وثيقة الوقف على مصالح البيمارستان المنصوري على تعيين شيخ للاشتغال بالطب، ويكون من بين أطباء البيمارستان، وخصص له الواقف مكاناً محدداً لإلقاء دروس الطب على طلبته، وعليه أن يعلم الطب على إختلافه، يجلس بالمصطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه، للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه، في الأوقات التي يعينها له الناظر، وما يرى ما صرف إليه، وليكن من جملة أطباء ذلك البيمارستان المبارك^(١).

يقول ابن الفرات في رواية بناء البيمارستان المنصوري: (لما رأى الملك المنصور التربة الصالحة التي أنشأها لوالدة ولده الملك الصالح، بالقرب من مشهد السيد نفيسة رضي الله عنها، أعجبت؛ وأمر الأمير علم الدين سنجر الشجاعي مدير الدولة الشريفة بإنشاء تربة له ومدرسة وبيمارستان، ومكتب وسبيل في الدار المعروفة بالقطنية وما يجاورها بين القصرين، فأشتريت الدار المذكورة من خالص مال السلطان الملك المنصور وعمل الأمير علم الدين سنجر على إعمارها فأظهر الإهتمام والإحتفال مالم يسمع بمثله فعمرت في أسرع مدة^(٢)).

وكانت المناقشات التي تدور بين كبار الأطباء في البيمارستان من أعظم الفوائد التي تعود بالنفع على طلاب الطب، (فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهم وبما كان يجري بينهم من الكلام في الأمراض ومداواتها، ومما كان يصفون به

(١) أمين، محمد محمد: وثيقة البيمارستان المنصوري بكتاب ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٣٦٦.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٨.

المرض^(١)). وقد عمل المنصور قلاوون على تحديد الأوقاف لهذا الـبـيـمارـسـتان لترتيب أوضاع أرباب الوظائف فيه وغيرهم، يقول القلقشندي: (ونظره رتبة سنية، يتولاه الوزراء، ومن في معناهم^(٢)). ومنذ ذلك الوقت ظهرت وظيفة "نظر الـبـيـمارـسـتان" أي القائم على جميع شؤون الـبـيـمارـسـتان المنصوري، وهي من أجل الوظائف وأعلاها، وعادة "النظر" فيه من أصحاب السيوف الأكبر الأمراء بالديار المصرية^(٣).

ورتب الأمير علم الدين سنجر الشجاع^(٤) مشرفاً على عمارة الـبـيـمارـسـتان، فأظهر من الاهتمام بالعمارة والبناء ما لم يُسمع بمثله، وقد اجتهد الأمير سنجر في جلب المواد الضرورية للبناء، من مختلف البلاد، كما أحضر الأعمدة الرخامية اللازمة ووضع له مخططاً متكاملًا، وأنجزت العمارة في أحد عشر شهراً سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م بحيث لا يصدق الناظر إليه أنها شيدت خلال هذه المدة القصيرة^(٥) ولعل السبب وراء الاهتمام بالـبـيـمارـسـتان والوقف عليه يعود إلى إيمان القائمين عليه بأهمية الخدمات الصحية، والوقائية، والاجتماعية المختلفة، التي سيكون الـبـيـمارـسـتان مركزاً لها. إلى جانب شمولية هذه الخدمات وعموميتها لجميع الناس، الأمر الذي يستلزم بذلاً منتظماً ومستمرًا^(١).

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج٣، ص٣٩٥.

(٢) القلقشندي: مصدر سابق، ج٣، ص٣٦٦.

(٣) المصدر السابق ج٤، ص٣٨.

(٤) سنجر، بن عبد الله الشجاع المنصوري الأمير علم الدين، كان من مماليك المنصور قلاوون، وترقى حتى ولي شاد الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصرية، في أوائل حكم الناصر محمد، وساعات سيرته وكثر ظلمه، ثم ولي نيابة (دمشق) فتلطف بأهلها وقل شره، ودام بها سنين إلى أن عزله الأمير عز الدين أيبك الحموي، وقدم القاهرة، وكان موكبه يضاهي موكب السلطان من التحميل والأبهة، ومع ظلمه كان له ميل لأهل العلم، وتعظيم للإسلام، قتل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م، (ابن حبيب: تذكرة النبیه، ج١، ص٣٠١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥١-٥٢).

(٥) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤٠٦، والسلوك، ج٢، ص٩٩٨، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج٣، ص٣٢١-٣٢٢، وج٨، ص٥١، وابن إياس: مصدر سابق، ج١٥، ص٣٥٣.

(١) الحجي، حياة ناصر (دكتورة): مرجع سابق، ص٢١٦.

وقد كان للأوقاف دور رئيسي في توفير الربح الوفير وفق جدول زمني منتظم، ومحدد بحيث لا يقع أي عجز مادي قد يسبب قصوراً في العناية الطبية أو الرعاية الصحية التي يحققها المستشفى لعامة الناس طيلة الوقت، ومن ذلك الربح كان يصرف على المستشفى ومن فيه من المرضى المقيمين والطارئين، وما تحتاج إليه كل طائفة من الدواء والشراب، والغذاء، والكسوة. بالإضافة إلى إجور الأطباء، والموظفين من أمناء ومشرفين وفراشين^(١) ودائماً ما تقع على عاتق (ناظر الوقف)^(٢) تولى مهمة تأجير أوقاف المستشفى، على مختلف أنواعها بحيث تكون مدة العقد ثلاث سنين، وأن يكون المؤجر مسلماً مقتدراً، ورعاً، تقياً، ملتزماً. ويتولى (الناظر) الإشراف على تحصيل الإيجارات وعمل الترميمات والإصلاحات اللازمة^(٣).

وبعد الافتتاح أعلن المنصور قلاوون أمام الملاء أن هذا المستشفى لجميع المسلمين من مختلف الطبقات العليا والدنيا على حد سواء، ويتساوى في الانتفاع منه الملك والمملوك والكبير والصغير والحر والعبد والذكر والأنثى، وسوف يتوفر فيه من الأطباء والمساعدين، والصيادلة والأدوات، والأدوية، ما يكفي لعلاج جميع الأمراض الحسية والعصبية والعقلية، باستخدام مختلف الأساليب العلاجية، من عقاقير وجراحة، بحيث يجد فيه كل مسقوم ما يفيد ويحقق له الصحة والعافية. كما

(١) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٣٠٦، وابن إياس: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥٣.

(٢) ناظر الوقف: تقع عليه مسؤولية العمارة والتنمية والاستثمار، ولكن يجب ألا يكون ذلك على حساب طعام ونفقة اليتيم، حيث يكون الاستثمار من الفائض من المال، ويجب عدم التقنير على أساس زيادة العدد، ويجب الالتزام التام بشروط الواقف، (السبكي: معيد النعم، ص ٦٤-٦٥).

(٣) ابن حبيب: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦١-٣٦٢.

يحق لمن تخرج منه معافى كسوة، ومن مات جهاز، وكفن، ودفن^(١)، وقد نص على ذلك كله حرفياً في وثيقة الوقف^(٢).

كما اشتهرت عديد من البيمارستانات في أجزاء متفرقة من البُل الإسلامية منها: بيمارستان أرغون الكامل بحلب، والبيمارستان المستصري^(٣) بمكة، وبيمارستان المدينة، وبيمارستان الري، وبيمارستان تونس، وبيمارستان مراکش، وبيمارستان غرناطة، وغيرها من البيمارستانات التي انتشرت في أجزاء متفرقة من أرض الإسلام، واعتمدت في تمويلها على الوقف بالدرجة الأولى^(٤).

لم يقف أثر الأوقاف في الرعاية الصحية عند حدّ معالجة المرضى، بل تعداه إلى النهوض بعلم الطب وتعليمه، سواء في داخل البيمارستانات، حيث يرتبط التدريس النظري بالعمل، أم في مدارس متخصصة أنشئت لغرض تعليم الطب في كثير من الحواضر الإسلامية. وهو ما سمي في الحضارة الإسلامية بالمدارس الطبية المتخصصة^(٥). تلك المدارس التي لم تختلف عن غيرها من المدارس في نظمها،

(١) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص ١٢٦-١٢٧، وابن حبيب: تذكرة النبیه، ج ١، ص ٣٥٨-٣٥٩، والمقریزی: الخطط، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٢) نشر وثيقة الوقف لأول مرة الدكتور عيسى، أحمد بك في كتابه: تاريخ البيمارستان في الإسلام، دمشق ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م، وقد طبع الكتاب طبعة ثانية، مصورة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، (أحمد عيسى بك: مرجع سابق، ص ١٣٢).

(٣) المستصرية: نسبة إلى المستصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله منصور، بن العزيز بالله بن المعز لدين الفاطمي؛ تولى الخلافة بمصر سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م، = وكان عمره سبع سنوات؛ (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٢٩-٢٣١، والمقریزی: الخطط، ج ١، ص ٣٥٥-٣٥٦، وابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٢١٥-٢٢٠) ولمزيد من التفصيل حول هذه البيمارستانات، وغيرها، (عيسى، أحمد: تاريخ البيمارستانات، ص ١٤٢).

(٤) عيسى، أحمد: تاريخ البيمارستانات، ص ١٤٣.

(٥) وكان من أبرز تلك المدارس: المدرسة الدخوارية بدمشق، ومدرسة باتكين الطبية بالبصرة، والمهذبية بمصر، وغيرها، لمزيد من التفصيل عن هذه المدارس، ونظم التدريس بها، (المزيني، إبراهيم: المدارس الطبية المتخصصة في الحضارة الإسلامية، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثالث عشر ذو القعدة/١٤١٥هـ/١٩٧٨م، ص ٣٤٩-٤١١).

والأوقاف الخاصة بها، حيث كانت تُسمى في أغلب الأحيان باسم منشئها أو واقفها،
وقلما عُرفت باسم مدرستها أو جهة وجودها. وكان مُنشؤها يوقفون عليها من
الأوقاف ما يكفي للصرف عليها، وصيانتها، وللإنفاق على مدرسيها وطلبتها
ومستخدميها، كما كان يحدد في حجة الوقف عدد من يشتغلون بهذه الصناعة من
المدرسين والطلاب وصفاتهم، فقد اشترط الواقف لإيوان الطب في المدرسة
المستصرية ببغداد أن يكون بها عشرة من الطلاب المسلمين يدرسه طبيب حاذق
مسلم^(١). لقد كان من ضمن مسؤوليات المحتسب^(٢)، أن يأخذ على الأطباء عهد أبو
قراط فيحلفهم (ألا يعطوا أحداً دواءً مضراً، ولا يركبوا له سماً، ولا يضعه عند أحد
من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، وللرجال الذي يقطع
النسل، وليغضوا أبصارهم عن المحارم، عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا
الأسرار، ولا يهتكوا الأستار، ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم فيه)^(٣).

قسم الأطباء هذا يماثل العهد الذي يقطعه الطبيب اليوم عند تخرجه ليبدأ العمل في
إحدى المستشفيات، ولا شك أن الحلف الذي يأخذه الطبيب على نفسه، بحضور
المحتسب يجعله فيما بعد مسؤولاً من الناحية القانونية عند مخالفة أي شرط من
شروطه^(٤).

أما الكحالون، فكان المحتسب لا يعطيهم إذن العمل إلا بعد إجراء الإمتحان
المقرر، والخاص بالعيون، وما يتعلق بها من أمراض، وظواهر، وعقاقير، فإن
اجتاز الكحال الامتحان، أخذ على نفسه قسماً علنياً بحضور المحتسب، بأن يعمل

(١) ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيباني، ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تصحيح وتعليق/ مصطفى جواد، بغداد: المكتبة العربية ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م، ص ٥٩.

(٢) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص ٦٥-٦٦، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٧.

(٣) ابن الأخوة : مصدر سابق ، ص ٢٥٦.

(٤) الحجي، حياة ناصر: مرجع سابق، ص ٢٢١.

بإخلاص وأمانة متبعاً أحدث الوسائل في العلاج، وأجود أنواع العقاقير، والأكحال^(١).

أما المُجَبَّرُونَ^(٢) فلا يحل لأحد أن يتصدى للجبر، إلا من بعد أن يمتحنه المحتسب في كتب الجبر، وأن يعلم عدد عظام جسم الإنسان، وشكل كل واحد منها، وصورته وقدره، حتى إذا انكسر منها شيء، أو انخلع رده إلى موضعه على الهيئة التي كان عليها^(٣).

أما الجراحيون^(٤) فيجب عليهم أن يعرفوا علم التشريح وأعضاء الإنسان، وما فيه من عضل، وعروق، وشرابين، وأعصاب، وأن يتعلموا كيفية استخدام مختلف أدوات الجراحة بمهارة تامة، بحيث تتم الجراحة بنجاح دون مضاعفات.

ويحصل أحدهم على الرخصة بمزاولة الجراحة من المحتسب، بعد أن يثبت له علمه بكل جزئيات علم الجراحة^(٥).

لا شك أن هذه الإجراءات التي يقوم بها المحتسب نحو مختلف فئات الأطباء، تدل على حرص الدولة على مراقبة حسن العمل، والتدقيق مع كل من يعمل بهذه المهنة، فيكون الطبيب المرخص مالكاً لإذن رسمي، يتيح له ممارسة المهنة، بحرية وفق الشروط المتفق عليها. وإذا ما انحرف عنها أو تجاوزها فإن ذلك يضعه في موقف المساءلة القانونية أمام المحتسب الذي يمثل الدولة في هذه الحالة. و على ذلك سيقصر العمل في هذا الحقل الوقائي الطبي على أصحاب الكفاءة والعلم دون الدجالين، ومحترفي الشعوذة^(٦).

(١) ابن الأخوة: مصدر سابق، ص ٢٥٧.

(٢) المُجَبَّر: بضم الميم وتشديد الجيم طبيب العظام في ذلك الوقت.

(٣) ابن الأخوة: مصدر سابق، ص ٢٥٨.

(٤) الجراحيون: هم أطباء الجراحة في ذلك الوقت.

(٥) ابن الأخوة: مصدر سابق، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٦) الحجي، حياة ناصر: مرجع سابق، ص ٢٢٢.

لقد ضم البيمارستان أطباء في مجالات الأمراض الباطنية وغيرها، وأُفرد لكل طائفة من المرضى قسماً خاصاً، فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها، وجعلت قاعة منفردة للرمدي، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن لمرضى المراحة من الرجال، ومثله للنساء، وزودت جميع الأماكن بالماء لمختلف الأغراض^(١).

لقد كان لكل قسم من أقسام البيمارستان ما بين طبيب وثلاثة، حسب اتساع القسم، وعدد المرضى، وقد اشتملت المراكز الطبية على طائفة الأطباء، وطائفة الكحالين، وطائفة الجراحية، وطائفة المجبرين، وكان لكل طائفة رئيس ينظم شؤونها، ويقسم العمل بين أفرادها^(٢).

كان رئيس الأطباء مسؤولاً عن طائفة الأطباء ويتمتع بصلاحيات إعطائهم الأذن في ممارسة العلاج. كما الكحالين، وأيضاً كان لرئيس الجراحين الشئ نفسه على طائفة الجراحين^(٣).

تشير وثيقة الوقف كذلك على حرص المنصور قلاوون على تطبيق نظام المناوبة (الوردية) بين الأطباء الذين يباشرون المرضى والمختلين، الرجال والنساء بهذا البيمارستان مجتمعين ومتناوبين، باتفاقهم على التناوب، أو بإذن الناظر في التناوب^(٤) بالإضافة إلى (قسم الطوارئ) الذي يستقبل الحالات الطارئة، والحوادث المفاجئة، على مدار الساعة، كما نصت وثيقة البيمارستان على أجور الأطباء بحسب ما يقتضيه الزمان، وحاجة المرضى، وخبرة الطبيب^(٥).

(١) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص ١٢٧، وابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٣٠٢-٣٦١ والمقريري: الخطط، ج ٢، ص ٤٠٦، والسلوك، ج ١، ص ٩٩٩.

(٢) ابن حبيب: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠٣، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٦٧، والمقريري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٦٧.

(٤) ابن حبيب: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٦٦، وعيسى، أحمد: تاريخ البيمارستان، ص ١٤٤.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٥، والمرجع السابق، ص ١٤٤.

لقد قسمت منفعة البيمارستان بين رعاية المرضى المستقرين فيه، وبين مرضى العيادة الخارجية، وأيضاً المرضى المستقرين في منازلهم. فقد حظي مرضى المنازل بالرعاية الطبية، والدواء، والشراب، والغذاء حتى زاد عددهم. وقد وجد بالبيمارستان مطبخ، ومعمل لصناعة الأدوية المركبة، وتحضير العقاقير، ومخازن لحفظ المواد الخام، وصيدلية تتوفر فيها الأدوية الجاهزة^(١).

٢- دراسة الطب :

لقد خصص في البيمارستان مكان لتدريس الطب، حيث يقوم رئيس الأطباء بتدريس طلاب الطب^(٢). ولعل هذا الوضع يشبه إلى حد كبير وضع كليات الطب الموجودة في المستشفيات الحديثة اليوم، حيث تتاح لطلاب الطب ممارسة الطب السريري (الإكلينيكي) في مستشفى الجامعة التعليمي، وقد حرص الواقف، المنصور قلاوون، في وثيقة الوقف على توضيح أهمية تدريس الطب بالبيمارستان إذ اشترط: (الإشتغال فيه بعلم الطب والانشغال به)^(٣) وهذه نسخة من تقليد الحكيم مهذب الدين، وظيفة التدريس في البيمارستان المنصوري:-

١- إن الهدف من إنشاء البيمارستان هو تحقيق الخير من خلال خدمة المرضى، وعلاجهم، ولكي يستمر في العمل، والفائدة أوقفت عليه الأوقاف الكثيرة والجليلة، مع شرط أن تشمل منفعته جميع الناس، لا فرق بين أمير أو مأمور، سيد أو مسود، غني أو فقير، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى.

٢- إنه في سبيل استمرارية البيمارستان في العطاء، وتقديم أفضل الطرق في العلاج وأحسن الأساليب في الدواء، ألحقت به مدرسة لتعليم الطب لفائدة الطبيب وطالب العلم، وعيّن الحكيم مهذب الدين على رأس هذه المدرسة^(٤).

ثالثاً: فن العمارة المملوكي

(١) عيسى، أحمد: المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٢) ابن حبيب: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠٧، والمقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص ٢٢٨-٢٣٠، والمقريزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٤) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص ٢٢٨-٢٢٩.

لقد اهتم المماليك بالجوانب الحضارية من بناء المدارس والمساجد والعمائر، حتى أن عصرهم يعد من أزهى العصور في العمارة، فقد كان للمماليك إسهام رائع في مجال العمارة، فأصبح فن العمارة على أيديهم إسلامياً خالصاً يستقي قواعده من العلوم الإسلامية وأصول الشرع، ففن بناء البيوت، مثلاً، على عهدهم انطلق من مبدأ منع الاختلاط، والغيرة على النساء، فالبيوت تبنى ويكون الطابق الأول مخصصاً للرجال ويسمى "السلامك" والسفلي للنساء ويسمى "الحرامك" ومدخل البيت ينحرف غرباً نحو دهليز ومنه إلى حجرة الضيوف، حتى لا يرى الداخل من في وسط البيت، وكانت هناك مداخل خاصة بالنساء فقط، وكانت شبابيك البيوت مرتفعة بحيث لا يرى السائر في الطريق ولو كان راكباً من بداخل البيت، وكانت هذه الشبابيك عبارة عن خشب مثقوب يسمح بدخول الضوء والهواء، ويسمح لمن بداخل البيت رؤية من بالخارج، بحيث لا يرى من بالخارج من هو بداخل الحبرات^(١).

كما كانوا يجعلون أماكن خاصة في الدور السفلي للدواب والمواشي، وحجرات خاصة للمطابخ، وهم الذين ابتكروا نظام دولا ب الحائط، الذي توضع فيه الأطباق الخزفية. ويتضح ذلك جلياً في مدخل المنزل الملتوي، وفي نظام المشربيات^(٢) على النوافذ. اتخذت هذه المشربيات في واجهات البيوت لتلطيف الجو، وإدخال النسيم، وتمكين أهل الدار من الرؤية للخارج، يقول الدكتور زكي محمد حسن: "إن المشربية تحريف مشربة بمعنى غرفة عالية، أو بمعنى المكان الذي يشرب منه، نظراً لأنه كان يوضع فيه خارجات صغيرة مستديرة أو مثمثة تتركب خارج المشربية وتوضع عليها القل لتبريدها^(٣)".

(١) السلامك: (تركي) وهو مجلس الرجال، والحرمك، المحرم على الغرباء.

(٢) المشربيات: المشربة بكسر الميم إناء يشرب فيه وبفتح الميم، المشرعة (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، رتبته محمود خاطر، الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٣٣).

(٣) حسن، زكي محمد: فنون الإسلام، القاهرة، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٤٧٠.

استطاع الفنانون في العصر المملوكي إيجاد علاقة بين العناصر التي استمدوها من فنون مختلفة، ولا سيما فنون الشعوب التي ينتمي إليها المماليك، فقد اعتمدوا على الكثير من عناصر الفن السلجوقي، والمثال على ذلك: المدارس بتخطيطها الذي يعتمد على أربعة إيوانات تحيط بفناء كبير، ومن المعروف أن أول بناء أطلق عليه "مسمى مدرسة"، كان المدرسة التي أنشأها السلاجقة في مدينة نيسابور بإيران سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م؛ والتي أصبحت نموذجاً لأمتلة عديدة فيما بعد. فالمداخل المرتفعة مثل مدخل مدرسة السلطان حسن ومدرسة أم السلطان شعبان متأثرة، بوضوح بطراز المداخل المعلقة عند سلاجقة الأناضول في تركيا وبوائكها^(١) المحاطة بإفريز مستطيل بارز تماثل الإوان الضحل. ومن بين الملامح المعمارية الأخرى، نرى الإوان ذا الفسقية الذي يوجد في بيمارستان قلاوون، والقباب ذات الرقاب المرتفعة والعقود المدببة ذات الثلاثة والأربعة مراكز، كما في مدرسة صرغتمش والقبة التي تغطي البلاطات الثلاث التي تتقدم المحراب، كما في جامع الناصر محمد والتكسية بالبلاطات الخزفية والفسيفساء الخزفية، مثل محراب لاجين في جامع ابن طولون^(٢)، ومنذنة جامع الناصر محمد^(٣).

الطراز المعماري الذي استخدم في مصر في العصر المملوكي هو مستمد من الطراز المصري المحلي، ويعتبر أقرب الطرازات المعمارية للروح المصرية. وعلى الرغم من انفتاح مصر في العصر المملوكي على العالم وعلى الثقافات الخارجية لم يحدث استيراد لطرازات بناء أجنبية، لكن حدث ذلك في النقوش والزخارف التي ظهر فيها الطابع المغولي، وظهرت في هذا العصر في القاهرة

(١) بوائك: مجموعة عقود أو قناطر متصلة محمولة على أعمدة أو دعائم، (البهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٦).

(٢) انظر الملاحق صورة ص ٣٢٩.

(٣) ديماند: الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م، ص ٩٨، والبهنسي: الفن المملوكي عظمة وسحر السلاطين، ص ٥١.

منشآت معمارية ضخمة، هي أشبه بالمجمعات التي تمتاز بمساحتها الكبيرة وارتفاعاتها الشاهقة، وتتألف غالباً من مدرسة وتربية، وتضم أحياناً سبيلاً وكتاباً أيضاً، ونذكر منها على سبيل المثال: مجموعة السلطان قلاوون، ومدرسة وخانقاة الأشرف برسباي، مدرسة ومسجد قايتباي، كما تميز العصر المملوكي في مصر ببناء الجوامع والمدارس والحمامات والقلاع وغيرها من المباني. وتعد الأعمدة المندمجة إحدى العناصر الزخرفية المعمارية، وهي إما تخلق من نفس مادة البناء أو تكون من الرخام، وتستخدم لتجميل المداخل، كما في مدخل مدرسة السلطان حسن، والذي صنع العمود فيه من مادة البناء، وزخرف بالتضليع المائل، وأيضاً على جانبي مدخل مدرسة قايتي باي الرماح، وفيه ترك العمود خالياً من الزخرفة، كما تستخدم هذه الأعمدة في تجميل أركان القباب كما هو الحال في القبة الملحقة بمدرسة السلطان حسن في القاهرة، وتستخدم الأعمدة المندمجة أيضاً في النوافذ الحقيقية والوهمية في المباني الإسلامية، وقد جاء العمود مزخرفاً بزخارف نباتية متقنة^(١). وتستخدم الأعمدة المندمجة أيضاً في المآذن التي قد تكون فيها الأعمدة رخامية أو مخلقة من الحجر، وقد يزخرف نصف العمود، ويترك نصفه الآخر خالياً، كما في ببيمرستان المؤيدي^(٢).

وتندمج الأعمدة في المباني كزخرفة، وفي الوقت نفسه كحاملة، كما في سبيل يوسف أغا الحيني، وفي سبيل رقية دودو بالقاهرة، وتندمج الأعمدة أيضاً بالأكتاف الحاملة للبائكتات بالمساجد كما بالجامع الطولوني بالقاهرة^(٣). وكذلك بالأكتاف الحاملة لدكك المبلغ بالمساجد، ويتضح ذلك بدكة مبلغ جامع الأمير المملوكي شيخو. ونجدها بصدر المنبر كما في منبر جامع شيخو أيضاً. وتستخدم لتجميل جانبي المحراب، حيث إنها غير حاملة، بل بغرض الزخرفة فقط. ونجدها مندمجة

(١) الباشا، حسن (وآخرون): القاهرة تاريخها، فنونها وأثارها، القاهرة ١٩٧٠م، ص ١٢٣ .

(٢) الحداد، محمد حمزه إسماعيل و(آخرون)، موسوعة أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة بالقاهرة، جده ١٩٩٠م، ص ١١.

(٣) المرجع السابق، ص ١١.

بالأكتاف الحاملة لجوسق^(١) المئذنة، كما نجدها على جانبي نوافذ المئذنة الحقيقية والوهمية^(٢).

يعتبر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ١٢٨٥ - ١٣٤١م، من أشهر السلاطين الذين قاموا بالبناء في مصر وأشهر جامع تم بناؤه هو جامع ومدرسة السلطان حسن (بدأ بناؤه سنة ١٣٥٧م) وهو عبارته عن تحفه ليس لها مثيل وتجمع مبانيه بين قوة البناء وعظمته ودقة الزخارف البديعة، قال عنه المستشرق العلامة جاستون فييت: أنه أبدع آثار القاهرة وأكثرها تجانساً وتماسكاً وكمالاً ووحدة، وأجدرها أن تكون من الآثار الرائعة التي بنتها حضارة مصر"، وقد بنيت الحمامات الشعبية في مصر في العصر المملوكي وكانت أعدادها كبيرة جداً في مدينة القاهرة، وكانت حيطانها مزينة بالمناظر الجميلة، وكانت تستخدم فيها المياه الساخنة، وما زالت بقايا من تلك الحمامات موجودة في القاهرة القديمة، وتتميز جوامع العصر المملوكي بمآذنها الرفيعة الرشيقة والحيطان العالية المزركشة والمآذن التي لها رؤوس مزدوجة، مثل مآذن الغوري في الأزهر، والذي بنى في القرن الخامس عشر الميلادي^(٣)

قل أن تجد سلطاناً أو أميراً أو أميرة أو واحداً من أعيانهم لم يخلف أثراً كقصر مشيد، أو مسجداً أو جامعاً أو بستاناً رائعاً وغير ذلك، وتلك مساجدهم تملأ فجاج القاهرة وتتراعى مآذنها في سمائها، كما لا يزال كثير من أسمائهم وقصورهم

(١) الجوسق: الجزء العلوي من المئذنة وهو مفتوح في كل الاتجاهات وقد ظهر في نهاية القرن ٧هـ/١٣م، وله أعمدة من الطوب، ومن العام ٧٣٩هـ/١٣٤٠م، وما تلى ذلك أصبحت له عقود محمولة على أعمدة، (البهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٧).

(٢) الباشا، حسن: القاهرة وتاريخها، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٣) حسن، زكي محمد: مرجع سابق، ص ٦٨.

وشوارعهم وأزقتهم يتردد ذكره أو يلوح قبلها^(١)، و تعد القصور والمنازل، وما تضمنته من عناصر معمارية وزخرفية، قراءة في مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي وما تحويه هذه العماائر من أدوات الحياة اليومية، وما تتركه به المتاحف في معظم دول العالم من تحف مملوكية قيمة تدل دلالة قاطعة على مدى ما وصلت إليه الحرف اليدوية من تقدم، وما بلغه الفنان في العصر المملوكي من مهارة، تعبر في مجملها عن رقي الذوق الفني^(٢)، ولا ريب أن عصر المماليك هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر، فقد كان الإقبال عظيماً على تشييد العماائر .. كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية^(٣) وقد تفاعل الفنانون مع الفنون التي انتقلت إليهم نتيجة هجرة بعض الصنائع من إيران والعراق والشام إلى مصر فراراً من الغزو المغولي، وظهر مزيج من الأشكال الفنية مثل استخدام فتحات نافذة في أعلى عقود البكائيات المطلّة على صحن المسجد في مسجد الناصر محمد بن قلاوون على غرار الجامع الأموي في دمشق، والتأثيرات السورية المتمثلة في قواعد القباب السورية بضريح قلاوون. وبناء بيمارستان السلطان قلاوون على غرار البيمارستان النوري في دمشق وتشابه الفسيفساء التي كانت ببقايا القصر الأبلق مع مثيلتها في واجهة قصر الأبلق الذي شيده بيبرس بمرجة دمشق^(٤).

استمد الذوق المملوكي من الشعوب الأخرى بعض العناصر مثل الكتابات الكوفية التي تشبه طريقة الأختام الصينية المربعة، في قبة المنصور قلاوون واستخدام بعض العناصر الزخرفية، مثل العنقاء والتنين والسحب وزهرة عود الصليب التي

(١) سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، ص ٣٩٣.

(٢) البهنسي: مرجع سابق، ص ٥٢.

(٣) حسن، زكي محمد: مرجع سابق، ص ٧١.

(٤) البهنسي: مرجع سابق، ص ٥١.

نجد أمثلة لها على دكة المبلّغ^(١) في خانقاه شيخو، وعلى العديد من التحف الفنية المملوكية. كما استخدم الفنان الملوكي الورق المقوى المدهون بالألكية المعروف باسم "كدهي" في صنع الأدوات التي كانت تصنع من قبل من المعدن لملء المحابر والمقالم وغيرها^(٢).

وظهرت بعض عناصر الفن المغربي في العمارة المملوكية، مثل قواعد المآذن المربعة، مثل مئذنة مجموعة قلاوون، وضريح وخانقاة سلار وسنجر الجاولي والعقود على شكل حدوة الفرس مثل المئذنة التي قام بترميمها حسام الدين لاجين في جامع ابن طولون، وبها نافذة مزدوجة الفتحة كما في مئذنة مجموعة قلاوون^(٣).

ونتيجة لتطور العلاقات بين المماليك والمغول خلال حكم الناصر محمد أصبحت التقنيات والوحدات الفارسية أكثر شيوعاً، ويظهر ذلك جلياً في مئذنتي جامع الناصر محمد ذات التأثيرات الخانية "المغولي الإيراني"، حيث أن المعمار التبريزي جاء مع سفارة مملوكية عادت من عند خان أبو سعيد عام ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م^(٤). وبذلك أنتج فنانو العصر المملوكي تراثاً جميلاً متنوعاً، تنعكس في مكوناته الظروف المختلفة التي عاشها شعب مصر في ذلك العصر. والطرز التقليدية لبعض المنشآت مثل طراز المسجد التقليدي الذي يظهر واضحاً في جامع الظاهر بيبرس^(٥)، وجامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة وجامع الطنبغا المارداني^(٦)

(١) دكة المبلّغ: منصة مرتفعة توجد في العماير الدينية يستخدمها المؤذن لتبليغ حركات الإمام للمصلين من عليها، (البهنسي: المرجع السابق، ص ٢١٧).

(٢) ماهر، سعاد: الفنون الإسلامية، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، وعين للكتاب، ١٩٦٨، ص ٨٩، والبهنسي: المرجع السابق، ص ٥١.

(٣) انظر الملاحق صورة ص ٣١٤.

(٤) ابن بطوطة: تحفة الأنظار، ص ٢٤٠، والبهنسي: مرجع سابق، ص ٥٢.

(٥) انظر الملاحق صورة ص ٣١١.

(٦) انظر الملاحق صورة ص ٣٢٣ و ٣٢٤.

وغيره من النماذج إلا أن الرغبة في التجديد كانت دائماً السمة التي تميزت بها تلك الفترة^(١).

ومن أهم الانجازات المعمارية التي شهدتها تلك الفترة المجمعات المعمارية المتعددة الأغراض (دينية - تعليمية - خيرية) وغالباً ما كانت المجموعة المعمارية تضم ضريح المنشئ، وتعد مجموعة قلاوون بالنجاسين أول وأكبر مجموعة متكاملة في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر، إذ تضم المسجد والمدرسة والضريح والبيمارستان و ذلك منذ سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م^(٢). وأدى الجمع بين طرازي تخطيط المساجد وتخطيط المدارس إلى تقسيم إيوان القبلة إلى أروقة بواسطة بوائك من العقود ونرى أول أمثلتها في مدرسة المنصور قلاوون بالنجاسين^(٣). ومن العناصر الزخرفية المعمارية الجوسق، والجوسق لفظ يطلق على قمم المنشآت كالمآذن والمنابر وغيرها، وتتنوع الجواسق عبر العصور، حيث اتخذ كل عصر طرازاً خاصاً به، فهو على شكل قبة صغيرة في العصر الفاطمي كما في مئذنة رباط الجبوشي في القاهرة. أما في العصر الأيوبي وأثناء الحروب الصليبية فقد اتخذ الجوسق شكل خوذة المحارب، وزخرفها بالتضليع، كما في مئذنة المدارس الصالحية، ومئذنة زاوية الهنود بالقاهرة. واستمر هذا الطراز في بداية عصر المماليك الذين أكملوا الجهاد الأيوبي، وأتموا النصر على الصليبيين والمغول، إلا أنهم استخدموا المقرنصات في زخرفة المئذنة كسمة تميز العصر المملوكي عن الأيوبي، كما في مئذنة خانقاه سنقر وسلار. وكذا في مئذنة الأمير قوصون بالقاهرة^(٤).

والمقرنصات كان أول ظهور زخرفي لها في العصر الفاطمي، وذلك بواجهة الجامع الأحمر على جانبي المدخل، واستمرت كعنصر زخرفي في العصر الأيوبي

(١) حسن، زكي محمد: فنون الإسلام، ص ٧٩، والبهنسي: مرجع سابق، ص ٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٥.

(٣) البهنسي: مرجع سابق، ص ٥٤.

(٤) الحداد، موسوعة أسس التخطيط، مرجع سابق، ص ١٥.

أيضاً بمدخل المدارس الصالحية. وفي العصر المملوكي استخدمت في زخرفة الواجهات ما يسمى بالصدر المقرنص، وأيضاً في عقود المداخل^(١). كما زخرفت المداخل الداخلية بالصدر المقرنص، كما في مدرسة برسباي، مدخل الصحن، بمدرسة السلطان حسن. وقد زخرفت المداخل الرئيسية بالصدر نفسه بمدرسة جوهر اللالا. وفي عقود المداخل أدخلت المقرنصات كزخرفة، كما في مدخل مدرسة السلطان برسباي بالقاهرة، ذو المقرنصات ذات الدلايات، ومدخل البيمرستان النوري بدمشق، ومدخل مدرسة أولجاي اليوسفي بالقاهرة، ومدخل مقعد مماليك الصوفي بالقاهرة أيضاً، وقد شغلت المقرنصات جانبي عقده فقط. أما مدخل المدرسة الفريدونية في دمشق فقد نفذت على شكل الكهوف المتدلي منها الأرجل. وغطي بعضها بغضاء دقيق بمدخل الغوري في خان الخليلى بالقاهرة، وكان الغطاء أكثر دقة وزخرفة، على مقرنصات مدخل جامع علي المطهر في القاهرة. واستخدمت المقرنصات في زخرفة القباب من الخارج، كما في المدرسة النورية بدمشق واستخدمت أيضاً بداخل القباب بطريقة معمارية، وذلك لتحويل المربع إلى مثنى تمهيداً لحمل القبة، كما هو الحال بجامع المرداني، كما استخدمت في زخرفة طواقي المحاريب، وخير نموذج على ذلك المحراب الفرعي لمدرسة تتر الحجازية بالقاهرة، وزينت المقرنصات أعلى الشططات المنفذة بأركان المنشآت لمنع الاحتكاك بالجدران، كما هو الحال بالجامع الأقمر بالقاهرة، وجامع التيروزي بدمشق، وآق سنقر بالقاهرة، وزخرفت جواسق المنابر وصدورها بالمقرنصات، وخير نموذج بمدرسة قاجماس الإسحافي بالقاهرة^(٢).

ظهر طراز جديد من المآذن يتميز بتنوع دوراته التي تنتقل من المربع إلى المثنى إلى الأسطواني، وزخرفة دوراته بالزخارف الدقيقة المتقنة. ولم تعد المآذن عالية الارتفاع فحسب وإنما بلغت الذروة في قيمتها المعمارية والفنية، ثم تطورت وأخذت الشكل البصلي الذي يميزها عن غيرها من مآذن بلدان العالم الإسلامي.

(١) المرجع السابق، ص ١٥.

(٢) عبد الوهاب، حسن: تاريخ المساجد الأثرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٠م، ص ٩٧.

وقد تضمنت الوثائق والكتابات التسجيلية على العمائر أسماء المهندسين الذين صمموا هذه العمائر العظيمة، ومنهم المهندس ابن السيوفي أكبر مهندسي عهد الناصر محمد بن قلاوون ومن أهم أعماله بناء المدرسة الأقبغوية التي ألحقها الأمير أقبغا عبد الواحد بالجامع الأزهر سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م، كما بنى جامع الطنبغا المارداني^(١). ومن أهم الفنون التي حققت تقدماً ملحوظاً في ذلك العصر حرفة الخشب الخرط المستخدم في عمل المشربيات حيث أصبحت المشربية ملمحاً فنياً مميزاً للمنشآت المدنية المملوكية و بخاصة القصور والبيوت والوكالات، وأستخدمت البلاطات الخزفية في تغطية بعض أجزاء العمائر وهو أسلوب لم يستخدم في العمارة الإسلامية في مصر من قبل مثال مئذنة خانقاة بيبرس الجانشكير^(٢)، وقمة مئذنة جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلة. وتوجد مجموعة من السجاد المعقود تنفرد بين سجاد العالم الإسلامي بأن اللحمة والسدى وكذلك الوبرة من الحرير، وتوجد من مجموعة السجاد المملوكي بضع عشرات باقية إلى يومنا هذا^(٣).

لقد وصلت صناعة الزجاج إلى قمة الكمال وانتجت مختلف القطع الخاصة بالاستعمال المنزلي، أو التصدير وشملت الصناعة أشكالاً مختلفة من الأكواب والزجاجات والأوعية والأباريق والصحون ذات الأرجل فضلاً عن مجموعة فريدة من المشكاوات الزجاجية المموهة بالميناء والتي تشتمل على زخارف هندسية ونباتية وكتابية لم يصلنا مثلها من العصور السابقة أو اللاحقة كما في مشكاة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ومشكاوات الأشرف شعبان الموجودة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة^(٤). ومن أمثلة الزخارف المكفنة بالذهب والفضة، كرسي العشاء الخاص بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون المصنوع من النحاس

(١) ديمانند: الفنون الإسلامية، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) انظر الملاحق صورة ص ٣١١.

(٣) ابن فضل الله: مسالك الأبصار، ص ١٨٩، والبهنسي: مرجع سابق، ص ٥٦.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٧٠، وديمانند: الفنون الإسلامية، ص ١١١، والبهنسي: المرجع السابق، ص ٥٧.

ومكفت بالذهب والفضة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة والذي بلغ غاية في الدقة والإتقان، وقد كانت صناعة المعادن مزدهرة في بلاط الناصر محمد، كما صنعت أبواب رائعة وشبابيك وتنانير وعلب للمصاحف. وقد انتقلت الزخارف إلى الحجر بعد أن كانت تنفذ على الجص أو البلاط في العصرين الفاطمي والأيوبي، وشمل ذلك القباب التي غطيت بالزخارف النباتية والهندسية، مثال ذلك قبة المدرسة الجوهريية بالجامع الأزهر، وقبة السلطان قنصوه أبو سعيد وقبة مدرسة الأمير قرقماس. كما تنوعت طرز الكتابة، لتشمل خط الثلث، الذي استخدم على العمائر والتحف التطبيقية، والخط الكوفي المربع الذي استخدم منذ بداية العصر المملوكي. مثل الكتابات على الوزرة الرخامية، مثل أعمال زين الدين يوسف بالقادسية في القاهرة، ثم ابتكر محمد بن سنقر طريقة الكتابات الكوفية المشعة التي ظهرت على كرسي عشاء الناصر محمد، ثم استعملت على التحف المملوكية. إلا أن استعمال الزجاج في الزخرفة الجصية لم يصلنا منه سوى الزخارف التي تغلف ممرات قبة أحمد بن سليمان الرفاعي ٦٩١هـ/ ١٢٩١م^(١).

لقد حفظت هذه المنتجات الفنية المملوكية أسماء عدد كبير من الفنانين وبصفة خاصة على الخزف، مثل غيب بن التوريزي، وغزيل، والهنزي، وشرف الاتواني. علماً بأن المرأة كان لها دور في هذا المجال فقد كشفت حفائر الفسطاط عن قاع إناء من الخزف مكتوب عليه (عمل خديجة) مما يشير إلى دور المرأة في مجالات العمل المختلفة. وتميز فنانونا العصر المملوكي في إنتاج المخطوطات (النسخ - ومن أهمها "مقامات الحريري" "كليلة ودمنة، وإكليل المكنيكية" ومخطوط التتجيم، ومخطوط الفروسية، وفنون المبارزة، ونسخة من "الشاهنامه" و"اسكندرنامه" مترجمة من الفارسية إلى التركية)^(٢).

أثر الفن المملوكي في غيره من الفنون، حيث انتقلت صناعة تكتيف المعادن من مصر إلى المدن الإيطالية في القرن الخامس عشر الميلادي، عن طريق التجار

(١) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٣٠٢، والبهنسي: مرجع سابق، ص ٥٩.

(٢) المقرئزي: السلوك، ص ١٦٧، والبهنسي: مرجع سابق، ص ٦١.

وحجاج بيت المقدس والمحاربين الصليبيين، خاصة من البندقية، حيث وصلت فرنسا إستعمال المعادن المملوكية في الأغراض الدينية^(١).

ويرجح بعض العلماء أن المآذن المملوكية قد أثرت في تصميم أبراج النواقيس، في آخر عصر النهضة، التي نقل عنها بدوره المهندس الإنجليزي "كرتستوفررن" ما صممه من أبراج، كما ينسب المؤرخون استخدام نظام الأبلق، أي تتابع مداميك من أحجار داكنة اللون وأخرى من أحجار زاهية اللون في كثير من المدن الإيطالية إلى تأثير العمارة المملوكية بالقاهرة^(٢).

يعود ازدهار الفنون والعمارة الإسلامية في العصر المملوكي إلى رؤية المجتمع للفنون على ضوء تعاليم الدين الإسلامي، سواء من حيث المنهج الفني الذي أوحى به القرآن إلى الفنان المسلم فيما شيده من عمائر. أو المنهج الأخلاقي والذي يتمثل في اتقان العمل وابتغاء المثوبة التي وعد بها الله المخلصين من عباده^(٣).

لقد لعبت العبارات المأثورة المدونة في عدد من القطع الفنية والأواني المنزلية، مدى العلاقة بين الانتاج الثقافي للعامة والقيم الاجتماعية السائدة، والتي تحفز أفراد المجتمع لرؤيتها، واقتنائها، دون غيرها من المنتجات، وكان أغلب التعابير يدور حول قيم "الصبر" و"البركة" و"الرضاء بالمكتوب"^(٤).

إلا أن برولكمان، وهو مستشرق له صيت ذائع في اشتغاله بالدراسات العربية، قد سلب العصر المملوكي أهم إنجازاته الفكرية والعلمية والأدبية والفنية والحضارية، إذ رأى أن العلوم الدينية في هذا العصر قد وصلت إلى أقصى درجات العقم، كما رأى أن التصوف قد تحول عن فكرة مؤسسيه واتجه اتجاهًا مخالفًا تمامًا لفكرتهم، وتحول على يد الدراويش، إلى عبارات جامدة، ورأى أن

(١) ديمانند: مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٢) البهنسي: مرجع سابق، ص ٦٠.

(٣) جاء في الحديث الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من بنى لله بيتاً بنى الله له بيتاً في الجنة) صحيح مسلم، ج ٨، ص ٢٢٢.

(٤) الباشا، حسن: الألقاب الإسلامية، ص ٣٢٣.

الرياضيات والعلوم الطبيعية كادت تختفي وأن مستوى التأليف قد انحدر^(١). ووكثير من المؤرخين والكتاب ساروا سيرته، ويرى أنور زقلمة أن العصر المملوكي مع غموضه ووصفه بالعصر المظلم كان عصرًا قائمًا بنفسه له مظاهر وتعاليم وفلسفة ونظم اجتماعية وأخلاقية خاصة به^(٢).

الزخارف الإسلامية

تتنوع الزخارف الإسلامية ما بين عناصر زخرفية وعناصر زخرفية معمارية. وتعد الشرافات إحدى هذه العناصر، فهي حلية زخرفية معمارية تعلو الواجهات، وهي متنوعة الأشكال، وقد نفذت على شكل العرائس المتماسة، كما في الجامع الطولوني بالقاهرة، وكذلك حول غلاف المئذنة الغربية لجامع الحاكم^(٣).

وتطورت بعد ذلك لتصبح مسننة الشكل، ومزخرفة بالتقريغ خلال العصر الفاطمي، كما في جامع الحاكم بأمر الله وبالجامع الأقمر، واستمرت الشرافات على نفس الطراز خلال العصر الأيوبي، وظلت الشرافات المسننة تزخرف الواجهات حتى الثلث الأخير من عصر المماليك البحرية، فهذه شرافات جامع المراداني بالقاهرة، والتي اعتلى بعضها القماقم، أو المباخر المضلعة. ثم ظهرت الشرافات المملوكية العصر والطراز خلال عصر المماليك البحرية، والتي شكلت على هيئة الورقة النباتية الثلاثية^(٤). كما في مدرسة أم السلطان شعبان المؤرخة بعام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م، وأعلى واجهتها تتكون من العناصر الزخرفية المعمارية كالجوسق، والجوسق لفظ يطلق على قمم المنشآت كالمآذن والمنابر وغيرها، وتتنوع الجواسق عبر العصور، حيث اتخذ كل عصر طراز خاص به، فهو على شكل قبة صغيرة في العصر الفاطمي كما في مئذنة رباط الجيوشي في القاهرة، أما في العصر الأيوبي وأثناء الحروب الصليبية فقد اتخذ الجوسق شكل خوذة

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ص ٩ - ١٠.

(٢) زقلمة، أنور: المماليك في مصر، نسخة مصورة جامعة القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ١٧.

(٣) عبد الوهاب، حسن: المرجع السابق، ص ٩٨، و ماهر، سعاد: الفنون الإسلامية، ص ٩٢.

(٤) محمد محمد أمين، وليلى علي إبراهيم: المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٠م، ص ٣٢٠.

المحارب، وزخرفها بالتضليع، كما في مئذنة المدارس الصالحية، ومئذنة زاوية الهنود بالقاهرة. واستمر هذا الطراز في بداية عصر المماليك الذين أكملوا الجهاد الأيوبي، وأتموا النصر على الصليبيين والمغول، إلا أنهم استخدموا المقرنصات في زخرفة المئذنة كسمة تميز العصر المملوكي عن الأيوبي، كما في مئذنة خانقاه سنقر وسلار، وفي مئذنة الأمير قوصون بالقاهرة. وجاء الطراز المملوكي الصرف المتمثل في شكل القلة المقلوبة أو الشكل البصلي، في مدرسة أولجاي اليوسفي وقد فصل الجوسق عن بعضه بترس زخرفي^(١).

وقد يرتكز الجوسق المملوكي على أكتاف مدعمة بالأعمدة المخلفة من الحجر، كما في مدرسة السلطان برقوق. وقد يرتكز على أكتاف مزودة بالأعمدة الرخامية كما في مدرسة السلطان حسن، ويزود الجوسق بحامل خشبي للمشكاة كخانقاه إينال، وقد يزود بعدة حوامل، كخانقاه كرميكاس، وقد تكون الحوامل معدنية كما في الجامع الأموي بدمشق. وقد استخدم الجوسق المملوكي في المآذن السورية والتي تتميز باستخدام الرفرف الخشبي^(٢) أسفل الجوسق، كمسجد الدرويشية، والمدرسة الشالبكية، وأيضاً المدرسة الشامية. أما المآذن في القاهرة فقد كانت عكس ذلك، فهي تستخدم المقرنصات والشرافات أسفل الجوسق^(٣).

وقد سار جوسق المنبر على طراز العصر أيضاً، ففي منبر مدرسة برسباي جاء خالياً من الزخرفة، أما المنبر المدمع جوسقه، فكان بجامع المرداني بالقاهرة، والمنبر الحجري المدمع جوسقه بجامع شيخو^(٤).

وتعد الأعمدة المندمجة إحدى العناصر الزخرفية المعمارية، وهي إما تصنع من مادة البناء نفسها، أو تكون من الرخام، وتستخدم لتجميل المداخل، كما في مدخل مدرسة السلطان حسن، والذي صنع العمود فيه من مادة البناء، وزخرف بالتضليع

(١) الباشا، حسن (وآخرون): القاهرة تاريخها، فنونها، ص ٧٣.

(٢) الرفرف الخشبي: سقف خشبي مائل محمول على كوابل خشبية ويعلو غالباً مكاتب الأيتام التي تعلو الأسبلة، (معلوف: المنجد، ص ٢٧٩، والبهنسي: الفن المملوكي، المصطلحات، ص ٢١٧).

(٣) محمد محمد أمين، وليلى علي إبراهيم: مرجع سابق، ص ٣٢٢.

(٤) المرجع نفسه: ص ٣٢٢.

المائل، وأيضًا على جانبي مدخل مدرسة قايتباي الرماح، وفيه ترك العمود خاليًا من الزخرفة، كما تستخدم هذه الأعمدة في تجميل أركان القباب كما هو الحال في القبة الملحقة على مدرسة السلطان حسن في القاهرة، وتستخدم الأعمدة المندمجة أيضًا في النوافذ الحقيقية والوهمية في المباني الإسلامية، وقد جاء العمود مزخرفًا بزخارف نباتية متقنة. وتستخدم الأعمدة المندمجة أيضًا في المآذن التي قد تكون فيها الأعمدة رخامية أو مصنوعة من الحجر، وقد يزخرف نصف العمود، ويترك نصفه الآخر خاليًا، كما في بيمر ستان المؤيدي. وتندمج الأعمدة في المباني كزخرفة، وفي الوقت نفسه كحاملة، كما في سبيل يوسف أغا الحيني، وأيضًا بسبيل رقية دودو بالقاهرة، وتندمج الأعمدة أيضًا بالأكتاف الحاملة للبائكتات بالمساجد كما بالجامع الطولوني بالقاهرة، وكذلك بالأكتاف الحاملة لدكك المبلغ بالمساجد أيضًا، ويتضح ذلك بدكة مبلغ جامع الأمير المملوكي شيخو، ونجدها بصدر المنبر كما بمنبر جامع شيخو أيضًا. وتستخدم لتجميل جانبي المحراب، حيث إنها غير حاملة، بل فقط بغرض الزخرفة. ونجدها مندمجة بالأكتاف الحاملة لجوسق المئذنة، كما نجدها على جانبي نوافذ المئذنة الحقيقية والوهمية^(١).

أما المقرنصات^(٢) فهي الحنايا الرأسية التي يصغر حجمها كلما اتجهنا إلى أعلى، وهي من العناصر الزخرفية المعمارية، وكان أول ظهور زخرفي لها في العصر الفاطمي، وذلك بواجهة الجامع الأقمر على جانبي المدخل، واستمرت كعنصر زخرفي في العصر الأيوبي أيضًا بمدخل المدارس الصالحية. وفي العصر المملوكي استخدمت في زخرفة الواجهات فيما يسمى بالصدر المقرنص، وأيضًا في عقود المداخل.

(١) الحداد، محمد حمزه إسماعيل، موسوعة أسس التخطيط، مرجع سابق، ص ٢١٧.

(٢) المقرنصات: حلية معمارية وزخرفية تتكون من قطع من الحجر أو الخشب على شكل عقود صغيرة وتوضع بجوار بعضها فتكون كورنيش بارز وقد تكون من عدة صفوف (حطات) وهي الحنايا الرأسية التي يصغر حجمها كلما اتجهنا إلى أعلى، (محمد محمد أمين، وليلى علي إبراهيم: مرجع سابق، ص ٩٢، والبهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٩).

كما زخرفت المداخل الداخلية بالصدر المقرنص، كما في مدرسة برسباي، مدخل الصحن، بمدرسة السلطان حسن. وقد زخرفت المداخل الرئيسية بالصدر نفسه بمدرسة جوهر اللالا. وفي عقود المداخل أدخلت المقرنصات كزخرفة، كما في مدخل مدرسة السلطان برسباي بالقاهرة، ذو المقرنصات ذات الدلايات، ومدخل البيمرستان النوري بدمشق، ومدخل مدرسة أولجاي اليوسفي بالقاهرة، ومدخل مقعد مماليك الصوفي بالقاهرة أيضاً، وقد شغلت المقرنصات جانبي عقده فقط. أما مدخل المدرسة الفريدونية في دمشق فقد نفذت على شكل الكهوف المتدلي منها الأرجل. وغطي بعضها بغضاء دقيق بمدخل الغوري في خان الخليلي بالقاهرة، وكان الغطاء أكثر دقة وزخرفة، على مقرنصات مدخل جامع علي المطهر في القاهرة. واستخدمت المقرنصات في زخرفة القباب من الخارج، كما في المدرسة النورية بدمشق واستخدمت أيضاً بداخل القباب بطريقة معمارية، وذلك لتحويل المربع إلى مثنى تمهيداً لحمل القبة، كما هو الحال بجامع المرداني. كما استخدمت في زخرفة طواقي المحاريب، وخير نموذج على ذلك المحراب الفرعي لمدرسة تتر الحجازية بالقاهرة، وزينت المقرنصات أعلى الشطافات المنفذة بأركان المنشآت لمنع الاحتكاك بالجدران، كما هو الحال بالجامع الأحمر بالقاهرة، وجامع التيروزي بدمشق، وآق سنقر بالقاهرة، وزخرفت جواسق المنابر وصدورها بالمقرنصات، وخير نموذج بمدرسة قاجماس الإسحافي بالقاهرة^(١).

نماذج من عمائر المماليك وفنونهم

١- جامع الظاهر بيبرس (٦٦٥-٦٦٨هـ / ١٢٦٦ م - ١٢٦٩ م)^(٢)

يقع هذا الجامع بميدان الظاهر بالقاهرة ويشبه في تخطيطه إلى حد كبير مسجد أحمد بن طولون، يعتبر هذا الجامع من أكبر جوامع القاهرة حيث تبلغ مساحته ١٠٣ في ١٠٦ متر ولم يبق منه سوى حوائطه الخارجية وبعض عقود رواق القبلة، ويتكون الجامع من صحن محاط بأروقة من جهاته الأربعة ورواق القبلة

(١) ماهر، سعاد: الفنون الإسلامية، ص ٨٥، والحداد: مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٢) ماهر، سعاد: مساجد مصر، ج ٣، ص ٣٤٥.

يتكون من ست بلاطات، بينما يتكون الجانبين من ثلاثة والشمالي الغربي من إثنين فقط، ويمتاز المسجد بوجود ثلاثة مداخل محورية بارزة عن الواجهات الثلاث، عدا الواجهة الجنوبية الشرقية، والمدخل الرئيسي مغطى بقبة، بينما الجانبين بقبوين متقاطعين^(١). ويقع أكبر هذه المداخل وأهمها في منتصف الواجهة الغربية قبالة المحراب، وقد حلي هذا المدخل كما حلي المدخلان الآخران الواقعان بالوجهتين البحرية والقبلية بمختلف الزخارف والحليات، فمن صُفوف معقودة بمخوصات، إلى أخرى تنتهي بمقرنصات ذات محاريب مخصصة، إلى غير ذلك من الوحدات الزخرفية الجميلة، اقتبس أغلبها من زخارف وجهات الجامع الأحمر، وجامع الصالح طلائع ومدخل المدرسة الصالحية، وكانت المنارة تقع في منتصف الواجهة الغربية أعلى المدخل الغربي^(٢).

٢- مدرسة وضريح وبیمارستان قلاوون (٦٨٣-٦٨٧هـ/١٢٨٤-١٢٨٨

(م)^(٣)

تقع مجموعة السلطان المنصور قلاوون بشارع المعز لدين الله، وأهم ما يسترعي النظر في هذه المجموعة المعمارية، القبة التي تعلو الضريح، ويظهر التأثير السوري في تخطيط قاعدتها، فهي مقامة علي قاعدة مثنى مكونة من أربع دعائم^(٤) مربعة، وأربعة أعمدة مستديرة، والأعمدة ضخمة من الجرانيت وذات تيجان مذهب، أما الدعائم فيها أربعة أعمدة رخامية في أركان كل منها؛ وقد كسيت من الخارج بالرخام الدقيق المطعم بالصدف^(٥). كما يمتاز البناء من الداخل بتكسية

(١) القبو: نظام للتغطية المقوسة بالطوب أو الحجر استخدم في تغطية الحجرات والممرات والإيوانات، (محمد محمد أمين، وليلى علي إبراهيم: مرجع سابق، ص ٣٢، البهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٨).

(٢) نوبصرة، حسن: العمارة الإسلامية في مصر عصر الأيوبيين والمماليك، القاهرة ١٩٩٨ م، ص ٤٣

(٣) انظر الملاحق صورة ص ٣٢٠ .

(٤) دعامة: بدنة غليظة مربعة غالباً تدعم بها جدران المباني وتنتقى الأحمال الثقيلة (البهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٧).

(١) الحداد، محمد حمزه إسماعيل: القباب في العمارة المصرية الإسلامية، الجزء الأول، بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية، القاهرة ١٩٩٣ م، ص ٣٨.

الحوائط بأشرطة مستطيلة تجري رأسية، وهي من الرخام الملون وذلك في الجزء السفلي من الحائط، وأمام باب القبة يوجد باب المدرسة المنصورية، ويعتبر محراب المدرسة أقل فخامة من محراب القبة الذي يعد من أكبر وأفخم المحاريب في مصر الإسلامية، أما الأجزاء الباقية من الليمارستان فتتصر في بقايا إيوانين كبيرين، وكلها فاطمية الطراز وقد ظل الليمارستان يؤدي وظيفته إلى سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م^(١).

٣- مدرسة و ضريح الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م)

يمتاز بمدخله القوطي الطراز المبني بالرخام، والذي نقل من كنيسة سان جورج بعكا علي يد الأشرف خليل بعد أن فتحها، تعلو الباب منارة محلاة بزخارف جصية بدیعة ودقیقة، وقد شيد هذا المسجد على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد^(٢) فهو يتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة إيوانات لم يبق منها الآن غير إيوان القبلة والإيوان المقابل له، أما الإيوانان الآخران فقد حل محلها بعض أبنية مستحدثة، ولم يختلف إيوان القبلة عنه سوى بالمحراب ذي العمودين الرخاميين الجميلين، وطاقيته المحلاة بزخارف جصية بارزة ومفرغة تعتبر بما يعلوها من زخارف جصية أخرى وما يقابلها بصدر الإيوان الغربي مثلاً جميلاً لما وصلت إليه هذه الصناعة من رقي وازدهار في هذه الحقبة من الزمن، وعلى يمين الداخل من المجاز الموصل للصحن، باب يؤدي إلى القبة التي لم يبق منها سوى رقبتها ومقرنصات أركانها^(١).

(١) الباشا، حسن: القاهرة تاريخها وفنونها، ص ٧٦.

(٢) التخطيط المتعامد: أسلوب معماري عرف في العصر المملوكي في بناء المدارس الخاصة بتدريس المذاهب الأربعة حيث كان لكل مذهب إيوانه، (البهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٦).

(١) نوبصرة: مرجع سابق، ص ١٦.

أما الواجهة فهي مبنية بالحجر، وما زالت تحتفظ بالكثير من معالمها القديمة، تحليلها صُف قليلة الغور فتح بأسفلها ثلاثة شبابيك معتبة، تعلوها عقود عاتقة زينت بزخارف محفورة في الحجر وتنتهي هذه الصُف من أعلى بمقرنصات جميلة^(١).

٤- مسجد سار و سنجر الجاولي (٧٠٣-٧٠٤هـ/ ١٣٠٣- ١٣٠٤ م)^(٢)

يقع هذا الأثر على ربوة عالية بشارع مراسينة (عبد المجيد اللبان حالياً)الموصل من ميدان السيدة زينب إلى القلعة. وهو عبارة عن خانقة مبنية على الصخر مباشرة، ومدخلها الرئيسي على ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف من مستوى الشارع، والواجهة فريدة من نوعها، فهي تشتمل على قبتين، وتجاورهما مئذنة، ثم المدخل العمومي وتنتهي من أعلاها بشرفات مسننة على قبتين مبنيتين بالطوب، والمئذنة مبنية من الحجر، وقاعدتها مربعة تعلوها منطقة مئذنة، وتليها منطقة أخرى مستديرة القطاع بها فتحات، وبقمة المئذنة طاقية مضلعة^(٣). ويتكون المسجد من صحن مسقوف، وإيوان للقبلة، ويؤدي الباب الثاني إلى طريقة معقودة بقبوات مصلبة على يمينها قبتان الأولى أكبر من الثانية^(٤).

٥- خانقاه ببيرس الجاشنكير (٧٠٦-٧٠٩هـ/ ١٣٠٦- ١٣٠٩ م)

تقع هذه الخانقاه حالياً بشارع الجمالية، وقد بدأ في إنشائها ببيرس الجاشنكير، والداخل لهذه الخانقاه يجتاز باب المدخل إلى (دركاه)^(١) مربعة على يسارها باب

(١) محمد أمين وليلى علي إبراهيم: مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٢) انظر الملاحق صورة ص ٣٣١ .

(٣) الطاقية: ماعطف من الأبنية، وفي العمارة هي منطقة رأس حنية المحراب (الفيروز ابادي:

القاموس المحيط، ص ٨١٥، والبهنسي، مرجع سابق، ص ٢١٨).

(٤) الحداد: القباب، ص ٦٣.

(١) دركاة: الساحة الصغيرة المربعة أو المستطيلة التي تلي الباب وتؤدي إلى داخل بناء كبير -

منطقة وسطى تلي باب الدخول تتقدم التكوين الرئيسي للمبنى، (البهنسي: المرجع السابق، ص ٢١٧،

والدرك والدركات منازل أهل النار: الفيروزبادي: مصدر سابق، ٢٠٣).

القبة وهي من القباب الكبيرة والتي فرشت أرضيتها بالرخام الأسود والأبيض، ويتوسط القبة من أسفل قبر المنشئ، وجدرانها مؤززة بالرخام، وكتب عليها بالخط الكوفي المربع "محمد" مكررة، والمحراب مكسو بالرخام الدقيق، وتخطيط هذا الأثر من النوع المتقاطع المتعامد ويتكون من صحن مربع حوله أربعة إيوانات، والمدخل يعلوه عقد مستدير الشكل^(١)، تقع هذه القبة بشارع السيوفية، وكانت ضمن المدرسة السعدية التي أنشأها الأمير شمس الدين سنقر السعدي أحد أمراء الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، وقد سميت بقبة حسن صدقة^(٢) نسبة إلى الشيخ حسن صدقة المدفون بها^(٣).

ولم يبق من هذه المدرسة سوى المدخل والقبة والمنارة، فالمدخل يقع في طرف المبنى، وواجهة القبة يغطيها مقرنص من ثلاث حيطات، فوقه طاقية العقد وأسفله شباك على كل من جانبيه ثلاثة أعمدة رخامية صغيرة وتغطيه مقرنصات جميلة، وأسفل الشباك إطار زخرفي يحيط بعتب الباب الملبس بالرخام الأحمر والأبيض، ويعلو المدخل زخارف جصية مفرغة غاية في الدقة والجمال شأنها شأن الزخارف الجصية التي تحلي رقبة القبة وقاعدتها وهي أهم ما امتاز به هذا الأثر، وواجهة القبة من أسفل بها صفتان تنتهيان بمقرنصات^(٤) بكل منهما شباك يعلوه عتب يزدان بزخارف هندسية ذات أطباق نجمية، يعلوه عقد مزرر، وبكل وجهة من وجهات منطقة الانتقال من المربع إلى الدائرة صفة معقودة بزخارف جميلة، وعلى جانبيها عمودان حليا بزخارف دقيقة، وبها ثلاثة شبابيك، اثنان منها بعقد مثلث يعلوهما شباك مسدس كانت جميعها مملوءة بزخارف جصية مفرغة، وإلى جانبي الصفة

(١) عبد الوهاب، حسن: مرجع سابق، ص ٩٣.

(٢) انظر الملاحق صورة ص ٣٣٤ .

(٣) الباشا، حسن: القاهرة تاريخها وفنونها، ص ٨١ .

(٤) محمد محمد أمين وليلى علي إبراهيم: المصطلحات المعمارية، ص ٣٦.

طبقتان زخرفيان مستديران، ويحيط بدائر القبة أعلى هذه المنطقة نطاق زخرفي جميل يشتمل على طراز مكتوب به بالخط المملوكي المزهر آيات قرآنية، وأسفله شبابيك جصية مفرغة تحيط بها زخارف جصية، وتقوم المنارة على يسار المدخل، وقد أنشئت على طراز المآذن التي شيدت في هذه الحقبة من الزمن - أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجري- أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادي، وهي تتكون من بدن مربع، تحلي واجهاته صفوف معقودة، وينتهي بدورة المؤذن التي يعلوها مئمن به ثمانى فتحات ذات عقود مورقة داخل صفوف تغطيها عقود مخصوصة، ويعلو المئمن طبقتان من المقرنص المتعدد الحطات يعلوهما قبة مضلعة. والقبة من الداخل محمولة في الأركان على مقرنصات مكونة من ثلاث حطات بمنتصف الحطة الأولى، في كل منها شبك ذو عقد مثلث مثل الشبابتك المجاورة له والسابق الإشارة إليها^(١). وأسفل هذه المقرنصات طراز مكتوب يحيط بالمربع، ويقع المحراب في منتصف الحائط الشرقي للقبة ويحيط به طراز مكتوب به أدعية، وبنهايته تاريخ القبة مكتوبا بالأرقام ٧٢١هـ / ١٣٢٧م، وبالقبة تابوت مكتوب به اسم منشئ المدرسة وتاريخ الإنشاء ٧١٥ هـ / ١٣١٥م، كما تضم القبة رفات الشيخ حسن صديق^(٢).

٧- جامع الأمير الماس الحاجب ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م^(٣)

يقع هذا الجامع بشارع السيوفية، أنشأه في سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م الأمير سيف الدين الماس أحد ممالك الناصر محمد بن قلاوون الذي ظل في خدمته إلى أن صار من أكبر أمرائه^(١). وتخطيط الجامع عبارة عن صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة

(١) ماهر، سعاد: المرجع السابق، ص ٩٤.

(٢) الحداد: القباب، ص ٨٥.

(٣) ماهر، سعاد: مساجد مصر، ج ٣، ص ١٧٦. انظر الملاحق صورة، ص ٣١٣.

(١) المقريري: الخطط، ج ٢، ص ٣٠٧.

أكبرها رواق القبلة، عقودها جميعاً محمولة على أعمدة رخامية زينت العقود المشرفة منها على الصحن بزخارف جصية، ويتوسط جدار القبلة محراب مكسو بالرخام الملون، وتشغل القبة الركن الغربي البحري من الجامع، وأهم ما فيها محرابها الصغير بعموديه الجميلين وبقايا الخردة الرخامية الدقيقة التي ما زالت موجودة به^(١).

أما الواجهة العمومية فيتوسطها الباب الذي يقع في دخلة^(٢) معقودة بمقرنصات ذات دلايات على جانبيها صفتان قليلتا الغور تنتهيان بمقرنصات، ويعتبر هذا الباب في مجموعة من الأمثلة القليلة لأبواب الجوامع التي بنيت بهذا التصميم، وبالواجهة صفتان على يمين الدخل ويساره، فتح بهما شباكان سفليان وآخران يعلوانهما، وشباكا صفتى المدخل من الخشب المفرغ بدلاً من الجص المفرغ، وهذه الظاهرة نادرة الوجود في الجوامع المملوكية. وتقوم المنارة على يمين المدخل كما تقوم القبة على يساره وليس في كليتهما ما يسترعي النظر^(٣).

٨- جامع السلطان الناصر محمد بالقلعة ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م

يقع هذا الجامع داخل القلعة على يسار الصاعد إلى جامع محمد علي باشا الكبير، أمر بإنشائه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م، وما لبث أن رغب في توسيعه فهدمه وأعاد بناءه في سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م، وبلغت مساحته من الداخل ٥٩ متراً طوياً في ٥٣ متراً عرضاً، ويتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة الذي يشتمل على أربعة صفوف من العقود، بينما يشتمل كل من الأروقة الثلاثة الأخرى على صفين من العقود ترتكز

(١) حسن الباشا: القاهرة تاريخها وفنونها، ص ٥٧.

(٢) دخلة: تجويف في مكوناً فراغاً يستفاد بت كحنية للقبلة أو شبابيك الواجهات الخارجية (البهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٧).

(٣) عبد الوهاب: مرجع سابق، ص ٩٧.

جميعاً على أعمدة رخامية مختلفة الأحجام متنوعة التيجان، وفتح في خواصرها فتحات معقودة أعلى الأعمدة قصد بها التخفيف، ويعلو واجهات الأروقة المشرفة على الصحن شرفات^(١) مسننة، تنتهي عند كل ركن من أركان الصحن بخوذة مضلعة محمولة على قاعدة مقرنصة، وتقوم أمام المحراب قبة أنشئت سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، حلت محل القبة القديمة التي سقطت في وقت غير معلوم، وترتكز هذه القبة على مربع بأركانه الأربعة مقرنصات كبيرة من الخشب وبأسفلها طراز خشبي مكتوب به بالخط البارز الكبير، اسم الناصر محمد وتاريخ الإنشاء سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٥م^(٢)، وهذه القبة بقاعدتها المربعة محمولة على عقود مرتفعة، تحملها عشرة أعمدة ضخمة من الجرانيت الأحمر، أما سقف الجامع فهو من الخشب على هيئة قصب نصف كروية تحيط بها أشكال هندسية تحصر بينها نهود بارزة تكوّن في مجموعها منظراً خلاباً يدل ما بقي منه على ما كان عليه هذا السقف من جمال وبهاء، وللجامع مدخلان أولهما يقع في منتصف الواجهة الغربية والثاني في منتصف الواجهة البحرية كما أن له مئذنتين تقوم الأولى على يمين المدخل الغربي والثانية بالطرف الشرقي للواجهة البحرية، وبالرغم من أن عدد الجوامع التي لها مئذنتان متماثلتان قليل ومحدود، فإن هذا الجامع قد انفرد بمئذنتيه غير المتماثلتين، فضلاً عن غرابة طرازهما وكسوة قمتيهما بالقاشاني الذي لم يشاهد قبل ذلك إلا في قمة مئذنة مسجد بيبيرس الجاشنكير^(٣).

٩- مسجد المارداني (٧٤٠ هـ / ١٣٤٠م)

يقع هذا المسجد بشارع التبانة بالدرب الأحمر بالقاهرة، ويعتبر هذا المسجد من

(١) الشرافات: حليات معمارية تزين نهايات الجدران في المساجد والقلاع والقصور ولها أشكال عديدة وقد تستخدم لحماية الرماة من فوق الأسوار (البهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٨).

(٢) عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ٩٧.

(٣) الحداد: القباب، ص ٨٨، انظر الملاحق صورة، ص ٣١٥.

أجمل مساجد القاهرة، ويتكون من صحن مستطيل محاط بأربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يتكون من أربعة بلاطات، و تتقدم المحراب قبة محمولة على مقرنصات، كما تتوسط الصحن ميضأة^(١) تعلوها قبة خشبية، ورواق القبلة حافل بالصناعات الدقيقة فعقوده محمولة على أعمدة من الرخام والجرانيت الأحمر، والسقف به زخارف ملونة ومذهبة بألوان زاهية جميلة، ويعتبر المحراب من المحاريب الدقيقة بمدينة القاهرة، فقد كسيت جدرانه بالرخام الدقيق والصدف في أشكال هندسية جميلة، وطاقيته من الرخام ذي الألوان الأسود والأحمر والفيروزي وبجواره منبر دقيق الصنع^(٢).

١٠-مسجد منجك أصلم السلحدار ٧٤٥-٧٤٦ هـ /١٣٤٤-١٣٤٥م^(٣)

كان الأمير بهاء الدين أصلم السلحدار أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، ووصل إلى مرتبة الإمارة في عصر ابنه الناصر محمد. بدأ بناء هذا المسجد سنة ٧٤٥ هـ /١٣٤٤م، وأتمه سنة ٧٤٦ هـ /١٣٤٥م، وقد أقامه على شكل المدارس ذات التخطيط المتعامد مع اختلاف عن النظام الذي سبقه في المساجد المملوكية، فجعل صحنه مسقوفاً بعد أن كان في غيره مكشوفاً، وجعل كل إيوانين متقابلين متماثلين، فالإيوان الشرقي ونظيره الغربي فتحا على الصحن بواسطة عقدين كبيرين، كما فتح كل من الإيوان البحري ونظيره القبلي بواسطة ثلاثة عقود صغيرة، تحملها أعمدة رخامية في حين كانت الإيوانات الأربعة في المساجد السابقة تفتح على الصحن بواسطة أربعة عقود متماثلة، وإن اختلفت في الحجم وذلك

(١) ميضأة: مكان الوضوء والتطهر بالمسجد، (البهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٩).

(٢) منبر: منصة مرتفعة بدرج يصعد عليها الخطيب لإلقاء خطبة الجمعة، نبر الشئ رفعه ومنه سمي

المنبر، (الرازي: مختار الصحاح، ص ٦٤٣، والبهنسي: مرجع سابق، ص ٢١٩).

(٣) انظر الملاحق صورة ص ٣٢٦ .

باستثناء مسجد قلاوون^(١)، كذلك جعل أحد أبوابه يؤدي إلى المسجد مباشرة، بخلاف ما يشاهد في المساجد ذات التخطيط المتعامد التي يؤدي الباب فيها غالباً إلى دركاة، ثم إلى طريقة توصل إلى داخل المسجد، وقد أقتبست بعض مظاهر هذا التخطيط في بعض المساجد اللاحقة سواء من حيث نظام الإيوانات أو تغطية الأُصْحَن بأُسْقُف خشبية، وتقع القبة بالركن الشرقي القبلي للمسجد وبابها على يمين الداخل من الباب القبلي، ويغطيه ثلاث حطات من المقرنص، وبالإيوان الشرقي منبر خشبي صغير دقيق الصنع، حُفرت حشواته^(٢) بزخارف بارزة جميلة، ويدل سقف هذا الإيوان وأُسْقُف الإيوانات الأخرى وما تبقى عليها من زخارف، على أنها كانت غنية بالنقوش المختلفة الألوان^(٣). أما الصحن فتحلي وجهاته أعلى العقود دوائر ومعينات من الجص المزخرف، تتخللها شبابيك وصفف عقودها مثلثة على شكل مراوح تحيط بها إطارات من الكتابة الكوفية^(٤).

وللمسجد واجهتان رئيستان: الواجهة القبلية وتظهر في نهايتها الشرقية القبة المضلعة، يحيط برقبتها أسفل التضييع بقايا طراز من القاشاني كتب به آيات قرآنية.. واستعمال القاشاني في هذه القبة يعتبر من الأمثلة النادرة في تزيين القباب المملوكية، وفي طرفها الغربي تقوم المنارة، وأهم ما يلفت النظر في هذه الواجهة، التربيعة الرخامية الكبيرة التي تعلو الباب، إذ تتجلى فيها دقة الصناعة فهي من الرخام الأبيض الملبس بالرخام الملون بأشكال زخرفية جميلة، أما الواجهة الغربية فيقع في نهايتها البحرية باب آخر يؤدي إلى صحن المسجد بواسطة طريقة منتشية

(١) عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ٩٧.

(٢) حشوات: حشو، محاشي وحشوات محشي به الشيء، وهي مساحات تضاف للعمل الفني وتكون من مادته أو من مادة مختلفة، وبلونه أو وبلون آخر كالحشوات التي تضاف إلى الأبواب أو الدواليب أو المنابر، (معلوف: مرجع سابق، ص ١٣٦، والبهنسي: المرجع السابق، ص ٢١٧).

(٣) الباشا، حسن: المرجع السابق، ص ٨٧.

(٤) عبد الوهاب: مرجع سابق، ص ٩٨.

والى دورة المياه، وهذا الباب بما يتميز به من نسب، وبما ينفرد به من مقرنصات تغطيه، جدير أن يعد من أبدع النماذج لأبواب المساجد الأثرية^(١)، وتضمن الكتابة الموجودة على جانبيه أعلى المكستين تاريخ الفراغ من العمل في هذا المسجد ٧٤٦هـ/١٣٤٦م^(٢).

١١- جامع آق سنقر - إبراهيم أغا مستخفظان ٧٤٧-٧٤٨هـ/١٣٤٦-

١٣٤٧م

يقع هذا الجامع بشارع باب الوزير، أنشأه الأمير شمس الدين آق سنقر أحد أمراء الناصر محمد ابن قلاون وزوج ابنته. شرع في بنائه سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م وأتمه سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، ويتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة، الذي كانت تغطيه قبوات مصلبة محمولة عقودها على أكتاف مثمثة القطاع^(٣). ويتوسط جدار القبلة محراب من الرخام الملون، تعلوه قبة ويجاوره منبر رخامي جميل، كسيت ريشته بالرخام الملون، كما حفر دارابزينه وعقوده وخودته بزخارف متنوعة، ويتوج بابه كرنيش من المقرنص المشتمل على ثلاث حطات، وله مصراعان من الخشب المجمع مطعم في أثنايه بالسن ومحفور بوسطها زخارف بارزة، ويعتبر هذا المنبر أقدم المنابر الرخامية القليلة القائمة بالمساجد الأثرية بالقاهرة^(٤). وبوسط الصحن سقيفة متواضعة أقيمت فوق موضع الفسقية التي أنشأها الأمير طوغان سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م. ويشغل الركن الغربي البحري من الجامع، قبة أنشئت سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م أى قبل إنشائه بنحو سنة دفن بها علاء الدين كجك بن الناصر محمد^(١). أما الواجهة المشرفة على شارع باب الوزير

(١) عبد الوهاب المرجع السابق، ص ٩٩.

(٢) الباشا، حسن: المرجع السابق، ص ٨٩.

(٣) زكي، حسن: المرجع السابق، ج ٥، ص ٨١.

(٤) الحداد: القباب، ص ٥٠.

(١) الباشا، حسن: مرجع سابق، ص ٩٠.

ففيها الباب العمومي للجامع، وهو يقع في صفة محمول عقدها على كابولين جميلين على هيئة مروحة، وعلى يساره بروز القبة، وبوسط وجهته شباك مستدير من الجص المفرغ الدقيق تحيط به تلابيس من الرخام الملون بشكل جميل، وأسفل هذا الشباك لوحة تاريخية مكتوب بها اسم علاء الدين بن الناصر محمد وتاريخ وفاته سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٦م، وتقوم المنارة في الطرف القبلي من الواجهة وهي من المنارات الجميلة، فقد جمعت بين البساطة والتناسب، وتتكون من ثلاث طبقات أولها أسطوانية تنتهي بالدورة الأولى بمقرنصاتها البديعة، والثانية أسطوانية ذات تضليع تنتهي بالدورة الثانية بمقرنصاتها المماثلة للأولى، والطبقة الثالثة مئمنة بأضلاعها ثمانى فتحات تنتهي بدورة ثالثة تعلوها خوزة بهلال نحاسي^(١). وفي سنة ١٠٦٢هـ/١٦٥٢م قام إبراهيم أغا مستحفظان^(٢) بإصلاح هذا الجامع بأن هدم القبوات المصلبة واستعاض عنها بأسقف من الخشب، وكسا صدر الإيوان الشرقي بالقاشاني المموه بزخارف باللون الأزرق الجميل، ولهذا أطلق عليه الأجنب - الجامع الأزرق - كما أنشأ لنفسه مدفنًا بين المنارة والباب القبلي للجامع، كسا جدرانه بالرخام الملون من أسفل وبالقاشاني الأزرق من أعلى، وإلى جوار هذا المدفن بالرواق القبلي يقع بناء قائم به مدفن الأمير آق سنقر^(٣).

١٢- مسجد ومدرسة الأمير صرغتمش ٧٥٧ هـ/١٣٥٦م^(١)

يقع هذا المسجد بشارع الخضيرى ملاصقاً للزيادة الغربية لجامع أحمد بن طولون، بني هذا المسجد على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد، فهو يتكون

(١) الحداد: مرجع سابق، ص ٥٩.

(٢) انظر الملاحق صورة ص ٣١٧.

(٣) عبد الوهاب: مرجع سابق، ص ١٠٢.

(١) انظر الملاحق صورة ص ٣١٢.

من صحن مكشوف، تشرف عليه أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذي يشتمل على ثلاثة أقسام، القسم الأوسط منها تغطيه قبة مرتفعة بأركانها مقرنصات خشبية أنشئت في سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، محل القبة القديمة التي هدمت أواخر القرن التاسع عشر، ووجود القبة أعلى المحراب ظاهرة معمارية شاهدناها في كثير من الجوامع السابقة، وإن لم نشاهدها في المساجد المشيدة على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد، وفي هذا المسجد تعتبر ميزة انفرد بها دون غيره من المساجد السابقة واللاحقة، ويقوم بصدر الإيوان محراب من الرخام الملون وسط وزرة رخامية، أهم ما يسترعي النظر فيها مرتبتان من الرخام الأبيض حفرت بكل منهما زخارف بارزة على شكل سرة في الوسط، وأربعة أركان وطران في أعلى وأسفل المرتبة مكتوب فيها اسم المنشئ، مشابهة في ذلك للكسوة النحاسية لضلف أبواب بعض المساجد المملوكية، وحلت عقود أبوابها بصنح من الرخام الأبيض والأسود كما فرشت أرضه بالرخام الملون، يتوسطها مكان الضوء تغطيه قبة لم يبق منها سوى الأعمدة الرخامية التي كانت تحملها^(١). وإذا ما ترك الإنسان الصحن واتجه إلى الإيوان الغربي وجد على يساره باباً يؤدي إلى الضريح تتوسطه تركيبة رخامية دقيقة الصنع، وكانت تكسو جدرانه وزرة من الرخام الملون لم يبق سوى بعض أجزاء منها، ويغطي الضريح قبة ترتكز على أركان المقرنص المتعدد الحطات بشكل يختلف عن مقرنصات القبة التي تعلو المحراب، ويحلي رقبة القبة كما يحلي حائط الضريح من أعلى شبابيك من الجص المفرغ المحلى بالزجاج الملون برسومات دقيقة^(١).

(١) الحداد: القباب، ص ١٠٠.

(١) عبد الوهاب: المساجد الأثرية، ص ١٠١.

أما الواجهة فمقسمة إلى صفوف فتح بها نوافذ سفلية، وأخرى علوية من الجص المفرغ بأشكال هندسية دقيقة، تتوجها بقايا شرفات مسننة ويكون الجزء البارز منها واجهة القبة، التي تتركز على رقبة أسطوانية بدائرها طراز من الكتابة تعلوه ثلاثة صفوف من المقرنصات تشغل الحيز الناشئ من زيادة تنفيخ القبة عند مبدئها عن محيط الرقبة الحاملة لها، وهي في شكلها هذا تختلف عن الشكل المألوف في القباب المملوكية^(١). ويقع المدخل في الطرف البحري للواجهة وهو على النظام المألوف في مداخل المساجد، تغطيه من أعلى طاقية مجوفة بأسفلها مقرنصات جميلة، وفوق مكسلتيه على الجانبين طراز مكتوب به اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء^(٢). وتقوم المنارة على يسار المدخل وهي مبنية من الحجر الأبيض والأحمر ومؤلفة من ثلاث طبقات: السفلية منها مثمنة وتنتهي بمقرنصات تكون الدورة الأولى للمنارة، والطبقة الثانية مثمنة أيضاً وتنتهي بمقرنصات تكون الدورة الثانية، أما الطبقة الثالثة فتشتمل على ثمانية أعمدة رخامية تحمل الخوذة^(٣).

١٣- مدرسة ومسجد السلطان حسن (٧٥٧-٧٦٤هـ/١٣٥٦م - ١٣٦٢م)^(٤)

يقع هذا الأثر بميدان صلاح الدين وقد أنشأه السلطان الملك الناصر حسن بن محمد قلاوون، وهو من أجمل الآثار الإسلامية في مدينة القاهرة، إذ أن مبانيها تجمع بين قوة البناء وعظمته، ودقة الزخارف وجمالها، والمسقط الأفقي يتكون من صحن مربع يتوسط المدرسة وتحيط به أربعة إيوانات على نمط التخطيط المتقاطع المتعامد، وأكبر الإيوانات إيوان القبلة، ويوجد خلفه الضريح الذي يتكون من قاعة مربعة تعلوها قبة محمولة على ستة صفوف من المقرنصات المصنوعة من الخشب

(١) الحداد: مرجع سابق، ص ١٥٢.

(٢) محمد أمين وليلى علي إبراهيم: مرجع سابق، ص ٦٦.

(٣) محمد أمين وليلى علي إبراهيم: المرجع السابق، ص ٦٦.

(٤) انظر الملاحق لوحة رقم (٧٩)، ص ٣٤١.

المنقوش والمذهب، يكتنف جدار محراب المسجد من الخارج مئذنتان رشيقتان أقدمهما الجنوبية، والمدخل منحرف عن اتجاهات الإيوانات الداخلية وقد بني بطريقة سليمة بحيث لا يشعر الداخل إلى المدرسة بوجود أي إنحراف^(١). وقد كان البدء في إنشاء هذه المدرسة لتكون مسجداً ومدرسة للمذاهب الإسلامية الأربعة، وقد ألحق بها مساكن للطلبة، ويحيط بالإيوان الشرقي إفريز من الجص عليه كتابات بالخط الكوفي الجميل المزخرف بالحروف، وهي تحتوي على آيات من سورة الفتح، وبغرفة الضريح يوجد كرسي للمصحف الشريف دقت حشواته^(٢).

١٤- مسجد ومدرسة السلطان شعبان ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م^(٣)

يستدل من جميع الكتابات التاريخية التي بهذا المسجد على أن السلطان شعبان هو الذى أنشأه لوالدته ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م، غير أن المقرئى وغيره من المؤرخين ينسبون إنشاءه إلى خوند بركه أم السلطان شعبان. وقد تعارف الناس من أجل ذلك على تسميته باسم - مسجد أم السلطان، أنشئ هذا المسجد على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد، إذ يتكون من صحن مكشوف تحق به أربعة إيوانات، ويكتنف إيوان القبلة من الجانبين قبتان متماثلتان، البحرية منهما أكبر قليلاً من القبلىة، وبها محراب به بقايا كسوة رخامية ومقبرة مدفون بها خوند بركه أم السلطان وأخته خوند زهره، والقبلة تختلف في مظهرها عن القباب المملوكية من حيث الاهتمام بزخرفة جدرانها وتعدد حطاتها ومقرنصاتها، وبالقبتين شبّاكان يفتحان على إيوان القبلة، ويعتبران من النماذج الجميلة للنجارة العربية، فهما مصنوعان من الخشب المجمع على هيئة أشكال هندسية تحصر بينها حشوات من الخشب والسن، محفور

(١) عبد الوهاب: المساجد الأثرية، ص ١٠١ .

(٢) حسن الباشا: القاهرة تاريخها، ص ٨٣.

(٣) انظر الملاحق صورة ص ٣٠٨

بها زخارف دقيقة^(١). وبصدر إيوان القبلة وزرة رخامية يتوسطها محراب مكسو بالرخام الملون بجواره منبر بسيط أمر بعمله الأمير علي أحد أمراء الجراكسة^(٢). ويدل سقف الإيوان القبلي المحلى بالنقوش المذهبة على ما كانت عليه باقي أسقف الإيوانات الأخرى من جمال وبهاء، وبأعلى واجهات الإيوانات الأربعة المشرفة على الصحن طراز مكتوب به آيات قرآنية حُفرت في الحجر وتتوجها شرفات مورقة، وعلى جانبي فتحتي الإيوانين البحري والقبلي أربع صفوف تنتهي بمقرنصات ذات دلايات فتح بها أربعة أبواب: البابان المتقابلان من جهة إيوان القبلة يؤدي أحدهما إلى القبة البحرية، والثاني إلى القبة القبلية وإلى باب خلفي للمسجد، والبايان الآخران يؤدي أحدهما إلى طريقة موصلة للمدخل الرئيس للمسجد والآخر إلى دورة المياه^(٣). أما وجهة المسجد فتتصدر أهميتها في المدخل الجميل الذي يتكون من صفة بصرها الباب، وعلى جانبيها صفتان معقودتان يحيط بعقديهما وعقود الشبايك التي تعلو الباب، طراز مكتوب به آيات قرآنية ولقب المنشئ وتاريخ الإنشاء^(٤).

١٥- مسجد ومدرسة ألجاي اليوسفي ٧٧٤هـ/١٣٧٣م^(٥)

يقع هذا المسجد بشارع سوق السلاح قرب نهايته من جهة القلعة أنشأه سنة ٧٧٤ هـ/١٣٧٣م الأمير سيف الدين ألجاي أتابك العسكر - كبير الأمراء - في أيام الملك الأشرف شعبان، على نظام المدارس ذات التخطيط المتعامد فهو يتكون من صحن مكشوف كبير تحيط به أربعة إيوانات معقودة الفتحات يدل ما بقي من

(١) الحداد: مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٢) محمد محمد أمين وليلى علي إبراهيم: مرجع سابق، ص ٦٧.

(٣) عبد الوهاب: المساجد الأثرية، ص ١٠٥.

(٤) الحداد: القباب، ص ٧٨.

(٥) انظر الملاحق صورة ص ٣٠٩

النقوش المذهبة بسقفي الإيوانين البحري والقبلي على ما كان عليه سقف الإيوانين الآخرين من غنى وجمال^(١). وإيوان القبلة على خلاف نظائره في المساجد الأخرى ترك محرابه وجدرانه بغير وزرة رخامية، أما منبره رغم أنه فقد الجزء العلوى منه لكنه يعتبر من المنابر الخشبية الدقيقة الصنع، اجتمعت فيه دقة الحفر في الخشب وجمال التطعيم فيه كتب بأعلى بابه تاريخ عمله سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م^(٢).

وتقع غرفة الضريح في الركن الغربي القبلي من المسجد تغطيها قبة حجرية مرتفعة، أما الواجهة الرئيسة للمسجد فجميلة سواء من حيث تناسب أجزائها أو براعة تقاسيمها، فهي تشتمل على صفتين كبيرتين تنتهيان من أعلى بمقرنصات، وصفتين صغيرتين تنتهي كل منها من أعلى بعقد مثلث على هيئة مروحة، وفتح بهذه الصف ثلاث صفوف من الشبابيك: الصف الأول منها معتب يعلوه عقد عاتق، والصف الثاني شبابيك معقودة، والصف الثالث مكون من شبابيك - قندلية - أي شباكين معقودين بينهما عمود، تعلوه فتحة مستديرة، ويقع الباب في الطرف البحري من الواجهة، وهو مفتوح في صفة تغطيها مقرنصات جميلة ومكتوب على جانبيه في طراز محفور في الحجر أعلى المكسلتين اسم المنشئ وألقابه وتاريخ الإنشاء سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م^(٣). وتقوم المنارة على يمين المدخل وهي مكونة من ثلاث طبقات، الطبقة الأولى مثمثة حليت بفتحات وصفح معقودة وتنتهي بمقرنصات تكون الدورة الأولى للمنارة، والطبقة الثانية أسطوانية تنتهي بمقرنصات أيضاً تكون الدورة الثانية، والطبقة الثالثة مكونة من ثمانية أعمدة رخامية تحمل الخوذة الجميلة، أما القبة الواقعة في الطرف القبلي من الواجهة فهي من نوع القباب ذات التضييع^(١).

(١) عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٦ .

(٣) ماهر، سعاد: المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(١) الحداد القباب، ص ٩٢ .

مقدمة

قامت دولة المماليك في اطارها السياسي على عنصرى السلطة والثروة؛ ولما كان المماليك صنيعة ثقافات متعددة، استمدوا عناصر استمرارهم مما ورثوه من ثروة وأنظمة حكم وإدارة، عمدوا إلى تطويرها وترقيتها، فنجد أنهم قد استعانوا بالعلماء لتحقيق هذا الهدف، فجاء التغير في النظام الإدارى والاقتصادى والسياسى متوافقاً مع المتغيرات الثقافية في اطار المعطيات السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، الأمر الذى شكل النتاج الثقافى للمؤشرات الدالة على هوية المجتمع وتوجهاته واتجاهاته وميوله الفكرية والروحية وتكوين بنية الدولة وقوامها.

أولاً: النظم الإدارية:-

١-الوزارة:-

الوزارة عند الماوردي على ثلاثة أوجه: أحدها أنها مأخوذة من الوزر وهو النقل لأنه يحمل عن الملك أثقال، والثاني مأخوذ من الوزر، بالفتح وهو الملجأ، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّا وَتَرَرٌ^(١)﴾، أي لا ملجأ، فسمي بذلك لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته. والثالث: أنه مأخوذ من الأزر، وهو الظهر، لأن الملك يقوى

(١) سورة القيامة: الآية ١١.

بوزيره^(١). وأبرز من ولي الوزارة قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز،
والصاحب فتح الدين القيسراني الحلبي^(٢).

كما عرف ابن خلدون الوزارة، بقوله: "هي أم الخطط السلطانية والرواتب
الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة؛ فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة
وهي المعاونة. أو من الوزر وهو الثقل"^(٣).

ورث المماليك جل أمورهم الإدارية والمالية عن الإيوبيين، وكان لمنصب الوزارة
شأن كبير إلا أنه لم يلبث أن تراجع، وقلّت مكانته في الدولة لأن المماليك زاحموا
العلماء في هذا المنصب، ثم ظهرت وظيفة نائب السلطنة، فإذا كان الوزير من
أرباب الأقلام، أطلق عليه لقب (الصاحب)، وإذا كان من أرباب السيوف، فإنه
يكون أميراً^(٤).

ويتدرج العلماء في الوظائف الديوانية الصغرى مثل الكتابة ثم المباشرة حتى
يصلوا إلى وظيفة شاد الدواوين، وهي وظيفة كبرى، ومن هؤلاء الموظفين يتم
إختيار الوزير^(٥).

لقد رأى المماليك أنه من الصواب أن يعتمدوا على العلماء من أهل البلاد في
بداية حكمهم حتى تستقر لهم الأمور. إلا أن وظيفة الوزير أصابها من الضعف
والإهمال بعد المنصور قلاوون سنة ٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م، وخاصة بعد

(١) الماوردي: مصدر سابق، ص ٦٤.

(٢) هو: عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن محمد بن نصر القرشي المخزومي، أبو محمد. تولى
وزارة دمشق، عرف بالتدين والأخلاق الحسنة، توفي بالقاهرة سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، (العيني: عقد
الجمان، ج ٤، ص ٣٢٨).

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢١٧.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٣.

(5) Kabie .HM .The Financial System Of Egypt. Oxford، 1972. p.139

أن استحدث الناصر محمد بن قلاوون ٧١٣هـ/١٣١٣م وظيفة نظر الخاص الذي أخذ نصيباً كبيراً من أعمال الوزير، وتوليه تدبير أمر العامة وتعيين المباشرين^(١). حتى أن ناظر الخاص أصبح أول الموظفين دخولاً على السلطان، ويدخل بعده ناظر الجيش، ثم يدخل كاتب السر ثم يدخل الوزير بعد ذلك، ويذكر الوزير أمين الدين عبد الله بن تاج الرئاسة المتوفي، سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م أنه عندما دخل على السلطان محمد بن قلاوون، كلفه بمساعدة ناظر الخاص وتلبية إحتياجاته، وأنه ليس له حديث مع السلطان إلا في الجبن ودار التفاح وصناعة التمر^(٢). ووصل الأمر أن ذهب الوزير بن تاج الرئاسة إلى السلطان طالباً عزله وأن يتولى شخص من المماليك الوزارة حتى ينصلح حالها، فعزله السلطان وولى الأمير مغلطاي الجمالي^(٣). ومنذ هذا التاريخ ٧٤٠هـ/١٣٤٠م، بدأ غزو أرباب السيوف لهذه الوظيفة يتزايد وتراجع دور أرباب الأقلام. وقد كان الإعتماد على الوزراء من العلماء والقضاة قاصراً على فترة بداية عصر المماليك، تلك الفترة التي كان المماليك فيها في أمس الحاجة إلى دعم الشعب المصري، ومساندة أهل الشرع وهم العلماء، ثم تحول اعتمادهم على المسالمة والأقباط وأمراء المماليك، والعديد منهم لم يرقبوا في الشعب إلا ولا ذمة^(٤).

(١) المباشرة: هي وظيفة يتولاها المباشرون، وهم موظفون في الدواوين مثل ديوان الخاص، وفي الأعمال مثل عمل الجيزة وغير ذلك كالإقطاع. ومنهم الناظر، والمستوفي والشاد، ويعينهم ناظر الخاص، (القلقشندي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٥١٠-٤٦٠).

(٢) اليوسفي: مصدر سابق، ج ٥، ص ١١٧.

(٣) علاء الدين مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحنفي، أبو عبد الله، علاء الدين، ومؤرخ، من حفاظ الحديث، عارف بالأنساب. تركي الأصل، مستعرب. من أهل مصر، توفي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م، محدث، مؤرخ نسابة، من أهل مصر، تركي الأصل له كتاب (الإشارة أو السيرة النبوية)، أو الواضح المبين في من استشهد من المحبين، (معلوف: المنجد، ص ٦٧٨).

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٤.

٢- ناظر الخاص:-

هي من الوظائف التي أحدثها الناصر محمد عوضاً عن الوزارة، تولى هذه الوظيفة أرباب الأقاليم وكان صاحبها مختصاً بمال السلطان، والخزانة السلطانية بقلعة الجبل، ويعاونه من الموظفين مستوفي الخاص وناظر الخزانة الخاصة^(١). وتمتع العلماء الذين تولوا نظر الخاص بمكانة عالية عند سلاطين المماليك، وكان ناظر الخاص مقرباً للسلطان أكثر من أي موظف آخر، فيتحدث معه السلطان في كل ما يريد أن يطلق أو ينعم به على خواصه وجواريه ومن يختاره، ثم يكلف الوزير بعد ذلك بحمل ما يطلبه ناظر الخاص^(٢). ومن هنا لعب ناظر الخاص دوراً مهماً في المجتمع المصري. وقد مثل الأقباط والمسالمة أغلب نظار الخاص في مصر عصر المماليك، ويرجع ذلك إلى مهارتهم في الأعمال الحسابية، وقلم الديونة بالإضافة إلى ثقة السلطان فيهم. ولا شك أن وظيفة ناظر الخاص كانت مصدر ثراء لهذه الفئة من العلماء، فقد ذكر أن مالية ابن زمبور^(٣) لا يمكن حصرها، وقد بالغ المؤرخون في رصدها بعد القبض عليه ومصادرتها في عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م، فمن جملتها أردب لؤلؤ وألف ألف دينار، وقس على ذلك من القماش والأموال

(١) الفلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٠، والمقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٧، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١١٢.

(٢) اليوسفي: مصدر سابق، ص ١١٧.

(٣) القاضي زين الدين أبو الحسن علي بن القاضي أبي المعالي محمد بن منصور بن أبي القاسم بن مختار بن أبي بكر بن علي الجذامي الإسكندري، المعروف بابن المنير المالكي قرأ الفقه على أخيه القاضي ناصر الدين وابن الحاجب، وروى الأربعين السلفية عن يوسف بن المظلي. وكان محدثاً صدرًا جليلاً محتشماً، وافر الحرمة مليح الصورة، حسن الهيئة، كامل الفضيلة. ولي قضاء الثغر مدة، وأفتى، وصنف ودرّس، وحديث بمكة والثغر. من مصنفاته: المتواري عن تراجم البخاري؛ شرح الجامع الصحيح للبخاري. (الزركلي: الأعلام، م ٥، ص ٨).

العينية^(١). و من العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة: القاضي كريم الدين بن كاتب
جكم^(٢)، والقاضي عز الدين بن جماعة.

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٧، ص ٧١.
(٢) هو: عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم، وهو أول من تولى هذه الوظيفة
اتصف بحسن الأخلاق وحب الخير و كثرة التصدق، (ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١٢٧،
والعيني: عقد الجمان، ص ٢٤٩-٣٩٥، وابن تغري بردي: النجوم الزهور، ج ١٤، ص ٣٦٤-٣٧٠).

٣- ناظر الدولة: (ناظر الدواوين):-

تعرف هذه الوظيفة بالصحة الشريفة أو ناظر النظار، ويتحدث مع الوزير في كل ما يتحدث فيه، ويشاركه في الكتابة والتوقيع في كل ما يكتب فيه، ويوقع في كل ما يوقع فيه الوزير تبعاً له، فإن كان الوزير صاحب سيف كان ناظر الدولة هو المتحدث في أمر الحسابات وما يتعلق بها، وحينئذ يختص الوزير بالنظر والتفويض، وإذا غاب الوزير أو تعطلت الوزارة من وزير قام ناظر الدولة بمهامه^(١)، فيتقدم إلى شاد الدواوين^(٢) بتحصيل الأموال وصرفها في النفقات والكلف.

وكان لناظر الدولة مساعدون على رأسهم مستوفي الصحة الذي يشترك في سائر أعمال الدولة مصراً وشام. ويكتب مراسيم يُعلم عليها السلطان، ثم مستوفي الدولة وله الاشتراك أيضاً في معرفة أصول الأموال ووجوه مصارفها^(٣). ومن العلماء الذين تقلدوا هذا المنصب القاضي شرف الدين بن النابلسي^(٤)، والقاضي موفق الدين هبة الله بن سعيد الدولة ابراهيم^(٥)، وضياء الدين بن خطيب بيت الأبار^(٦).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٩، والبقلي: التعريف، ص ٣٤٤.

(٢) شاد الدواوين: أو شد الدواوين، تعني مفتش الدواوين، فكلمة شد ترادف كلمة تفتيش، ويسمى متولي هذه الوظيفة الشاد مضافاً إليها جهة الاختصاص. (القلقشندي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٥٤).

(٣) ابن خلكان: مصدر سابق، ج ٢، ص ٩٩، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣١، والبقلي: التعريف، ص ٣٤٣.

(٤) هو: أبو طالب بن القاضي علاء الدين النابلسي، تولى هذه الوظيفة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، (ابن عبد الظاهر، محيي الدين ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م: تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق، كامل، مراد، القاهرة ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص ٥٨).

(٥) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٤٨.

(٦) هو: يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو المحاسن، المعروف بالضياء بن خطيب بيت الأبار الشامي، ولد سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، تولى الحسبة ونظر المارستان والأوقاف سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م، اتصف بالأمانة. توفي سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م، (المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ٥٧، وابن حجر الدرر، ج ٥، ص ٢٥٧-٢٥٨).

وترجع أهمية هذه الوظيفة إلى أنها درجة عليا من درجات السلم الوظيفي التي يمكن للعالم بعدها أن يصل إلى وظيفة الوزارة. بل ارتفعت منزلة صاحبها في بعض الفترات التاريخية خلال عصر المماليك إلى درجة مرموقة. ولا تختلف طبيعة ناظر الدولة عن الوزير رب القلم أو ناظر الخاص، أو ناظر الجيش، حيث يعمل الجميع في الإدارة المالية للدولة وأغلب من تولى هذه الوظائف من الأقباط المسالمة^(١).

٤- نظام البريد^(٢)

تطلب تحصين الأطراف والثغور إيجاد وسيلة نقل سريعة لربط قلعة القاهرة بسائر أنحاء البلاد بهدف تلقي الأخبار وإصدار الأوامر، وقد تنبه بيبرس إلى منفعة البريد، فوضع له نظاماً خاصاً، ربط بواسطته جميع أنحاء البلاد التي يسيطر عليها بشبكة من خطوط البريد البرية والجوية، وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل في القاهرة^(٣). وتتفرع من المركز أربعة فروع هي:

١- فرع يتجه جنوباً إلى قوص، بالوجه القبلي، وما يلي ذلك من بلاد النوبة.

٢- فرع يتجه شرقاً إلى عيذاب وسواكن على البحر الأحمر.

٣- فرع يتجه غرباً إلى الإسكندرية وبرقة.

(١) البطاوي: مرجع سابق، ص ٢٩.

(٢) البريد لغة: مسافة معلومة مقدرة بأثني عشر ميلاً واحتج له الجوهري بقول الشاعر متردد يمدح عرابة الأوس: فدتك عراب اليوم أُمي وخالتي *** وناقتي الناجي إليك بريدها وقد قدره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي وهو أربعة وعشرون (اصبغاً)، وأول من وضعه في الإسلام، ذكر أبو هلال العسكري في "الأوائل" أنه معاوية بن أبي سفيان، وقيل في زمن عبد الملك بن مروان. (القلقشندي: صبح الأعشي، ج ١٤، ص ٢٠٠، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٦٧).

(٣) طقوش، محمد سهيل (دكتور): تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٥١٧-١٢٥٠م، دار النفائس، ط ١، ١٩٩٩م، ص ١٠٢.

٤- فرع يتجه شمالاً إلى دمياط ومنها إلى غزة^(١)، ثم يتفرع منها إلى سائر البلاد الشامية^(٢). واقتصر عمل البريد على الآتي:-

أ- إيصال الأوامر السلطانية إلى كافة النيابات في مصر وخارجها.

ب- استقبال الرسائل من حكام النيابات.

ج- استقبال التقارير من ولاية الأعمال.

وأقام ببيرس المحطات البريدية على مسافات تبعد إحداها عن الأخرى أثني عشر ميلاً وربما تفاوتت المسافات بين بعضها البعض بفعل وجود ماء أو قرية. وزودها بما يحتاج إليه ناقل الخبر من زاد وخيل وعلف، كما راعى في اختيار أماكنها توفر المياه أو وجود قرية قريبة كي يستأنس البريديون بسكانها^(٣).

كان لقرب هذه المحطات بعضها من بعض أثر كبير في تسهيل مهمة الرسل على اجتياز المسافات بسرعة فائقة. فإذا وصل ناقل الخبر إلى المحطة بدّل فرسه المتعب بآخر مستريح وتزود بما يحتاج إليه، وأضحى البريدي يقطع المسافة من دمشق إلى القاهرة في مدة ثلاثة أيام والعكس صحيح^(٤). يشترط في رجل البريد أن يُعَيَّن من بين خدم السلطان ممن يتمتعون بالكفاءة والذكاء والإخلاص، ويتميز بمكانة محترمة، وله شارة خاصة يُعرف بها لتسهيل مروره، ولا يسمح بركوب خيل البريد إلا بمرسوم سلطاني^(١).

(١) غزة: تقع في أقصى جنوب الشام من ناحية مصر غربي عسقلان، (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٠٢-٢٠٣).

(٢) القلقشندي: مصدر سابق، ج١٤، ص٤١٨ - ٤١٩.

(٣) المصدر السابق، ص٤١١ - ٤١٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق، ج٤، ص٣٦٦.

(١) طقوش، محمد سهيل: المرجع السابق، ص ١٠٣، وابن اياس: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٣٢.

والبريديون على ضربين، الأول: من يحمل البريد العادي إلى الولاية والنواب، فإن هم أحسنوا القيام بأعمالهم، وأصبحوا موضع ثقة السلطان، ومحل سره عهد إليهم بحمل الرسائل الهامة إلى الملوك وهم الضرب الثاني، وتمتع هؤلاء بمكانة مرموقة ومحترمة، يمنحون الأرزاق السنية، والخلع الثمينة، أسوة برجال الدولة^(١).

يشرف على البريد صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب السر، كما أضحى يسمى منذ أيام قلاوون. ولم يقتصر استخدام البريد وإرساله بالطرق البريدية، بل استخدم البريد الجوي، في الحالات المستعجلة بواسطة الحمام الزاجل وخصص له برّاجون يعتنون به ويديرونه^(٢).

كانت القلعة المركز الرئيسي لأبراج الحمام الزاجل، كما أقيمت محطات أخرى في جهات مختلفة من أنحاء السلطنة تماماً مثل محطات البريد البري، لكن تزيد عليها في المسافة، وخصص لكل محطة عدد من الحمام. فإذا نزل الحمام في محطة منها، نقل البراج الرسالة من الطائر إلى طائر آخر ليوصلها إلى المحطة التي تليها^(٣).

وتمتاز الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل بالإيجاز والتركيز إذ يستغنى فيها عن البسمة والمقدمات الطويلة، والألقاب الكثيرة ويكتفي بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب في صيغة موجزة، ويراعى أيضاً استعمال الورق الرقيق كي لا ينوء الطائر بحمله، أو يكون سبباً في تعويق سرعته. وتشد الرسالة تحت جناح الحمامة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤١٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٤٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٣٥.

أو إلى ذيلها^(١). ويطلق على هذا الورق "ورق الحمام" أما الخط المستعمل في هذه الرسائل فهو المعروف باسم "الغبار" لأنه دقيق صغير، يشبه ذرات الغبار^(٢).

بلغ نظام البريد في عهد بيبرس مرحلة متقدمة من التطور، حتى إن الظاهر كان يشرف بنفسه على سفر البريد في مواعيده المحددة، وكان لهذا النظام، وما وصل إليه من دقة وإحكام أثر كبير في تحصين الدولة من خلال صد غارات المغول التي طالما هددت مصر وبلاد الشام كما ساعد على تفقد الأوضاع في مختلف أنحاء السلطنة والإمام بكل كبيرة وصغيرة من أعمال النواب.

ثانياً: النظام العسكري

كان المجتمع المصري في عصر المماليك، مجتمعين يقومان على بناء طبقي حاد: فمنه طبقة من الحكام العسكريين لهم كافة الحقوق والإمتيازات ولهم حق الإدارة والحكم، فضلاً عن أن الموارد العامة "من الأراضي الزراعية والمراعي، والمصايد، والغابات، والأحراش، والمسطحات المائية" كانت بحوزتهم، بحكم القوانين الإقطاعية التي نظمت العلاقات داخل الكيان الإقطاعي العسكري الذي جسده دولة سلاطين المماليك. ويضم النظام العسكري الوظائف التالية:-
ناظر الجيش:-

هو من مهامه تسجيل أسماء الأمراء وأسماء الجنود الذين يتبعون لهم، كذلك وكل ما يتعلق بهم من نفقات وعتاد ومؤون، وما يخصهم من إقطاعات^(٣)، ومن حقه تجريد من يرى فيه المصلحة والكفاية والقدرة من الجند، وحرام عليه تجهيز الفقير والعاجز، أو أن يغوي به السلطان، بل يجب عليه أن يحميه من الضرر، وعليه

(١) المقريري: الخطط، ج٢، ص ١٣١.

(٢) طقوش: مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٣) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٣١، والمقريري: الخطط، ص ٣٩٥، والبقلي: التعريف، ص ٣٤٢-٣٤٣، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١١٤.

توزيع التجريدات على حسب مصلحة المسلمين، ومن قبائح ديوان الجيش إلزام الفلاحين في الإقطاعات بالفلاحة للديوان، وقد يقترب الديوان المظالم أحياناً على أساس أنها مشروعة لهم بعرف الديوان^(١). ومن أبرز من تولى هذا المنصب: قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، والقاضي فخر الدين بن الحلبي^(٢)، وكاتب السر كمال الدين بن البارزي^(٣)، والقاضي زين الدين عبد الباسط^(٤). ويعاون ناظر الجيش عدد من الموظفين، كصاحب ديوان الجيش، وكاتبه وشاهده، وصاحب ديوان الممالك، وكاتبهم وشاهدهم.

لقد ذكر القلقشندي الوظائف الكبرى في دولة سلاطين المماليك وقسمها إلى أربعة أقسام: إذ قال تحت عنوان "في ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب" الذين بهم انتظام المملكة وقيام الملك: (منهم أرباب السيوف أي العسكريين من فرسان المماليك) وهم الأمراء الذين قسمهم إلى^(٥):-

أ- أمراء المنين:

مقدمو الألو، وعدة كل منهم مائة فارس؛ أي أن كل منهم يحق له أن يكون جيشاً من ممالكه في حدود مائة فارس من الفرسان ثقيلي العدة، وربما زاد على

-
- (١) القلقشندي: مصدر سابق، ج٤، ص ١٤-٣٧، وج ١١، ص ٩٣، والسبكي: معيد النعم، ص ٣٣-٣٤.
- (٢) هو: محمد بهاء الدين عبد الله بن أحمد المعروف بابن الحلبي، كان من الرؤساء المقدمين في الدولة؛ تولى نظر جيش دمشق، وتوفي سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، (ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٨٤، و ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٣٦).
- (٣) هو: محمد بن القاضي ناصر الدين أبو المعالي محمد بن القاضي كمال الدين محمد بن عثمان بن محمد بن عبد الرحيم البارزي الحموي الجهني الشافعي، ولد سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م، برع في الكتابة وتولى كتابة السر، لقب بالبارزي نسبة إلى أبرز أحد أبواب بغداد، توفي سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م، (ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢٩٠-٢٩٤، وج ١، ص ١٥٣).
- (٤) هو: عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم بن يعقوب الشافعي، تولى عدداً من الوظائف، توفي ٨٥٤هـ/١٤٥٠م، (ابن إياس: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٩، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ١٥، ص ٢٧٤-٢٧٦، والمقريري: السلوك، ج ٣، ص ١٩٣).
- (٥) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٤-٣٧.

ذلك عشرة أو عشرين فارساً. ومن ناحية أخرى يكون له حق قيادة ألف فارس من غير مماليكه - ممن هم دونه من الأمراء على نحو ما يذكر العمري^(١)، وأصحاب هذه الرتبة من الأمراء هم أعلى أمراء الممالك قدراً، ومنهم يكون أصحاب الوظائف الكبرى ونواب السلطان.

ب- أمراء الطبلخاناه^(٢):

عدة كل منهم في الغالب أربعين فارساً. ويذكر العمري: أنه ربما كان من حق أمير الطبلخاناه أن يزيد عدد فرسانه إلى سبعين أو ثمانين فارساً^(٣) ولكن هذه الرتبة لا تعطي أبداً لأقل من أربعين فارساً. ومن هذه الطائفة من الأمراء تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأقاليم وأكابر الولاية حسبما يقول القلقشندي^(٤).

ج- أمراء العشرات:

يكون لكل منهم إمرة عشرة من فرسان الممالك. وربما للواحد منهم عشرون فارساً ولكنه يظل من أمراء العشرات. ومن هذه الفئة يكون صغار الولاية ومن كان مثلهم من أرباب الوظائف الصغرى.

(١) ابن فضل الله العمري: مصدر سابق، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) الطبلخاناه: كلمة فارسية من جزئين: طبل وخاناه؛ ومعناها بيت الطبل ويقصد به الطبول والأبواق التي تدق على أبواب الأمراء ذوي الرتب العالية ويتولى أمرها أمير عشرة يكون مسئولاً عنها في المخازن وفي السفر وفي الحروب، وتحت يديه عدد من ضاربي الطبول ونافخي النقيير "البوق" وضاربي الصنوج النحاسي وغيرهم، (القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٣).

(٣) العمري: مصدر سابق، ص ٢٨.

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٤، وقاسم، عبده: عصر سلاطين الممالك، ص ٣٥.

د- أمراء الخمسات:

وكانوا قلة خصوصاً في مصر، وربما كان أكثرهم من أولاد الأمراء الذين توفوا ومنح الأبناء هذه الرتبة رعاية لأبائهم^(١). وهناك نص للعمري، عن الإقطاعات التي كانت تمنح لأرباب السيوف، لقاء قيامهم بواجباتهم الوظيفية يقول العمري: "و يبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر الأمراء المقربين من السلطان مائتي ألف دينار جيشيه، وربما زادت على ذلك، وأما غيرهم فدون ذلك ودون دونه إلى ثمانين ألف دينار حولها. أما الطبلخانات فتبلغ الثلاثين ألف دينار وما يزيد، وينقص عليها إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار إلى ما دون ذلك، وأما إقطاعات المقدار وما حوله إقطاعات أعيان الحلقة المقدمين عليهم، ثم ما دون ذلك إلى مائتين وخمسين ديناراً. وأما إقطاعات جند الأمراء فإلى ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص^(٢). هذا يوضح بجلاء أن المماليك استأثروا بوظائف القيادة في الجيش كما اختصوا أنفسهم بوظائف الإدارة العليا والوسطى والصغرى.

هـ- أمير السلاح:-

لقب يطلق على من يتولى سلاح السلطان أو الأمير، وحمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة، وصاحبه هو المقدم على السلاحدارية من المماليك السلطانية، والمتحدث في السلاح خاناه السلطانية، وما يستعمل لها، ويقدم إليها، ولا يكون إلا واحداً من الأمراء المقدمين^(٣).

(١) قاسم، عبده: مرجع سابق، ص ٣٥.

(٢) ابن فضل الله: مسالك الأبصار، ص ٣٢.

(٣) ابن فضل الله: المصدر السابق، ص ٣٢.

و- أمير أخور:-

هو الذي يتحدث على اسطبلات السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيها من خيل وإبل وغيرها مما هو داخل في حكم الإسطبلات، ويختار صاحب هذه الوظيفة من بين أمراء المؤمنين، ويتخذ مسكنه في الإسطبل السلطاني^(١).

ز- أمير جاندار:-

لقب أطلق على الشخص الذي يستأذن على الأمراء وغيرهم في أيام الموكب عند الجلوس بدار العدل^(٢)، فيتولى إدخال الناس على السلطان، وهو جالس بقلعة الجبل ويدخل أمامهم إلى الديوان، وهو يد السلطان اليمنى، فإذا أراد أن يقتل أحداً، يتولى أمير جاندار تنفيذ ذلك، ومع أن هذه الوظيفة، كانت معروفة في مصر في العصر الطولوني، وعصر الدولة الفاطمية ويطلق على متوليها اسم "صاحب الباب" فإن أهميتها عظمت في عصر بيبرس الذي حدد اختصاصات صاحبها^(٣).

ح- أمير علم:

لقب أطلق هذا اللقب على الشخص الذي يتولى أمر الأعلام السلطانية والطلخاناه، وما يجري مجرى ذلك، ويختار من طبقة أمير عشرة، ويشترط أن يكون حسن الوجه، رضي الخلق، يقف هذا الأمير في الطبلخاناه بالقلعة في كل ليلة وقت الضرب ويشرف عليها أثناء السفر^(٤).

ط - نقابة الجيوش:

يتولى صاحب هذه الوظيفة مراقبة الأمراء الذين يود السلطان القبض عليهم، كما يدور على الأمراء والجند في عرضهم للمهمات الشريفة أمير طبلخاناه، وأحياناً

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٢٤، وحسن، علي إبراهيم: مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٢) راجع دار العدل في، ص ٢٧٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٣٣، وابن إياس: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٤.

(٤) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣، ج ٥، ص ٤٢٨.

أمير عشرة، ودونه اثنان من جند الحلقة، ويكتب لكل منهم توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته^(١) أحد من الأمراء المقدمين^(٢).

ك - أمير المجلس:

لقب أطلق على الذي يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير، وموضوع إمرة المجلس، تولى أمور مجلس السلطان وهو يتحدث على الأطباء والكحالين^(٣) ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحداً منهم^(٤). وكانت هذه الوظيفة ذات مقام رفيع، ويعتبر متوليها أعلى منزلة من أمير السلاح، ويختار من بين أمراء المؤمنين، ويهيمن على شؤون التدابير الإدارية ويتمتع بحكم وظيفته بالجلوس في حضرة السلطان^(٥). كان بيبرس أول من حدد اختصاصات هذه الوظيفة، وقد ازداد قرب أمير المجلس من السلطان حتى أضحى يحرسه داخل القصر، بل في حجرة نومه^(٦).

ل - رأس النوبة:

رأس النوبة الجمدارية^(٧)، لقب يطلق على الذي يتحدث إلى ممالك السلطان أو الأمير، وينفذ حكمه فيهم، وجرت العادة أن يكونوا أربعة: أحدهم مقدم ألف، والثلاثة الآخرون أمراء طبلخاناه. ويجلس رأس النوبة عن يسار السلطان عند

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ج٤، ص١٩٣، وج١، ص٣٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩، وابن إياس: مصدر سابق، ج١، ص٣٢٤.

(٣) يقصد بالكحالين: أطباء العيون. (طقوش: مرجع سابق، ص١٥١).

(٤) ابن إياس: مصدر سابق، ج١، ص٣٢٣، والقلقشندي: مصدر سابق، ج٤، ص١٩٥.

(٥) القلقشندي: المصدر نفسه، ص١٩٧.

(٦) طقوش: مرجع سابق، ص١٥١.

(٧) رأس النوبة: أي كبير النواب، والجمدار مؤلف من مقطعين جاما أو جامه وتعني الثوب؛ ودار وتعني ممسك الثوب، وهو الشخص الذي يتولى إلباس السلطان ويقوم بحراسته أيضاً، (الباشا، حسن: الفنون الإسلامية، ج١، ص٣٥٦-٣٥٧، وج٢، ص٥٤٥-٥٤٦. و يقابلها (الياور) في التعريف الحديث.

انعقاد مجلس السلطان، لأنه كان يعتبر أكبر طائفة الأمراء مقاماً، وأعلاهم مركزاً بحكم زعامته للمماليك السلطانية^(١).

م- ناظر الخزانة:-

كانت الخزانة موجودة قبل استحداث نظر الخاص ويكون صاحبها من ذوي المكانة الرفيعة، ولكن بعد استحداث وظيفة ناظر الخاص ضعف أمر الخزانة وناظرها، ولم يبق بها إلا الخلع، وصار نظر الخزانة مضافاً لناظر الخاص، ثم تلاشت نهائياً سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م^(٢). وتليها شهادة الخزانة، وتعنى بضبط أموال الديوان، وعمل الحسابات الخاصة به من واردات ومصروفات^(٣). ومن الذين تولوا نظر الخزانة من العلماء: قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز^(٤)، وقاضي القضاة تاج الدين الأحنائي، وممن تقلد شهادة الخزانة: الشيخ الإمام عماد الدين بن الصائغ^(٥)، وقاضي القضاة تقي الدين الأحنائي المالكي^(٦).

(١) الفلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٢٧، وابن إياس: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٤، وحسن، علي إبراهيم: المراجع السابق، ص ٢٠٩.

(٢) الفلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣١، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١١٤، والمقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٧، والباشا، حسن: الفنون الإسلامية، ج ٣، ص ١٢٠٢-١٢٠٣.

(٣) البقلي: مرجع سابق، ص ٢٠٦، والباشا، حسن: مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٢١-٦٢٢.

(٤) هو: عبد الرحمن بن تاج الدين العلاني الشافعي توفي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، (المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٤١-٧٤٢، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٩٧، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤١).

(٥) هو: عبد العزيز بن محمد بن عبد القادر بن عبد الله بن خليل بن مقلد الأنصاري الدمشقي، برع في الحساب وقد روى الحديث ودرس، توفي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، (ابن كثير: مصدر سابق، ج ١٣، ص ٣١٤، والعيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ١٥١).

(٦) هو: محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران السعدي، تولى قضاء الإسكندرية ودمشق، توفي سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، (ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ١٠، ص ١٩٤).

ن- ناظر بيت المال:

يتحدث في أعمال الدولة مصرّاً وشاملاً إلى بيت المال بقلعة الجبل، وفيما ينصرف منها، وذلك عن طريق القبض، "أو بالتسويق محضراً وصرفاً" ولا يتولى هذه الوظيفة إلا من تتوفر فيه الأمانة والعدل والدين من أهل العلم^(١)، وكان ناظر بيت المال يصعد إلى القلعة ومعه الشهود والصيرفي والكاتب، ثم يجلس فيأمر وينهى، لكثرة أموال الدولة ثم تلاشى المال وبيت المال، وذهب الاسم والمسمى، بعد تدهور الأحوال المالية والاقتصادية في بداية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي^(٢). ومن الذين تولوا هذا المنصب: الشيخ كمال الدين الإسكندراني المقرئ^(٣).

س- ديوان نظر المواريث الحشرية:-

تعنى بمال من توفي وليس له وريث، فيتولى هذا الديوان الإشراف على هذه الأموال^(٤)، ومن العلماء الذين أشرفوا على الديوان: رشيد الدين الحريشي^(٥).

ع- وكيل بيت المال:

يشرف على الوصايا التي تسند إليه كما يشرف على أموال الودائع وأملاك بيت المال، والنظر في مصلحته من بيع وشراء وغيره وقد شارك وكيل بيت المال في

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٢، والبقلي: مرجع سابق، ص ٤٢.

(٢) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٢، والمقريري: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٣) هو: إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو اسحق، تولى عدداً من الوظائف إضافة إلى إمامه بالقراءات، توفي سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، (العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٣٤٢).

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٢، والبقلي: التعريف، ص ٣٤٣، والباشا، حسن: الفنون الإسلامية، ج ٣، ص ١١٧٩-٣٨٠.

(٥) هو: رشيد بن كامل بن رشيد الشافعي، عمل بديوان الإنشاء، وبرع في النظم و النشر، وتولى عدداً من الوظائف، توفي سنة ٧١١هـ/١٣١١م، (الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ١٢٥-١٢٦).

عديد من الوظائف أهمها نيابة القضاء والإعادة^(١). والتدريس ونظر الأحباس والكسوة والخطابة، إلا أن أكثر مشاركات وكيل بيت المال كانت في وظيفتي التدريس ونيابة القضاء؛ وأشهر من ولي هذه الوظيفة هو مجد الدين حربي المتوفي سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م، وقد ناب القاضي الشافعي بدر الدين بن جماعة ثم جلال الدين القزويني من بعده كما كان وكيلاً للسلطان الظاهر بيبرس والأمير بكتمر الجواكندار^(٢)، والأمير أيبك الخازندار ولجماعة كثير من الأعيان^(٣)، وقاضي القضاة جمال الدين السنباطي الشافعي^(٤)، وجمال الدين الطنبدي الشافعي^(٥)، والعالم القاضي تاج الدين أبو محمد السنجاري الحنفي^(٦).

١-ف- ديوان استيفاء المرتجع:

يشرف على استرجاع الإقطاعات التي تركها أصحابها بعد وفاتهم أو انتقالهم إلى إقطاع آخر، ويقوم العالم الذي يتولى هذا الديوان بالحكم في القضايا الديوانية

(١) الإعادة هي الوظيفة التي يتولاها المعيد بالمدرسة، وتكون دون وظيفة التدريس، ومتوليها دون المدرس في الأهلية وأصل موضوعها إنه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاده المعيد للطلبة ليتعهدوه ويحسنوه، (القلقشندي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٥٨).

(٢) هو: الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد الله السعدي، كان أمير طبلخانة في مصر، توفي سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٤٨-٣١٥-٣١٦).

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٥، ص ٥٦.

(٤) هو: محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر، يعد من العلماء الفقهاء البارعين في مذهبه، توفي سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م، (المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٣٩-٢٤٠، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٨٤).

(٥) هو: محمد بن عرب الطنبدي، تولى وكالة بيت في مصر إضافة إلى عدد من الوظائف، توفي سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٩، وابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٣٦، والسخاوي: التبر المسبوك، ج ١، ص ١٤٨-١٤٩).

(٦) هو: عبد الله بن علي بن عمر السنجاري، باشر وكالة بيت المال في دمشق، أثنى عدداً من العلوم منها الفقه والأصول العربية، توفي سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م، (ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ١٢، ص ١٩٧).

الخاصة بهذه الإقطاعات^(١). و من العلماء الذين أشرفوا على هذا الديوان: القاضي شمس الدين بن شطية^(٢).

ثالثاً: النظام القضائي:-

لعب القضاء في مصر والشام زمن المماليك دوراً بارزاً، وكانت له مواقف قوية في ما استجد من أحداث؛ ابتداءً من تولية امرأة لعرش مصر وقوفاً عند الخلافة العباسية، مروراً بدور القضاة في الجهاد ضد المغول والصليبيين، لا سيما وأن الجهاز القضائي كان شاملاً ودقيقاً، خاصة بعد استحداث منصب "قاضي القضاة" وفق منظومة جهاز إداري متخصص في مختلف الشؤون الشرعية والقانونية، كما خصص للعسكر قضاءً للإشراف على احتياجاتهم الشرعية والاجتماعية. فضلاً عن أن المذاهب الفقهية الأربعة مثلت برؤساء للقضاة، للنظر في مختلف القضايا التي تعرض عليهم، وما استعصى عليهم يرفع للسلطان في دار العدل، الأمر الذي يمثل درجة متقدمة في الوعي الحضاري بأهمية توفر العدالة الاجتماعية للفرد.

كان يتولى منصب القضاء في عهد الأيوبيين في القاهرة وسائر أعمال الديار المصرية، قاضٍ واحد على المذهب الشافعي وله حق تعيين نواب عنه في الأقاليم، وأحياناً كان يعين قاضياً للقاهرة والوجه البحري، وفي عصر المماليك وخاصة في عهد السلطان بيبرس البندقداري^(٣) ازداد أتباع المذاهب الثلاثة الأخرى في مصر بجانب المذهب الشافعي مما اقتضى تعيين قاضي قضاة لكل مذهب، وفي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م استقر الأمر على أربعة قضاة للمذاهب الأربعة؛ الشافعي، والمالكي، والحنفي، والحنبلي^(٤) وهم قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بت

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٤، والباشا، حسن: الفنون الإسلامية، ج ٣، ص ١٠٨٨.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٩، ص ٣٠١.

(٣) ابن شاکر: فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٣٥ - ٣٤٧.

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١، ص ٤١٩، وج ٤، ص ٣٥، وج ١١، ص ١٧٢، والسيوطي: وحسن

المحاضرة، ج ٢، ص ١٦٥ - ١٦٦.

الأعز^(١) قاضي الشافعية، والشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكي^(٢)، قاضي المالكية، والقاضي صدر الدين سليمان ٢٣٩-٣٢١هـ/٨٥٣-٩٣٣م^(٣)، قاضي الحنفية، والشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسي قاضي الحنابلة^(٤) وجعل لهم السلطان أن يولوا في الأعمال نواباً لهم، وخص قاضي القضاة تاج الدين الشافعي، بالنظر في أموال اليتامى والأوقاف، بمفرده بالديار المصرية^(٥). وقد اهتم بعض السلاطين بأموال الأيتام من الأطفال، يذكر المقرئ أن في سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م، أصدر السلطان محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون^(٦) مرسوماً لقاضي القضاة سراج الدين عمر

(١) هو: عبد الوهاب بن أبي القاسم خلف بن أبي الثنا محمود، تاج الدين المعروف بابن بنت الأعز، ولد سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، مات أبوه وهو صغير، كان عظيم القدر في الدين والورع، وكان ذكياً قوياً ذاكرة، درس الفقه والحديث على كبار الشيوخ، خبر التدريس وشؤون الإدارة، وكانت أول ولايته للقضاء سنة ٦٥٤هـ/١٢٦٠م تولى الوزارة في بداية حكم سلاطين المماليك، ثم عاد للقضاء سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م في سلطنة الظاهر بيبرس، وقد كان له شأن أثناء توليته الوزارة، كما كان عظيم السيرة في القضاء، كان ثابت الجأش، محمود السيرة، عظيم الهيبة، ومات سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، (ابن شاکر: فوات الوفيات، ج ٢، ص ٢٧٩-٢٨٢، وابن حجر: رفع الأصر، ج ٣، ص ٣٧٥ - ٣٨٣).

(٢) هو: عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكي، ولي حسبة القاهرة ثم ولي القضاء سنة ثلاث وستين، لما ولوا من كل مذهب قاضياً، وقد امتنع أشد الامتناع ثم أجاب بعد إكراه بشرط أن لا يأخذ على القضاء جامكية، وكان مشهوراً بالعلم والدين، روى عنه القاضي بدر الدين ابن جماعة وغيره (ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، حوادث سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، ص ٢٦١).

(٣) أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد بن سلامة بن سلمه الأزدي الحنفي الطحاوي (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٩، والزركلي: الأعلام، م ١، ص ٢٠٦).

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٥ - ٣٦، وج ١١، ص ١٧٢.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢٢، وج ٩، ص ٢٦٥.

(٦) هو: محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون: ناصر الدين أبو المعالي بن المظفر بن الناصر بن المنصور، استقر في الحكم بعد القبض على عمه الناصر محمد، حيث كان سنة آنذاك أربع عشرة سنة بعناية الاتابك يلغا العمري الخاصبكي وتديبره، ومن ثم لم يكن له سوى الاسم، إلا أنه لما اشتد عوده عزله الأمير يلغا وولي الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م، فكان حكمه سنتين وثلاثة أشهر، وتوفي سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٧، ص ٢١٦).

الهندي الحنفي^(١) بأن "يفرد له مودعاً لأموال يتامى الحنفية، كما يفعل قاضي القضاة الشافعي"^(٢) مما يدل دلالة واضحة على أن أموال اليتامى من الأطفال والقصر، كانت تحفظ لدى قاضي القضاة للمذاهب الأربعة إلى أن يبلغ هؤلاء الأيتام سن الرشد. وفعل مثل ذلك بدمشق^(٣) ولا يخطب أو يعلى على السلطان إلا القاضي الشافعي^(٤). و قد تمتع القضاة بمنزلة رفيعة لم يتمتع بها الخلفاء في عصر سلاطين المماليك. وقد روعيت في اختيار القاضي شروط معينة هي: "البلوغ والعقل والحرية والذكورة والإسلام والعدالة والسمع والبصر والعلم"، فإذا عين السلطان أحدهم في المنصب خلع عليه، ثم ينزل القاضي من القلعة في موكب حافل وبرفقتة أمراء الدولة، وسائر القضاة ونوابهم، ويسير الموكب من القلعة إلى بيت القاضي، وسط الشموع والقناديل وغيرها من مظاهر التكريم^(٥).

إن مهمة "قضاة القضاة" هي التحدث في الأحكام الشرعية و تنفيذ قضايها، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم وتعيين النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه، وتعد هذه الوظيفة أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدراً وأجلها رتبة^(٦) وكان تولية قاضي القضاة يتم بناءً على مرسوم سلطاني يصدر عن السلطان شخصياً^(٧).

(١) هو: عمر بن إسحق بن أحمد القرنوي، القاضي سراج الدين الهندي، قدم إلى القاهرة قبل سنة ١٣٤٠هـ/١٣٤٠م وكان متأهلاً للتعليم متميزاً بعلمه وفصاحته، ونبغ في الفقه، تولى قضاء العسكر ثم تولى القضاء سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م عمل بتدريس التفسير في الجامع الطولوني سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م مات سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٥م، (ابن حجر: الدرر، ج ٣، ص ٢٣٠ - ٢٣١).

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ١٩٦، ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٣) المقرئزي: مصدر سابق، ج ١، ص ٥٤٢.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٤٢.

(٥) ابن حجر: رفع الأصر، ص ٩ - ١٠.

(٦) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١١، ص ٣٤ - ٣٥.

(٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٥.

أما النظام القضائي في كل مذهب فهو جهاز متكامل يأتي على رأسه القاضي، وقد أضيفت إلى قاضي الشافعية ميزة عن بقية قضاة المذاهب الأخرى إذ أنه يرجع إليه أمر الأوقاف التي لا بد أن ينهض بها بعناية وإخلاص، كما يجب أن يكون أميناً في أحكامه بين المسلمين، وأن يجتهد في إعلاء كلمة الحق، ولا يخشى سوى الله عز وجل^(١).

كان لكل قاضٍ كاتب يسمى "كاتب القاضي" ووظيفته تسجيل ما بين يدي القاضي من القضايا والأحكام التي يقضي بها، ومن ثم يجب عليه أن يكون عالماً باللغة ذا دراية وفهم بمدلولات الألفاظ. وفي ضرورة تحرى القضاة سبل العدل قال ابن خلدون: "أن القائمين بأمور الدين - كالقضاة - لا تعظم ثروتهم في الغالب، لأن أعمالهم لا ترتبط بالأعمال الضرورية في العمران"^(٢)، غير أن هذا الحكم لم ينطبق على قضاة مصر في عصر سلاطين المماليك، إذ لبسوا الملابس الفاخرة وركبوا الخيل الهائلة المسومة، وصار في إسطنبول الواحد منهم نحو العشرين من الخيل والنعام والغزلان، "وتشبهوا بأهل الدولة"^(٣). فإذا ركب القاضي حملاً ضربوا به المثل في التواضع الجم^(٤) كما ينبغي أن يكون القاضي حسن الفهم في الألفاظ العامية والكلام الدارج، وعلى دراية كاملة بمدلولات الألفاظ الوقفية التي تظهر من شروط كتب الوقف، بحيث لا يحدث لبس عند تطبيق شروط الوقف^(٥).

١ - حاجب القاضي:

هو الموظف الذي يقف على باب المجلس حتى لا تختلط العامة بمجلس القاضي وعليه رفع الأمور إلى القاضي، ومن حقه الاستئذان على أصحاب الحاجات لدى القاضي^(٦).

(١) السبكي: معيد النعم ومبيد النعم، ص ٥٥ - ٦٠.

(٢) ابن خلدون: مصدر سابق، ص ٤٤٠.

(٣) ابن حجر: رفع الأصر، ص ٧٣٣.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ١٨.

(٥) السبكي: معبد النعيم، ص ٦٠ - ٦١.

(٦) المصدر السابق، ص ٦١.

٢-نقيب القاضي وبعض الموظفين:

هو الذي يقوم بتتية القاضي على الشهود وتنبيه الشهود على القاضي وإحضار من يأمر بإحضاره إلى القاضي^(١). وبمجلس القاضي موظف يسمى الجلواز - وجمعها - جلاوزة وجلاويز يشرف على النظام في المجلس. وهناك موظف آخر هو الترجمان ولعل سبب الحاجة إليه في مجلس القضاء هو وجود المماليك الذين يتحدثون لغات مختلفة^(٢). وكان هنالك سجن عرف (بسجن القضاة) اتخذ لتنفيذ حكم السجن في من يحكم عليهم القضاة بذلك^(٣).

٣-قاضي العسكر:

هو قاضي يعين بموجب توقيع شريف من قبل الأبواب السلطانية^(٤). وكان مختصاً للفصل في القضايا القائمة بين العسكر والمدنيين، كالغنائم، والشركة والقسمة، والمبيعات، والرد بالعيب، وجرائم القتل والسرقة والتعدي وعصيان الأوامر، والثورات الداخلية، كذلك مايتبعه من أحكام تصل إلى المصادرات المالية أو عقوبة الإعدام، وليس له ولاية على غيره من القضاة، وكان معه كاتب يعاونه في أعماله ممن يتصف بالعدالة من الجند ليقيمه شاهداً عدلاً بين الجنود. فإنه يعز وجود الشهود المؤهلين لتحمل الشهادة في العسكر^(٥). ويقوم بالفصل في الخصومات التي تنشأ بين الجند بسبب توزيع الغنائم، أو تقسيم ميراث الجنود المتوفين في المعارك^(٦). ومن أشهر من ولي هذه الوظيفة في العصر الأيوبي ابن شداد الذي عمل قاضياً لعسكر صلاح الدين الأيوبي ومستشاراً له ثم عمل من بعده لابنه الظاهر ثم ابنه العزيز ونال ابن شداد من المنزلة والحرمة والمكانة ونفاذ

(١) السبكي: المصدر السابق، ص ٦١.

(٢) عاشور، سعيد: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مرجع سابق، ص ١٥٣، وماجد، عبد المنعم: مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٨٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٨٣.

(٥) المصدر سابق، ج ٤، ص ٣٥-٣٧-١٩٩ وعاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٥٢.

(٦) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٦٥، هامش ٢.

الكلمة ما لم ينله غيره^(١). أما في العصر المملوكي فقد تراجعت مكانة قاضي العسكر قليلاً عما كانت عليه في السابق^(٢). وكان هذا القاضي يختار من فئة العلماء المشهود لهم بالصلاح، و لم تظهر هذه الوظيفة مستقلة عن القضاء العام إلا في العصرين الأيوبي والمملوكي^(٣).

كان قضاة العسكر يحضرون مع قضاة القضاة من المذاهب الأربعة للخدمة بدار العدل، إلا أنهم يجلسون دون هؤلاء القضاة لأن وظيفة قاضي العسكر أقل رتبة من قضاة القضاة، وجرت العادة أن يصحبوا السلطان في أسفاره وخاصة عند خروج السلطان إلى الحرب كدليل على تأييد العلماء لهذه الحرب التي يشنها السلطان، خاصة إذا كان هذا الجيش خارجاً لإخماد ثورة ما، كما أن خروجهم يعد نوعاً من الدفع المعنوي للمتطوعين للإستبسال، إلا أن السلطان كان يحرص على أن يرافقه قاضي العسكر بصفة خاصة للقيام بالمهام المنوط به القيام بها في الحرب^(٤). وقد ظل شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني^(٥) قاضياً للعسكر فترة طويلة إلى أن نزل عنها لابنه بدر الدين محمد في شعبان سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٨م، وعندما توفي بدر الدين تولى قضاء العسكر أخوه عبد الرحمن الذي أصبح قاضياً لقضاة الشافعية^(٦). واستمر قضاء العسكر في أسرة البلقيني حتى محمد بن محمد بن عبد الرحمن المتوفي سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م^(٧). ومن الذين تولوا هذا المنصب:

(١) واصل: مصدر سابق، ج ٥، ص ٨٩ .

(٢) البطاوي: مصدر سابق، ص ٧١ .

(٣) البقلي، محمد: التعريف، ص ٢٦٥ .

(٤) عاشور: مرجع سابق، ص ١٥٢ .

(٥) هو: الحافظ سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب الدين محمد البلقيني الكناني، شيخ الإسلام، الشافعي، ولد سنة ٧٢٤هـ/ ١٢٢٣م، اشتغل بالعلم صغيراً، وأفتى وله من العمر خمس عشرة سنة، تولى عدداً من المناصب منها إفتاء دار العدل وقضاء دمشق، له عدد من "التصانيف، وامتاز بقوة حفظه، توفي سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م، (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ١، ص ٤٩٧، وابن العماد، شذرات الذهب، ج ٧، ص ٥١-٥٢).

(٦) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٧، ص ١٩٨، والسخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ١٠٧-١٠٨ .

(٧) السخاوي: ذيل رفع الأصر، ص ٣٣٤ .

القاضي الشريف شمس الدين أبو عبد الله الحسيني الأرموي الشافعي^(١)، والقاضي شهاب الدين أبو العباس العينتابي الحنفي^(٢)، والقاضي شمس الدين الدميري المالكي^(٣).

٤ - أمناء القاضي:

هم موظفون تابعون للقضاة يقومون بالنظر في أموال المحجور عليهم، والنظر في الوصايا ولا سيما أموال الأيتام والغائبين، وقد خصصت أماكن لحفظ هذه الأموال عرفت باسم مودع الحكم أو مودع الأيتام وعرف أيضاً بمودع الأموال، وكان يوكل لإشراف قاضي القضاة، وعين أميناً للحكم بالقاهرة وأميناً بمصر وآخر بالحسينية^(٤).

وتعتبر هذه الوظيفة من الوظائف الحساسة، ويرجع ذلك لإشراف أمين الحكم على الكثير من الأموال، وكثيراً ما كان يتعرض أمين الحكم للضغط من السلاطين والأمراء لسلب هذه الأموال^(٥).

٥ - وكلاء القاضي:

هم من نصبهم المتقاضون وكلاء عنهم أمام القضاة، وكانوا يجلسون أمام أبواب المحاكم بالمدرسة الصالحية أو مجالس الحكم الأخرى، وهم يشبهون المحامين في

(١) هو: محمد بن الحسين بن محمد العلوي الحسيني الأرموي الشافعي، برع في الفقه والإصول، توفي سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، (المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٥، والعيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٧٦).

(٢) هو: أحمد بن إبراهيم أيوب العنتابي، من العلماء الأعلام، تولى قضاء العسكر بدمشق، إضافة إلى الفتوى والتدريس والتصنيف، توفي سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، (ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ١٤١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٧٢).

(٣) هو: محمد بن أحمد بن عبد الملك الدميري، تولى عدداً من الوظائف، بالإضافة إلى قضاء العسكر، (المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ١٧٠).

(٤) السبكي: معيد النعم، ص ٦٢، والمقريزي: السلوك، ج ١، ص ٨٦٤، حاشية ٣، وج ٣، ص ٦٨٠. والبقلي: التعريف، ص ٤٦.

(٥) البطاوي: أهل العمامة، ص ٧٠.

عصرنا الحالى وقد مدحهم قوم فقالوا: (إنهم أناس نصبوا أنفسهم لخلاص حقوف الخلق؛ وذنمهم آخرون فقالوا هم أناس فضل عليهم الفضول فباعوه لغيرهم)^(١). هنالك جوانب سالبة لهؤلاء الوكلاء فقد يمسك أحدهم عن إقامة الحجة لموكله إذا لم يأخذ منه ما يريد فقليل عنهم: (أما الوكلاء فلا خير منهم، ولا مصلحة للناس بهم في هذا الزمان فإن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين شيئاً فيخون القضية فيضيع الحق، فكان ترك الوكلاء أفضل إلا أن تكون امرأة أو صبيّاً فحينئذٍ ينصبّ الحاكم وكيلاً)^(٢).

٦ - الشهود:

هم فريق من الموظفين التابعين للقضاة ويقوم الشاهد بالشهادة بين الناس فيما لهم وما عليهم تحملاً عند الإشهاد وأداءً عند التنازع وكتاباً في السجلات، لتحفظ به حقوق الناس وأموالهم وديونهم وسائر معاملاتهم^(٣). وعلى مختلف أنواع المعاملات بين الناس من بيع، وشراء، ومبادلة، وغيرها، ويجب عليهم الشهادة على الحقوق دون أجر^(٤). و كان الشهود يقومون بتقييم صحة القضايا المرفوعة للقضاة، بالإضافة إلى مساعدة القضاة في اتخاذ القرار النهائي في أحكامهم. وكانت شروط ولاية هذه الوظيفة العدالة والبراءة من الجرح، لذلك سمي بالشاهد العدل ومن شروطها أيضاً تعلم الفقه الذي يحتاجه في كتابة السجلات والعقود ثم المران على ذلك بالإقامة الطويلة في المحاكم حتى يكتسب الفرد من الشهود المعلومات الخاصة بالخصوم^(٥).

لقد شارك الشهود في أعمال أخرى غير الوظائف القضائية، مثل شاهد متعلقات الديوان المستخدم به نفيّاً وإثباتاً فمثلاً: شاهد القيمة يقطع بقوله في حق كل مستحق

(١) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ٢٦٩.

(٢) ابن الأخرى: معالم القرية، ص ٢٠٩، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥١.

(٣) البطاوى: مرجع سابق، ص ٦٧.

(٤) ابن فهد: لحظ الألفاظ، ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

(٥) ابن خلدون: مصدر سابق، ص ٢٢٤-٢٢٥.

ومال كل يتيم، وكذلك عمل الشهود في ديوان الأجناس، وكان يخرج مع قاضي ركب الحج موظف يسمى شاهد السبيل^(١).

عندما جلس السلطان الظاهر بيبرس بدار العدل عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، تحدث مع قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز في أمر الأجناد وأنه إذا مات أحدهم في مواطن الجهاد لا يصل إليه شاهد حتى يشهد على وصيته؛ فيشهد بعض أصحابه فإذا حضروا إلى القاهرة لا تقبل شهادتهم وكان الجندي لا تقبل شهادته في ذلك الوقت، فشرع قاضي القضاة في اختيار رجال ثقات من الأجناد وعينهم لقبول الشهادة بالجيش^(٢).

كذلك احتفظ كل قاضٍ بعدد من النواب يجلسون بحوانيت الشهود وبالشارع للتكسب من الحكم بين الناس، ومقاسمة الشهود فيما يكتسبونه من تحملهم الشهادة^(٣). أما هؤلاء الشهود فكانوا يتعرفون على أحوال الناس ويشهدون في القضايا، ولهم حوانيت معلومة، فإذا احتاج المتقاضون إلى شاهد أحضروه للقيام بالشهادة مقابل أجر معين^(٤). وقد دفع سوء الوضع الاقتصادي هذه الفئة إلى العمل في المجالات التعليمية والدينية والالتحاق بإحدى الخانقوات كصوفية بها^(٥).

ويلاحظ أنه كان لكل قاضٍ شهود معينون، كما كان القاضي والمتقاضي على مذهب واحد. وفي القضايا التي تحتاج إلى خبرة فنية - كتلك الخاصة بالمباني وغيرها - كان القاضي يأخذ برأي الفنيين والخبراء المختصين، فيكلف أحد المهندسين بالمعاينة والإدلاء برأيه^(٦).

(١) البطاوي: مرجع سابق، ص ٦٦.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق، حوادث سنة ٧٨١هـ/١٣٨٩م، ج ٣، ص ٣٥٨ - ٣٥٩، وابن فهد: لحظ الألفاظ، ص ٢٦٨.

(٤) السبكي: معيد النعم، ص ٦٣ - ٦٤.

(٥) المقرئزي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٤١٤، والبطاوي: مرجع سابق، ص ٦٨.

(٦) علي، عبد اللطيف إبراهيم: مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦.

على أن القضاة في عصر المماليك كثيراً ما تعرضوا لضغط من سلاطين المماليك نتيجة لتدخل السلاطين في شؤون القضاة عن طريق الشفاعة لهذا أو ذاك، مما دفع بعض الصالحين من الفقهاء ورجال الدين إلى التهرب من منصب القضاء إذا عرض عليهم، بل الإختفاء في مكان مجهول حتى لا يضطرون إلى قبول ذلك المنصب، كما فعل الشيخ شمس الدين القاياني سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م^(١)، واشترط بعض القضاة على السلاطين عدة شروط منها ألا يعارضه أمير فيما يحكم به، ولا يرسل إليه السلطان شفاعة في قضية من القضايا ولا يسأله في عدالة أحد .. فإذا قبل السلطان هذه الشروط رضي الفقيه بتولي منصب القضاء وخلع عليه، كما حدث مع الشيخ ناصر الدين سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م^(٢). وقد تكون للنكبات التي حلت بكبار موظفي الدولة من حبس ومصادرة وتعذيب، من الأسباب التي جعلت بعض القضاة يرفضون تولي المنصب، وقد سأل قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة السلطان الناصر محمد أن يعفيه من القضاء وأصر على طلبه واعتكف في داره وكان ذلك سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م^(٣).

وكان لكل قاضٍ بعدد من المساعدين يساعده في القيام بأعباء وظيفته، وقد روعي عند اختيار هؤلاء المساعدين توافر صفات الصلاح والأمانة والعلم^(٤). ومن هؤلاء المساعدين: الترجمة الذين يقومون بدور الوسيط في التفاهم بين المتقاضين فيما بينهم وبين القاضي إذا كانوا لا يعرفون العربية أو لا يحسنونها^(٥). واشترط في الترجمان الأمانة والعلم و أن يكون مسلماً ديناً لا يُحرّف الكلم عن مواضعه بل ينقله بتحفظ ودقة^(٦).

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص ١١٥، وعاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ١، ص ١٤ - ١٥.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٤) السبكي: معيد النعم، ص ٢٥، ٨٦.

(٥) عاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٦) علي، عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السليق، ص ٢٥.

لقد وقف القضاء موقفاً حازماً من الفساد المالي والإداري، فقد تصدى قاضي
القضاة عز الدين بن عبد العزيز بن محمد بن جماعة^(١) للفساد بالاجتهاد لدى
السلطان حتى صدر مرسوم سلطاني سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٧م بمنع الشهادة على
المعاملات إلا بحضور أحد القضاة^(٢). وهذا يدل على شيوع ظاهرة التزوير في
البيع والشراء والوصايا وغيرها. إلا أن القاضي بن جماعة قد دفع ثمن اجتهاده
حيث تم عزله بعد فترة وجيزة، وانتشرت مرة ثانية ظاهرة التزوير في وثائق
المعاملات المالية بعيداً عن مجلس القضاء^(٣).

يبدو أن القضاء في عصر المماليك أكثروا من نوابهم بالقاهرة ومصر، مما دفع
السلطين في بعض الأحيان، كما حدث سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م، وسنة
٨٢٩هـ/١٤٢٦م، إلى أن يحددوا لكل واحد من القضاة عدداً محدداً من النواب لا
يجوز له أن يتخطاه^(٤)، وجاء هذا الإجراء من جانب سلاطين المماليك نتيجة لكثرة
شكاوى الناس من هؤلاء النواب والشهود، نظراً لما تضمنته تصرفاتهم من الأمور
الشنيعية. "حتى أصبح أكثرهم في تلك الفترة حالهم معلومة فلا حاجة إلى شرحه"^(٥).
ولم يقتصر المعاصرون على توجيه النقد إلى الشهود ونواب القضاة فحسب بل
تعداهم إلى القضاة أنفسهم^(٦). كما تدخل القضاة في إلغاء بعض الضرائب

(١) هو: عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة، عز الدين قاضي المسلمين، ولد سنة
٦٩٤هـ/١٢٩٥م أكثر من طلب العلم والدرس والقراءة وأجاز له كبار المشايخ. كما درس الحديث
والفقه، وكان عالماً متبحراً في رواية الحديث كما كان كثير الحج، ولي القضاء في مصر سنة
٧٣٨هـ/١٣٣٨م، كان حسن المحضر سليم النية، كثير الفضائل، محباً للعلم، وأهله، باشر القضاء
بصفه رسمية وأعفى جميع النواب الذين تولوا ببذل المال "الرشوة" ووكل أخيه الناصر محمد تعيين
قضاة الشام، عزل نفسه عن القضاء أكثر من مرة ولكنه كان يعود تحت إلحاح أصحاب السلطة حتى
عزل نفسه نهائياً سنة ٧٦٧هـ/١٢٦٦م، (ابن حجر: الدرر، ج ٢، ص ٤٨٩ - ٤٩١).

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ٤٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٤١، وابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٦٧.

(٤) ابن الفرات: مصدر سابق، حوادث سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م.

(٥) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ١٥٩ - ١٦١.

(٦) عاشور، سعيد: مرجع سابق، ص ١٧٦.

والمكوس^(١) التي أثقلت كاهل الشعب، فقد نجح قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة والشيخ سراج الدين عمر البلقيني في إقناع السلطان شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون إلى إلغاء ضريبتني "ضمان المغاني"^(٢) و"مكس القراريط"^(٣)، وكان الناس يعانون كثيراً من المظالم نتيجة هذين المكسين^(٤).

هكذا حاول القضاة مراراً وتكراراً العمل على رفع الظلم عن الرعية من خلال التصدي لمن يمارس أعمال الظلم من أصحاب السلطة. ويلاحظ أنه على الرغم من سيطرة هؤلاء المتنفذين فإن الخوف يعصر قلوبهم إذا ما تعرضوا لتأنيب القضاة، جراء الذي اقترفوه من المظالم^(٥). إلا أن الجشع بلغ ببعض الأمراء درجة أن حاولوا الاستفادة مالياً من تعيين بعض الشخصيات في وظيفة قضاة القضاة^(٦)، وهذا الإجراء كان يمثل درجة من الخطورة والتمادي في الجشع والفساد. لأن القضاة دائماً ما يمثلون الرابطة الحية بين أصحاب السلطة والرعية، واعتمدت قوة هذه الرابطة وضعفها على شخصيات القضاة وما تحلوا به من أخلاق حميدة، وإتقان صادق، ولهذا توجب الحرص في انتقاء الشخصية القضائية، ولكن يبدو أن سوء

(١) المكوس: جمع مكس، وأصل المكس - في اللغة - النقص والظلم، وهي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الجاهلية، أو دراهم كان يأخذها المصدق بعد فراغه من الصدقة. ويطلق المكس أيضاً على الضريبة (الجباية)؛ يأخذها المكّاس من التجار. ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي (الرازي: مختار الصحاح، ص ٦٣٠).

(٢) ضمان المغاني: هي ضريبة يدفعها كل من يقيم عرساً أو يحتفل بمناسبة سعيدة، مثل الختان وغيره، وكانت الضامنة تقوم بجمع هذه الضرائب وتدفعها للدولة بعد أخذ نسبة منها، وكانت ضريبة العرس تزيد عن خمسمائة درهم، (المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٢٦٦).

(٣) مكس القراريط: هي ضريبة يدفعها كل من يشتري داراً، حيث يؤخذ منه عن كل ألف درهم من ثمنها عشرون درهماً. وكان هناك ديوان يقوم على تحصيل هذه الضريبة، ولا يمكن أن تتم أية عملية بيع أو شراء إلا بعد دفع هذه الضريبة للديوان. ولا يمكن أن يشهد شخص ما على عقد بيع إلا بعد التأكد من وجود ختم الديوان بوفاء الضريبة، (المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٢٦٧).

(٤) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٢١٧، وابن اياس: مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٥) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٤، وابن اياس: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٥.

(٦) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٣ - ٣٣٤، وابن اياس: المصدر السابق، ج ١،

الأحوال في سلطنة المماليك في بعض فتراتهما أدت إلى التغول حتى على الجهاز القضائي، وقد سعى الأمير برقوق سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م، في إلغاء الأراضي الموقوفة على الجوامع، والمساجد، والمدارس، والخوانق، والزوايا، والأربطة، وكذلك أوقاف أولاد السلاطين والأمراء وغيرهم، وذلك من أجل توزيعها وتقسيمها إقطاعات على المقطعين. وقد عارض القضاة وشيوخ العلم هذه الخطوة لما تتضمنه من تجن على الأوقاف التي اشتراها أصحاب هذه المؤسسات الدينية الخيرية المختلفة من أجل أن تدر ريعاً ثابتاً على مؤسساتهم، ولم يدر بخلداهم أن تمتد إليها يد السلطة، فتحول إلى إقطاعات للأمراء والأجناد، ولكن القضاة وشيوخ العلم فشلوا في إقناع الأمير برقوق وغيره من الأمراء بعدم المساس بهذه الأوقاف الدينية والخيرية والأهلية، ونجح الأمراء المماليك في تنفيذ رغبتهم^(١). وقد بذل العلماء جهدهم في سبيل الحفاظ على الأوقاف التي تتبع لديوان الأحباس^(٢).

٧- المفتي:

المفتون هم من العلماء الذين عملوا في مختلف الوظائف الدينية كالقضاء والتدريس وشيوخ الخانقاوات وغيرهم، وكان عليهم إرشاد المتعلمين وإفتاء المستفتين ونصح الطالبين وإظهار العلم للسائلين، أما من ولي الإفتاء فهم مفتو دار العدل^(٣)، فكان السلطان يولي مفتياً من كل مذهب بالإضافة إلى رئيس ديوان الإنشاء وكتاب الدست ويحضرون بدار العدل عندما يجلس السلطان للنظر في المظالم، وكان مجلسهم يلي محتسب القاهرة بحيث يجلس قضاة المذاهب الأربعة عن يمين السلطان وأكبرهم الشافعي، ثم الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي، وإلى جانب الحنبلي يجلس الوكيل عن بيت المال، ويجلس عن يسار السلطان كاتب السر، وإن

(١) المقرئزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٥، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ١١، ص ١٦٦، وابن إياس: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) اختص ديوان الأحباس بالأراضي الزراعية التي يهبها السلاطين والخلفاء إلى بعض الناس، وذلك من باب الإنعام عليهم بها، كما أن هذه الأراضي كان يسقط ما عليها من ضرائب، وقد شهد العصر المملوكي أنواعاً من هذه الأراضي الموقوفة والتي عرفت بالرزق؛ (أمين، محمد محمد: الأوقاف، ص ٦٤٨-٩٢٣).

(٣) البلقي: التعريف، ص ١٣٠ المقرئزي: الخطط، ج ٣، ص ٣٦٣-٣٦٤، و.

كان الوزير من أرباب السيوف يقف على مسافة مع بقية أرباب الوظائف^(١). ففي سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م، بنى الظاهر بيبرس دار العدل في مكان يعرف بالطبلخاناه تحت القلعة، وكان يستعرض العسكر بها يومي الاثنين والخميس، وذلك للنظر في المظالم، ويتم فيه أيضاً مثل رسل الملوك بين يدي السلطان. وكانت إجراءات ذلك المجلس تبدأ بأن يقرأ كاتب السر وموقع الدست أوراق المظالم على السلطان، وما يحتاج منها لفتوى القضاة شاوهم السلطان فيه، وأوكل أمرها إليهم، وأما ما يتعلق بالعسكر والجند فيقوم بقراءتها ناظر الجيش، ويراجع السلطان فيها الحاجب وكاتب الجيش^(٢).

لقد تناوب على وظيفة إفتاء دار العدل عدد كبير من العلماء الأجلاء منهم على سبيل المثال، القاضي شهاب الدين أبو العباس البعلبكي^(٣)، والإمام العلامة ركن الدين القرمي الحنفي^(٤)

٨ - الحسبة:

وصف ابن تيمية الحسبة بأنها: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاية والقضاة وأهل الديوان ونحوهم"^(٥)، كما عرفها الشيزري بأنه: "أمر بمعروف ونهي عن منكر، وإصلاح بين الناس"^(٦)، أما القلقشندي فقد قال في

(١) المقرئزي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٩، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٥-٤٦، والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١١٠.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٣، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٣) أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم البعلبكي، وقد برع في الفقه على الإمام الشافعي، وتولى إفتاء دار العدل بدمشق، وتوفي بها سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، (المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ٨٦-٨٨).

(٤) هو: محمد أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، ولد في القاهرة سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، درس وتفقه على جده وأبيه درس بالسيفية والهكارية، وبقبة الشافعي كما خطب بالجامع الطولوني، وكان شاباً ديناً عاقلاً؛ توفي بالقاهرة بالطاعون سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م. (السبكي: طبقات الشافعية، ج ٩، ص ١٢٤-١٢٥، وابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٩١-٥٩٢).

(٥) ابن تيمية، تقي أحمد بن عبد الحميد، ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م: الحسبة في الإسلام، الكويت، سعدة، مكتبة دار الأرقم، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ١٦.

(٦) الشيزري: نهاية الرتبة، مصدر سابق، ص ٥.

تعريفها: "هي وظيفة جليلة رفيعة الشأن، وموضوعها التحدث في الأمر والنهي، والتحدث عن المعايش والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشتة وصناعته"^(١)، وقال عنها الماوردي: "هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله"^(٢)، وقد أجمع العلماء الذين ألفوا المصنفات الرائعة في الحسبة، أنها من الوظائف الدينية التي ينبغي لمن يتولاها أن يكون عالماً ملماً بأحكام الشريعة"^(٣)، وأن يكون فقيهاً مواظباً على السنن، ليتسنى له القيام بأعباء تلك الوظيفة العظيمة. وقد اختص بالمرور في الطرقات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وفقاً لأحكام الشرع الحنيف، فتشعبت أعماله، فقد كان يحمل الناس على مصالح العامة في البلاد، وواجب المحتسب مراقبة الأسواق ومختلف أنواع الأقوات، والمشروبات. والتدقيق في أسعار البضائع لحماية المشتري، ومراقبة النقود للحيلولة دون الزغل، والإشراف على جميع الصنائع، والمنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، وهدم المباني الآيلة للسقوط، ومنع مخالفات المعلمين في المكاتب، كالمبالغة في ضرب الصبيان، ومايجري بالأسواق من مكاييل وموازين، والأطعمة والنقود من الذهب والفضة، ونظافة المياه، بل عليه أن يتردد على مجالس القضاة والحكام، ويمنعهم من الجلوس في الجوامع والمساجد للحكم بين الناس، فربما دخل الرجل الجنب والصبي و المرأة الحائض ومن لا يتحرز من النجاسة، كما قد ترفع فيها الأصوات؛ وكانت أحكام المحتسب هي الأحكام الصغيرة التي ينتزه عنها القاضي لعمومها وسهولة القيام بها"^(٤)؛ فقد كانت الحسبة قوية الصلة بالسلطة القضائية،

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٨.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، والولايات الدينية، ص ٣٩١.

(٣) ماجد، عبد المنعم: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص ٥٤-٥٦.

(٤) ابن خلدون: مصدر سابق، ص ٢٢٥.

ويمكن القول بأنها قضاء سريع، وقد تسند الحسبة والقضاء لقاضٍ واحد أحياناً، فإذا كان عمل القاضي يتصف بالبطء، فإن عمل المحتسب يقوم على أساس سرعة البت في المخالفات وتوقيع العقوبات^(١)، ففي عام ٨١٦هـ/١٤١٤م، أضيفت الحسبة الى أعمال قاضي القضاة الحنفي صدر الدين بن الآدمي، وهو أول من جمع بين القضاء والحسبة^(٢) فالحسبة وظيفة جليلة، رفيعة الشأن، و بالحضرة السلطانية محتسبان: أحدهما بالقاهرة وهو أعظمهما قدراً، وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحري كله عدا الإسكندرية التي كان لها محتسبها، كما كان يحق لمحتسب القاهرة الجلوس بدار العدل مع السلطان. أما الثاني فهو محتسب الفسطاط، وله التحدث والتولية بالوجه القبلي بكاملة^(٣). ويكون جلوس محتسب القاهرة بدار العدل أيام المواكب دون وكيل بيت المال، وربما جلس أعلى منه إذا كان أرفع مكانة منه بعلم أو جاه، وقد اختصت مدينة الإسكندرية وحدها بمحتسب عندما أصبحت ولاية مستقلة سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م^(٤)، وكانت فروع الحسبة مرتبطة بازدياد الأنشطة في المجتمع، فمنها ما ارتبط بمكان مثل حي أو شارع، أو سوق، كحسبة الحسينية، وحسبة القلعة؛ ومنها ما هو مرتبط بحرفة مثل حسبة الخبز، وحسبة الدخان، وحسبة الطبّاخين، وأهل الصنائع، كالحلواني وغيره، ويبدو أن المحتسب العام كان مشرفاً على هؤلاء المحتسبين جميعاً^(٥). وفي عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، فرّق نجم الدين

(١) عاشور: مصر في دولة المماليك، ص ١٥٥.

(٢) ابن حجر: أنباء الغمر، ج ٣، ص ١١، والسخاوي: التبر المسبوك، ص ٣٧٧.

(٣) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص ٦٥-٦٦، والقلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٧.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٧.

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٣٥٩، والمقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٤١٤، حاشية ٦.

الطنبدي^(١) محتسب القاهرة عدداً من فقهاء الفقهاء على الباعة بسائر الأسواق ليعلموهم بعضاً من القرآن، وقرر لكل معلم على حانوت (فلسين) في كل يوم^(٢). وكان المحتسب يحمل سوطاً ودرّة ليعزر من يستحق التعزير^(٣) وأشهر من ولي الحسبة من العلماء البارزين: علاء الدين بن بنت الأعز، والمؤرخ الشهير تقي الدين المقرئ^(٤)، وقاضي القضاة بدر الدين العيني الحنفي^(٥)، الذي اجتمعت وظائف القضاء والحسبة ونظر الأحباس في آن واحد له، ولم تجتمع لأحد قبله وقد كان يعزر بالمال ومن خالف ما يرسم به أخذ بضاعته وأرسله إلى السجن^(٦).

(١) نجم الدين محمد بن عمر، تولى وكالة بيت المال في مصر إضافة إلى عدد من الوظائف، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٩، وابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٣٦، والسخاوي: التبر المسبوك، ج ١، ص ١٤٨-١٤٩).

(٢) المقرئ: السلوك، ج ٣، ص ٥٧٤.

(٣) البطاوي: أهل العمامة، ص ٧٥.

(٤) أحمد بن عبد القادر بن تميم الحنفي، تولى حسبة القاهرة والوجه البحري، برع في الفقه والحديث، وكان عارفاً بالمذهبيين الشافعي والحنفي، له مصنفات عظيمة في التاريخ أشهرها: السلوك لمعرفة دول الملوك، والمواعظ الاعتبار لمعرفة الدول والآثار، وتوفي سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م، (ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٣١-٢٣٢، والعيني: عقد الجمان، ص ٥٧٤، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٨٠).

(٥) محمود بن القاضي شهاب الدين أحمد بن القاضي شرف الدين موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف بن محمود العينتابي أو العيني، عمدة المؤرخين، ولد سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م، تولى عدداً من الوظائف منها الحسبة ونظر الأحباس، وصنف كتباً مفيدة في كثير من فروع العلم منها التاريخ الكبير، وطبقات الشعراء، وطبقات الحنفية، والتاريخ الصغير، وتاريخه المسمى عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. توفي سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م، (المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٧٢١، وابن تغري بردي: النجوم، ج ١٤، ص ١٧٠، وابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٢٧، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٨٧-٢٨٨).

(٦) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٣٧٧.

٩- دار العدل^(١)

لا يحق للمدعي اللجوء إلى دار العدل إلا بعد أن تستنفد كافة أجهزة الدولة المسؤولة عن التقاضي طاقتها الشرعية في إبداء رأي مناسب لقضيته، فإن المدعي يحق له عرض القضية بين يدي السلطان ليفصل فيها بعد استشارة القضاة الأربعة وكبار المسؤولين بدار العدل. فكانت دار العدل بمثابة (محكمة العدل السلطانية) أو (محكمة الاستئناف العليا) في عصرنا الحاضر. والسؤال الذي يتبادر إلى الزهن هل يسمح بطرح قضايا على ديوان العدالة ضد السلطان أو الأمراء أو كبار رجال الدولة؟، وما هو موقف السلطان منها؟، وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نعلم بأن الخلافة العباسية أضفت على السلاطين قدسية وهيبة جعلت عامة الناس يتهيبون الإقدام على التقدم بشكوى ضدهم، إلا أن بعض القضاة كانت لهم مواقف قوية ضد الظلم مهما كان مصدره، كما أن العلاقة بين السلاطين والقضاة كانت متأرجحة، بين الاحترام المتبادل والمواقف السلوكية لبعض السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة، بسبب اختلاف وجهات النظر وتعارضها، ومن ذلك مثلاً في سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م سأل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة عن سبب فتواه بجواز قتال المسلمين للسلطان، فأنكر ابن جماعة أنه أفتى بذلك، وأجاب بأن الفتوى تكون على مقتضى كلام المستفتي^(٢). مما

(١) بنى السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري داراً للعدل، وجلس بها للنظر في المظالم، ولما بنى الناصر محمد، الإيوان واطب على الجلوس فيه يومي الإثنين والخميس، وصار يفصل في القضايا التي استعصت على من دونه حلها، فلما تولى السلطان برقوق عقد لنفسه مجلساً بالإسطنبول السلطاني في قلعة الجبل يومي الأحد والأربعاء، وكذلك فعل الناصر فرج والسلطان المؤيد شيخ، واستمر ذلك في عهد المقرئ سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م. وكان الناصر محمد يستقبل في الإيوان أيضاً رسل الملوك والسفارات المختلفة، وكانت هيئة الجلوس فيه تضم السلطان وكبار رجال الدولة والقضاة للنظر في مختلف الأمور الشائكة، (المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢٠٧-٢٠٩).

(٢) ابن حجر: الدرر، ج ٢، ص ٢٥٥، والمقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٧٤، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٨-٩.

أغضب السلطان وقام بعزل بن جماعة عن منصبه القضائي^(١)، الأمر الذي يؤكد حرص اصحاب السلطة على مواقعهم وانتصارهم لأنفسهم في كل حال، خاصة إذا تعرض الأمر إلى شخوصهم أو مس سلطانهم، وعلى الرغم من ذلك استمر كثير من القضاة في عملهم رغبة منهم في دفع الظلم عن الرعية ما استطاعوا، والتأثير على الحكام لتحقيق العدل، والمساهمة في إرساء دعائم العدالة والحق بين الناس، وإن كان بقاء بعض القضاة في مناصبهم رغم ما تعرضوا له من ظلم، بدافع الرغبة في المناصب الرفيعة والتحلي بالألقاب الشريفة، وهذه المواقف لا تحكمها إلا الجوانب الأخلاقية والفكرية والعلمية عند القضاة.

فقد سعى بعض السلاطين إلى إضفاء صفة شرعية لبعض قراراتهم بأخذ موافقة القضاة لاستباحة أموال بعض الأمراء المغضوب عليهم من قبلهم، وإن ثبت في بعض الأحيان أن هذه الأموال المستردة من مخصصات بيت المال استلبها الأمراء، إلا أنها لا ترد إلى بيت المال وإنما تذهب للسلطان وخواصه^(٢).

١٠ - الأوقاف: (٣)

فإن الحضارة ترقى ويرتفع شأنها بين الحضارات بسمو مبادئها، وإرتقاء غاياتها، ومن ذلك سمو النزعة الإنسانية في مقوماتها عن طريق شمولها لمطالب كل من ينتمي إليها، وبذلك تتنافس الحضارات، وتتفاضل فيما بينها. وحضارتنا الإسلامية بلغت بذلك ذروة لم تصل إليها حضارة من قبل، رغم عراقية بعض الحضارات السابقة وبروزها في كثير من ضروب الحياة الإنسانية. و مما تميزت به حضارتنا

(١) ابن حجر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٥، وج ٣، ص ٣٦٨، والمقريري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٨.

(٢) المقريري: السلوك، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٣) الوقف في الشريعة هو حبس المال عن التصرف وتخصيص ريعه لجهة بر تقرباً إلى الله تعالى، كان القادرون على إقامة المدارس والمؤسسات التعليمية يلجأون لتقديم خدماتهم للناس من دون أجر، ويوقفون عليها وفقاً من الاراضي، ومباني ينفق من ريعها عليها، ضماناً لبقائها واستمراريتها، وبلغت الأوقاف في عهد قلاوون: مائة وثلاثين ألف فدان بالاضافة إلى البيوت والحوانيت وأرتبط كل وقف من الأوقاف بوثيقة أو حجة شرعية يتضمن الغرض منه وحجمه وكيفية الاستفادة من ريعه والمستفيدين من الوقف وعددهم ووظائفهم(أمين، محمد محمد: الأوقاف، ص ١٠٤).

مجالات أعمال الخير، والإنفاق على أوجه البر، وهو ما عرف في الحضارة الإسلامية بنظام الوقف. وهذا النظام، وإن عرف عند بعض الحضارات غير الإسلامية - السابقة واللاحقة - فقد جاء في أضيق مجالاته دون الغاية السامية التي أوجد هذا النظام من أجلها في الإسلام، وهي طلب الأجر والثواب من الله عز وجل، إذ كان الدافع الأكثر بروزاً في توجه بعض أصحاب المبرّات الإنسانية غير الإسلامية إلى هذه الأعمال هو طلب الجاه أو الشهرة، أو خلود الذكر، بينما كان المحرك الأساس في أعمال البر والإنفاق عند المسلمين هو ابتغاء مرضاة الله عز وجل سواء أعلم الناس أم لم يعلموا^(١). و الوقف نظام إسلامي يوقف فيه الإنسان ما يملكه من أراضي أو عقار ونحو ذلك وفقاً مؤبداً يتنازل فيه عن دخله لجهات البر والإحسان تقرباً إلى الله تعالى بإعتبارها من الصدقات الجارية، ويسمى الوقف في هذه الحالة (الوقف الخيري)، إذا كان على الأهل والذرية سمي (بالوقف الأهلي) فقسمت بذلك الأوقاف إلى ثلاث جهات الأحياس أو الأوقاف حكيمية هي الأرض الموقوفة على المساجد والزوايا للقيام بمصالحها ولقد بلغت مساحة هذه الأراضي في مصر عام ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م مائة و ثلثين ألف فدان واشرف السلطان أو نائبه أو الداودار على الرزق الاحباسية ومعه ناظر الاحباس وعدة كتاب وهم من العلماء^(٢). أما الأوقاف الحكيمية وفيها ما حبس من الرباع^(٣)، على الحرمين الصدقات والأسرى ولطبة العلم والفقراء بمصر والقاهرة، فكان قاضي القضاة الشافعية يولي أحد نوابه النظر فيها فيقال له (ناظر الأوقاف) وكان يتولى نظر الأوقاف بمصر والقاهرة وتارة تستقل مصر بناظر والقاهرة بناظر آخر^(١).

(١) مصطفى السباعي. من روائع حضارتنا، ط ٢. دمشق، بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ١٢١.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٩، والعمرى: التعريف، ص ١٥٣، هامش ٤، والبقلي: التعريف، ص ٣٤١.

(٣) الرباع: مفرداها ربع وهي عدة مساكن علوية، تحتها حوانيت ووكائل التجارة، ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل واجهة البناء المشرفة على الطريق العام، وبواسطته يصعد الساكن إلى مساكن الربع المخصصة لسكنى العامة بأجور شهرية زهيدة، (عاشور: العصر المملوكي، ص ٤٢٥).

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٩٥.

كانت الأوقاف الحكيمة من اعمال قاضي القضاة الشافعية، ويعين نائب عنه للنظر في أوقاف القاهرة وآخر لأوقاف الفسطاط، لكن اموال هذه الأوقاف كانت تحفظ في مودع الحكم أو مودع الأموال تحت يد أمناء الحكم^(١)، وقد تعرضت هذه الأموال لإختلاسات من المباشرين لها ففي عام ٧١٣هـ/١٣١٣م، طلب ابن الوزير شاد الأوقاف سائر مباشري الأوقاف وألزمهم بعمل الحساب لمدة عشرين عام مضت وتشدد على امناء الحكم في ذلك وضرب عدداً من المباشرين فأسرع قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة في إبطال ذلك فذهب إلى كريم الدين الكبير والفخر ناظر الجيش وعلاء الدين كاتب السر حتى أقنعوا السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن ابن الوزير شرس الاخلاق ويقصد إهانة القضاة وأهل العلم فمنعه السلطان من محاسبتهم^(٢).

أما الأوقاف الأهلية فهي التي تجمع بين الوقف الاهلي والوقف الخيري، وكان يشرف عليها قاضي القضاة الشافعية، وهي التي أوقفها الأهالي على الجوامع والمدارس والخوانق والترب، وكان ناظرها حسب شرط الواقف، وفي الغالب كان الواقف نفسه هو الناظر طول حياته ثم أولاده من بعده، أو من يوليه السلطان وغالباً ما يكون أحد العلماء^(٣). ولما كان العصر المملوكي عرف نظام التقسيم والترتيب للأوقاف فقد سهل ذلك على القضاة أمر إدارتها والحفاظ عليها، فقد استقل ديوان الأحباس بناظر خاص به، وكذلك أوقاف الحرمين، والأوقاف الأهلية، التي كانت في الغالب تتبع شرط الواقف في تولية النظار عليها^(٤).

ولعل السؤال الذي يطرح هنا هو ما سبب حرص السلاطين المماليك على إثارة قاضي قضاة الشافعية دون غيره من القضاة الثلاثة؟ وللإجابة على هذا السؤال نجد أن السبب يكمن في أن السلاطين المماليك كانوا كلهم شافعية باستثناء سيف الدين

(١) أمين، محمد محمد: الأوقاف، ص ١١٣-١١٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ١٢٦.

(٣) أمين، محمد محمد: مرجع سابق، ص ١١٦-١١٩.

(٤) المرجع السابق، ص ١٠٧-١٠٨.

قطر، الذي كان حنفي المذهب، والسبب الثاني هو أن معظم سكان الديار المصرية كانوا على المذهب الشافعي^(١)، وإن بدأ أتباع المذاهب الأخرى في إزدياد.

رابعاً:- نظام الإقطاع الزراعي

سعى السلطان بيبرس إلى تطوير الجهازين الإداري والعسكري فاستحدث بعض الوظائف الإدارية، متأثراً بما كان لدى المغول من موظفين إداريين وعسكريين يساعدون الخاقان على إدارة أمور البلاد، نتيجة لتطور الدولة وتوسعها، فأنشأ وظائف جديدة لم تكن معروفة في مصر من قبل. ولما كانت دراسة الجوانب الإدارية في دولة المماليك البحرية تقوم على عكس أوجه النشاط السياسي والاقتصادي والعلمي الموجود آنذاك، تطلب الأمر الإطلاع على هذه الجوانب ودراستها. ومن ذلك كان لابد أن نقف على النظام الإقطاعي.

يقول المستشرق بلولياك: "إن النظام الإقطاعي للمماليك كان ذا أهمية عظيمة لا لأنه استمر طيلة (٢٦٧ عاماً) مئتين وسبعة وستين عاماً في الدولة صاحبة القيادة في العالم العربي، حيث ترك علامات بارزة في التطور الاجتماعي والاقتصادي والنفسي لمصر وسوريا وفلسطين، ولأنه كان يمثل نتاج امتزاج ثلاثة أنظمة إقطاعية هي المغولي، والاسلامي، والأوربي الوسيط"^(٢). وللتحقق من هذا الرأي، علينا الاطلاع على النظام الإداري في مصر في العصر المملوكي، وما طرأ عليه من تغيرات جذرية بدراسة عمليات المسح الشاملة، فيما يعرف باسمي: "الروك الحسامي" و"الروك الناصري".

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٦٦.

(٢) Poliak، Some Notes on the Equal System Of The Mamleeks" the Journal Of The Royal Asiatic Society، Oxford، 1972، p.7

لقد أشار القلقشندي إلى أن مصر كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام (أحياء) رئيسية؛ وتشمل خمسة وخمسين إقليماً "كورة"^(١)، يكون القسم الأول "حيز" الوجه القبلي الذي يمتد من جنوب الفسطاط حتى الحدود الجنوبية لمصر ويشمل عشرين إقليماً، أما القسم الثاني فإنه يشمل الوجه البحري^(٢) ويضم ثلاثة وثلاثين إقليماً، موزعة بين أربعة أجزاء (نواحي)، الجزء الأول وهو الحوف الشرقي ويضم ثمانية أقاليم، والجزء الثاني وهو بطن الريف ويشمل سبعة أقاليم، والجزء الثالث وهو منطقة الجزيرة التي تقع بين ضفتي النيل الشرقية والغربية وتشمل خمسة أقاليم^(٣)، والجزء الرابع وهو الحوف الغربي ويضم أحد عشر إقليماً. أما القسم الثالث فيشمل كور القبلة وعددها خمسة أقاليم، غير أن القضاءي^(٤) لم يسجل منها سوى أربعة أقاليم^(٥). وقد وجد هذا التقسيم الإداري قبل عصر المماليك.

١- الروك الحسامي:-

كلمة "روك"^(٦) تعني دراسة مسحية للبلاد تشمل مساحتها وعدد ولاياتها، ومراكزها، وكثافتها السكانية، وأهميتها الاقتصادية، وإنتاج أقاليمها. ومن ثم يتم إعادة توزيع الإقطاعات بين المقطعين من الأمراء والأجناد ضمن إطار جديد.

(١) المقرئزي: الخطط، ج٣، ص٣٧٥.

(٢) البحري: يشير إلى نهر النيل.

(٣) المقرئزي: المصدر سابق، ج٣، ص٣٨٤ - ٣٨٥.

(٤) محمد بن محمد بن إدريس، أبو بكر القضاءي ٦٠٧-٧٠٧هـ/١٢١٠-١٣٠٧م، ولد باسطنبول له كتب منها (الختم المفضوض) في العروض و(أرجوزة) في نكت القوافي وغيرها، (الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٣٣).

(٥) المقرئزي: الخطط، ج٣، ص٣٧٨ - ٣٨٩.

(٦) الروك: في كتب المؤرخين من مصدر الفعل الثلاثي "راك" ومعناها في الأصل مسح أرض الزراعة في بلد من البلاد، لتقدير الخراج المستحق عليه لبيت المال، وكان الخراج - أي ضريبة الأرض، في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية المنبع الرئيس لدخل الدولة منذ صدر الإسلام، ومنه تصرف أعطية الجند، ورواتب الولاة وموظفي ديوان الدولة، فما زاد عن ذلك من مال الخراج أودع في بيت المال، ويسمى هذا النظام المالي بنظام الأعطية. وقد مسحت أرض مصر في العصور =

يرى المستشرق بولياك بأن السلاطين المماليك اجتهدوا في سبيل جعل المقطعين أكثر اعتماداً على الحكومة المركزية. وفي بداية العهد المملوكي يظهر تأثير الأنظمة الإقطاعية الإثنية والأيوبية واضحاً، حيث كان أصحاب الإقطاعيات يتوارثون مسئولية الحكم الذاتي في أقاليمهم جيلاً بعد جيل، وفي سبيل القضاء على هذه الظاهرة جاءت فكرة عمل الروك وفكرة الروك مغولية الأصل، تبلورت على شكل نظام لإعادة توزيع الأرض سنوياً بين القائمين على شؤون الأقاليم^(١).

ويعتبر "الروك الحسامي" هو أول دراسة مسحية شاملة للبلاد المصرية حيث نفذ بناءً على أوامر السلطان المنصور حسام الدين لاجين^(٢) في الفترة ما بين ١٦ جمادى الأولى ٦٩٧هـ - الأول من آذار ١٢٩٨م/ ٨ رجب - ٢١ نيسان من السنة نفسها^(١).

=الإسلامية الأولى ثلاث مرات: المرة الأولى على يد ابن رفاعة عامل الخراج في مصر في خلافة الوليد وأخيه سليمان بن عبد الملك الأموي حوالي سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م، والمرة الثانية كانت على يد ابن الحجاب، في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي حوالي سنة ١١٠هـ/ ٧٢٩م، والمرة الثالثة كانت على يد ابن مدير في خلافة المعتز بالله العباسي حوالي سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م. ثم وصل نظام الإقطاع إلى مصر الأيوبية، وصار للسلطان أربعة قراريط، وللأجناد عشرة قراريط، كما يعتبر "الروك الحسامي" هو أول روك لأراضي مصر في عصر المماليك: (المقريزي: السلوك: ج ١، ص ٨٤١ - ٨٤٢ هامش ٣، وإبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ١٣٨٨/ ١٩٦٨م ص ٩٦).

(١) Poliak: Feudalism In Egypt, Syria, Palestine, And Lebanon 1250-1990.p.23

(٢) هو: حسام الدين لاجين المنصوري الأمير المملوكي شارك في مؤامرة قتل الأشرف خليل بن قلاوون حيث اختفى بعدها خوفاً من غضب المماليك البرجية، ولكنه استطاع بمساعدة الأمير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة في فترة الحكم الأولي للسلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يخرج من مخابئه ويزاول العمل السياسي، وعمل الإثنان على عزل السلطان كتبغا المنصوري عن الحكم، ثم تولى الحكم السلطان كتبغا المنصوري وذلك سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، لكن الأمير حسام الدين لاجين لم يقنع بمنصب النائب فعمل بعد فترة قصيرة على عزل السلطان كتبغا المنصوري عن الحكم، ثم أعلن نفسه سلطاناً باسم المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م. (المقريزي: السلوك، ج ٨، ص ٢٢٢ - ٢٢٣).

لقد كانت أرض مصر مقسمة قبل "الروك الحسامي" إلى أربعة وعشرين قيراطاً^(٢) موزعة كالاتي: أربعة قراريط للسلطان، وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد، ولكن تم تغيير الوضع بعد تنفيذ الروك الحسامي، حيث تقلص نصيب الأمراء والأجناد معاً ليصبح لهم أحد عشر قيراطاً، وخصصت تسعة قراريط لعسكر جديد بدى للسلطان استحداثه^(٣)، وأبقى على مخصصات السلطان.

٢- الروك الناصري:-

إن التقسيم الإداري لمصر تغير تغييراً جذرياً وشاملاً بعد "الروك الناصري" بعملية مسح الأرض الزراعية وإعادة توزيعها. وقد تم تنفيذ ذلك بناءً على أوامر سلطانية من الناصر محمد بن قلاوون "٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤١م" كان ذلك عام ٧١٥هـ/١٣١٥م حيث أمضى الناصر محمد شهرين في الوجه القبلي (الصعيد) يشرف فيها شخصياً على خطوات إنجاز المشروع. ويعد الروك الناصري ثاني روك للأراضي المصرية في عهد المماليك البحرية على اعتبار أن الروك الحسامي هو الأول^(٤).

ولعل السلطان الناصر أراد أن يعرف على نحو دقيق حجم مساحة الأرض في مصر سواء، المزروعة أو غير المزروعة، من أجل إعادة توزيعها بشكل واضح، خدمة لأهدافه الظاهرة والباطنة. كما يظهر أن الهدف الرئيس من وراء الروك الناصري هو تقوية مركز الناصر محمد عن طريق:-

(1) Poliak: Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and Lebanon, P.23.

(٢) قيراط: وجمعها قراريط، وفي حديث أبي ذر عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً". (صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر، ص ٧٦) وأراد بالأرض المستفتحة مصر والقيراط جزء من أجزاء الدنيا - وهو نصف عشرة في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين جزءاً. (ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٢٥٠ - ٢٥١).

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٨٤١ - ٨٤٤، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٨، ص ٩٠ - ٩١.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٧٩ - ١٨٢.

أولاً: إضعاف سلطة كبار الأمراء المماليك من خلال تقليص إقطاعاتهم مساحة وإنتاجاً.

ثانياً: تقوية سلطته من خلال زيادة الإقطاعات السلطانية "الخاص السلطاني"^(١). وكان من الممكن أخذ هذه الإقطاعات الواسعة من هؤلاء دون اللجوء إلى مشروع "الروك الناصري" إلا أن الناصر محمد خشي وقوع الفتنة ففضل أن يحقق ما يريد بطريق غير مباشر^(٢) ويفصل المقريري الأمر في خطه فيرى أن "خبز" كل أمير كان يتراوح بين ألف إلى ثمانمائة دينار سنوياً^(٣). ولهذا كان الروك الناصري مظهراً غير مباشر يهدف لتجزئة "أخباز" الأمراء المماليك^(٤). وفي سبيل تنفيذ مشروع الروك الناصري أرسل الناصر محمد الأمراء المماليك إلى مختلف الولايات والأعمال لقياس الأرض، وعبرة^(٥)، كل جزء منها^(٦)، وقبل أن يتم توزيع الإقطاعات بين الأمراء وأجناد الحلقة، عين الناصر محمد مناطق محددة لتكون ضمن "الخاص السلطاني"^(٧).

يعتبر ابن فضل الله العمري كاتب سر الناصر محمد بن قلاوون وصاحب (ديوان الإنشاء) وشاهد عصره حيث سجل في كتابه "مسالك الأبصار" أن مصر خلال هذا العهد كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين: مصر العليا "الوجه القبلي" ومصر

(١) ابن الجيعان: يحيى بن شاكر، ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية إشراف ب. مورتز - القاهرة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م، ص ١٣٧ - ١٥٢.

(٢) المقريري: السلوك، ج ٢، ص ١٤٦، وابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ٩، ص ٤٧.

(٣) المقريري: الخطط، ج ١، ص ٨٨، وابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٩، ص ٤٢.

(٤) الحجي: صور من الحضارة العربية والإسلامية في دولة المماليك، ص ٣٢.

(٥) العبرة: مقدار المساحة، وهي في الإصطلاح المالي القديم مقدار المربوط من الخراج، أو الأموال على كل إقطاع من الأرض وما يتحصل من كل قرية.

(٦) المقريري: السلوك، ج ٢، ص ١٤٦، ١٤٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٤٢ - ٤٣.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٩، ص ٢٨، والمقريري: الخطط، ج ١، ص ٨٨.

السفلى "الوجه البحري" ^(١) ويقول في المسالك: "إن الديار المصرية وجهان: قبلي وبحري وجملتها خمسة عشر ولاية، فالوجه القبلي أكبرهما، وهي تسعة أعمال، وهي عمل حوض ^(٢) شرقي النيل وهو أجلها ومنه أسوان وعرب قمولة وأسوان نهاية حد المملكة من الجنوب، وعمل إخمم ^(٣) وهي شرق النيل أيضاً، وعمل أسيوط ^(٤) وعمل منفوط، وعمل الأشمونيين وبها الطحاوية وعمل الباشا، ومنه العراي وهي عبارة عن قرى على عرى المنهي ^(٥) ... إلى آخر التقاسيم.

كانت "عبرة" إيرادات الأقاليم المصرية ٩.٥٨٤.٢٦٤ دينار ^(٦) جيشاً ^(٧) وقد كانت الأراضي المصرية مقسمة إلى ثلاثة أقسام فهي إما أوقاف أو رزق "خبز" أو أملاك وتجد أحياناً مظاهر الاقتصاد الشرعي مجتمعة كلها في منطقة واحدة من ذلك مثل

(١) ابن فضل الله: مسالك الأبصار، ورقة ٢٠١.

(٢) قوص: مدينة عظيمة لها خيرات عميمة، ببساتينها المورقة، وأوراقها المونعة، مساجدها الكبيرة، ومدارسها الأثرية، وهي منزلة ولاية الصعيد، (ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٦٨).

(١) إحميم: تقع في مصر على الشاطئ الشرقي للنيل (محافظة سوهاج)، وهي مدينة عظيمة، عجيبه الشأن، فيها آثار بانوبليس الإفريقية، وصفها ابن جبر بأنها أشتهرت في العصر المسيحي بأديرتها الكثيرة، كانت في العهد الأول للفتح الإسلامي عاصمة لمنطقة مستغلة، أصبحت منذ زمن الفاطميين إلى عهد المماليك عاصمة أقليم الأخميمية، ينسب إليها ذو النون المصري المتصوف. تشتهر بصناعة القصب ومنسوجات الصوف (معلوف: المنجد، ص ٢٨)

(٤) أسيوط: مدينة قديمة في مصر على الشاطئ الغربي للنيل (مسقط رأس افلوطين الفيلسوف) وجلال الدين السيوطي رفيعة، أسواقها بديعة وهي مشهور بالزراعة، (معلوف: المصدر السابق، ص ٤٧، وابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٦٦).

(٥) ابن فضل الله: مصدر سابق، ورقة ٢٠٦ ب - ٢٠٢ ج.

(٦) أبو الفداء: تقويم البلدان المصرية، ورقة ٢، وابن الجيعان: التحفة السنية، ص ٣.

(٧) دينار جيش وجمعها دنانير جيشه: وهي دنانير تعرف في عطاء الجند، وهي أكثر وزناً من الدنانير العادية، رينهارت دروزي: تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي بغداد، ط ١٩٧٨م، ج ٤، ص ٤١٤. ويذكر ابن الجيعان: "أن الدينار الجيش" كانت قيمته ثلاثة عشر وثلاث درهم، فإذا قصد معرفة متحصل كل بلدة ينظر في عبرتها؛ مثلاً ستة آلاف دينار يعلم أن متحصلها ثمانون ألف درهم. (ابن الجيعان: مصدر سابق، ص ٣، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٨).

دمنهور فقد كانت عبرتها ٤٥٠٠ دينار، وقد كانت أملاكاً وأوقافاً ورزقاً^(١). أما عن النشاط الاقتصادي لمصر العليا فيذكر ابن فضل الله العمري أن أسوان كانت هي الطريق إلى عيذاب الواقعة على ساحل البحر الأحمر حيث يمكن منها الذهاب إلى الهند، والحبشة، واليمن^(٢) ومن ثم اشتهرت عيذاب باعتبارها ميناءً تجارياً نشطاً، كما كانت العلاقات التجارية بين سلطنة المماليك واليمن قوية حيث ضمن التجار اليمنيون الأمان والسلامة لرحلاتهم التجارية داخل الأراضي المصرية^(٣). وعلى ذلك يمكن القول بأن التبادل التجاري بين مصر وغيرها من بلاد العالم المختلفة شرقاً وغرباً كان نشطاً، وكان حيويًا مزدهراً في مصر العليا، والسفلى^(٤).

لقد استمر نظام التقسيم الإداري المملوكي في مصر أكثر من قرنين ونصف، ولعل من أسباب هذا الاستمرار والثبات هو استقرار الأوضاع الإدارية لملاعمتها للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ونجد أن التنظيم الإداري المملوكي كان أكثر تطوراً عما شهدته مصر في العهود السالفة^(٥).

كما يمكن القول أن التقسيم الإداري لمصر زمن المماليك كان يتضمن بين ملامحه الطابع الإسلامي من ناحية الاقتصاد والصبغة الأوروبية الوسيطة، من الناحية الإدارية والاجتماعية فإنه يحمل بالتأكيد صبغة مملوكية بحتة من الناحية السياسية والعسكرية.

(١) ابن الجيعان: المصدر السابق، ص ١١.

(٢) ابن فضل الله: مصدر سابق، ورقة ١٩٥ ب.

(3) Subhi Labib op، 1969، "Capitalism in Medieval Islam، the Journal of Economic History، Vol. 29، No. 1. (1969)، pp. ، cit، pp.68-69.

(٤) الحجي، حياة ناصر: صور من الحضارة، ص ٥١.

(٥) المرجع السابق، ص ٥٣.

هكذا استخدم السلاطين المماليك أسلوباً اقتصادياً لتحقيق مآرب عسكرية، إذ لا يمكن إطلاق القول بأن "الروك" كان مشروعاً اقتصادياً أو إدارياً فقط فقد تمخضت عن إتمامه أهداف سياسية وعسكرية لم تغب عن أنظار المؤرخين المعاصرين، ولم يفهم بالتالي تسجيلها، وقد يعتقد البعض أن ارتباط "الروك الناصري" بشخصية الناصر محمد كان سبباً في ظهور "الروك" كمشروع متكامل يتضمن من القوة والتماسك ما هياً له الثبات والاستمرار، رغم أن الروك الناصري عبر تعبيراً صادقاً عن شخصية الناصر محمد فحقق له ما يريد من مطامح ورغبات. إلا أنه لم يرتبط بشخصه بدليل أنه استمر بعد وفاته لمدة طويلة. أما على المستوى الشعبي فإن "الروك الناصري" قد خفف كثيراً من الأعباء المالية التي عانى منها الفلاحون في العهود السابقة^(١). وقد بذل علماء دولة المماليك جهداً مقدراً في التخطيط والتنفيذ لهذه النظم الإدارية على الأرض. وكان ذلك نتاج خبراتهم العلمية وحاجة المؤسسات التعليمية لريع هذه الأرض.

خامساً: النشاط الاقتصادي

١ - وسائل النقل والمواصلات وأثرها على حياة العلماء:-

من المعروف أن النظام العسكري المملوكي كان أساساً لنظم الدولة السياسية والاقتصادية والتي قامت في مضمونها الاجتماعي على الفروسية وركوب الخيل ليس فقط في مجال الحرب ولكن في مجال السلم أيضاً، إذ كان "الفرس" هو وسيلة الركوب القتالي للفارس المملوكي الذي يؤمن بأن ميدان الجهاد هو الطريق إلى ميدان الحياة الكريمة بما فيها من وسائل التسلية والراحة البدنية والمعنوية، وفي الوقت نفسه كان الفرس وسيلة النقل والمواصلات التي لا يمكن الاستغناء عنها

(١) الحجى: المرجع السابق، ص ٥٥.

باعتبارها جزءاً من كيانه الاجتماعي إلى حد أن "عليق الخيل" كان يسمو في الفكر العسكري المملوكي على رغبة الخبز في الفكر الاجتماعي المصري^(١).

لقد اهتمت المصادر التاريخية المعاصرة اهتماماً كبيراً بوسائل النقل والمواصلات الحيوية البرية والمائية وجاءت في مقدمتها الخيل والاسطبلات السلطانية، والأميرية ولوازم الخيل، وعوائدها، والمراكب الرسمية، والألعاب الرياضية وغيرها من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصر المماليك^(٢). وتمثل وسائل النقل والمواصلات أهمية عظيمة من حيث الضرورة الاقتصادية والاجتماعية، وأثارها الإيجابية على حياة الناس خاصة فيما يتعلق بنقل وتوفير السلع الأساسية - (الماء - الغذاء - الوقود) التي يحتاج إليها الإنسان في حياته اليومية - من أماكن الإنتاج إلى أماكن الاستهلاك. كما تكمن أهمية وسائل النقل والمواصلات في توفير سبل الراحة والترفيه لمختلف فئات المجتمع المصري، في المناسبات الدينية والقومية، والتي كانت تمثل عنصراً محورياً في التكوين الاجتماعي المصري إذ لا يمر يوم دون مناسبة فرح أو مأتم. كما كانت انعكاساً للأوضاع الطبقيّة والمظاهر الاجتماعية السائدة؛ مثل الخلع والعطايا والهدايا ومظاهر الترف والمباهاة في امتلاك الخيول الأصيلة والبغال المزينة، تلك المظاهر التي استبدت بها الدولة المملوكية "منحاً" أو "منعاً" حسبما تقتضي ظروف المجتمع الاقتصادية وعلاقة الأفراد بالسلطة^(٣).

لقد كان المجتمع المصري في عصر المماليك ثنائياً في بنائه الطبقي فهناك أقلية عسكرية حاكمة. تمتلك كل وسائل الإنتاج، ولها كافة الحقوق والمزايا الاجتماعية،

(١) علاء طه رزق: مرجع سابق، ص ١١٣.

(٢) عبد العزيز، نبيل محمد: الخيل ورياضتها، مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ٦٤.

(٣) رزق، علاء طه: مرجع سابق، ص ١١٤.

وأغلبية مدنية محكومة منزوعة الملكية الزراعية وليس لها حق الزام الدولة بامتيازات معينة في العمل أو الزي أو الركوب إلا إذا منحتهم الدولة ذلك بمشيئتها.

وكان يدور في فلك هذه الطبقة العسكرية بعض المصريين الذين ارتبطت مصالحهم الاقتصادية أو الاجتماعية بالنظام السياسي المملوكي وهم مياسير التجار وأرباب الأقلام أهل العمامة^(١). ومن أهم المميزات التي منحتها الدولة لهذه الفئات هيئة ركوب وسائل النقل والمواصلات الداخلية التي نص عليها المرسوم السلطاني: "يركب أعيان تلك الطائفة من القضاة ونحوهم البغال النفيسة المساوية لمسومات الخيول بلجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشئ من الفضة"^(٢)؛ يقول المقرئزي: (كان يباع بسوق المهمازيين أيضاً سلاسل الفضة ومخاطم الفضة المطلية، تجعل تحت لجم الجور من الخيل خاصة، فيركب بها أعيان الموقعين، وأكابر الكتاب من القبط ورؤساء التجار، وأدركت السروج تعمل ملونة ما بين أصفر وأزرق، ومنها ما يعمل من الدبل، ومنها ما يعمل سيوراً من الجلد البلغاري الأسود، ويركب هذه السروج السود القضاة ومشايخ العلم^(٣)). إلا أن هذا "الركوب" الطبقي كان مرهوناً بأحوال الدولة الساسية والاقتصادية والعسكرية صعوداً وهبوطاً، ففي بعض الأحيان التي غلب فيها على الناس الفقر، وكثرت الفتن، واشدت حاجة الدولة إلى الخيل، اقتصر ركوبها على أعيان الأمراء وأماثل المماليك^(٤)، وقد كان لإحتكار الحاكمين

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٠٥، وقاسم، عبده: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي، ص١٥٩-١٧٦.

(٢) القلقشندي: مصدر سابق، ج٤، ص٤١-٤٢.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص٩٨.

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٩٨.

من العسكريين للمال والسلطة دون أرباب الوظائف الدينية والإدارية، أثر كبير في الفساد الإداري بسبب البذل والبرطلة والرشوة^(١).

إن المراسيم التي كانت تصدر بين الحين والآخر بشأن حرمان تلك الفئة من بعض الامتيازات الممنوحة لهم، كانت إحدى الطرائق السياسية للنيل من هيبة هؤلاء العلماء في نظر الرعية، تمهيداً لعزلهم من وظائفهم وإسنادها إلى غيرهم من العلماء الراغبين في شغل هذه الوظائف، ببذل مزيد من الأموال إلى خزانة السلطان إشباعاً لحاجة الدولة وحاجة أنفسهم في تكوين ثروة طائلة على حساب الرعية، الأمر الذي شاركهم فيه أحياناً بعض العسكريين الذين سعوا إلى ولاية الوظائف الدينية كالحسبة^(٢) ابتغاء الثروة والحياة الرغدة، وحسداً من عند أنفسهم على أهل العلم الذين ركبوا الخيول واقتنوا الخدم والحشم. ويعد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من أشهر السلاطين الذين أولوا الخيول رعايتهم، وما تحتاج إليه من لوازم، فرتب لها وظيفة جليلة القدر هي: نظر الإسطبلات^(٣). إن قلنا أن الخيول والبغال شكلت جانباً حيوياً في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بجانب دورها العسكري المتعارف عليه في دولة المماليك، إذ أن تجارة الخيل والبريد والأسفار والمواكب السلطانية والأعياد الدينية والاحتفالات القومية ورحلات الحج وغيرها من الأمور، كانت تمثل جزءاً كبيراً من مهام الحكم التي اتسمت في هذا العصر بالتعقيد وكثرة الإجراءات، ومظاهر التعظيم والتفخيم^(٤)، التي فاقت أعظم قواعد

(١) المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمه، ص ٨١.

(٢) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج ١٦، ص ١٢٩.

(٣) هي: وظيفة من بين مسؤوليات من يتولها ضبط أسماء الخيل، وشياتها (ألوانها) وأوقات ورودها، وأسماء أربابها، ومبلغ ثمنها، ومعرفة سواها، وغير ذلك من أحوالها، ويعتبر ملوك الأتراك أول من اتخذ ديواناً للإسطل، وعمل له ناظرًا، وشهودًا، وكاتبًا... ومات عن أربعة آلاف وثمانمائة فرس (المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٤-٢٢٥، والسلوك، ج ٢، ص ٥٢٧).

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج ٤، ص ١٢.

البرتوكول في بلاط حكام تاريخنا الحديث والمعاصر. ومن ثم فليس عجباً أن تشغل الخيول والبغال حيزاً شاسعاً في مشاغل السلاطين والأمراء المماليك، وأن يفردوا لها سوقاً خاصاً، وحواصل سلطانية واسطبلات، وميادين رياضية، وحشد من الموظفين والعمال، فضلاً عن كونها تشكل عنصراً أساسياً في الإقطاع الحربي للأمراء والأجناد المماليك^(١). وفي الوقت نفسه كانت هدية "الخيول" من أكثر الهدايا قرباً من هوى السلاطين الذين هاموا بها كثيراً^(٢). ومن المهم أن نشير إلى أن الدولة المملوكية كانت تقرر الضرائب على الخيول والبغال وحواصلها، بواقع ٣٠٠ درهم عن ثمن الحياصة، و ٥٠٠ درهم عن ثمن البغل. وويكون نصف السماسرة في السوق من دلالي الخيول (المناداة)^(٣). فقد كانت تجارة الخيول واحدة من أهم مصادر الدخل لكثير من الناس، خاصة الأعراب الذين برعوا فيها، وحققوا من خلالها ثروات طائلة، معتمدين في ذلك على شدة حاجة الدول للخيول، وولع السلاطين بتربيتها ورعايتها، وفي هذا يقول أحد المؤرخين عن قبائل "آل مهنا" و"آل فضل" و"آل مر" الذين اشتهروا بهذه التجارة: "وحملتهم الدالة حتى طلبوا من السلطان الناصر بلاد أمراء حلب وحماة ودمشق؛ فأنعم بها عليهم حتى صاروا من الكثرة والقوة بحيث يخافهم من عاداهم من سائر العرب فعز جانبهم وهابهم من سواهم"^(٤). وممن باشر وظيفة نظر الإسطبلات من العلماء: قاضي القضاة أبوبكر

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٤١٨، وج ٣، ص ٩٧-٩٩، و ص ١١-١١٢.

(٢) من المعروف أن نظام البريد أخذته العرب عن الروم في القرن السابع الميلادي بعد أن تكونت إمبراطورية عربية إسلامية كبرى في حوض البحر المتوسط ومن ثم كانت الحاجة إلى شبكة طرق برية ممهدة لسيير الخيول عليها، (رزق، علاء طه: مرجع سابق، ص ١٢٠).

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ١١-١١٢، والسلوك، ج ٢، ص ١٥٠-١٥٢.

(٤) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٢، والمقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٥، والسلوك، ج ٢، ص ٥٢٧-٥٢٨، ج ٤، ص ٥٠٤، و الباشا، حسن: الفنون الإسلامية، ج ١، ص ١١٨٢-١١٨٣.

بن القاضي بدر الدين بن مزره^(١)، والقاضي زين الدين بن مزره، والقاضي شمس الدين بن مزاحم^(٢)، وغيرهم.

٢- الأسواق:-

يقول المؤرخ سعيد عاشور: تفلأ عن المقرزي كان بمدينة القاهرة ومصر وظواهرها من الأسواق شيء كثير جداً قد باد أكثرها، وكفاك دليلاً على كثرة عددها أن الذي خرب من الأسواق فيما بين أراضي اللوق إلى باب البحر بالمقس اثتان وخمسون سوقاً أدركناها عامرة، فيما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتاً، وهذه من جملة ظاهر القاهرة الغربي فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر..^(٣) فقد زحرت القاهرة بالأسواق التي حوت مختلف أصناف البضائع، وتشابهت هذه الأسواق في كافة المدن المصرية، من حيث نظامها، كما يتضح ذلك من المقارنة بين وصف المقرزي لأسواق القاهرة، والوصف الذي ورد في قصص ألف ليلة^(٤) لأسواق الإسكندرية^(٥) والوصف الذي ذكره بعض الرحالة لأسواق رشيد، ذلك أن كل سوق انفرد بنوع معين من البضائع، فسوق الشماعين اختص ببيع الشمع، وسوق الدجاجين يبيع الدجاج والطيور الداجنة، وسوق السلاح يبيع القسي والنشاب

(١) هو: أبوبكر بن القاضي بدر الدين بن مزره، (ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٤، وابن تغري بردي: حوادث الدهور، ص ٣٩٧-٣٨٠).

(٢) هو: محمد بن مزاحم الطرابلسي، شغل عدداً من الوظائف في الدولة، (ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٩٧).

(٣) المقرزي: السلوك، ج ٣، ص ٧٣٣.

(٤) ألف ليلة وليلة: مجموعة حكايات خيالية وضعت عبر القرنين ١٣ و ١٤ الميلاديين، وعددها ٢٦٤ قصة تحكيها السلطانة شهرزاد لأختها دينا زاد في حضرة الملك شهريار، خلال ألف ليلة وليلة سمر، وفيها التنويه بوقائع تاريخية وعوائد وأخلاق تلك الأزمنة، أشهرها قصة السندباد، وقمر الزمان، وعلي بابا. معلوف: المنجد، ص ٦٠.

(٥) سهير القلاموي، ت ١٩٩٧م: ألف ليلة وليلة، رسالة دكتوراة القاهرة ١٩٤٣م، ص ٩٠.

.. وهكذا^(١) ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التي يتجر فيها، لأن منافسيه على مقربة منه، كما أن المشتري إذا لم يعجبه نوع السلعة أو سعرها، فإنه يستطيع أن ينتقل بكل سهولة إلى تاجر ثان وثالث دون أن يتحمل أدنى مشقة، أما عيوب هذا النظام فأهمها أن الفرد إذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع، فعليه أن يقطع المدينة كلها طويلاً وعرضاً عدة مرات حتى يقضي حاجاته، لأنه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع، وامتازت حوانيت الأسواق بصغر حجمها، حتى أن متوسط مساحة الواحد منها بلغ خمسة أقدام مربعة يكس فيها التاجر كل بضائعه، ويحتفظ في مقدمة الحانوت بمكان يشبه المصطبة يجلس عليه التاجر، ومن يتردد عليه من العملاء والأصدقاء للمساومة أو للحديث، وفرضت الحكومة على حوانيت التجار رقابة شديدة، من خلال المحتسب الذي كان يؤدي عمله انطلاقاً من التوجيه التالي: "لا يمكن ذوي البيوع أن يغبنوا ضعفاء الرعايا وأغبياءهم، لا يسمح لهم أن يرفعوا على الخلق أسعارهم ويبخسوا الناس أشياءهم..."^(٢).

أما الأسواق الخاصة بالماكل والمشارب في عصر المماليك، فلا يمكن إحصاء ما فيها من أنواع الأطعمة، فضلاً عن ما بها من الأشخاص^(٣) وساعد على ذلك أن الناس في تلك العصور اعتادوا على عدم طهي الطعام في منازلهم، وإنما يشترون ما يلزمهم مطهواً من الباعة. وفي ذلك يقول المقريزي: إن أهل مصر كانوا "يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشياً"^(٤).

(١) المقريزي: الخطط، ج٣، ص ١٥٣ ومابعدھا.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢١٠ - ٢١٢.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٣، ص ١٥٣.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠.

لم تكن القاهرة وأسواقها على حال ثابت من الهدوء والسكينة في العصر المملوكي، بل كثيراً ما تأثرت المدينة بعوامل اقتصادية وسياسية، أدت إلى زعزعة الحالة في الأسواق، وإثارة القلق في النفوس، مما يترتب عليه تعطيل الحركة وإغلاق الحوانيت، بين حين وآخر. وقد عدد المقرئ العوامل الرئيسية التي أدت إلى القلق الاقتصادي في عصره، فكان أولها زيف النقود المتداولة بين الناس، ذلك أن بعض السلاطين أكثروا من ضرب الفلوس، واختلفوا في تقديرها بالوزن، فحيناً يكون الرطل منها بستة دراهم وأحياناً باثني عشر درهماً، أو بدرهمين ونصف. وفي جميع هذه الأحوال أرغم التجار والأهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة، مما يضطر كثيرين إلى إغلاق حوانيتهم خوفاً من بخس بضائعهم، ويصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار وقلة الخبز^(١).

إن من عوامل القلق الاقتصادي كذلك كثرة المنازعات والفتن بين أفراد الممالك وأحزابهم، فكثيراً ما قام الممالك بثورات "فيوالون الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للهيجان. ثم ينتشرون في الطرقات والأسواق لنهب الحوانيت وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها وربما استمر الحال على ذلك أسبوعاً يقاسي الناس طواله أنواع الجوع والفوضى والفرع وكان يكفي أن يرجف بموت سلطان^(٢) أو هزيمة جنوده^(٣). بالإضافة إلى العوامل الطبيعية كانخفاض فيضان النيل في بعض السنوات، وما كان يترتب على ذلك من نقص الإقطاعات وارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة كما حدث سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م^(٤).

(١) المقرئ: إغاثة الأمة، ص ٤٧ وما بعدها، والسلوك، ج ٢، ص ١٧، وج ٣، ص ٨٢ - ٨٣،

وعاشور، سعيد: المجتمع المصري، ص ٣٥ - ٣٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٤٠١.

(٤) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

كان من بين أسواق القاهرة، سوق يعرف بسوق الشراييشيين، نسبة إلى الشراييش التي يعطيها السلطان لمن يؤمره من الممالك. وهي أغطية للرأس مثلثة الشكل تلبس بغير عمامة، وقد شاع استعمالها في عصر الناصر محمد بن قلاوون ثم حل محلها الكلوتات الجركسية بعد أن ولي السلطان الملك الظاهر برقوق سلطنة مصر. وكان بهذا السوق فريق من التجار يشتري التشاريف والخلع ثم يبيعها للسلطان والأمراء^(١).

٣-أ- التجارة:-

لم يكن اهتمام سلاطين الممالك موجهاً فقط إلى إنماء الزراعة وترقية الصناعة، بل عنوا أيضاً عناية كبيرة بتسهيل سبل التجارة المصرية، فنشطت في أيامهم حركة التجارة الداخلية بمصر، وأصبحت القاهرة عامرة بالأسواق كما كثرت بها الحوانيت التي كانت تمتد على طول بعض شوارعها على الجانبين.

كانت أسواق القاهرة وحوانيتها تموج بالتجارة والأهالي الذين يفدون إليها لقضاء جميع ما يلزمهم من حاجيات المعيشة، وليس أدل على ذلك مما أورده المقرئزي^(٢) عن انتعاش الحركة التجارية في الطريق الممتد من الحسينية إلى المشهد النفيسي، فقال: "أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت غاصة بأنواع المأكّل والمشرب والأمتعة الي تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها، ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلاً عن إحصاء ما فيها من الأشخاص"^(٣)، وقد وصف لنا المقرئزي وكالة قوصون التي شاهدها بنفسه فقال: "إن رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش

(١) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٩٨.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص ٩٥.

(٣) سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ ص ٣٢١.

لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها^(١).

لقد أبطل السلطان بيبرس عن الرعية ما كانوا مطلوبين به من التصقيع^(٢) والتقويم^(٣) والحُمس، والزكاة المعجلة والحوالي^(٤)، والتبرع، والراجل، والدينار^(٥)، وغير ذلك، وكتب بذلك مسامحات قرئت على المنابر، ثم نصب دار العدل وأقام فيها الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، ينصف الناس ولم ترفع له مظلمة إلا كشفها^(٦).

ب- التجارة الخارجية:-

كانت التجارة الأوربية مع دولة المماليك مصدراً للأرباح الوفيرة على أوربا وتجارها مما جعل البابا يغض الطرف عن ما أصدره من قرارات حرمان ويسمح لهم بالمتاجرة مع المماليك في أغلب السلع سوى ما يمكن أن يقوي المماليك عسكرياً^(٧).

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٩٣.

(٢) التصقيع هو: إحصاء البيوت والعقارات من أجل فرض ضريبة، وهي أخذ أجرة شهرين في كل سنة عليها، وقد أخذت في زمن الملك المعز آيبك التركماني، (المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٤-٤٣٧).

(٣) تقدير قيمة كل بيت من البيوت المحصاة لأجل فرض ضريبة، فيؤخذ عن كل دينار درهم. (أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٤٩).

(٤) جمع جالبة، واللفظ مطلق على أهل الذمة، ويستخرج منهم وهي الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة، (القلقشندي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٦٢).

(٥) وهي ضريبة فرضها قطز وبمقتضاها كان يؤخذ من كل واحد من الناس من جميع أهل إقليم مصر دينار، (المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٤٣٧).

(٦) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٧٧ - ٧٨.

(٧) هايد، ف: تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٤٠، و ج ٢، ص ٤٥.

أدرك المماليك أهمية التجارة الخارجية لدعم قوتهم السياسية والعسكرية فقاموا بتنشيط حركة التجارة مع أغلب الدول والإمارات والشعوب القائمة آنذاك، وقد تمثلت جهودهم في هذا المضمار في حرص سلاطين المماليك على سمعة بلادهم التجارية عند ملوك الإفرنج وتجارهم، فعندما ألقى نائب طرابلس الأمير جمال الدين أقموش المعروف بنائب الكرك سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م القبض على أحد قراصنة الإفرنج وأرسله إلى السلطان فادعى ذلك الرجل أنه تاجر وليس قرصاناً، وأقنع السلطان والأمراء بصحة دعواه، فقال السلطان للأمراء: "أبصروا نائب الكرك إيش عمل في بلادي ويريد يفسد عليّ التجارة ويجعل سمعتي نحس عند الإفرنج وملوك البحر"^(١).

كان تقدير التجار واحترامهم وبخاصة الكبار منهم لما لديهم من ثروات مادية ضخمة، تقديراً لدورهم في نمو الحركة التجارية، فوجيه الدين محمد بن علي التكريتي (ت ٦٧٠هـ/١٢٧١م)، كان معظماً عند الدولة ولاسيما عند الملك، وكانت مكاتباته مقبولة عند جميع الملوك، حتى ملوك الفرنج وفي أيام التتار^(٢) وهولاكو على السواحل^(٣). يذكر ابن حجر العسقلاني واحداً من أثرياء التجار في العصر المملوكي وهو محمد بن مسلم (توفي ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) الذي كان له الحظ الوافر في التجارة وفي العبيد السفّارة فكان يرسلهم إلى الهند والحبشة واليمن والتكرور فيعودون إليه بالأرباح الكثيرة المفرطة^(٤).

أما التجار الكارمية الذين شكلوا طبقة كبيرة مميزة من التجار في ذلك العصر، فقد شجعتهم دولة المماليك لما لهم من نفوذ تجاري ممتد من مصر إلى الهند تجلّى

(١) اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٢٣٨.

(٢) انظر الملاحق خريطة (٣) ظهور التتار، ص ٣٤٣.

(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ١٩٣ - ٢٩١.

(٤) صبحي لبّيب: التجارة الكارمية، المجلة التاريخية المصرية، مج ٤، العدد الثاني، ص ٥ - ٥٣.

في محطاتهم وفنادقهم، ووكالاتهم ومراكزهم التجارية من جانب، وما قدموه من ضرائب ومدفوعات غدت الخزينة المملوكية من جانب آخر^(١).

ولم يقتصر تقدير الدولة المملوكية على رعاية التجار الذين كانوا من رعاياها بل قامت سياستها الاقتصادية على استجلاب التجار واستقدامهم من كل الأمم والأجناس والإحسان إليهم، فقد كتب المنصور قلاوون أماناً لكل التجار من كل البلاد تشجيعاً لهم على القدوم إلى دولة المماليك^(٢)، ونجد في وثيقة تخص تجار الفرنج أنه: "لا يعرض لهمو ببلص"^(٣) ولا يجدد عليهم حوادث لا في البر ولا في البحر". كما عقد المماليك المعاهدات والمراسيم والأمانات التجارية مع الجمهوريات الإيطالية والممالك الأوروبية المختلفة^(٤).

(١) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٣، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) هايد: تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠٠، ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٤) القلقشندي: مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣٦٦ - ٣٦٨، وابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٨٩ - ٩٣، والمقريزي: الخطط، ج ١، ص ٤٦٦.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وبعد ففي نهاية رحلتي مع هذا البحث الذي جاء بعنوان "الحياة العلمية في دولة المماليك البحرية" فقد توصلت بالدراسة فيه إلى نتائج عده الخص أهمها في:-

إن العلماء لعبوا دوراً مهماً في تشكيل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية بالإضافة إلى جهودهم العلمية الكبيرة.

لقد كان للعلماء موقف واضح برفضهم تولية الحكم في مصر إلى امرأة، هي شجرة الدر. إلا أن موقفهم كان سلبياً تجاه انتقال السلطة للمماليك أنفسهم، إذ لم يعترضوا في بادئ الأمر، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى صراع الأيوبيين فيما بينهم وعجزهم عن التصدي لخطر الصليبيين والمغول. إلا أنه كان للعلماء دور بارز في تقديم النصح للظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، لإضفاء الشرعية لحكمه ودعم المذهب السني والقضاء على المذهب الشيعي .

ألقت الدراسة الضوء على حياة العلماء في مجتمعهم، ومعيشتهم ومساكنهم وألقابهم السامية والشرفية، مثل قاضي القضاة، أو شيخ الشيوخ، أو الجناز العالي والمجلس السامي، وأبرزت وظائفهم وأثبتت الأثر الكبير لحياة العلماء فيما وصلوا إليه، وما تمتع به العلماء من تقدير لم يجده معاصروهم في مكان آخر من بلاد الإسلام، وذلك لارتباط العلم بالدين في كافة جوانبه في ذلك الوقت، وأن كثيراً من العلماء كانوا مؤهلين للوظائف التي شغلوها، كما كان لهم دور كبير في درء المفاصد الإدارية، وعكست مواقفهم من الفساد والمسعى للإصلاح، وإن اشترك بعض العلماء في ظاهرة الفساد بأنفسهم.

قدم لنا العلماء كما اتضح لنا من خلال البحث ثروة علمية ضخمة قل أن تجد مثلها في عصر من العصور، وقد ردت الدراسة على افتراءات بعض الكتاب الذين وصموا عصر المماليك بعصر الانحطاط الفكري. فقد أشار البحث لعدد كبير من العلماء الذين أثروا عصرهم علماً وفناً بما تركوه من مخطوطات وموسوعات

علمية وزخارف ومساجد وزوايا لتشهد على عصرها إلى الآن، فقد كان للعلماء دور بارز في التخطيط والتعمير وتقديم كثير من النظم الإدارية والاقتصادية .. لعب ديوان الإنشاء المملوكي دوراً بارزاً في شحذ همم الأدباء وحفزهم إلى إجادة صناعتهم وإتقان الكتابة، لاتخاذها وسيلة للوصول إلى مناصب الدولة، ولهذا بلغت الكتابة ذروتها في الجودة وحسن الأدب، وقدموا ثروة أدبية ضخمة لا يستهان بها وكانت لحركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء دور إيجابي كبير، حيث ساهمت هذه الحركة في وقف زحف اللغات الأعجمية على اللغة العربية، التي فقدت مكانتها كلغة علمية وإدارية في مشرق العالم الإسلامي. ويتبين لنا مما تقدمت الإشارة إليه أن حركة الترجمة والتعريب كانت ضرورية لتحقيق التجانس الثقافي، والتواصل المعرفي، ولبقاء لغة العرب حية في مؤسسات الدولة المختلفة وبخاصة ديوان الإنشاء الذي صدرت عنه جميع المكاتبات في التعيينات والإقطاعات.

كما أبرزت الدراسة الدور الذي لعبه العلماء في توجيه سياسة سلاطين المماليك ونوابهم في التعامل مع أهل الذمة معاملة كريمة وفق تعاليم الإسلام. كما بينت الدراسة دور القضاة وتأثيرهم في الشعب والسلطة ومشاركتهم في التدريس والتعليم، وكشفت لنا ما كان يذخر به هذا العصر من علماء بارزين في الطب تركوا لنا ثروة ضخمة.

توصلت الدراسة إلى أن المساجد والجوامع كانت منارات إشعاع وجامعات للعلم والمعرفة. كما سلطت الدراسة الضوء على الصوفية ودورهم في نشر العلم في الزوايا والخوانق والربط.

اتضح من خلال البحث أن عصر المماليك هو عصر المكتبات والخزانات التي ضمت أنواع المؤلفات والموسوعات الجامعة لمختلف أنواع المعارف، مما أسهم بشكل كبير في الحفاظ على التراث العلمي بعد سقوط بغداد وانهيار معالم الحضارة.

جاء هذا البحث محاولة لإبراز الأثر الكبير الذي أسهم به نظام الوقف في تشييد بنية الحضارة الإسلامية، وذلك عن طريق إثراء كثير من جوانب هذه الحضارة وبنائها، فعن طريق الوقف بنيت كثير من المساجد والمدارس ودور التعليم المختلفة

والمكتبات، وتم الصرف عليها بما يضمن استمرارها في أداء رسالتها على الوجه الأكمل، وعن هذا الطريق أيضاً تم الصرف على العديد من الجيوش الإسلامية الموجهة للجهاد في سبيل الله، وفكّ أسرّ مجموعات من أسرى المسلمين، وعن طريق الأوقاف تمت رعاية المرضى والمحتاجين من الفقراء والمساكين وأنشأت دور الرعاية الصحية والاجتماعية على اختلافها. وبالجمله فقد اتضح من خلال البحث أن نظام الوقف في كثير من صورته وأنماطه قد اتصل بصفة مباشرة مع كثير من جوانب الحضارة الإسلامية فأثر وتأثر بها، ولا تكاد تجد ناحية من نواحي الحياة في المجتمع الإسلامي إلا وهي ذات صلة بنظام الوقف مع تفاوت في حجم هذه الصلة.

عكست الدراسة وجه التباين الكبير بين العلماء والديوانيين، فأوضحت أن الديوانيين هم الموظفون الذين أداروا الشؤون المالية والإدارية في الدولة، وقد انفردوا بصفات لا تجدها في العلماء الآخرين، فكانت نسبة كبيرة منهم من الأقباط المصريين والمسالمة الوافدين إلى مصر وخاصة من بلاد الشام، بفضل تفوقهم في الحساب ومصطلح الديوان. أما العلماء فقد باثروا الوظائف القضائية والتعليمية والدينية وغيرها، وإن شارك بعضهم في إدارة دواوين الدولة.

وأثبتت الدراسة أن البيمارستان المملوكي لم يكن مكاناً لعلاج المرضى فحسب، بل كان مدرسة للطب، فكان كبير الأطباء يجمع الطلبة حوله بعد مرورهم على مرضاهم، ويستعرض معهم الحالات المختلفة وأعراضها، ثم يقدم لهم خلاصة علمه وتجاربه، وهذا أشبه بنظام المستشفيات الجامعية في العصر الحاضر، التي يختص كل منها بالدراسة العلمية لطلبة كلية من كليات الطب.

في خاتمة هذا البحث نسأل الله تعالى أن يكون المستقبل المأمول أفضل مما عليه الحال.

التوصيات

والباحث - إذ يشكر الله أن يسرّ له إتمام هذا العمل، وأعانه على التغلب على صعوباته يطيب له أن يسجل فيما يلي خلاصة لهذه الدراسة، تتضمن أهم نتائجها، ويشرفه أن يضيف بذلك لبنة في صرح الدراسات التاريخية الحضارية الوثائقية الشامخ، فإن أصاب فذلك فضل من الله ونعمه وإن قصر فإنه يرجو ألا يحرم الثواب، فقد اجتهد وبذل قصارى جهده، ثم إنه على استعداد لتقبل كل وجهة نظر قد تختلف معه، أو تسهم في سدّ ثغرة، أو تصحيح معلومة، في سبيل الإرتقاء بالبحث في طريق الاكتمال، أما الكمال فله وحده.

كانت دولة المماليك البحرية، محوراً لمنابع حضارية وثقافية عظيمة تستحق الدراسة الموسّعة في كل جانب من الجوانب العلمية، فيستطيع المؤرخ أن يكتب عنها الكثير، ويستطيع الأديب أن يسجل حولها الدراسات التي تخص الآداب والفنون، وكذلك عالم الاقتصاد والاجتماع، وعالم السياسة والفكر... والخبراء العسكريون، لذا فإن ما كتب عنها يحتاج إلى المزيد من الدراسة والتبحر في جميع الجوانب والمظاهر الإنسانية ولكل ما سبق نخلص إلى التوصيات الآتية:-

(١) يوصي الباحث بتكثيف الدراسات التاريخية في المجالات العلمية والفكرية والجوانب الاجتماعية والثقافية والأدبية والتوسع في الاطلاع على هذه الحقبة في شقيها البحرية والشركية.

(٢) يوصي الباحث بإنشاء وتخصيص أقسام علمية ومراكز بحثية لتاريخ دولة المماليك.

(٣) الإهتمام بآثار ومخطوطات ووثائق المماليك حيث أن المكتبة السودانية تقتقر لمصادر المعلومات في هذه الحقبة التاريخية.

(٤) كما يوصي الباحث بإجراء دراسات بحثية وأثرية في تاريخ المماليك في منطقة بلاد النوبة لعدم توفر الدراسات الكافية في هذه المنطقة.

(٥) وجد الباحث من خلال هذه الدراسة أن تطورات قضائية مهمة طرأت على النظام القضائي الإسلامي في تلك الحقبة مثل تعيين قضاة للمذاهب الفقهية المشهورة واستحداث نظام القضاء العسكري والشهود المرافقين للجيش أثناء الخروج للمعارك، وعليه أوصي بمزيد من الدراسات الفقهية والقانونية في هذا المجال.

إن النقاط التي ذكرناها ماهي إلا إطلالة نتمنى أن نجد التأكيد عليها مما يدفع إلى مزيد من البحث والدراسة، لذلك فإن فصول هذه الأطروحة، وما تفرع عنها من عناوين جانبية سوف تعزز في تضافرها مع جهود الباحثين دراسة تراث تلك الدولة الإسلامية التي قدمت عطاءً علمياً زاخراً بالإنجازات عبر القرون.

الخلاصة

أولاً: إمتازت الحياة العلمية في عهد المماليك بأمرين مهمين:

(١) الحفاظ على التراث الإسلامي من هجمات المغول.

(٢) الإرتقاء بالعلم والمعرفة والذوق في تجديد كافة أوجه النشاط العلمي.

ثانياً: ندرة الاتجاه إلى العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام، رغم إهتمامهم بالرد على الفرق الدينية المختلفة كالمعتزلة والرافضة والخوارج، وما شهدته العصر من تنازع للعلماء في قضايا فقهية وعقدية.

كان لبغداد سطوة كبيرة بإعتبارها عاصمة الخلافة الإسلامية لبني العباس الذين قامت حضارتهم على أكناف الفرس، مما دفع الخلفاء العباسيين لتشجيع الأمر والإهتمام به، ثم استلمت القاهرة زمام الأمر في زمن المماليك لاسيما بعد أن ورثت الزعامتين الدينية والأدبية من بغداد وأصبحت محط لكثير من علماء المسلمين. كما دانت لها زعامة العالم الإسلامي بعد انتصارها على المغول والصليبيين.

ولقد لعب التصوف دوراً بارزاً في الحياة المصرية كانعكاس طبيعي للحياة العسكرية والمعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين . وظلت البئة المصرية صالحة للتصوف قبل دخول الفاطميين لمصر.

أما الأدب فكان يتميز بعاطفة قوية جياشة في الجانب الروحي والعسكري والسياسي وتشرب بروح الفكاهة والملح اللفظية والسخرية اللاذعة، وانفرد بأشكال البديع اللفظية وظهر ذلك جلياً في الشعر والنثر، ويرجع ولع الأدباء بالذخرفة اللفظية، لوجود ديوان الإنشاء واهتمامه بالمعارف الإنسانية، واهتمام السلاطين بالمظاهر المادية في بناء القصور والمؤسسات الدينية والمبالغة في زخرفتها مما

انعكس على الأدب في كثير من ضروبه، وأخيراً ذبوع الثقافة الدينية وسيطرتها على ازهان الأدباء والكتاب، وخاصة القرآن الكريم الذي ساهم بشكل كبير في نهضة الفقه والبلاغة واستخدم الأدباء والشعراء المعاني اللفظية وخاصة في مجالي النثر والكتابة.

لقد اهتم المماليك بالجوانب الحضارية من بناء للمدارس والمساجد والعمائر، حتى أن عصرهم يعد من أزهى العصور في العمارة، فقد كان للمماليك إسهام رائع في مجال العمارة، فأصبح فن العمارة على أيديهم إسلامياً خالصاً يستقي قواعده من العلوم الإسلامية وأصول الشرع، ففن بناء البيوت، مثلاً، على عهدهم انطلق من مبدأ منع الاختلاط، والغيرة على النساء، فالبيوت تبنى ويكون الطابق الأول مخصصاً للرجال ويسمى "السلامك" والسفلي للنساء ويسمى "الحراملك" ومدخل البيت ينحرف غرباً نحو دهليز ومنه إلى حجرة الضيوف، حتى لا يرى الداخل من في وسط البيت، وكانت هناك مداخل خاصة بالنساء فقط، وكانت شبابيك البيوت مرتفعة بحيث لا يرى السائر في الطريق ولو كان راكباً من بداخل البيت، وكانت هذه الشبابيك عبارة عن خشب مثقوب يسمح بدخول الضوء والهواء، ويسمح لمن بداخل البيت رؤية من بالخارج، بحيث لا يرى من بالخارج من هو بداخل الحجرات.

كما لعب ديوان الإنشاء المملوكي دوراً بارزاً في شحذ همم الأدباء وحفزهم إلى إجادة صناعتهم وإتقان الكتابة، لاتخاذها وسيلة للوصول إلى مناصب الدولة، ولهذا بلغت الكتابة ذروتها في الجودة وحسن الأدب، وقدموا ثروة أدبية ضخمة لا يستهان بها وكانت لحركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء دور إيجابي كبير، حيث ساهمت هذه الحركة في وقف زحف اللغات الأعجمية على اللغة العربية، التي فقدت مكانتها كلغة علمية وإدارية في مشرق العالم الإسلامي. ويتبين لنا مما تقدمت

الإشارة إليه أن حركة الترجمة والتعريب كانت ضرورية لتحقيق التجانس الثقافي،
والتواصل المعرفي، ولبقاء لغة العرب حية في مؤسسات الدولة المختلفة وبخاصة
ديوان الإنشاء الذي صدرت عنه جميع المكاتبات في التعيينات والإقطاعات

أما النظام الإداري في دولة المماليك فإنه قد تسلم عرش السلطة أقوى أمراء
المماليك وأشجعهم، ولما جاء بيبرس جعل نظام الحكم وراثياً في أبنائه وتبعه
السلطين من بعده في توريث السلطة وأحدثوا تغييراً جزرياً في نظام الإدارة امتاز
بالدقة والنظام. وقد نقل المماليك بعض الوظائف الإدارية عن العباسيين والفاطميين
والأمويين، كما استحدثوا بعضها...

جدول سلاطين المماليك البحرية منذ ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م
ملحق (١)

م	الاسم	عدد الو لايا	بداية الولاية	نهايتها	سبب الإنهاء	ملاحظات
		ت				
١	شجر الدر	١	١٢٥٠هـ / ١٢٤٨هـ	بعد شهرين	سلمت السلطة	قتلت ٦٥٦هـ / ١٢٥٧م
٢	توران شاه	١	١٢٥٠هـ / ١٢٤٨هـ	بعد شهر	قتل	
٣	عز الدين أيبك	١	١٢٥٠هـ / ١٢٤٨هـ	٦٥٥هـ / ١٢٥٧م	قتل	زوج شجر الدر
٤	المنصور نور الدين علي	١	٦٥٥هـ / ١٢٥٧م	بعد سنتين وسبعة شهور	عزل	ابن عز الدين أيبك
٥	سيف الدين قطز	١	٦٥٧هـ / ١٢٥٨م	٦٥٨هـ / ١٢٦٠م	قتل	بعد عين جالوت
٦	الظاهر بيبرس	١	٦٥٨هـ / ١٢٦٠م	٦٧٦هـ / ١٢٧٧م	وفاة	استمر ١٧ عاماً في الحكم
٧	السعيد ناصر الدين بركة خان	١	٦٧٦هـ / ١٢٧٧م	٦٧٨هـ / ١٢٧٩م	عزل	ابن بيبرس وزوج ابنة قلاوون
٨	العادل بدر الدين سلامش	١	٦٧٨هـ / ١٢٧٩م	٦٧٨هـ / ١٢٧٩م	وفاة	ابن بيبرس خلع بركة وحكم ١٠٠ يوم
٩	المنصور سيف الدين قلاوون	١	٦٧٨هـ / ١٢٧٩م	٦٨٩هـ / ١٢٩٠م	وفاة	ظل الحكم في عائلته مائة عام
١٠	الأشرف صلاح الدين خليل	١	٦٨٩هـ / ١٢٩٠م	٦٩٣هـ / ١٢٩٣م	عزل	ابن قلاوون فتح عكا واستعاد بلاد الشام

١١	الناصر محمد	٣	١٢٩٣هـ/١٢٩٣م	١٢٩٤هـ/١٢٩٤م	عزل مرتين	ابن قلاوون حكم ٤٤ عاماً غير متصلة
١٢	زين الدين كتبغا	١	١٢٩٤هـ/١٢٩٤م	١٢٩٦هـ/١٢٩٦م	عزل	حكم عام واحد فقط
١٣	المنصور حسام الدين لاجين	١	١٢٩٦هـ/١٢٩٦م	١٢٩٨هـ/١٢٩٨م	قتل	
١٤	الناصر محمد	٢	١٢٩٨هـ/١٢٩٨م	٧٠٨هـ/١٣٠٨م	عزل	فترة حكمه الثانية
١٥	المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	١	٧٠٨هـ/١٣٠٨م	٧٠٩هـ/١٣٠٩م		زعيم المماليك الجراكسة
١٦	الناصر محمد	٣	٧٠٩هـ/١٣٠٩م	٧٤١هـ/١٣٤٠م		فترة حكمه الثالثة
١٧	المنصور سيف الدين أبوبكر	١	٧٤١هـ/١٣٤٠م	٧٤٢هـ/١٣٤١م	نفي	ابن الناصر محمد نفاه أخوه
١٨	الأشرف علاء الدين كجك	١	٧٤٢هـ/١٣٤١م	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	عزل	ابن الناصر محمد
١٩	الناصر شهاب الدين	١	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	عزل	ابن الناصر محمد
٢٠	الصالح عماد الدين اسماعيل	١	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	٧٤٦هـ/١٣٤٥م	عزل	ابن الناصر محمد
٢١	الكامل سيف الدين شعبان	١	٧٤٦هـ/١٣٤٥م	٧٤٧هـ/١٣٤٦م	عزل	ابن الناصر محمد

٢٣	الناصر بدر الدين حسن أبو المعالي	٢	٧٤٨هـ/—١٣٤٧م ٦ سنوات	٧٥٢هـ/١٣٥١م فترته الأولى	خلع	ابن حسن محمد عزله أخوه حاجي
٢٤	الصالح صلاح الدين صالح	١	٧٥٢هـ/١٣٥١م	٧٥٥هـ/١٣٥٤م ٣ سنوات	خلع	ابن الناصر محمد
٢٥	الناصر بدر الدين أبو المعالي	٢	٧٥٥هـ/١٣٥٤م	٧٦٣هـ/١٣٦١م	عزل	فترة حكمه الثانية
٢٦	المنصور صلاح الدين حاجي	١	٧٦٣هـ/١٣٦١م	٧٦٥هـ/١٣٦٣م	عزل	ابن حاجي
٢٧	الأشرف زين الدين شعبان	١	٧٦٥هـ/١٣٦٣م	٧٧٨هـ/١٣٧٦م	عزل	ابن حسن محمد
٢٨	المنصور علاء الدين علي	١	٧٧٨هـ/١٣٧٦م	٧٨٣هـ/١٣٨١م	عزل	ابن شعبان
٢٩	الصالح زين الدين حاجي	٢	٧٨٣هـ/١٣٨١م	٧٨٤هـ/١٣٨٢م	عزل	

جداول بأهم القضاة في العصر المملوكي

ملحق (٢)

قضاة القضاة الشافعية منذ عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م

م	الاسم	عدد الولاي	بداية	نهايتها	سبب	ملاحظات
---	-------	---------------	-------	---------	-----	---------

	ت	الولاية	الإنهاء	
١	تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز	٦٦٠هـ	٦٦٥هـ	وفاة رأس أسرة أبن بنت الأعز
٢	تقي الدين محمد بن رزين	٦٦٥هـ	٦٧٨هـ	عزل
٣	صدر الدين عمر بن بنت الأعز	٦٧٨هـ	٦٧٩هـ	استقالة ابن تاج الدين رقم (١)
٤	أبن رزين	٦٧٩هـ	٦٨٠هـ	وفاة
٥	وجيه الدين البهنسي	٦٨٠هـ	٦٨٥هـ	وفاة
٦	تقي الدين بن بنت الأعز	٦٨٥هـ	٦٩٠هـ	عزل ابن تاج الدين رقم (١) وأخو رقم (٣)
٧	بدر الدين محمد بن جماعة	٦٩٠هـ	٦٩٣هـ	عزل رأس أسرة بني جماعة
٨	تقي الدين بن بنت الأعز	٦٩٣هـ	٦٩٥هـ	وفاة
٩	تقي الدين محمد بن دقيق العيد	٦٩٥هـ	٧٠٢هـ	وفاة
١٠	بدر الدين بن جماعة	٧٠٢هـ	٧١٠هـ	عزل
١١	جمال الدين الزرعي	٧١٠هـ	٧١١هـ	عزل

١٢	بدر الدين بن جماعة	٣	٧١١هـ	٧٢٧هـ	استقالة	
١٣	جلال الدين القزويني		٧٢٧هـ	٧٣٨هـ	عزل	
١٤	عز الدين بن جماعة	١	٧٣٨هـ	٧٥٩هـ	عزل	ابن رقم (١٢)
١٥	بهاء الدين بن عقيل		٧٥٩هـ	٧٥٩هـ	عزل	
١٦	عز الدين بن جماعة	٢	٧٥٩	٧٦٦هـ	استقالة	
١٧	بهاء الدين السبكي		٧٦٦	٧٧٣	عزل	رأس أسرة السبكي
١٨	برهان الدين بن جماعة	١	٧٧٣	٧٧٩	استقالة	ابن بن بدر الدين (١٢)
١٩	بدر الدين السبكي	١	٧٧٩	٧٨١	عزل	ابن بهاء الدين (١٧)
٢٠	برهان الدين بن جماعة	٢	٧٨١	٧٨٤	عزل	
٢١	بدر الدين السبكي	٢	٧٨٤	٧٨٩	عزل	
٢٢	ناصر الدين بن بنت الميلىق		٧٨٩	٧٩١	عزل	
٢٣	صدر الدين المناوي	١	٧٩١	٧٩١	عزل	
٢٤	بدر الدين السبكي	٣	٧٩١	٧٩٢	عزل	
٢٥	عماد الدين الكركي		٧٩٢	٧٩٤	استقالة	
٢٦	صدر الدين المناوي	٢	٧٩٤	٧٩٦	عزل	

٢٧	بدر الدين السبكي	٤	٧٩٦	٧٩٧	عزل	
٢٨	صدر الدين المناوي	٣	٧٩٧	٧٩٩	عزل	
٢٩	تقي الدين الزبيري		٧٩٩	٨٠١	عزل	
٣٠	صدر الدين المناوي	٤	٨٠١	٨٠٣	وفاة	
٣١	ناصر الدين الصالحي	١	٨٠٣	٨٠٤	عزل	
٣٢	جلال الدين البلقيني	١	٨٠٤	٨٠٥	عزل	رأس أسرة البلقيني
٣٣	ناصر الدين الصالحي	٢	٨٠٥	٨٠٦	وفاة	
٣٤	شمس الدين الإخنائي	١	محرم ٨٠٦	ربيع أول ٨٠٦	عزل	
٣٥	جلال الدين البلقيني	٢	٨٠٦	شعبان ٨٠٦	عزل	
٣٦	شمس الدين الإخنائي	٢	٨٠٦	ذو الحجة ٨٠٦	عزل	
٣٧	جلال الدين البلقيني	٣	٨٠٦	جمادي أولي	عزل	
٣٨	شمس الدين الإخنائي	٣	٨٠٧	ذو القعدة	عزل	٨٠٧
٣٩	جلال الدين البلقيني	٤	٨٠٧	صفر ٨٠٨	عزل	
٤٠	شمس الدين الإخنائي	٤	٨٠٨	ربيع أول ٨٠٨	عزل	

٤١	جلال الدين البلقيني	٥	٨٠٨	محرم ٨١٥	عزل	
٤٢	شهاب الدين الباعوني		٨١٥	صفر ٨١٥	عزل	
٤٣	جلال الدين البلقيني	٦	٨١٥	جماد أول ٨٢١	عزل	
٤٤	شمس الدين الهروي	١	٨٢١	ربيع أول ٨٢٢	عزل	
٤٥	جلال الدين البلقيني	٧	٨٢٢	٨٢٤	وفاة	
٤٦	ولي الدين العراقي		٨٢٤	٨٢٥	استقالة	
٤٧	علم الدين صالح البلقيني	١	٨٢٥	محرم ٨٢٧	عزل	أخو جلال الدين رقم (٤٥)
٤٨	شهاب الدين بن حجر	١	٨٢٧	ذو العقدة ٨٢٧	عزل	
٤٩	شمس الدين الهروي	٢	٨٢٧	٨٢٨	عزل	
٥٠	ابن حجر	٢	٨٢٨	٨٣٣	عزل	
٥١	علم الدين البلقيني	٢	٨٣٣	٨٣٤	عزل	
٥٢	ابن حجر	٣	٨٣٤	٨٤٠	عزل	
٥٣	علم الدين البلقيني	٣	٨٤٠	٨٤١	عزل	

٥٤	ابن حجر	٤	٨٤١	٨٤٩	عزل	
٥٥	شمس الدين القاياتي		٨٤٩	٨٥٠	وفاة	
٥٦	ابن حجر	٥	٨٥٠	٨٥١	عزل	
٥٧	علم الدين البلقيني	٤	٨٥١	ربيع أول ٨٥١	عزل	
٥٨	ولي الدين السفطي		٨٥١	٨٥٢	عزل	
٥٩	ابن حجر	٦	٨٥٢	جمادي الأخر	استقالة	
٦٠	علم الدين البلقيني	٥	٨٥٢	٨٥٣	عزل	
٦١	شرف الدين المناوي	١	٨٥٣	٨٥٧	عزل	
٦٢	علم الدين البلقيني	٦	٨٥٧	٨٦٨	وفاة	
٦٣	المناوي	٢	٨٦٨	٨٧٠	عزل	
٦٤	صلاح الدين المكياني		٨٧٠	٨٧١	عزل	
٦٥	بدر الدين البلقيني		٨٧١	٨٧١	عزل	ابن رقم (٤٥)
٦٦	ولي الدين الأسيوطي		٨٧١	٨٨٦	عزل	
٦٧	زين الدين زكريا الأنصاري	١	٨٨٦	٩٠٦	استقالة	

٦٨	عبد القادر بن النقيب	١	٩٠٦	جماد آخر ٩٠٦	عزل	
٦٩	زكريا الأنصاري	٢	٩٠٦	٩٠٦	استقالة	
٧٠	ابن النقيب	٢	٩٠٦	ذو الحجة ٩٠٦	عزل	حكم ١٣ يوماً فقط
٧١	برهان الدين بن أبي الشريف		٩٠٦	٩١٠	عزل	
٧٢	أحمد بن فرفور		٩١٠	٩١١	وفاة	
٧٣	جمال الدين القلقشندي	١	٩١١	ذو العقدة ٩١١	عزل	
٧٤	ابن النقيب	٣	٩١١	٩١٢	عزل	
٧٥	القلقشندي	٢	٩١٢	٩١٤	عزل	
٧٦	كمال الدين الطويل	١	٩١٤	٩١٥	عزل	
٧٧	بدر الدين المكي		٠١٥	٩١٦	عزل	ابن رقم (٦٤)
٧٨	ابن النقيب	٤	٩١٦	٩١٦	عزل	
٧٩	كمال الدين الطويل	٢	٩١٦	٩١٨	عزل	
٨٠	ابن النقيب	٥	٩١٨	٩١٨	عزل	

ملحق (٣)

قضاة القضاة الحنفية منذ عام ٦٦٣هـ / ١٢٣٥م

م	الاسم	عدد الولايات	بداية الولاية	نهايتها	سبب الإنهاء	ملاحظات
١	صدر الدين سليمان		٦٦٣	٦٧٨	عزل	
٢	النعمان بن الحسن		٦٧٨	٦٩٢	وفاة	
٣	شمس الدين السروجي	١	٦٩٢	٦٩٦	عزل	
٤	حسام الدين الرازي		٦٩٦	٦٩٨	عزل	
٥	السروجي	٢	٦٩٨	٧١٠	عزل	
٦	شمس الدين الحريري		٧١٠	٧٢٨	وفاة	
٧	برهان الدين بن عبد الحق		٧٢٨	٧٣٨	عزل	
٨	حسام الدين الغوري		٧٣٨	٧٤٢	عزل	
٩	زين الدين البسطامي		٧٤٢	٧٤٨	عزل	
١٠	علاء الدين التركماني		٧٤٨	٧٥٠	وفاة	رأس أسـرة التركماني
١١	جمال الدين التركماني		٧٥٠	٧٦٩	وفاة	ابن علاء الدين

رقم (١٠)						
	وفاة	٧٧٣	٧٦٩		سراج الدين الهندي	١٢
ابن جمال الدين رقم (١١)	وفاة	٧٧٦	٧٧٣		صدر الدين التركماني	١٣
	استقالة	٧٧٧	٧٧٧		نجم الدين بن الكشك	١٤
	استقالة	٧٧٧	٧٧٧		صدر الدين الأذرعي	١٥
	استقالة	٧٧٧	٧٧٧		شرف الدين بن منصور	١٦
	وفاة	٧٨٢	٧٧٨		جلال الدين جار الله	١٧
	وفاة	٧٨٦	٧٨٢		صدر الدين بن منصور	١٨
	عزل	٧٩٢	٧٨٦	١	شمس الدين الطرابلسي	١٩
	عزل	٧٩٣	٧٩٢		مجد الدين بن الكناني	٢٠
	وفاة	٧٩٩	٧٩٣		جمال الدين القيصري	٢١
	وفاة	آخر عام	٧٩٩	٢	شمس الدين الطرابلسي	٢٢
الملطي	وفاة	٨٠٣	٨٠٠		جمال الدين بن موسى	٢٣
ابن شمس الدين رقم (٢٢)	عزل	٨٠٥	٨٠٣	١	أمين الدين الطرابلسي	٢٤
	وفاة	٨١١	٨٠٥		كمال الدين عمر بن	٢٥

					العديم	
ابن كمال الدين رقم (٢٥)	عزل	٨١١	٨١١	١	ناصر الدين بن العديم	٢٦
	عزل	٨١٢	٨١١	٢	الطرابلسي	٢٧
	عزل	٨١٥	٨١٢	٢	ابن العديم	٢٨
	وفاة	٨١٦	٨١٥		صدر الدين الأدمي	٢٩
	وفاة	٨١٩	٨١٦	٣	ابن العديم	٣٠
	استقالة	٨٢٢	٨١٩		شمس الدين الديري	٣١
	عزل	٨٢٩	٨٢٢	١	زين الدين التفهني	٣٢
	عزل	٨٣٣	٨٢٩	١	بدر الدين محمود العيني	٣٣
	عزل	٨٣٥	٨٣٣	٢	التفهني	٣٤
	عزل	٨٤٢	٨٣٥	٢	العيني	٣٥
من أسرة الديري رقم (٣١)	استقالة	٨٦٦	٨٤٢		سعد الدين بن الديري	٣٦
	عزل	٨٦٧	٨٦٦	١	محب الدين بن الشحنة	٣٧
	وفاة	٨٦٧	٨٦٧		بدر الدين بن الصواف	٣٨
	عزل	٨٧٠	٨٦٨	٢	ابن الشحنة	٣٩

٤٠	برهان الدين بن الديري		٨٧٠	٨٧٧	وفاة	أخو سعد رقم (٣٦)
٤١	ابن الشحنة	٣	٨٧٧	٨٧٧	عزل	
٤٢	شمس الدين الأمشاطي		٨٧٧	٨٨٥	وفاة	
٤٣	شرف الدين بن عيد		٨٨٥	٨٨٦	وفاة	
٤٤	شمس الدين محمد بن المغربي		٨٨٦	٨٩١	عزل	

ملحق (٤)

قضاة القضاة المالكية منذ عام ٦٦٣هـ/١٢٣٥م

م	الاسم	عدد الولايات	بداية الولاية	نهايتها	سبب الانتهاء	ملاحظات
١	شرف الدين عمر		٦٦٣	٦٦٧	وفاة	

	السبكي				
٢	نفيس الدين بن شكر	٦٦٧	٦٨٠	وفاة	
٣	تقي الدين بن شاس	٦٨٠	٦٨٥	وفاة	
٤	زين الدين بن مخلوف	٦٨٥	٧١٨	وفاة	يلاحظ طول الفترة
٥	تقي الدين بن أبي بكر الإخنائي	٧١٨	٧٥٠	وفاة	رأس أسرة الإخنائي
٦	نور الدين علي بن عبد النصير	٧٥٠	٧٥٦	وفاة	
٧	تقي الدين بن شاس	٧٥٦	٧٦٠	وفاة	
٨	تاج الدين محمد بن الإخنائي	٧٦٠	٧٦٣	وفاة	ابن تقي الدين رقم (٥)
٩	إبراهيم الإخنائي	٧٦٣	٧٧٧	وفاة	ابن تقي الدين رقم (٥)
١٠	عبد الوهاب بن محمد الإخنائي	٧٧٧	٧٧٨	عزل	ابن تاج الدين رقم (٨)
١١	علم الدين سليمان البساطي	١	٧٧٨	٧٧٩	عزل
١٢	بدر الدين عبد	٢	٧٧٩	رجب	عزل

		٧٧٩			الوهاب الإخنائي	
	عزل	٧٨٣	٧٧٩	٢	البساطسي	١٣
	عزل	٧٨٦	٧٨٣	١	عبد الرحمن بن خير	١٤
	عزل	٧٨٧	٧٨٦	١	ابن خلدون	١٥
	وفاة	٧٩١	٧٨٧	٢	ابن خير	١٦
	عزل	٧٩٢	٧٩١		بهرام بن عبد الله	١٧
	عزل	٧٩٤	٧٩٢		تاج الدين محمد الر كراكي	١٨
	عزل	٧٩٤	٧٩٤		شهاب الدين النحريري	١٩
	وفاة	٨٠١	٧٩٤		ناصر الدين أحمد بن التنسي	٢٠
	عزل	٨٠٣	٨٠١	٢	ابن خلدون	٢١
	وفاة	٨٠٣	٨٠٣		نور الدين بن الجلال	٢٢
	عزل	٨٠٣	٨٠٣	١	جمال الدين الأفقيسي	٢٣

٢٤	ابن خلدون	٣	٨٠٣	٨٠٤	عزل	
٢٥	جمال الدين البساطي	١	٨٠٤	٨٠٤	عزل	
٢٦	ابن خلدون	٤	٨٠٤	٨٠٦	عزل	
٢٧	البساطي	٢	٨٠٦	٨٠٧	عزل	
٢٨	ابن خلدون	٥	٨٠٧	٨٠٧	عزل	
٢٩	جمال الدين الأقفسي	٢	٨٠٧	٨٠٨	عزل	
٣٠	جمال الدين بن التنسي	١	٨٠٨		عزل بعد يومين	ابن رقم (٢٠)
٣١	البساطي	٣	٨٠٨	٨٠٨	عزل	
٣٢	ابن خلدون	٦	٨٠٨	٨٠٨	وفاة	
٣٣	جمال الدين التنسي	٢	٨٠٨	٨٠٨	عزل	
٣٤	البساطي	٤	٨٠٨	٨١٢	عزل	
٣٥	شمس الدين بن المدني		٨١٢	٨١٦	عزل	
٣٦	شهاب الدين الأموي		٨١٦	٨١٧	عزل	
٣٧	جمال الدين الأقفهي	٣	٨١٧	٨٢٣	وفاة	

٣٨	شمس الدين البساطي	٨٢٣	٨٤٢	وفاة	
٣٩	بدر الدين التنسي	٨٤٢	٨٥٣	وفاة	ابن رقم (٢٠)
٤٠	ولي الدين السنباطي	٨٥٣	٨٦١	وفاة	
٤١	حسام الدين بن حريز	٨٦١	٨٧٣	وفاة	
٤٢	سراج الدين بن حريز	٨٧٣	٨٨٦	عزل	أخو حسام الدين رقم (٤١)
٤٣	برهان الدين اللقاني	٨٨٦	٨٨٦	عزل	
٤٤	محي الدين بن الدميري	٨٨٦	ذو الحجة ٨٩٥	وفاة	

ملحق (٥)

قضاة القضاة الحنابلة منذ عام ٦٦٣هـ/ ١٢٣٥م

م	الإسم	عدد الولا يات	بداية الولاية	نهايتها	سبب الإنهاء	ملاحظات
---	-------	---------------------	------------------	---------	----------------	---------

١	شمس الدين الجماعيلي		٦٦٣	٦٧٠	عزل	ظل المنصب شاغراً إلى عام ٦٧٨هـ
٢	عز الدين عمر بن عبد الله		٦٧٨	٦٩٦	وفاة	
٣	شرف الدين عبد الغني		٦٩٦	٧٠٩	وفاة	
٤	سعد الدين مسعود الحارثي		٧٠٩	٧١٢	عزل	
٥	تقي الدين أحمد بن عمر		٧١٢	٧٣٨	عزل	ابن عز الدين رقم (٢)
٦	موفق الدين عبد الله		٧٣٨	٧٦٩	وفاة	
٧	ناصر الدين نصر الله العسقلاني		٧٦٩	٧٩٥	وفاة	
٨	إبراهيم بن نصر الله		٧٩٥	٨٠٢	وفاة	ابن نصر الله رقم (٧)
٩	موفق الدين بن نصر الله	١	٨٠٢	٨٠٢	عزل	ابن نصر الله رقم (٧)
١٠	نور الدين علي الحكري		٨٠٢		عزل	
١١	موفق الدين بن نصر الله	٢	٨٠٢	رمضان	وفاة	

		٨٠٣				
١٢	مجد الدين سالم بن أحمد	٨٠٣	٨١٦	عزل		
١٣	علا الدين علي بن مغلي	٨١٦	٨٢٨	وفاة		

١	اسم الطبيب	مكان الولادة	تاريخ الوفاة ومكانها	أهم كتبه وأعماله		
١٤	أحمد بن نصر الله البغدادي	١	٨٢٨	٨٢٩	عزل	
١٥	عز الدين بن علي البغدادي		٨٢٩	٨٣٠	عزل	
١٦	أحمد البغدادي	٢	٨٣٠	٨٤٤	وفاة	
١٧	بدر الدين محمد بن عبد المنعم		٨٤٤	٨٥٧	وفاة	
١٨	أحمد بن إبراهيم		٨٥٧	٨٧٦	وفاة	ابن إبراهيم رقم (٨)

ملحق (٦)

جدول بأهم أطباء العصر المملوكي

٢	يحيى ابن اللبودي	حلب	١٢٧١/٦٧٠م دمشق	مختصر الكليات من القانون أسس المدرسة اللبودية في الطب
٣	ابن القف الكركي	الكرك/ الأردن	١٢٨٥هـ/١٢٨٦م دمشق	عمدة الإصلاح في صناعة الجراح جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض
٤	عماد الدين الدينسري	ماردين/ تركيا	١٢٨٧/٦٨٦م دمشق	المقالة المرشدة في الأدوية المفردة أنشأ المدرسة الدينسرية في الطب
٥	ابن النفيس	دمشق	١٢٨٨/٦٨٧م القاهرة	شرح تشريح القانون الموجز في الطب، الشامل في الطب
٦	إبراهيم السويدي	دمشق	١٢٩١هـ/١٢٩١م	تذكرة السويدي، شرح موجز القانون لابن النفيس
٧	ابن سحنون	دمشق	١٢٩٥هـ/١٢٩٤م	مفرح النفس في الطب
٨	صلاح الدين الكحال	حماء	١٢٩٦هـ/١٢٩٦م	نور العيون وجامع الفنون
٩	ابن الوردي	سوريا	٧٤٩هـ/١٣٤٨م	منافع النبات والثمار والبقول
١٠	ابن الأكفاني	سنجار/ العراق	٧٤٩هـ/١٣٤٨م	روضة الألبا في أخبار الأطباء غنية اللييب في غيبة الطبيب
١١	ابن قيم الجوزية	دمشق	٧٥١هـ/١٣٥٠م	تحفة الموجد بأحكام المولود
١٢	يوسف السرْمَرِي	دمشق	٧٧٦هـ/١٣٧٤م	شفاء الآلام في طب أهل الإسلام
١٣	صدقة الشاذلي	مصر	٧٩٢هـ/١٣٩٠م	العمدة الكلية
١٣	علاء الدين بن صغير	القاهرة	٧٩٦هـ/١٣٩٤م	ترأس الطب في مصر

عالم السلطان بيازيد	حلب			
شفاء الأسقام ودواء الآلام * أرجوزة في الطب	٨٢٠هـ/١٤١٧م	تركيا	حاجي باشا الأيديني	١٤
الزبد في الطب	٨٣٩هـ/١٤٣٥م	القاهرة	الشمس بن صغير	١٥
وصف الدواء في كشف آفات الوباء	٨٥٨هـ/١٤٥٤م	أنطاكية	زين الدين البسطامي	١٦
الرسالة النورية في أمراض العين الكلية	٨٧٩هـ/١٤٧٤م	يلدا	موسى اليلداني	١٧

- ١- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي توفي سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا - ثلاثة أجزاء - الطبعة الرابعة دار الثقافة بيروت، لبنان ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ٢- ابن إياس، محمد أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، توفي سنة ٩٢٣هـ/١٥٣٢م، عاصر سقوط دولة المماليك، تحقيق خليل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٩٢م.
- ٣- ابن أبيك، أبو بكر بن عبد الله، صاحب صرخد، المعروف بابن الدوادري توفي سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م: كنز الدرر وجامع الغرر - تحقيق برنرد راتكة وآخرون - المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٦٠م/١٩٩٤م.
- ٤- ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله، توفي عام ٧٧٩هـ/١٣٧٨م: تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق الدكتور/علي المنتصر الكناني، دار الشرق العربي، ط٢، بيروت ١٩٧٥م.
- ٥- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الأجزاء ١-١٢، تعليقات محمد رمزي بك دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٩/١٩٢٦م، والأجزاء ١٣-١٦ - تحقيق، فهمي محمد شلتوت وآخرون - الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٠م.
- ٦- ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهمي شلتوت، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- ٧- ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد أمين، ونيل عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤/١٩٩٤م.

٨- ابن تيمية، تقي أحمد بن عبد الحميد، توفي سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م: الحسبة في الإسلام، الكويت، سعدة، مكتبة دار الأرقم، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٩- ابن حبيب، بدر الدين الحسن بن عمر، توفي سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، الجزء الأول تحقيق محمد محمد امين- القاهرة ١٩٧٧م.

١٠- ابن حبيب، نسيم الصبا: تحقيق محمود الفاخوري، منشورات دار القلم العربي، حلب، سوريا، طبعة ١٩٩٣م.

١١- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني توفي سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م: إنباء الغمر بأنباء أبناء العمر، تحقيق، حسن حبشي، ط١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١٢- ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق، محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٣- ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، حققه، حامد عبد الحميد وآخرون، دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٤- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٢م: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه حسان عباس، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٦٩م.

١٥- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد المغربي، توفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، العبر وديوان المبتدأ والخبر، الطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢١هـ/١٩٠٤م.

١٦- ابن خلدون: مقدمه ابن خلدون التجارية الكبرى، مطبعة الأزهر، مصر
١٣٤٨هـ/١٩٥٢م.

١٧- ابن الجيعان، يحيى بن شاكر، توفي سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م: التحفة السنية
بأسماء البلاد المصرية، إشراف ب. مورتز - القاهرة ١٨٩٨م.

١٨- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، توفي سنة
٣٨٧هـ/١٣٨٥م: المدخل، مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة - أربعة
أجزاء - دار التراث، القاهرة ١٩٢٩م.

١٨- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن إيدمير، المتوفي سنة
٨٠٩هـ/١٤٠٦م: الإنتصار لواسطة عقد الأمصار - طبعة بولاق - القاهرة
١٨٣٤م.

١٩- ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام - دراسة وتحقيق سمير طباره -
المكتبة المصرية، صيدا - بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٢٠- ابن دنيال، شمس الدين محمد، توفي سنة ٧١٠هـ/١٤٠٧م: طيف الخيال،
القاهرة دار الكتب القومية، مخطوط ميكروفلم رقم ٢٦٥٥ "ادب".

٢١- ابن زنبيل، أحمد الرمال، توفي سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٤م: آخرة المماليك، تحقيق
عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٨م.

٢٢- ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين، توفي سنة
٦٩٢هـ/١٢٩٢م: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق، مراد
كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦١م.

٢٣- ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية - الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٢٤- ابن عربشاه، أبو العباس، أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي نصر محمد، توفي سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م: عجائب المقدور في أخبار تيمور، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦م.

٢٥- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري، توفي سنة ٢٣٠هـ/١١٣٢م: الطبقات الكبرى، مطبعة التحرير القاهرة، الناشر دار صادر، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٦- ابن سعيد، علي بن سعيد المغربي، توفي سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م: في حلي المغرب والإعتباط في حلي حضرة الفسطاط، تحقيق زكي محمد حسن وآخرين القاهرة، جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣م.

٢٧- ابن شاکر، فخر الدين محمد بن شاکر بن أحمد الکتبی، توفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٩٣م: عيون التواريخ، تحقيق سهيل زكار، دار الكتب العلمية، طبعة ١٩٩٨م.

٢٨- ابن شاکر، فخر الدين محمد بن أحمد الکتبی، توفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٩٣م: فوات الوفيات والزيل عليها، جزءان - بولاق ١٨٩١م، والذيل عليها تحقيق احسان عباس، بيروت ١٩٧٣/١٩٧٤م.

٢٩- ابن شاهين، غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهري، توفي سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، مطبعة الجمهورية، باريس ١٣١٢م/١٨٩٤م.

٣٠- ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم، توفي سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٤م.

٣١- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، توفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٠م: تاريخ الملك الظاهر، تحقيق، أحمد حطيط، فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٩٨٣م.

٣٢- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي الحنفي، توفي سنة ٩٥٣هـ/١٥٦١م: مفاهمة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد أحمد دهان، الطبعة الثانية، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

٣٣- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي، توفي سنة ٧٧هـ/٦٩٦م: البداية والنهاية، دار المعرفة، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٣م.

٣٤- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى، توفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الشام ومصر والحجاز واليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٣٥- ابن فهد: الحافظ أبو الفضل تقي الدين محمد، توفي سنة ٨٧١هـ/١٤٦٦م، لحظ الألاحظ بزيل طبقات الحفاظ، دمشق، ١٩٢٨م.

٣٦- ابن واصل، أبو عبد الله بن محمد بن سالم بن نصر الله المازني التميمي الشافعي الحموي، توفي سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق، جمال الدين الشيال وحسن محمد ربيع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٥٣/١٩٧٧م.

٣٧ - ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد القرشي توفي سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٩م: معالم القرية في أحكام الحسبة، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٣٨ - ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم: الكامل في التاريخ (٩ أجزاء)، بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٨٦م.

٣٩ - ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن علي بن محمد، توفي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٢م: تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق - بدون تاريخ ومكان نشر.

٤٠ - ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيباني، توفي سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تصحيح وتعليق مصطفى جواد، بغداد، المكتبة العربية ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

٤١ - ابن عبد الظاهر، محيي الدين ت ٦٩٢هـ/١٢٩١م، تشریف الأيام والعصور، تحقيق ونشر مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م.

٤٢ - ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحبي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٤٣ - ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ليدن ١٨٢٣هـ/١٢٣٩م.

٤٤ - ابن الوردي، تاريخ بن الوردي - تتمة المختصر في أخبار البشر - دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٦م.

٤٥- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم، عمر بن أحمد بن جبر، توفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٣م، بغية الطلب بتاريخ حلب، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨م .

٤٦- ابن منقذ، أسامة بن رشد الشيزري الكناني مؤيد الدولة أبا المظفر، توفي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٦م: الإعتبار، تحقيق وإعداد وترتيب فيليب حتى، مطبعة الدار المتحدة، بيروت، ١٩٨١م.

٤٧- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي، توفي سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٨م: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الناشر دار الأندلس الخضراء (جدة)، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٤٨- أبوشامة: الذيل علي الروضتين، تحقيق عزت العطار، بعنوان تراجم القرنين السادس والسابع الهجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٤٧م.

٤٩- أبو الفداء، اسماعيل بن علي بن عماد الدين: توفي سنة ٧٣٢هـ/١٢٣٢م: المختصر في أخبار البشر، بيروت دار المعرفة، بدون تاريخ.

٥٠- أبو الفداء: تقويم البلدان المصرية ، تحقيق مستشرقين فرنسيين، دار صادر، بيروت ١٨٥٠م.

٥١- الدوادار، بيبرس المنصوري توفي سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م: زبدة الفكره في تاريخ الهجره، تحقيق زبيده محمد عطا، عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، بدون تاريخ.

٥٢- زترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، من ٦٩٠هـ/٧٤١هـ - ١٣٤١/١٢٨٩م، لم يعلم مؤلفة وربما كان معاصراً للناصر محمد بن قلاوون، ليدن/١٩١٩م.

٥٣- شيخ الربوة، الدمشقي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي، توفي عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٥٤- الأدفوي، كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب، توفي سنة ٧٤٨هـ/١٤٤٥م: الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩١٤م.

٥٥- الأسنوي، جمال الدين، محمد عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر بن علي، سيد إبراهيم، الأموي الأسنوي المصري: طبقات الشافعية، حققه عبد الله الجبوري، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٧٠م.

٥٦- الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، توفي سنة ٨٧٦هـ/١٤١٧م: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق سميحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٦م.

٥٧- الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطيف: المقصد الرفيع المنشأ، الحاوي علي صناعة الإنشاء، مخطوط مصور بجامعة القاهرة، رقم ٤٢٠٥٤.

٥٨- الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان، توفي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٨م.

٥٩- الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد: ومحبي هلال، الطبعة السابعة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٠م.

٦٠- الذهبي، تذكرة الحفاظ، دراسة وتحقيق، زكريا عميرات، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٦١- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركليّ الدمشقي كاتب سوري وهو مؤرخ وشاعر، ولد في ١٨٩٣م، في بيروت: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٩٢م.

٦٢- السبكي، تاج الدين ابي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، توفي سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، ١٠ أجزاء، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٧٦م.

٦٣- السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، وأبو زيد شلبي، ومحمد أبو العينين، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٨م.

٦٤- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر شمس الدين أبو الخير، توفي سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٨م: التبر المسبوك علي زيل السلوك، تحقيق نجوى مصطفى كامل وليبية إبراهيم، مراجعة سعيد عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٦٥- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٥هـ/ ١٩٥٦م.

٦٦- السخاوي، الذيل على رفع الإصر، أو بغية العلماء والرواة، تحقيق جودة هلال، ومحمد محمود صبح، مراجعة علي البجاوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.

٦٧- السخاوي، تحفة الأحباب وبغية الأصحاب في الخطط والمزارات و التراجم والبقاع المباركات: صححه حسن قاسم، ومحمود ربيع، مكتبة العلوم للأدب والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٣٧م.

٦٨- السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، توفي سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الدولة، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م.

٦٩- السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٧م.

٧٠- السيوطي: بغية الوعاة في طبقات النحويين والنحاة، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م.

٧١- السيوطي: إتمام الدراية لقراء النقاية، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٧٢- الشربيني، يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر: هز القحوف في شرح قصيدة أبي الشدوف، المطبعة الأميرية بولاق الطبعة الثانية ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م.

٧٣- الشعراني، أبو المواهب، عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري، توفي سنة ٩٧٣هـ/١٥٦٥م: لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار - جزاءان - القاهرة ١٢٩٨م/١٨٨١م، وذيّل لوائح الأنوار القدسية في طبقات العلماء الصوفية، دار الكتب المصرية، القاهرة رقم ٤٩٣.

٧٤- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك توفي سنة ٦٧٣هـ/١٣٦٧م: أعيان العصر وأعوان النصر، مكتبة السليمانية، مجموعة عاطف أفندي، رقم ١٨٠٩، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٧٥- الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق، هلموت ريتز وآخرون، فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٣٨١هـ-١٤١٦هـ/١٩٦١-١٩٩٦م.

٧٦- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، توفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٤م: صبح الأعشي في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن المطبعة الأميرية، بلا تاريخ.

٧٧- القلقشندي: أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق محمد أمين، بغداد ٨٢٨هـ/١٤٢٥م.

٧٨- العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله، توفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط أحمد الثالث، طوبقا بوسراي، رقم ٢/٢٧٩٧ و ٣/٢٧٩٧.

٧٩- العيني، بدر الدين محمود العيني توفي سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق، عبد الرازق القرموط، مطبعة الزهراء للإعلام العربي، ط١، القاهرة ١٩٨٩م.

٨٠- العيني: السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد، تحقيق، فهمي محمد شلتوت، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٦/١٩٦٧م.

٨١- الماوردي، علي بن محمد، المتوفي سنة ٤٥٠هـ/١٠٨٥م: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الطبعة الأولى دار الفكر، الكويت ١٩٨٩م.

- ٨٢- المقريري، أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ٢، تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٥٨م، ج ٣، ٤، تحقيق سعيد عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٧٠/١٩٧٣م.
- ٨٣- المقريري: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - طبعة بولاق - القاهرة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م.
- ٨٤- المقريري: البيان و الإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧م.
- ٨٥- المقريري: إغاثة الأمة بكشف الغم - تحقيق محمد مصطفى زيادة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٤/١٩٥٨م، وحقق المجلدين الثالث والرابع سعيد عبد الفتاح عاشور، مركز تحقيق التراث، القاهرة ١٩٧٠/١٩٧٣م.
- ٨٦- المقريري: المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، طبعة دار المغرب الإسلامي دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٩١م.
- ٨٧- المقريري: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، مطبعة دار الغرب الإسلامي - الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٢م.
- ٨٨- النابلسي، ابن عثمان النابلسي الصفدي الشافعي: تاريخ الفيوم، ٤ مجلدات - المطبعة الأهلية، القاهرة ١٩٨٣هـ/٢٠٠٢م.
- ٨٩- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري المتوفي، ٧٣٣هـ/١٣٣٣م: نهاية الأرب في فنون الأدب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - تحقيق محمد ضياء الدين الرئيس ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

٩٠- النويري، محمد بن القاسم: توفي سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٢م، الإمام فيما جرت به الأحكام والأمور المفضية في واقعة الإسكندرية، تحقيق د.سوريال عطية من مخطوطة برلين وبانكي بور، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٩١- النعيمي، عبد القادر: توفي سنة ٩٢٧هـ/١٥٢٠م، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسين، المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٤٨م.

٩٢- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى: توفي ٧٥٩هـ/١٣٥٨م، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق، أحمد حطيط، ط ١، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦م.

ثانياً: المراجع:-

١- إبراهيم أحمد نور الدين: حياة السيد البدوي- دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٨م.

٢- إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨م.

٣- إبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٠م.

٤- أحمد شلبي (دكتور): موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م.

٥- أحمد حطيط: قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري الفترة من ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، إلى ٩٢٣هـ/١٥١٧م، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦م.

- ٦- أحمد صادق الجمال: الأدب العامي في مصر العصر المملوكي، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ٧- أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، الطبعة الثانية، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ / ١٩٨٢م.
- ٨- أحمد، عيسى: معجم الأطباء، الطبعة الثانية، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٢م.
- ٩- أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك وقيام دولة المماليك الأولى في مصر، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦م.
- ١٠- أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها - دار المعارف - القاهرة ١٩٦٥/١٩٦٩م.
- ١١- أمينة محمد جمال الدين: النويري وكتابه نهاية الأرب، دار ثابت للنشر والتوزيع - القاهرة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- ١٢- الباز العريني: الأيوبيين، الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٧م.
- ١٣- الباز العريني: المماليك. الجزء الثاني، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٧م.
- ١٤- البقلي، محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣م.
- ١٥- جرجي زيدان: تاريخ أدب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٣م.

١٦- جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر - والشام، دار النهضة، بيروت ١٩٨١م.

١٧- حامد زيان غانم (دكتور): الأزمات الاقتصادية في مصر عصر سلاطين المماليك - المكتبة العالمية، القاهرة ١٩٧٦م.

١٨- حسن إبراهيم حسن (دكتور): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط٩، القاهرة ١٩٧٩م.

١٩- حسن السندوبي: تاريخ الإحتفال بالمولد النبوي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٦٦-١٩٤٧م.

٢٠- حسن أحمد عبد الجليل البطاوي (دكتور): أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

٢١- حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٨م.

٢٢- حسن الباشا: الفنون الإسلامية و الوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٣- حياة ناصر الحجي: أحوال العامة في حكم المماليك، دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مطبعة لجنة التعريب، الطبعة الأولى - الكويت، ١٩٩٧م.

٢٤- حياة ناصر الحجي: صور من الحضارة العربية والإسلامية في دولة المماليك، مطبعة دار القلم للنشر والتوزيع - الكويت، ١٩٩٢م.

٢٥- خليفة- حاجي، كشف الظنون عن أسامي الأدب والفنون- دار الفكر، بيروت ١٩٩٠م.

٢٦- سحر السيد عبد العزيز سالم(دكتورة): دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٩م.

٢٧- سعاد ماهر: قباب مصر وأولياؤها الصالحون - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٧١م- ١٩٨٣م.

٢٨- سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الإيوبيين والمماليك، دار النهضة، بيروت، بلا تاريخ.

٢٩- سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة المصرية ١٩٩٢م.

٣٠- سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م.

٣١- سيدة اسماعيل الكاشف، أحمد بن طولون- سلسلة أعلام العرب- المؤسسة المصرية للتأليف- القاهرة (بدون تاريخ).

٣٢- سالم: سيد عبد العزيز(دكتور)، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة ثقافته الجامعيه، الإسكندرية ١٩٦٨م.

٣٣- شاكِر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون- لبنان، دار العلم للملايين- ١٩٩٠م.

٣٤- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والأمارات - مصر والشام- دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م.

٣٥- صفي علي محمد: الحركة العلمية الادبية في الفسطاط، سلسلة تاريخ المصريين- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م.

٣٦- زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، جزءان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٣١م.

٣٧- زكي محمد حسن: فنون الإسلام، دار الرائد العربي، القاهرة، ١٩٨١م.

٣٨- العمري أكرم ضياء العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق، سمير الدروبي، جامعة مؤتة، الأردن، ١٩٩٢م.

٣٩- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الاجتماعية ١٩٩٤م.

٤٠- قاسم عبده: أهل الذمة في مصر من العهد الإسلامي حتى نهاية المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣م.

٤١- قاسم عبده: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٤م.

٤٢- قاسم عبده: الأيوبيين والمماليك، التاريخ السياسي والعسكري، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة ١٩٩٥م.

٤٣- زقلمة: أنور، المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، ط١، نسخة مصورة جامعة القاهرة سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٤٤- عبد الرحمن الرافعي: ١٨٨٩/١٩٦٦ مصر في العصور الوسطى، من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٠م.

- ٤٥- عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك - تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور؛ جامعة القاهرة - كلية الآداب - ١٩٧٥ م.
- ٤٦- عبد اللطيف حمزه: الحركة الفكرية في مصر العصريين الأيوبي والمملوكي الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٩ م.
- ٤٧- عثمان علي عطا: مجالس الشوري في عصر سلاطين المماليك - الدار الثقافية للنشر، القاهرة ٢٠٠٨ م.
- ٤٨- علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية - مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٤ م.
- ٤٩- علاء طه رزق: دراسات في تاريخ عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م.
- ٥٠- عبد المنعم ماجد: دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ.
- ٥١- علي حسن حبيبة (دكتور): الحروب الصليبية، طبعة مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٩ م.
- ٥٢- علي سالم النباهين: نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك - دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٠ م.
- ٥٣- عبد الله عبد الظاهر الكاتب: الألفاظ الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية - ليبسك ١٩٠٢ م.
- ٥٤- عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغوري - القاهرة ١٩٤١ م.

٥٥- كمال السمرائي : مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال للطباعة والنشر
بيروت ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٥٦- كامل، مصطفى الشيبلي: العلاقة بين التصوف والتشيع، دار الأندلس للطباعة
والتوزيع ١/١/١٩٨٢م.

٥٧- محجوب زياده: الإسلام في السودان - سلسلة إقرأ ، ٢٠٨ (دار المعارف)
مصر، القاهرة ١٩٦٠م.

٥٨- محمد أبو زهرة: الشافعي حياته وعصره - دار الفكر العربي، القاهرة،
١٩٧٨م.

٥٩- محمد حمزة اسماعيل: العلاقة بين المنصب التأسيسي والوظيفة في التخطيط
المعماري للمدرسة - بحث منشور ضمن ندوة المدارس في مصر، القاهرة
١٩٨٣م.

٦٠- محمد سهيل طقوش(دكتور): تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار
النفائس، ط١، سنة ١٩٩٩م.

٦١- محمد كمال الدين عز الدين: الحركة العلمية في مصر، في دولة المماليك
الجراكسة، عوامل ازدهارها، مراكزها، سماتها ،عالم الكتب للطباعة والنشر
والتوزيع ١٩٩٠م.

٦٢- محمد مصطفى زياده: لويس التاسع وهزيمته في المنصورة، المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٦٣- محمد عبد الله عنان: تاريخ الجامع الأزهر؛ مؤسسة الخانجي، القاهرة
١٩٥٨م.

٦٤- مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ط٢. دمشق، بيروت
١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٦٥- محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي،
القاهرة، بدون تاريخ).

٦٦- محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي - دار المعارف - القاهرة
١٩٧٨م.

٦٧- محمد محمد الأمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر،
١٢٥٠-١٥١٧م، دراسة تاريخية وثائقية- القاهرة، دار النهضة
العربية، ١٩٨٠م، ووثائق وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون على البيمارستان
المنصوري - دراسة ونشر وتحقيق- كلية الآداب؛ جامعة القاهرة - من تذكرة
النبه لابن حبيب الحلبي، ١٩٧٦م.

٦٨- محمود رزق سليم: موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.

٦٩- محمود رزق سليم: الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين
والعصر الحديث، دار الكتاب، القاهرة، ١٣٧٧ / ١٩٥٧م.

٧٠- محمود الريدائي، ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً، طبعة دار قتيبة،
القاهرة، ١٩٨٢م.

٧١- مكرم عبد الجواد عبد الحميد عبد الحي: الطب والأطباء في مصر خلال
عصر سلاطين المماليك - مكتبة الآداب - جامعة القاهرة ٢٠٠٩م.

٧٢- ناصر خسرو: سفر نامه - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.

٧٣- نبيل محمد عبد العزيز: الخيل ورياضتها، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٦م.

٧٤- نبيل أبو علي: البوصيري شاهد علي العصر المملوكي، الطبعة الرابعة، دار المقداد للطباعة، غزة ٢٠٠٥م.

ثالثاً: الوثائق والرسائل والدوريات:

١- إبراهيم المزيني، المدارس الطبية المتخصصة في الحضارة الإسلامية، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثالث عشر (ذو القعدة/ ١٤١٥هـ).

٢- سمير الدروبي: "منهجية المسلمين في الترجمة في العصر العباسي"، مجلة ترجمان، جامعة عبد المالك السعدي، ١٩٩٩م.

٣- شوقي ضيف، عن هذا العصر، في مجلة "المجلة" المصرية عدد شباط، سنة ١٩٦٧م.

٤- اسماعيل علي، معاهد التربية الإسلامية دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٨٦م، القاهرة ١٩٨٣٩م.

٥- عبد اللطيف إبراهيم علي: دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المماليك، رسالة لم تطبع، المجلد الأول، جامعة القاهرة ٢٠٠٣م.

٦- محمد كامل حسين: التشيع في الشعر المصري عصر الأيوبيين والمماليك، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد الخامس عشر الجزء الأول ١٩٥٣م.

٧- وثيقة وقف برسباي، ورقة ٢، مخطوطة دار الكتب المصري، رقم ٣٣٩٠

٨- وثيقة وقف الأمير منجك اليوسفي: جمال الدين يوسف الأستاذار، نشرها محمد محمد أمين، ملحق كتاب تزكرة النبيه، لابن حبيب، القاهرة ١٩٨٦م.

٩- أحمد محمود محمد إبراهيم: الدور السياسي والحضاري للصوفية في مصر
زمن المماليك، رسالة ماجستير، قسم التاريخ الإسلامي، جامعة القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٠- أحمد عبد الفتاح إسماعيل: رسالة دكتوراه عن التأليف والترجمة، جامعة
القاهرة، ٢٠٠٠م.

١١- سهير القلاموي ت ١٩٩٧م: ألف ليلة وليلة رسالة دكتوراه- جامعة القاهرة،
١٩٤٣م.

رابعاً المعاجم

١- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي المصري: لسان
العرب، ١٠ مجلدات، دار بيروت للطباعة ١٩٥٥م.

٢- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، توفي سنة
٨١٧هـ/١٤١٥م، القاموس المحيط، بيروت، دار الفكر، ١٤١٣هـ/١٩٨٣م.

٣- لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والأعلام، المطبعة الكاثولوكية،
بيروت، ط ٢، ١٩٢٧م .

٤- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، رتبته محمود
خاطر، الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

٥- ياقوت، محمد عبد الله الحموي الرومي: معجم البلدان، مطبعة السعادة،
القاهرة، ١٣٢٤هـ/١٩٣٤م

خامساً: المصادر المترجمة

١- دورزي، رينهارت: تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي، بغداد،
ط ١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٢- ديماند: الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، دار المعارف المصرية، ١٩٥٤م.

٣- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٠م.

٤- غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٩م.

٥- سير توماس ارنولد: الدعوة إلى الإسلام- ترجمة وتعليق، د. حسن إبراهيم حسن د. عبد المجيد عابدين، ود. إسماعيل النحراوي، الناشر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة ١٩٧١م.

٦- سير وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة صالح الشيتي، تقديم عبد الرحمن فهمي محمد. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.

٧- اسرائيل، ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد، مصر، ط١، بدون تاريخ.

٨- ماير: ل. أ، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمي محمد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.

٩- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي القسم السادس، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.

١٠- هايد، ف: تاريخ التجاره في الشرق الادني في العصور الوسطى، عربيه من الترجمة الفرنسية، أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٨٤/١٩٨٥م.

- 1- Stanley Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages 1976
- 2- Arnold: The caliphate - Oxford -1964.
- 3- Subhi Labib op، 1969)، "Capitalism in Medieval Islam، the Journal of Economic History، Vol. 29، No. 1. (1969)
- 4- Abraham.N. Poliak Feudalism in Egypt، Syria، Palestine،and the Lebanon، 1250-1900.
- 5-Poliak، Some Notes on the Equal system of the Mamleeks" the Journal of the Royal Asiatic Society 1986 Oxeord،1972.
- 6- Ashtor Eliyahu Ashtor: Kabie .HM .The Financial system of Egypt.
- 7- A social and economic history of the Near East in the Middle ages، London،1976.
- 8-William Barron Stevenson c.1165 - 1221: The Crusades 1968
wars of the East: a brief history of Islam
- 9- Philip Khûri Hitti ،1996.، The history of the Arabs (London 1940).
- 10- Francesco Suriano. Treatise on the Holy Land (Jerusalem Press، 1949، reprint 1983.

الرقم	الموضوعات	الصفحة
١.	الآية	أ
٢.	الإهداء	ب
٣.	الشكر	ت
٤.	المقدمة	ج ف
٥.	الفصل الأول	
٦.	التعريف بدولة الممالك سياسياً	١
٧.	أوطان الممالك	٦
٨.	علاقة الممالك بالمغول	١٩
٩.	موقعة عين جالوت	٢١
١٠.	علاقة الممالك بالصليبيين	٢٤
١١.	دور العلماء في الحياة السياسية	٣١
١٢.	الفصل الثاني	
١٣.	ملاح من الحياة الاجتماعية للعلماء والديوانيين	
١٤.	زي أهل العلم وألقابهم	٤٠
١٥.	الألقاب	٤٩
١٦.	أهم ألقاب رجال الدين	٥٠
١٧.	أهم ألقاب الموظفين والديوانيين	٥٢

٥٤	أوضاع العلماء المعيشية	١٨.
٦١	سكن العلماء	١٩.
٦٥	حياة العائلة	٢٠.
٦٨	تعدد الزوجات	٢١.
٦٩	الدور العلمي والاجتماعي لنساء وبنات العلماء	٢٢.
٧٠	تقويم عام لحياة العلماء والديوانيين	٢٣.
	الفصل الثالث	٢٤.
	أسباب ازدهار العلوم في دولة المماليك	٢٥.
٨١	انتقال العلماء من بغداد إلى القاهرة	٢٦.
٨٣	علاقة السلاطين والأمراء بالعلماء	٢٧.
٩٦-٨٧	انشاء المؤسسات العلمية ورصد الأوقاف عليها	٢٨.
٩٧	ازدهار حركة التأليف	٢٩.
٩٩	خزائن الكتب	٣٠.
١٠٠	ازدهار حركة الترجمة	٣١.
١٠٥	المهندارية	٣٢.
١٠٧	القناصل	٣٣.
١١١-١٠٩	ديوان الإنشاء	٣٤.

١١٣	الكتابة الإنشائية	٣٥.
١٢٥	التدوين التاريخي	٣٦.
١٣٠	الشعر	٣٧.
١٣٤	الرثاء	٣٨.
	الفصل الرابع	٣٩.
	العلوم النقلية	٤٠.
١٣٦	الحياة الدينية	٤١.
١٣٩	الخلافة العباسية	٤٢.
١٤٠-١٥٥	دور المساجد والجوامع	٤٣.
١٥٦-١٦٣	التصوف	٤٤.
١٦٤-١٧١	الطوائف الدينية	٤٥.
١٧٢-١٨٢	ثراء اللغة العربية ومرونة تداولها	٤٦.
	الفصل الخامس	٤٧.
	العلوم العقلية	٤٨.
١٨٣-٢٠٥	الطب والأطباء	٤٩.
٢٠٦-٢٢٠	فن العمارة	٥٠.

٢٤٤-٢٣٧	٥٢	أثر الحياة العلمية في النظام الإداري والاقتصادي
٢٥٣-٢٤٥	٥٣	النظم الإدارية
٢٧٤-٢٥٤	٥٤	النظام العسكري
	٥٥	النظام القضائي
٢٨٢-٢٧٥	٥٦	نظام الإقطاع الزراعي
٢٩٤-٢٨٣	٥٧	النشاط الاقتصادي
٢٩٦	٥٨	الخاتمة
٢٩٩	٥٩	التوصيات
٣٠١	٦٠	الخلاصة باللغة العربية
٣٠٤	٦١	الخلاصة باللغة الإنجليزية
٣٦٦-٣٠٧	٦٢	الملاحق
٣٩٠-٣٦٧	٦٣	ثبت المصادر والمراجع
٣٩٤-٣٩١	٦٤	المحتويات

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿البقرة/ ٢٨٦﴾

صدق الله العظيم

مستخلص البحث

أردت من مستخلص البحث أن يكون إشارات تبيّن للقارئ معالم الأطروحة وتعكس أوجه الحياة العلمية لدولة المماليك البحرية.

فقد إمتازت الحياة العلمية في عهد المماليك بأمرين مهمين:-

الحفاظ على التراث الإسلامي من هجمات المغول والإرتقاء بالعلم والمعرفة والذوق في تجديد كافة أوجه النشاط العلمي.

جاء الفصل الأول مشتملاً على ما كان عليه الوضع قبل قيام دولة المماليك، ثم على التعريف بمصطلح المماليك وأوضاعهم السياسية والعسكرية.

أما الفصل الثاني فقد إشتمل على البناء الإجتماعي لعلماء المماليك وأسباب النمو السكاني في بداية عصرهم، والتمايز الطبقي بين المماليك والسكان الأصليين، وأبرز ملامح الحياة الإجتماعية للعلماء والديوانيين.

في الفصل الثالث سلطت الضوء على أهم العوامل التي أدت إلى إزدهار الحياة العلمية والتي كان من بينها إهتمام السلاطين والأمراء بدور العلم، وإنتقال العلماء من بغداد إلى القاهرة، ورصد الأوقاف على مؤسسات التعليم.

وفي الفصل الرابع تعرض البحث لثراء العلوم العقلية، ودور الخلافة العباسية بإعتبارها رمزاً للشرعية الدينية وإمارة للمؤمنين، وأكد البحث على دور اللغة العربية ومرونتها.

تناول الفصل الخامس العلوم العقلية وما تضمنته من إنتاج علمي في كافة المجالات التطبيقية، كالطب وعلومه، بالإضافة إلى فن العمارة والزخارف الإسلامية، فقد إهتم المماليك بالجوانب الحضارية من بناء للمدارس والمساجد

والعمائر، حتى أصبح فن العمارة على أيديهم إسلامياً خالصاً يستقي قواعده من العلوم الإسلامية وأصول الشرع. ففن بناء البيوت مثلاً، على عهدهم إنطلق من مبدأ منع الإختلاط، والغيرة على النساء.

خصص الفصل السادس لدراسة أثر الحياة العلمية على الجوانب الإقتصادية والإدارية، لكونها تمثل النظام العام للدولة. وتشكل أوضاع أرباب الأقلام والسيوف، حيث تناول البحث الوزارة وشاغلي الوظائف الديوانية، والتطور الإداري في مجال مسح الأرض وزراعتها ووارداتها وأنفاقها، ووسائل النقل والمواصلات وأثرها.

وخلصت الدراسة إلى أن العلماء لعبوا دوراً مهماً في تشكيل الأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية والإدارية بالإضافة إلى جهودهم العلمية الكبيرة.